

المبتلى وشوقه

دراسة ونقد وموازنة

تأليف

عيسى حسن

أستاذ المساعد بكلية دارالعلوم جامعة فواد الأول

الطبعة الأولى

١٣٧٠ هـ - ١٩٥١ م

حقوق الطبع محفوظة

الاهداء



أمير الشعراء أحمد شوقي بك
(١٨٦٨ — ١٩٣٢ م)



المتنبي (كما تخيله بعض الأدباء)
(٣٠٣ — ٣٥٤ هـ)

لى أكبر شاعرَين عرفتهما العروبة ، وسجل التاريخ الأدبى اسمهما
فى صحف الخالدين .

إلى : « المتنبي » الذى يصف نفسه بقوله (مخاطبا سيف الدولة) :

وَمَا الدَّهْرُ إِلَّا مِنْ رُؤَاةٍ فَلَانِدَى إِذَا قُلْتُ شِعْرًا أَصْبَحَ الدَّهْرُ مُنْشِدَا
فَسَارَ بِهِ مَنْ لَا يَسِيرُ ، مُشَمِّرًا وَغَنَى بِهِ مَنْ لَا يُغْنَى ، مُغَرِّدَا
أَجْزَنِي إِذَا أَنْشَدْتَ شِعْرًا ؛ فَإِنَّمَا بِشِعْرِى أَتَاكَ الْمَادِحُونَ مُرَدِّدَا
وَدَعَّ كُلَّ صَوْتٍ بَعْدَ صَوْتِي ؛ فَإِنِّى أَنَا الصَّاحُّ الْمَحْكِيُّ ، وَالْآخِرُ الصَّدَى

وإلى : « شوقي » الذى يصف فيه حين يصف فنَّ « شكسبير » بقوله :

شِعْرٌ مِنَ النَّسَقِ الْأَعْلَى ، يُؤَيِّدُهُ مِنْ جَانِبِ اللَّهِ إِلَهَامٌ وَإِيحَاءُ
مِنْ كُلِّ بَيْتٍ كَأَيِّ اللَّهِ ؛ تَسْكُنُهُ حَقِيقَةٌ مِنْ خَيَالِ الشَّعْرِ غَرَاءُ
وَكُلُّ مَعْنَى كَمِيسَى فِي تَفَرُّدِهِ جَاءَتْ بِهِ مِنْ بَنَاتِ الشَّعْرِ عَذْرَاءُ
وَقِصَّةٌ كَكِتَابِ الدَّهْرِ جَامِعَةٌ كِلَاهُمَا فِيهِ إِضْحَاكٌ ، وَإِبْكَاءُ

أحمد الله أزكى الحمد ، وأصلى على رسوله أطيب الصلاة ، وأدعو بخير لمن
جاهد في سبيل الحق ، وعمل على تأييده .

وبعد ؛ فقد أتاحت لي الفرص البارة أن أقرأ كثيراً من الشعر العربي
قديمه وحديثه ، وأتابع (أدب الضاد) في حاضره وماضيه ، وأتملى روائعه في أناة ،
ورغبة ، واستقصاء .

وكان طبيعياً^(١) أن تختلف وقفاتي أمام الشعراء طويلاً وقصراً ، وتباين آرائي
فيهم رضاً وسخطاً . لكن فيهم من أغرائني بإطالة الوقوف معه ، وانتزاع
الإعجاب القوي بفنه . وفي مقدمة هؤلاء : (المتنبي) و (شوقي) ؛ فقد حماني الأول
على مصاحبته طويلاً ، وإدامة النظر في شعره ؛ فرأيتني أمام شاعر جبار ؛
أعترف له بالعظمة والسبق ، ولكنني أنكر إمارته العامة على الشعراء الذين
عاصروه أو سبقوه . وتلطف الثاني ؛ فحبب إليّ مصادقته في ديوانه ، ومتابعته
في نثره ، وقصصه ، وسائر طرائفه ؛ فاستهواني . ولم أكد أستخلص نفسي من
فتنته ، حتى رفعت الصوت جهرة بأنه : « شاعر العربية الأكبر ، وأمير
بيانها المجلى » .

ولست في هذا الرأي مسرفاً ولا متعجباً ؛ فقد سبقني إلى تقريره والجلوس به

(١) النسبة إلى طبيعة : طبيعي ، وطبيعي .

وفود البلاد العربية التي اجتمعت بالقاهرة^(١) ، في مؤتمر حافظ لم يسرف التاريخ له مثيلاً ؛ أعلنت فيه إمارة شوقي الأدبية ، وبايعته بالزعامة على شعراء عصره جميعاً ، وسجلت له اللقب الأسمى الذي كان يلقب به قبل المبايعة الرسمية العامة . على أن هؤلاء حين قصروا إمارته على شعراء عصره ، وأدباء زمانه — غطوه قدره ، وأساءوا إليه بهذا التعديد ؛ فالذي أدين به — وأريد اليوم إعلانه وتأييده — أن (شوقي) شاعر العربية كلها ؛ حاضرها ، وماضيها ، قديمها الغابر ، وحديثها القائم . أما مستقبلها فغيب لا يعلمه إلا الله .

ولو أن سائلاً طلب إلى أن أرشده إلى شاعر عربي يستغنى به عن غيره ، ويكتفى بشعره عن كل شعر — ما ترددت أن أرشده (لشوقي) . وله جاز لبعض المثقفين والطلاب — ممن ضاق وقتهم ، عجزت وسائلهم — أن يقتصروا على شاعر عربي واحد ما كان غير شوقي .

وأود بهذه المناسبة أن أشير إلى أمرين جليلين :

أولهما : أن تفرّد شوقي بالزعامة الأدبية ليس معناه التفرد بالمزايا الأدبية كلها ؛ فإن هذا التفرد لم يهباً لأحد قط . وليس معناه التنزه عن العيب الفني ، والبرادة من الزلل ؛ فالعصمة الفنية أو ما يشبه العصمة لم توهب لأديب . ولكن معناه أنه جمع من المزايا الأدبية العالية ما لم يجمعه غيره من أدباء لغته ، وسلم من أدران كثيرة لم يسلم أحدهم منها ؛ فهو — بما اجتمع له ، وسلم منه — قد أدرك من الوسائل ما جملة أثيراً بالإمارة ، فريداً في مكان الصدارة .

(١) في آخر شوال سنة ١٣٤٥هـ وآخر إبريل سنة ١٩٢٧م ، فقد اجتمعت تلك الوفود بدار الأوبرا الملكية بالقاهرة ، وأقامت مهرجاناً أدبياً فريداً ؛ لم تشهده البلاد ، ولم يعرفه الأدب العربي من قبل . واستمر أسبوعاً كاملاً ، أعلنت فيه إمارة شوقي على أدباء عصره في البلاد العربية كلها .

وثانيهما : أن هذا اللقب السابع الذي أضفينا عليه ليس إلا دعوى كسائر
الدعوى ؛ لا تصح إلا بحجة قوية ، وبرهان مبين . وهذا ما أكلف نفسي أداءه
اليوم ، والقيام بأعبائه . وستكون حجتي فيسه مستمدة من المقاييس العربية
الخالصة ، وخطوط النقد الأدبي : ومعايير البلاغة التي دونها الثقات من أعلام
العربية دون سواهم ؛ فليس من العدل حين أتكلم من شعراء العربية ، وأوازن
بين القدامى منهم والمحدثين — أن أستوحي الأحكام عليهم من مقاييس لم
يعرفوها ، وأمل الكثير منها لم يظهر إلا بعد أن ماتوا ، واحتوتهم الأرض
في ثناياها .

وشئ آخر ؛ فقد كنت أريد أن أسلك في البحث مسلكاً جديداً ؛ أزعج
أنه أهدي المسالك ، وأقربها إلى تحقيق الغاية في ثقة ، وأمن ، ووضوح ؛ وذلك
بحقد موازنة فنية دقيقة بين (شوقي) وكل شاعر كبير عاصر أو سبقه ؛ كي
يكون البحث وافياً ، ويحجى الحكم صحيحاً قاطعاً . واسكني لم أستطع تحقيق
هذه الأمنية ؛ إذ رأيتها فوق جهد الفرد ، وأوسع من فسحة الأجل ؛ فعدلت
عنها — مضطراً — إلى أخرى قد تشبهها في مزاياها ، وتخلو من قصورها
وإغفاتها ؛ تلك هي تقسيم المصور الأدبية قسمين ، حاضراً وسالفاً ، وإثبات
الزعامة لشوقي في كل منهما .

فأما إثباتها في العصر الحديث فقد كفاني مؤنته ذلك المؤثر التاريخي العظيم
الذي أشرت إليه^(١)

وأما إثباتها فيما قبله من العصور فسبيلي إليه أن أستثنى عن التعميم بالتخصيص الذى يفيد فائدته ، وأتحوّض عن التقصّى الكامل بالإجمال الذى يغنى غناؤه ؛ فأوازن بين شوقى وأكبر شاعر عربى شهد له السابقون بالإمارة ، واعتزف له التاريخ — أو كاد — بأنه زعيم الشعراء فى عصره وقبل عصره ؛ فكأنه فرد يمثل طائفة ، أو طائفة تمثل فى فرد ، أو شاعر تتركز فيه مزايا الشعراء جميعاً ، ويحمل راية الزعامة عنهم .

اطمأنت نفسى لهذا رأى ، ومِلْتُ إلى المراجع الأدبية أستلهمها ذلك الشاعر الأكبر ، وأسألها عنه ؛ فأشارت إلى أمراء كثيرين ، فى عصور مختلفة ؛ نالوا من الشهرة ، وذبوع الصيت أوفى نصيب . ولكن واحداً منهم لم يفرد بتاج الزعامة كما انفرد به شوقى فى عصرنا الحديث .

أشارت إلى امرئ القيس ، والناطقة ، وزهير ، فى الجاهلية . وإلى حسان ، وجريز ، والفرزدق ، فى صدر الإسلام . وإلى أبى تمام ، والمتنبى ، والمعرى ، فى الدولة العباسية . وليس بين هؤلاء جميعاً ولا معاصريهم من تفرد بالإمارة الإجماعية كما تفرد بها شوقى ، وليس فى المتأخرين بمد المعرى من فاز بها ، أو فاز بأن يكون فى عداد الشعراء السابقين . اللهم إلا شوقى .

بيد أنى رأيت المتنبى — برغم مساويه — أعلى الجميع مكانة ، وأكثرهم شيعة ، وأقربهم من الصدارة منزلة ؛ إن لم يظفر بها حقاً فكأن قد ، وإن لم يصرحوا بإمارته فقد صرحوا بأنه آخر الشعراء^(١) . بل إن شوقى — نفسه — خصه بإعجابه^(٢)

(١) انظر صفحة ٨ وما بعدها . (٢) فى صدر الصفحة الأولى من أهرام

وتقديره ، واعترف بفضل علميه . لهذا تخيرته ، وبادرت بعقد الموازنة بينه وبين شوقي الذي جاد به الزمان أخيراً . وكأني بهذا أعقدها بين شوقي وشعراء العربية جميعاً ؛ ممثلة في النائب عنهم ، الجامع للكثير من مزاياهم .

وبهذه الموازنة أصيب في وقت واحد هدفين نفيسين ؛ هما : إثبات الدعوى التي أتصدى لإثباتها ، والدراسة الوافية لأكبر شاعرين دراسة فنية تسيرها الموازنة التطبيقية التي توضح المحاسن ، وتبرز العيوب ، وتجلى الحقائق ، وتعرض المعنوى في مظاهر الحسوس ، وتميز الأشياء بضدها ، وتبين قيمتها الحقة بنظائرها .

والدراسة على هذا الوجه تجمع بين مزايا الدراسة الفردية والجمعية ، وتنظم محاسنها مما ، وتتوق مساويهما ؛ ومن ثم كانت دراسة شوقي دراسة أساسها المماثلة والتنظير أنفع في تبين قدره ، وإظهار حقيقته . من تلك الدراسة الفردية التي تقتصر عليه دون مقابلة أو مقايسة . وهذا يقتضي أن تكون مقاييس الحكم وضوابط النقد ، ومعايير البلاغة عربية خالصة - كما سبق - فمن الظلم أن نأخذ الشعراء السابقين ، أو من ينوب عنهم - كالمثني - بمقاييس لم يعرفوها ، وأن نحكم إلى المقاييس الأجنبية في شأنهم . ومن الظلم (لشوقي) أن نخضعه لهذه المقاييس الغربية أيضاً ؛ فإننا لم ننصبه أميراً للشعراء عامة ؛ عرب وغير عرب ، ولم نفقد له الزعامة على أدباء « الضاد » وغيرهم ، وإنما قصرنا ولايته على أبناء العروبة ، الفاشئين نشأته ، الناطقين لغته ؛ سواء أكانوا معاصرين أم سابقين . ونحن الآن نوازن بينه وبينهم ؛ فننطق الحق يقضى أن يكون الميزان عربياً خالصاً .

ومن آثار هذه الطريقة أنها تزيل شبهة الذين يزعمون الموازنة لاتكون إلا بين أهل العصر الواحد ، والبيئة المتشابهة ، ولا تقع إلا بين من اتحدت أوصافهم

زمانا ، ومكانا ، وسلاسات ؛ فذلك وهم قائل^(١) ؛ إذ لاخير من الموازنة بين من
اختلفت أخوالهم وبيئاتهم ، مادام المرجع الأخير في الموازنة للأصول العامة التي
لا تتغير ، والقواعد الثابتة التي لا يكون الأدب أدبا بغيرها ، ولا ينالها على وجه
الزمان تغيير . فهل تتغير بتغير العصور خصائص الألفاظ ومزايها ، وتحسن المعاني
وجملها ، رأت كان الشر ودعائه ، وصوغ الأسلوب ووسائل اتساقه^(٢) ؟

إن ما يتغير من ذلك لا يصيب الصميم من تلك الدعائم ؛ وإنما يصيب ذيلها
وأطرافها ؛ خضوعا لدواعي كل عصر ومقتضياته ، وهي لا تبدو المظهر والشكل ،
دون الجوهر والمب ؛ فحما ثابتان ، وما عداهما لا يثبت على حال . فما يكون من
إيثار بعض الألفاظ ، أو المعاني ، أو الأغراض حيناً ، وما يكون من خضوع الخيال
أو جذبه ، وما يكون من التشبيه والحجاز والكناية أو غيرها من الحسنات البلاغية
- مقبولا في عصر قد يكون مردولا في آخر ، وما يستحسن من هذا كله في موضع
قد يستقبح في آخر . ولكن الأصول والقواعد العامة التي تحكم في تلك الأشياء
وفي تأليف الكلام ، وصوغ الأسلوب - لا تتغير تغيرا ذاتيا ؛ فلابدو ألفاظهم ،
ومعانيهم ، وأخيلتهم ، وطرائفهم في اختيار وسائل التعبير التي تناسبهم . وللتحضر
كذلك ما يناسبهم ، ويلائم أذواقهم التي صقلتها الحضارة والثقافة ؛ ولكن هؤلاء
وهؤلاء لا يختلفون في الخضوع لتلك الأصول العامة ، والقواعد الكلية ؛ وفيها
من المرونة واللين ما يساعد على أن تستجيب لدواعي كل عصر ، وتتسع لحاجاته
البلاغية . وما مثلها إلا كتلك القواعد الشرعية العامة التي لا تتغير بتغير الأزمنة

(١) خالفي .

(٢) راجع ص ١٦ وما يليها .

والأمكنة ؛ وهي مع ذلك تفسح في صدرها لدواعي الحياة المستحدثة ، ومتطلبات
المصور المختلفة .

لهذا رأينا المرازقات تقع بين أهل العصر الراشد والمصور المتباينة ؛ رأيناهم^(١)
يوازنون بين زهير والنايفة ، أو غيرها من عصر الجاهلية ، وبين جرير والفرزدق
والأخطل وغيرهم من العصر الأموي ، وبين البحتري والمتنبي وسواهما من
العباسيين ، كما يوازنون بين أبي نواس والنايفة ، أو بين مسلم وزهير ، أو بين
بشار وامرئ القيس . ودعاة مختلفون في عصورهم وبلادهم . فلا علينا - إذا -
أن نوازن بين شوقي والمتنبي

(١) راجع المدة ج ١ ص ٥٩ وما بعدها (باب الشعراء من الشعراء) حيث أشار إلى
المفاضلة بين شعراء مختلفين في عصورهم وبلدانهم . و ص ٢٤٣ ج ٢ من الصبح المتنبي
هامش الكبير .

وسائل الرأي عند القدماء . رأيهم في المتنبي

لم يكن للسابقين دستور يجمعون إليه في الحكم على الأدباء ، وترتيب أقدارهم ومنازلهم ؛ بل كانوا يختلفون في ذلك على حسب المصور والملابسات . فأهل الجاهلية يعتقدون الأسواق العامة في عكاظ^(١) والمربد^(٢) كل سنة في موسم معين ، لأغراض متباينة ؛ منها : التسابق في الخطابة ، وإنشاد الشعر ، والاحتكام في شأنه إلى بصير به ، خبير بأسراره (كالنابغة) يرتضونه فيصلا بينهم ، يقضى لهذا بالسبق ، ولذلك بالتخلف^(٣) ، وتشهد الوفود المختلفة حكمه ، وتنقله إلى قبائلهم ؛ فلا يلبث السباق أن يشتهر فيهم ، ويجرى اسمه على ألسنتهم . فما أشبه الأسواق في أيامهم بالمؤتمرات الأدبية في أيامنا . وإن شئت فقل إنها تشبهه . من بعض الوجوه . مؤتمر الوفود العربية لتكريم شوقي ومبايعته . غير أن مؤتمراتنا لا تتصدى للحكم إلا بعد بحث شامل ، ودراسة وافية لكل ما صدر عن الأديب مما له صلة بالأدب وفنونه . أما تلك الأسواق فحكمها مقصور على الجديد الذي أعدّه ليومه ، أو موسمه . وشتان بين حكمين يصدر أحدهما بعد أناة ، وطول بحث ، وعظيم استقصاء ، ويصدر الآخر في تسرع ، وتحقف ، وعدم استيفاء .

(١) في الجنوب الشرقي من مكة على نحو عشرة أميال من الطائف .

(٢) من ضواحي البصرة .

(٣) الأغاني ج ٨ ص ١٩٤ ، وصفة جزيرة العرب ص ٢٦٣

وقد كان إلى جانب هذه الأسواق الموسمية العامة أسواق فرعية ، ومجالس خاصة ، يتذاكر فيها الجاهليون شئون الشعر ورجاله ؛ فيقدمون هذا أو ذاك لقصيدة ، أو بيت من الشعر ، أو أبيات .

وهذه الطريقة بتراء كسابقتها ، لاتصلح وسيلة لمفاضلة صحيحة ، ولا أساسا لحكم سليم .

وقد ظلت الأسواق العامة قائمة بعد ظهور الإسلام إلى أن قضت عليها الأحداث في العصر الأموي . وظلت الطريقة الثانية تحتاز العصور عصرافعصرافحتى وصلت إلينا . وكان الخلفاء والأمراء والولاة يحضرون مجالسها ، بل يعتقدون لها المحافل والمناظرات أحيانا ، ويحضرها معهم أهل الرأي ، وذوو البصر بشئون اللغة وفنون الأدب ، وسائر العلوم المعروفة لمعهدهم ؛ فهذا عمر بن الخطاب يدور في مجلسه الحديث عن الشعراء فيقول : أشعرهم الذي يقول ومن ... ومن ... ومن ... (يعني زهيرا) وهذا عبد الملك يطارح أهل مجلسه الشعر ، ويجادلهم فيه ، ويختلفون في أشعر الشعراء ؛ فيقول : أشعرهم الذي يقول : وذى رحم ... الخ (يريد معن بن أوس) .

وهذا المنصور ، والرشيد ، والمأمون ، وسيف الدولة ، والصاحب بن عباد ... وغيرهم من ذوى المكانة والجاه - لم تشغلهم شئون الملك ، ودواعى الإمارة عن النظر فى الشعر ، وعقد المجالس له ، والموازنة بين رجاله .

نعم وصلت إلينا هذه الطريقة الثانية . ولكن سايرتها طريقة أخرى منذ أوائل الدولة العباسية (حين اتسعت الحضارة ، واستبحر العمران ، وتيسرت أسباب العلم والكتابة ، وكثر التدوين والتأليف) فقد تجمعت أشعار الشعراء

في دواوين خاصة بعد أن كانت مبشرة ، وشجّلت الآثار الأدبية في كتب معينة
يسهل الرجوع إليها لدراسة أصحابها قبل الحكم عليهم ، وانبرت طائفة من العلماء
والباحثين يتناولونها بالتحصص والنقد حثيثاً ، وبالشرح وكشف الغافض حيناً
آخر . وقد يعرضون لآراء صاحبها ، ومذاهبه الأدبية وغير الأدبية ، ثم ينزلونه
المنزل اللائق به بين نظرائه وأنداده . فمثل ذلك صاحب كتابي نقد الشعر ونقد
النثر ، وصاحب الكامل ، وصاحب طبقات الشعراء ، وصاحب الشعر والشعراء ،
والعمدة ، والوساطة ، والصناعتين . كذلك فمسألة العُكْبَرِيّ ، والواحدى ،
وابن جني ، والمرسي (وهؤلاء الأربعة من شراح ديوان المتنبي . . .)
وغيرهم كثير .

ولعل هذه الطريقة هي أقوم الطرق الثلاث في انتزاع الأحكام الأدبية ،
وأقربها إلى السداد ؛ فقد كان القائمون بها من أهل الكفاية والدراية في عصرهم
والوقت متسمعين لديهم ، وآثار الأديب كلها بين أيديهم ، لا يصعدون عن رأى
إلا بعد تريض ، وتفحص ، وطول دراسة . نعم قد يشوب الهوى آراءهم ،
ويفسد الغرض أحكامهم ؛ ولكن هذا لا سبيل إلى توقيفه في عصر من المصور
إلا بوازع من الضمير الحلي ، وسياج من الخلق الكريم .

فلم يكن عجيباً أن أعتمد على أصحاب هذه الطريقة لأعرف رأى القدماء
في المتنبي ، وأتبين مكانته عندهم . لجأت إليها ، فراعني اختلاف الآراء باختلاف
الأهواء ، وشهدت من تباين النزعات وتحكم الميول ما لا نظير له في الحكم على
شاعر آخر . ولكنني شهدت كذلك مَنْ وَقَفَ موقف الحميد ؛ يصف ما يراه ،
ويدوّن ما يسمعه ، من غير أن يبدى رأياً خاصاً ، أو يصدر حكماً مستقلاً ؛ فيقول

عن المتنبي^(١) : « قد شغل به الألسن ، وسهرت في أشعاره الأعين ، وكثر الناسخ لشعره ، والغائص في بحره ، والمفتش عن أجماله ودره . وله شيعة تفسلو في مدحه ، وعليه خوارج تنفالي في جرحه » اهـ .

« وألفت^(٢) الكتب في تفسير شعره ، وحل مشكله وعويصه ، وكثرت الدفاتر على ذكر جيده ورديئه ، وتكلم الأفاضل في الوساطة بينه وبين خصومه ، والإفصاح عن أبحار كلامه وعيونه ، وتفرقوا فرقا في مدحه ، والقدح فيه ، والنضج عنه ، والتعصب له وعليه » اهـ .

بيد أني رأيت المعجبين به أوفر من الزارين عليه ، والمفتونين بشعره أكثر من المنصرفين عنه . وكلاهما مسرف في رأيه ، مفرط في هواه ، ناظر بعين الحب وحده ، أو بعين البغض دون سواه .

أما صاحب الرأي المستقل الذي يصدر فيه عن عدالة ونزاهة فلم أجده بينهم . على أن الفريق الأول أدنى إلى الحق ، وأقرب إلى الصواب ، برغم مخالفتي إياه في كثير مما يراه .

نعم رأيت الجبهة الغالبة تؤيد المتنبي ؛ وفيهم أصحاب علم ، وذكاء ، ورجاحة ؛ وإليك صورا مما يقولون :

(١) مَا رَأَى^(٣) النَّاسُ ثَانِيَّ الْمُنْبِي أَيُّ ثَانٍ يُرَى لِبَكْرِ الزَّمَانِ ؟
هو في شعره نبيٌّ ، ولكنَّ ظهرت معجزاته في الممانى

(١) أعلام الكلام للقيرواني ص ٢٥ باختصار وج ١ ص ٢٥٥ من الصبح طبعة هامش

العكبري . (٢) يتيمة الدهر ج ١ ص ٧٨

(٣) الصبح ج ١ ص ٢٤٠ من رثاء أبي القاسم الطنبي العنبي عند وفاته .

(ب) « وليس^(١) في المولدين أشهر اسم من الحسن أبي نواس ، ثم حبيب ، والبحترى ، ويقال إنهما أختلأ في زمانهما خمسمائة شاعر ؛ كلهم مجيد . ثم يتبعهما في الاشتهار ابن الرومي ، وابن المعتز ، وطار اسم ابن المعتز حتى صار كالحسن في المولدين ، وامرئ القيس في القدماء ؛ فإن هؤلاء الثلاثة^(٢) لا يكاد يجهلهم أحد من الناس . ثم جاء المتنبي ؛ فملأ الدنيا ، وشغل الناس » .

(ح) « وليست^(٣) اليوم مجالس الدرس أعمرَ بشهر أبي الطيب من مجالس الأنس ، ولا أقلام كتاب الرسائل أجري به من ألسن الخطباء في الحافل ، ولا لحون المغنين والقوالين أشغل به من كتب المؤلفين والمصنفين » .

(د) « وقد^(٤) شطت شهرته على جميع معاصريه ، ولم يذكر واحد منهم بجانبه ، إلا أبو فراس الحمداني ؛ وذلك اقربته من الأمير^(٥) . ولولا مكانه من السلطان لأخفى اسمه كما أخفى غيره من الشعراء » .

(هـ) « ونقلوا^(٦) أن رجلا من مدينة دار السلام كان كلما وصل بلداً سمع بها صيت أبي الطيب ، فيرحل عنها ، حتى وصل إلى أقصى بلاد الترك ؛ فسأل عن أبي الطيب ، فلم يعرفوه ، فتوطنها . فلما كان يوم الجمعة ذهب إلى صلاتها بالجامع ، فسمع الخطيب يُنشد (بعد سرِّد أسماء الله الحسنى) قول المتنبي :

(١) العمدة ج ١ ص ٦٣ (٢) هم : أبو نواس ، وحبيب ، والبحترى .

(٣) يتيمة الدهر ج ١ ص ٧٨ (٤) العمدة ج ١ ص ٦٤ منقولاً بالمعنى .

(٥) كان أبو فراس ابن عم الأمير سيف الدولة الحمداني .

(٦) الصبح ج ١ ص ٢٠٧ نفس الطبعة .

أَسَامِيًّا لَمْ تَزِدْهُ مَعْرِفَةً وَإِنَّمَا لَذَّةٌ ذَكَرْنَاهَا

فمأد إلى دار السلام .

(و) وشبيهه^(١) بهذا مارواه صاحب لابن العميد ؛ قال : زرتة يوما قبل اتصال المتنبي به ؛ فرأيتة واجماً ، وكانت أخته قد ماتت من عهد قريب ، فظننته حزينا بسببها . فقلت : لا يحزن الله الأمير ، فما الخبر ؟ قال : إنه ليفيظني أمر هذا المتنبي ، واجتهادي في أن أتحيد ذكره ، فقد ورد علي من كتب التمزية ستون وثياف ، مامننا إلا وقد صدّر بقوله^(٢) :

طَوَى الْجَزِيرَةَ حَتَّى جَاءَنِي خَيْرٌ فَرَعْتُ فِيهِ بِأَمَالِي إِلَى السَّكْدِ
حَتَّى إِذَا لَمْ يَدْعُ لِي صَدَقَهُ أَمَلًا شَرَقْتُ بِالْذَّمِّ حَتَّى كَادَ يَشْرِقُ بِي
فكيف السبيل إلى إخماد شهرته ؟ فقدت له : القدر لا يغالب . والرجل
ذو عظم من إشاعة الذكر ، واشتعار الاسم ، فالأولى ألا تشغل فكرك
بهذا الأمر .

(ز) ولم يُسمع^(٣) بديوان شعر في الجاهلية ولا في الإسلام شرح مثل الشروح
الكثيرة لديوان المتنبي ، ولا تداول في ألسنة الأدباء في نظم ونثر أكثر
من شعر المتنبي .

(ح) ولقد اطلع^(٤) بعض قدامى الباحثين على أكثر من أربعين شرحا له بين
مطوولات ومختصرات .

(١) الصبح ج ١ ص ١٨٤ (٢) البيتان من قصيدة المتنبي أرسلها من بغداد

إلى سيف الدولة يعزیه في أخته . (٣) الصبح ج ١ ص ٤٢٧ .

(٤) تاريخ ابن خالكان في ترجمة المتنبي . وكذلك ترجمته آخر شرح المعبرى .

(ط) وقال أحد شراحه^(١) الأجلاء في خاتمة كتابه :

«دعاني إلى تصنيف هذا الكتاب - مع خول الأدب ، وانقراض زمانه -
اجتماع أهل المصر قاطبة على هذا الديوان ، وشغفهم بحفظه وروايته ،
والوقوف على مسانيه ، وانقطاعهم عن جمع أشعار العرب ، جهاليتها ،
وإسلامها ، إلى هذا الشعر ، واقتصرارهم عليه في تمثلهم ، ومحاضراتهم ،
وخطبهم ، وخطباتهم ، حتى كأن الأشعار كلها فقدت ... » اهـ .

وحسب المتنبي فخراً أن يكون من بين شراحه جماعة من أعظم رجالات
العلم والأدب في المصور السافرة ، كالمرى^(٢) ، وابن جني^(٣) ،
والبريزي^(٤) ، والقاضي الجرجاني^(٥) و ... و ... و ...

(ي) وكان المرى^(٦) - على جلال شأنه ، وعظيم قدره - يذكر الشعراء بأسمائهم
الجردة ، فإذا وصل إلى المتنبي لم يذكره باسمه ، وإنما يذكره بلقب :
« الشاعر » تعظيماً له ، وإكباراً .

(١) علي بن أحمد الواحدى العالم الأديب المتوفى سنة ٤٦٧ هـ .

(٢) أبو العلاء المرى ، من أكبر شعراء العربية وفلاسفتهم . ولد سنة ٣٦٣ هـ وتوفى

سنة ٤٤٩ هـ . (٣) أبو الفتح بن جني من أكبر علماء اللغة والنحو .

ولد سنة ٣٣٠ هـ وتوفى سنة ٣٧٢ هـ . (٤) عالم لغوى أديب عظيم المنزلة .

ولد سنة ٤٢١ هـ ومات سنة ٥٠٢ هـ . (٥) أحمد قضاة الدولة البويهية

وآدابها الأعلام . مات سنة ٣٦٦ هـ . (٦) الصبح ج ١ ص ٤٧ الطبعة السابقة .

(ك) « ولقد بدى^(١) الشعر بكندة^(٢) ، ونختم بكندة^(٣) ، فأبو الطيب خاتمة الشعراء لأبحالة » .

« وسبب^(٤) من ختم بهذا الفاضل الفتحول من الشعراء ، وأكرمه ، وجمع له من المحاسن ما فضل به كل من تقدمه . ولو أنصف لعلق شعره كالسبع المعلقات بالكعبة ، ولقدّم على جميع شعراء الجاهلية في الرتبة » .

(ل) « وعلى الحقيقة^(٥) فإنه خاتم الشعراء . ومهما وصف به فهو فوق الوصف ، وفوق الإطراء . ولقد صدق في قوله عن نفسه (من أبيات يخاطب بها سيف الدولة مادحا) .

لَا تَطْلُبَنَّ كَرِيماً بَعْدَ رُؤْيَيْهِ^(٦) إِنْ السَّكْرَامَ بِأَسْخَاهُمْ يَدَا خُتِمُوا
وَلَا تُبَالِ بِشَرِّ بَعْدَ شَاعِرِهِ^(٧) قَدْ أَفْسَدَ الْقَوْلَ حَتَّى أَحْمَدَ الصَّمَمُ^(٨)

وبعد : فذلك لون من ألوان الحكم القديم على المتنبي ، وذلك بعض ماقاله الأنصار والمشايهون ، وما أكثر ما يقولون !! ...

* * *

(١) الصبح ج ١ ص ٢٦٤ .

(٢) يشيرون إلى امرئ القيس الذي يرجع نسبه إلى قبيلة : « كندة » اليمنية .

(٣) يشيرون إلى المتنبي الذي نشأ في محلة : « كندة » من نواحي الكوفة — كما سيجيء — ولا علاقة لهذه بقبيلة « كندة » اليمنية .

(٤) الصبح ج ١ ص ٢٦٤ . (٥) الصبح ج ١ ص ٢٥١ .

(٦) أى : رؤية سيف الدولة . (٧) أى : بعد شاعر سيف الدولة . وهو المتنبي

كيف تكون الموازنة ؟

ليس للنقد الأدبي والمفاضلة بين الشعراء موازين مضبوطة مُوحَّدة ، يعتمد عليها الباحث ؛ فالقدماء كانوا يُعَوِّلون فيهما على ما يسمونه : بنية الشعر (١) (يريدون لفظه ، ووزنه ، ومعناه ، وقافيته) . وبها يُحدِّد الشعر عندهم ، ومنها يتركب . ولكل واحد من هذه الأربعة محاسنه ومساويه . ووظيفة الناقد أن يُفتش عن هذه المحاسن والمساوى ، ويُقدِّر الشاعر بقدر نصيبه منها .

والحدَثون — من أهل العصور الأخيرة ، ومنها عصرنا — كالقدماء في هذا . ويفضاونهم بمزيد من العناية بوجهونه إلى بعض أمور أخرى عرفها القدماء ، ولكن لم يُؤلَّوها نصيبها من العناية ، وكال الرعاية .

(١) كحرص الشاعر على أداء مهمته الأدبية كاملة في أنسب وقت ، وانتهاز الفرص لتحقيق رسالته الشعرية من غير إهمال ولا إهمال . (وسنوضح تلك الرسالة بعد (٢)) .

(ب) وكصدق العاطفة ، وتدفق الإحساس في الشعر ؛ بحيث يدرك القارئ أو السامع حرارة تلك العاطفة ، وتيار الشعور .

(ج) وكالخيال اللامح الذي يبتدع الصور غير مسبوقة ، وينشئ من القديم المبدول جديداً شائقاً .

- (د) وكالموسيقى المنبعشة من الألفاظ ، المناسبة من الوزن والقافية .
(هـ) وكالأغراض التي يتناولها الأديب ، والتجديد الذي يدخله في نواحيها المختلفة .

تلك أمور لا يُفعلها الناقد اليوم ؛ لبلوغ أثرها في دقة البحث ، وصواب الرأي ، وصدق الحكم . ولهذا كان من الواجب أن تقوم الموازنات الشعرية على الأسس الآتية :

- (١) رسالة الشاعر ، ومبلغ نجاحه في تأديتها .
- (٢) الألفاظ وما يتصل بها (كموسيقى اللفظ ، والبحر ، والقافية ...)
- (٣) المعاني وما يتصل بها (كصدق العاطفة ، وبراعة الخيال ...)
- (٤) الموضوعات والأغراض ، وكيفية معالجتها .
- (٥) ما يشتهر به الشاعر في ناحية معينة : كالحكيم ، أو الفخر ، أو المدح ، أو الغزل ...

وهذه الأسس هي العناصر التي يتكون من مجموعها ما يسمى الآن :
(الشعرية) . وإليك تفصيلا عن كل واحد ، وحظ الشاعر من منه .

(١) الشاعر ، رسالته

نصيب المتنبي وشوقي من أدائها

بم استحق الشاعر هذا اللقب الرفيع ؟ وماذا يجب أن يصل كي يؤدي الرسالة الشعرية من غير تقصير ؟

سؤالان أجابت عنهما المراجع اللغوية والأدبية ؛ فقد تمالأت على أن الشعر معناه : العلم والفطنة (وإن^(١) غلب على الكلام الموزن) . وأن الشاعر مشتق من الشَّعْر ؛ لعله وفطنته^(٢) . أو : لأنه يشعر بما لا يشعر به غيره ، أى : يلم ويفطن^(٣) . وإذا لا بد أن يكون الشاعر صاحب علم وفطنة ، (ومن مجموعهما يكون الشعور) . ولا بد أن يكون نصيبه منهما (أى : من الشعور) أكمل وأوفى من غيره ، وإلا كان الناس جميعاً شعراء ؛ إذ ليس فيهم من حُرِمَ أثارة^(٤) من علم ، وحظاً من فطنة .

على أن نصيبه الأوفى منهما لا يكفي ، فلا مناص - مع قوة الشعور - من قدرة ممتازة على وصف ما يحسه ، والتعبير عما يشعر به تعبيراً صادقاً ؛ يكون ترجمة صحيحة كاملة لكل ما أحسّه وشعر به ، بل مرآة سليمة تنعكس عليها الصور التي مازجت نفسه ، وانطبعت على صفحاتها ، فيشاركه كثيرون فيما أدرك ولم يدركه بأنفسهم ، أو أدركوه ولكن على وجه غامض ، وصورة مبهمه ؛ لا تركيز فيها ، ولا وضوح .

(١) تاج العروس ، مادة : شعر .

(٢) المصباح .

(٤) بقية .

(٣) التاج .

والأول هذا لم يكن للشاعر نفع ، ولا في مواهبه خير . وهذا تأويل قولهم ^(١) :
 « إنما سمي الشاعر شاعراً لأنه يشعر من معاني ^(٢) القول ، وإصابة الوصف ،
 بما لا يشعر به غيره . . . وكل من كان خارجاً عن هذا الوصف فليس بشاعر ؛
 وإن أتى بكلام موزون مُقَفًى » .

و بيان آخر :

ذلك أن الشعور والإحساس يختبئان في نفس الشاعر ، لا يدرك حقيقتيهما
 ودرجتيهما غيره . ولا سبيل لأحد أن يطلع عليهما ، كما لا سبيل للحكم على صاحبهما
 بأنه شاعر إلا إذا كشف عنهما ، وتولى بنفسه عرضهما بأنجع طريقة أعدت
 لذلك ؛ وعى : الشعر . فالشعر هو الوسيلة الفريدة التي يُظهر بها الشاعر دوائله ،
 ويعلن مواهبه ، وقوة مشاعره . ولولاه لبقيت دوائله وخصائصه كمينة ، محتجبة ،
 ولبقى صاحبها مجهولاً مشهوراً ؛ فيسبى إلى نفسه بضمطها قدرها ، وإلى مواهبه
 بإهمالها ، وعدم استفادتها ، وإلى الرسالة الشعرية بتقويض أهم دعائمها ؛ فإن
 هذه الرسالة إنما تقوم على حس مرهف . يلتقط — في سرعة ومهارة — كل ما يقع
 في دائرته ، ويبعث به إلى أعماق النفس ؛ فتنبهل بالقوى منه ، وتهتز له ،
 ولا تستأثر بإدراكه ؛ بل تتجاوب معه تجاوباً يكون من أثره أن تبادر إلى إبرازه
 وإعلانه كلاماً مؤثراً ، وترجمته شعراً قوياً ، يغذى الناس بشعور جديد ، وحس
 طارئ لم يكن لهم من قبل ، أو كان لهم من قبل في صورة غامضة ، مبهمه ،

(١) نقد النثر ، باب : تأليف العبارة ، ص ٨٥ .

(٢) أى : المعاني المدركة التي تحصل للنفس .

غير متميزة المعالم والشَّيَآت ، لا يستطيع صاحبها أن يدركها واضحة ، ولا أن يسبر عنها صريحة جليلة ؛ لأن العبارة الجليلة أثر للصورة النفسية الجليلة .

فهمة الشاعر أن يزود الناس بالجديد من الشعور ، وأن يكشف عن مُدْرَكاتهم ما قد ينشئها من غموض وتعمية ، ويشرّكهم معه في مباحثه ، وآلامه ، وينقلهم إلى جوّه ؛ ليدركوا ما يدرك ، ويحسوا ما يحس ، ويمثلوه شعوراً ووجداناً .
فقوم الرسالة الشعرية أمور ثلاثة :

حس دقيق ، مرهف ، مغناطيسي ، وتصوير كلاشيٍّ للمهم من الحس ، وبراعة فنية في التصوير والترجمة ؛ ترفع السامع والقارئ إلى حيث الشاعر ، وتجعل منهما شخصين متكافئين حساً وإدراكاً . وبديه أننا لا نبغى من الشاعر تصوير كل حس يدركه ؛ وإلا كان حاكياً مهذاراً ، لا تطرب النفس لتصويره ، ولا تهتز ؛ وإنما نريد أن يتجه في التصوير إلى ما يحرك مشاعرنا ، ويثير وجداننا ، وينجح في نقلنا إلى جوّه ، واشتراكناه معه ، ويتخير من الصور والمشاهد ما يمينه على ذلك .

فإن حرم الشاعر بعض المزايا الثلاث ، أو أغفل ، أو قصّر — فليس بالشاعر المثالي ، وليس بالقادر على أداء الرسالة الشعرية على وجهها الأكمل ، وليس بالذي ترتقبه أمته ، وتطلع إليه أنظارها ؛ بل أنظار الأمم جميعاً .

ولأمر ما « كانت ^(١) القبيصة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها ، وصنعت الأطعمة ، واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعون

في الأعراس ، ويتباشر^(١) الرجال والولدان ؛ لأنه حماية لأعراضهم ، ودفاع عن أحسابهم ، وتخليد لآثرهم ، وإشادة بذكورهم . وكانوا لا يهتفون إلا بفلام يولد ، أو شاعر ينبغ ، أو فارس تنتج .

ومما سبق نعلم أثر الشعراء والشعر في إيقاظ مشاعر الناس ، وتنبه حواسهم ، وإرهاف وجدانهم . كما نعلم أن نجاح الشاعر في أداء رسالته رهْنٌ - إلى أكبر حدٍّ - بمقدرته على ترجمة مشاعره ، ترجمة صادقة ، في مناسباتها المختلفة . فنحن ننتظر منه أن يهتف بالترجمة الشعرية لكل طارئ هامٍّ يحسه ، ويصدق بالفهم لكل ما يهز جوانب نفسه . ولا علينا أن يكون الطارئ ذاتياً^(٢) أو غير ذاتي . بيد أن الشاعر الإنساني الذي يتحدث عن الموضوع من ناحية عامة تتصل بشعور كثيرين ، ويحرك أوتار قلوبهم - خير ممن يتحدث عن موضوع ذاتي (شخصي) لا يمثل إلا شعور صاحبه ، ولا يحرك إلا وجدانه أو نفرا قليلا معه . ومن ثم كان الشاعر الذي يتحدث عن نفسه ، وحسد الحساد^(٣) له ، ونقمتهم عليه ، وغيظه لهم ، وانتقامه منهم - أقل شأنًا ، وأضعف أثرا ، ممن يتحدث عن أسرة بينها ، وروابط أفرادها ، وأثر ذلك في حياتها^(٤) . وهذا الثاني أو هي

(١) يبشر بعضهم بعضاً . (٢) أي : في موضوع شخصي خاص بالشاعر وحده .

(٣) كالمتنبى ؛ حيث يقول مخاطباً سيف الدولة :

أزل حسد الحساد عني بكبتهم فأت الذي صيرتهم لي حسداً

(٤) كمن بن أوس في قصيدته التي يقول فيها :

وذى رحم قلت أظفار ضفنه بحلمي عنه وهو ليس له حلم
يحاول رغبي لا يحاول غيره وكانوت عندي أن يحل به الرغم

مكانة ، وأضال قيمة — ممن يتحدث عن الوطن وأججاده ، ومباهجته ومفاخره ،
ورفعة شأنه ، وإعلاء منزلته . وهذا قليل النفع ، محدود الفائدة ، إذا قيس إلى
الشاعر العالمى الذى يتحدث عن الإنسانية فى بعض مظاهرها ؛ كسائها ،
وحربها ، وعوامل تقدمها وضمها ، وأسباب شقوقها وهنائها ، و... و... من
غير أن يخص بذلك أمة دون أمة ، أو قبيلة دون قبيلة . فكلما كان الشاعر أعم
وضوعاً ، وأشمل غرضاً ، وأوفى غاية — كان أعظم نفعاً ، وأكبر أثراً ، وأحق
باسم الشاعر ، وأسبق فى صفوف الشعراء .

على ضوء ما تقدم نعود للكلام عن شاعرية المتنبي وشرقى .

(١) المتنبي^(١)

هو : أبو الطيب أحمد بن الحسين الكِنْدِيُّ . ولد سنة ٣٠٣ هـ بالكوفة ،
في محلة تُسمى : « كِنْدَة » ؛ فنسب إليها ، لا إلى قبيلة « كِنْدَة » اليمنية .
ويقال إن والده كان سَقَاءً بالكوفة ، وأنه رحل بابنه إلى الشام ، فشب فيها
مولعاً بفنون اللغة ، حريصاً على طلبها ، ساعياً إلى أهلها في البادية والحضر ؛ حتى
نال منها أوفر نصيب .

وينسب لأبي الطيب أنه ادعى النبوة^(٢) في بادية « السماوة » ؛ فأغوى
كثيرين من بني كُلب وغيرهم . حتى خرج إليه لؤلؤ أمير حِمْص من قبل
الأخشيديين ؛ فأسره ، وفرق أصحابه ، وحبسه طويلاً حتى تاب فأطلقه .
وفي سنة ٣٣٧ هـ اتصل ببلاط سيف الدولة الحمداني أمير حاب ، وظل
يمدحه سنوات بأبدع الشعر وأروعـه ؛ فيكافئه بأعظم المطايا والمنح .

(١) نسوق ترجمته التاريخية موجزة ، لا تفصيل فيها ، ولا استقصاء ؛ فليس يعنينا من
سيرته ، وأطوار حياته — إلا ماله صلة قوية بالناحية الفنية الأدبية التي هي موضوع
بحثنا . وقد اعتمدنا في هذه الترجمة على الملخص المدون بآخر الجزء الأول من
العكبري وعلى يتيمة الدهر .

(٢) الراجح أنها صحيحة ؛ إذ سئل عنها فقال : كان ذلك في عهد الحمدانية .

حتى وقعت بينهما جفوة قضت على الشاعر أن يفارقه إلى دمشق ، والرملة ،
فمصر . وقد دخلها سنة ٣٤٦ ، واتصل بوالها كافور ، ومدحه ؛ طمعاً
في أن يوليه إحدى الإمارات . ولكن كافورا خيب ظنه ؛ حين رأى
غطرسته ، وكبره ، وعرف طموحه ، وسعة مطامعه ؛ فخنق المتنبي عليه ،
وهجاه أشنع هجاء ، وفر غاضباً سنة ٣٥٠ هـ إلى بغداد ، مقر الخليفة العباسي ،
فلم تطل بها إقامته ؛ إذ تملاً عليه حساده ، ومنافسوه من الشمرء ،
والأدباء ، وأثروا به ؛ فتظاهر أول الأمر باحتقارهم ، وعدم المبالاة بهم .
ولكنه لم يجد بدا من أن يؤثر السلامة والهدوء بترك بغداد لهم ، وقصد
السكوفة ، ثم أرتجان ؛ حيث ابن العميد الأديب ، العالم ، المشهور ،
وزير ركن الدولة . فأقام عنده فترة كانت من أطيب أيام حياته ، ولقى
من عطفه ، ورعايته ما أنساه كثيراً من متاعبه .

ثم غادرها إلى « شيراز » قاصداً أسيرها الديلمي ، عضد الدولة بن بويه ؛
فأعذق عليه ، وأرضاه بالعطايا الكثيرة . ثم اشتاق إلى بلاده ؛ فاستأذنه
في العودة ؛ فأذن له . فاتجه إلى بغداد ، ثم السكوفة . وفي طريقه إليها
قابله رجل يقال له : فاتك الأسدي ، في جماعة من أصحابه (وكان المتنبي هجا
أخته أقذع هجاء ، وأغشيه ؛ ففقد عليه « فاتك » وأسرته ، وأضمر له
الشر ، حتى حانت هذه الفرصة) . فخرج عليه وقتله ، وقتل ابنه محمد ،
وغلامه مقلحا ، وأخذ جميع ماله ، وفرّق أصحابه . وكان ذلك في رمضان

سنة ١٣٥٤ هـ ، بالقرب من موضع يقال له : الصّافيّة ، بالجانب الغربي من بغداد ، عند دير العاقول^(١) .

تلك سيرة موجزة للمتنبي . ومنها نعلم أمرين هامين :

أولهما : أنه عاش النصف الأول من القرن الرابع الهجري ؛ فأدرك فترة خطيرة من حياة الدولة العباسية وصفها المؤرخون بأنها كانت مليئة بالاضطرابات السياسية ، والفتن الدينية والمذهبية ، وتنازع الحكم ، وثورات الحكوميين ، وتنافس الدول الناشئة ، وتقاتلها ومن أمثلة ذلك فتنة الشيعة ، والإسماعيلية ، وثورة القرامطة ، وفضائهم ، وحروب مصر مع جاراتها ، وحروب الخلافة مع الخارجيين عليها ، أو مع الدويلات المنفصلة عنها و . . . ثانيهما : أنه خبّر حياة البدو والحضر خبرة واسعة ، وانغمس فيها من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ؛ فعرف الصحراء ، وأهلها ، وطبائعهم ، ووسائل عيشهم ، وكل ما يتصل بهم . كما عرف الحضر ، وزار أشهر مدنه ، وخاطب ملوكا وأمراء ، وأدرك ما هم عليه من ترف ، ومُنعة ، وما عليه الحكومون من نعمة ورخاء ، أوضيق وبؤس ، ونصيبهم من الحضارة بمختلف مظاهرها العلمية والأدبية ، وسائر فنونها وصناعاتها .

فما الذي سجله المتنبي من كل هذا في شعره ؟ وأين المؤثرات القوية

(١) بينه وبين بغداد نحو ميلين .

التي انفلت بها نفسه ، واستعجابت لها ، فأحالتها صوراً بيانية ناطقة ، وترجمتها شعراً بارعاً يمثل صورتها الأولى الصحيحة ، وينقل سامعها أو قارئها إلى حيث الشاعر ؛ فيشتركان مما ؛ حساً ، ووجدانياً ، كما أسلفنا ؟ لأنجد شيئاً ذابال .

لقد أدرك تلك الحياة الصاخبة ، المضطربة ، المليئة بالفوضى ؛ في نواحيها السياسية ، والدينية ، والمذهبية ، وكل ما يتصل بهذا أو ينشأ عنه ؛ من قنن ، وثورات ، ومذابح ، وتخريب ، ونصر أمير ، وخذلان أمير ، وتأيد مذهب ، واستنكار مذهب ، وقيام دولة ، وسقوط أخرى . وغير ذلك مما كان القرن الرابع الهجري مسرحاً له وميداناً ، فإذا نقل إلينا من تلك المشاهد ؟

عرف الصحراء ، وأقام بها يافعاً بين سنتين وثلاث ؛ فإذا ترك لنا من وصف رمالها ، وصخرها ، وجوّها ، وحيوانها ، وحياة الناس فيها ؟

وعرف الحضر ، وطاف بمدنه ؛ فماذا صور لنا من وصف بلاد الشام ، وأقاليمها المعروفة أيامه ، وما نقله إلينا المؤرخون عن زروعها ، وضروعها ، وغياضها ، وأوديتها ، وجبالها ، وأنهارها ، وثمارها ، وقصورها ، وأمرائها وشعرائها ، وطوائف الناس فيها ، وأخلافهم ، وأعمالهم ، ومظاهر حياتهم ؟

دخل مصر ؛ فإذا وصف من جمال واديها ، وخصب أرضها ، واعتدال جوها ، وفضل نيلها ، وحضارتها القديمة والحديثة ، وكثرة آثارها ، وسماحة أهلها ؟

طاف بالعراق ، وأقام به طويلا ؛ فسادا سجل عن مفاآنه ، وفتنه ، وعن الخلافة وضعفها ، واستبداد المالآك والإماء والجفود والنساء بشؤونها ؟ وماذا نقل إلنا من مدارس الجامعة ، ومجالس العلم والأدب الحافلة ، والمناظرات العامة ، وتنافس المدن الكبرآة فى الدراسات المختلفة ، ولا سيما الدراسات اللسانآة ؟

وقصد البلاد الفارسآة ، وتنقل بين ربوعها ، وأقام فىها آآنا ؛ فسادا دَوَّن من مشاهدتها الرائعة ، وطبآقتها الساحرة ، وحضارتها المتمآزة ، وأجواءها المختلفة^(١) ، وذكاء أهلها ، ونبوآ كثير منهم فى العلوم ؟ لم نجد من ذلك كله شآئا يؤبهُ له ، اللهم إلا :

١ — قصائد المديآ ، يزجىها لنفسه ، ولمن أأدق عآيه من الملوك ، والولاء ، وأشباههم . (وآتصل بالمديآ ما ىدخل فى بابهِ ؛ كالأستعطاف والاعتذار ، والتهنئة ، والفخر ؛ فإن هذه أنواع من المديآ وإن اختلفت أسماءها) .

٢ — رثاء الذين أأدقوا عآيه ، أو جمعتهم به صلة القربى ؛ كآآدته .

٣ — هآاء من أساءوا إآيه ، أو آآبوا أمله فى ولاية ، أو عطاء ، أو قاوموا غروره وأدعاه . (وآتصل بهذا : شعره فى ذم الزمان ، وسخطه على الدهر ، وتبرمه بنفسه وبالناس) .

هذا هو التراث المنأدر إآنا من المتآبى ، وكله من الشعر الذاتى (الشخصى) قليل النفع ، ضئآل القآمة ؛ إذ لا يكاد يمتد أثره لآآير قائله ، ولا ىنآج فى إثارة وجدان آآر وجدانه . وكان مآسورا أن ىسلك بهذه الأنواع مسلك آآره من كبار

(١) الأجواء ، واللبواء : جمع آواء .

الشعراء الذين بددوا بها عن الذاتية ؛ فرفسوا قيمة شعرهم ، وعمموا النفع به . على أن المتنبي - وقد سلك مسلك الذاتية الخالصة - لم يعتدل فيما تخيره ، بل أسرف في المدائح عدداً ونوعاً ؛ حتى كاد شعره ينتقلب مديحاً مُفرطاً . وليته كان مديحاً مُجَدِّداً ؛ ولكنه معان مكررة ، وفكر معادة ؛ كشأنه في الفجاء ، والرثاء . (وسنوضح هذا كله بإفاضة وتمثيل في موضعه من الكتاب ^(١)) . وفي سبيل هذه الأغراض الثلاثة - ولا سيما المديح - أهل الأغراض الشعرية الأخرى ، وفي مقدمتها الوصف الذي هو عنوان الشاعرية ، ومقياس قوتها . وَصَحَّحَ أن يقال عنه : إنه شاعر نفسه .

لا نريد من المتنبي - ولا من شاعر سواه - أن يسجل الحوادث تسجيل المؤرخ ؛ يستقصى أسبابها ، ويستوعب تفاصيلها ، ويجري وراء نتائجها . ولا نريد منه أن يكون رَحالة ؛ غايته من الرحلة رؤية البلاد ، ومشاهدتها ، وطوائف الناس وأحوالهم ، ويكثر من هذا ما استطاع ليعود فينقله - كما رأى - حديثاً مُرَدِّداً ، أو يدونه كتاباً من كتب السياحة المبدولة .

نعم لا نريد من شاعر هذا ، ولو فعل ما استحق الحمد ، بل ما استحق أن يلقب : بالشاعر ؛ وإنما نريده مصوراً هاوياً ، أو رساما فناناً ؛ يتخير المناظر والمشاهد الرائعة ، ويتقن تصويرها إتقاناً يسايره دواعي الفن ، وأمارات التفنن . ثم يرسل الصورة للعين ؛ فلا تدرى أمى صورة أم حقيقة ؟ وللنفس فتتأثر بها في بعث المشاعر والأحاسيس كما تتأثر بالأصل . بل قد تنفعل بالصورة المتقنة التي تناولها الفن بالإبداع مالا تنفعل بالأصل .

(١) عند الكلام على الموضوعات الشعرية .

نعم نريده فنأنا أديبا ؛ إذا عرض للحديث عن مدينة أثرية كبيرة
— كالمستطاط ، ودمشق ، وبغداد — لا يصمدع الرءوس بتاريخ إنشائها ، وطريقة
بنائها ، وعدد سكانها ، وأسماء ولايتها ، وما إلى هذا من شئون المؤرخين ،
والجسّابين ، ورجال الإحصاء ؛ وإنما يفرغ لمباهجها ، ومفاتيحها ، ومواقع العبارة
والتأمل الشعوري فيها . ويعرض لهذا كله عرضا كاملا ، متماسكا ، لاصلة له
بالإحصاء والتمداد ؛ فحين يعرض لمباهجها يذكر بساكنيها ، ورياضيها ، من غير
أن يتصدى لحصر أشجارها ، وما تدرّه على أهلها — فليس هذا من وكّد الشاعر
كما قلنا — وإنما يتصدى لخصائصها الشائعة بينها ؛ من ألوان ، وأنوار ،
وروائح ، وأثمار ، وتلاعب نسيم ، وتراقص أغصان ، وجري مياه ، وتناسق
زرع ...

وحين يتأمل مواضع العبارة في تلك المدينة لا يذكر أن جانبها الشرقي غرق
يوما ، أو احترق ، وأن جانبها الغربي تهدم ، أو زُلِزل ، وأن غيرها ضاقت ،
أو اتسع ، مقتصرأ على هذا أو ما يشبهه من الوصف القائم ، القائم على التقصى
والحصر ؛ وإنما يذكر ما يليق بالشاعر ورسالته ؛ من وصف أهلها بالسعادة
أو الشقاء ؛ لأخذهم بأسباب الحضارة ، أو لتخليفهم عن ركب المدنية ، وأنهم
أقوياء أو ضعفاء بأخلاقهم ، وتعلقهم بالفضيلة ، أو تحللهم منها . ويطيل الوقوف
أمام هذا كله وقفة المستلهم الذي يستنطق المشاهد والحوادث ، ويستخلص منها
العبر والعظات ، ويشير بها مكامن الشعور والوجدان

يرى النيل فيصف لنا فضله ، وفيضه ، وصفاءه ، وكدره ، وسفنه ، وشواطئه ،
ورضاه ، وغضبه ، وشمس ضحاه ، وأصيله ، ولياليه القمرية ، وحضارة الأمم

التي قامت على جانبيه ، وما فعل الزمان بهم ... ، كل أوائلك في صورة شعرية صناع ؛ نترقبها من المتنبي ، ونظرائه . ماذا حقق لنا بما أردنا ؟
لقد تكفل ديوانه المصنم بالإجابة عن السؤال ؛ فجاء خالياً بما نرجيه ، ونطمح فيه . إلا قصائد المدح والثناء والمجاء ... كما أشرنا .

على أن الإنصاف يقتضينا أن نقول : إن بين صفحاته بضع قصائد ومقطوعات لا تتجاوز أصابع اليدين قد ضمنت بعض ما نرجوه . وهي على قلتها - متفاوتة القيمة ، متباينة الأثر . وإن هناك أبياتاً مُحسنة ، متناثرة ؛ لو بنيت على أمثالها قصائد كاملة لبأغت الغاية . والذي يعطينا الآن هو تلك القصائد والمقطوعات . فمن أجملها قصيدته النونية في مدح عضد الدولة ، ومعللها :

مَغَانِي « الشَّعْبِ »^(١) طَيْبًا^(٢) فِي الْمَغَانِي بِمَنْزِلَةِ الرَّبِيعِ مِنَ الزَّمَانِ
ومنها :

طَبْتُ^(٣) فُرْسَانَنَا وَالْحَيْلَ ؛ حَتَّى خَشِيتُ - وَإِنْ كَرُمْنَ - مِنَ الْحِرَانِ^(٤)
غَدَوْنَا^(٥) ، تَنْفُضُ الْأَغْصَانُ فِيهِ عَلَى أَعْرَافِهَا مِثْلَ الْجُمَانِ^(٦)

(١) يريد : شعب بوان ، بفارس ، وهو موضع كثير الأشجار والمياه والزرع . ويعده

العرب من جنات الدنيا . (٢) طليب طيباً ، أو : هي من جهة الطيب في

المغانى بمنزلة الربيع من الزمان . (٣) طابت ، ودعت .

(٤) العصيان وعدم الطاعة ؛ لرغبتها البقاء في ذلك المكان . (٥) ذهبنا .

(٦) يريد : أن الشجر في هذا الموضع يسقط الندى عليه ليلاً فينفذه على أعراف الجياد

كالتجان (وهو قطع من فضة تشبه اللؤلؤ) .

فَسِرْتُ ، وَقَدْ حَجَبَنَ الشَّمْسَ عَنِّي وَجِئْتُ مِنَ الضِّيَاءِ بِمَا كَفَانِي
وَأَلْقَى الشَّرْقُ مِنْهَا فِي ثِيَابِي دَنَانِيرًا ؛ تَفَرُّ مِنْ الْبَنَانِ ^(١)
لَهَا تَمَرٌ تَشْسِيرُ إِلَيْكَ مِنْهَا بِأَشْرِبَةٍ ؛ وَقَفَنَ بِلَا أَوَانِي ^(٢)
وَأَمْوَاهُ يَصِلُ بِهَا حَصَاهَا صَدِيلَ الْحَلِي فِي أَيْدِي الْفَوَانِي ^(٣)

.....

وبالرغم من أنها إحدى المدائح التي يوصف أدبها : « بالذاتية » جاءت بارعة الأداء ، بادية الجودة ، عامرة بأنواع من الجمال ، والخيال الرائع . وكثير من أبياتها بعيد عن الأدب الذاتي الواهن .

ويليها في الجودة قصائده في وصف الحروب ؛ ومنها قصيدته اللامية في مدح سيف الدولة ، ومطلعها :

لِيَالِي بَدَدَ الْفُطَايِينَ شُكُولُ ^(٤) طَوَالُ ؛ وَلَيْلُ الْعَاشِقِينَ طَوِيلُ

وفيهما يقول ^(٥) :

رَمَى اللَّزْبُ ^(٦) بِالْجُرْدِ الْجِيَادِ إِلَى الْعِدَا وَمَا عَلِمُوا أَنَّ السَّهَامَ خُمُولُ
فَمَا شَعَرُوا حَتَّى رَأَوْهَا مُغِيرَةً قَبَاحًا . وَأَمَّا خَلْقُهَا فَجَمِيلُ

(١) يريد : أن الشمس تنفذ من بين الأغصان ؛ فتأتي من ضوءها أجزاء شبيهة بالدنانير،

ولكن لا تملك بالأصابع . (٢) يقول : هذه الأغصان لها ثمار

رقيقة صافية ؛ تبدو كأنها أشربة قائمة بنفسها ، لا أواني لها .

(٣) ولها مياه يصوت حواها من تحتها كصوت الحلي في أيدي الجميلات .

(٤) متشابهات (المفرد : شُكُول) (٥) باختصار .

(٦) المدخل إلى أرض العدو .

سَحَابٌ يُطَارِدُ الْحَدِيدَ عَلَيْهِمْ
وَأَمْسَى السَّيَّابُ يَنْتَحِبِينَ بِعَرَقَةٍ (١)
تَسَارِيهَا النُّرَانُ فِي كُلِّ مَسَلَكٍ
وَرَعْنِ (٢) بِنَاقَلِ الْفُرَاتِ ؛ كَأَنَّمَا
يُطَارِدُ فِيهِ مَوْجَهُ كُلِّ سَابِجٍ (٣)
تَرَاهُ ؛ كَأَنَّ الْمَاءَ مَرَّ بِجِسْمِهِ
فَسَكَلُ مَكَانٍ بِالشُّيُوفِ غَسِيلُ
كَأَنَّ جُيُوبَ الشَّاكِلَاتِ ذُبُولُ
بِهِ الْقَوْمُ صَرَعَى ، وَالذِّيَارُ مَطْلُولُ
تَخِرُّ عَلَيْهِ بِالرَّجَالِ سُبُولُ
سَوَالٍ عَلَيْهِ غَمْرَةٌ (٤) وَمَسِيلُ (٥)
وَأَقْبَلَ رَأْسُ وَشَدَّةٍ ، وَتَلِيلُ (٦)

ومنها قصيدته في وصف القلعة التي بناها ببلاد الروم ، وسماها : الحَدَث ،
ومطلعاها :

عَلَى قَدْرِ أَهْلِ الْعَزْمِ تَأْنِي الْعَزَائِمُ وَتَأْنِي عَلَى قَدْرِ الْكِرَامِ الْمَكَارِمُ
وفيها يقول :

هَلِ « الْحَدَثُ الْحَمْرَاءُ » (٧) تَعْرِفُ لَوْنَهَا ؟

وَتَعْلَمُ أَيُّ السَّاقِيَيْنِ الْفَحَّاشُ (٨) ؟

- (١) موضع بلاد الروم . (٢) أزعجن وخوفن .
(٣) فرس سريع يمد يديه . (٤) ماء كثير مجتمع .
(٥) مجرى ماء المطر . (٦) التليل : العنق . ومعنى البيت : إن الفرس
إذا سبج في الماء لم يظهر منه إلا الرأس والعنق .
(٧) سميت حمراء لكثرة ما جرى عندها من الدماء . وقيل : لأن حجارتها حمراء والأول أبلغ .
(٨) يريد : أتعلم أي الساقين سقاها وعمرها ؛ أم هو الغمام الذي أمطرها الماء ، أم الجاحم التي
تساقطت فوقها فأمطرته الماء ؟ « وحذف الجاحم اعتمادا على فهمها من السياق
ومن البيت التالي » .

سَقَّتْهَا النَّهَامُ الْفَرْ قَبْلَ نُزُولِهِ فَلَمَّا دَنَا مِنْهَا سَقَّتْهَا الْجَمَاجِمُ
 بَنَاهَا فَأَعْلَى ، وَالْقَنَا تَقَرَّعُ^(١) الْقَنَا وَمَوْجُ الْمَنَايَا حَوَّلَتَا مُتَلَاظِمُ
 وَكَانَ بِهَا مِثْلُ الْجُنُونِ ، فَأَصْبَحَتْ وَمِنْ جُشْتِ الْقَتْلِ عَلَيْهَا تَمَازُمُ^(٢)
 خَيْسِ^(٣) بِشَرْقِ الْأَرْضِ وَالْغَرْبِ زَحْفُهُ
 وَفِي أُذُنِ الْجَوَزَاءِ مِنْهُ زَمَازُمُ^(٤)
 تَجْمَعُ فِيهِ كُلُّ لِسَنِ^(٥) وَأَمْسِيَةِ فَمَا تُنْمِهُمُ الْخُدَّاتُ^(٦) إِلَّا التَّرَاجِمُ^(٧)
 فَفِيهِ وَقْتُ ذَوْبِ الْخِشِّ نَارُهُ ۖ ۱ ۖ فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا حَصَارِمُ^(٨) أَوْ ضَبَارِمُ^(٩)
 تَقَطَّعَ مَالًا يَقْطَعُ الدَّرْعَ وَالْقَنَا وَفَرَّ مِنَ الْأَبْطَالِ مَنْ لَا يُضَادِمُ
 نَشْرَتِهِمْ فَوْقَ الْأَحْيَادِ^(١٠) نَشْرَةُ كَمَا نُشِرَتْ فَوْقَ الْعُرْسِ الدَّرَاهِمُ

وقصيدته في مدحه أيضاً ، ومطلعيها :

الرَّأْيُ قَبْلَ شَجَاعَةِ الشُّجْعَانِ هُوَ أَوَّلُ وَهْيِ الْمَحَلِّ الثَّانِي
 وفيها يقول :

قَادَ الْجِيَادَ إِلَى الطَّعَانِ ، وَلَمْ يَقْدُ إِلَّا إِلَى الْعَادَاتِ وَالْأُوطَانِ^(١١)

(١) تدق . (٢) جمع تيممة ، وهي : التعويذة التي تمنع الجنون والأصراض في زعمهم .

(٣) جيش عظيم . (٤) أصوات مختلفة لا تفهم ، (الفرد : زَرْزَمَةٌ) .

(٥) لغة . (٦) جمع : حادث ، بمعنى : متحدث .

(٧) جمع : ترجان . (٨) سلاح قاطع .

(٩) أسد شديد غليظ . (١٠) اسم جبل .

(١١) يقول : قاد ذيله إلى الطعان ؛ فكأنه ساقها إلى عاداتها ووطنها .

فِي جَعْظَلٍ سَمَرَتِ الْعَيُونَ غُبَارُهُ
فَكَأَنَّمَا يُبْصِرُونَ بِالْأَذَانِ^(١)
يَرْمِي بِهَا الْبِلْدَ الْبَعِيدَ مَظْفَرٌ
كَلُّ الْبَعِيدِ لَهُ قَرِيبٌ دَانٍ

.....

ويلى هذه القصائد الحربية وصفه للحمى فى قصيدته التى مطلعها :

مَلُومُكُمْ كَمَا يَجِلُّ عَنِ الْمَلَامِ
وَوَقَعُ فَعَالِهِ فَوْقَ الْكَلَامِ

وفىها يقول :

وَزَائِرَتِي كَأَنَّ بِهَا حَيَاءً
فَلَيْسَ تَزُورُ إِلَّا فِي الظَّلَامِ
بَذَلْتُ لَهَا الْمَطَارِفَ وَالْحَشَايَا
فَعَاقَبَهَا ، وَبَاتَتْ فِي عِظَامِي
يَضِيقُ الْجِلْدُ عَنِ نَفْسِي وَغَنَمَا
فَتَوَسَّيْتُه بِأَنْوَاعِ السَّتَمِ
إِذَا مَا فَارَقْتَنِي غَسَّ لَتْنِي
كَأَنَّ عَاكِفَيْنِ عَلَى حَرَامِ

.....

وقد يبدو للقارئ المتسرع أن هذه الأبيات وما سبقها فى الحرب نوع من الأدب الذاتى الذى لا يمثل غير صاحبه ، ولا يصف إلا شعوره ؛ ولكن المتلثب يراها أدبا عاما ، إن قيل فى أحوال خاصة بصاحبه فإن لها أشباها ونظائر كثيرة من أحوال الناس .

(١) يريد : أنها — لكثرتها — هيجت الغبار الذى ملأ الجو ، فنع العيون أن تبصر فصارت الخيل تسمع الأصوات ، وتفعل ما تقتضيه تلك الأصوات ؛ فكأنما ترى بأذانها .

وبلى هذا كله ما نظمته في وصف الصيد ، ومجالس الشراب ^(١) (وما أشونه
وصفاً إذا قيسَ إلى ما أبدعه أبو نواس ، وابن الرومي ، وابن المعتز) .

ومن الخير - توفيةً للبحث قبل ختامه - أن أعرض أمثلة أخرى من الشعر
الوصفي للمتنبي ، لنرى مبلغ براعته في التصوير ، فيزداد الرأي وضوحاً ، والحكم
قوة .

قال في وصف حديقة : (وقد سابر أبا محمد بن طُغج ، من غير أن يدري
وجهته ، حتى دخل معه ضيقته) .

وَزِيَارَةٍ عَنْ غَيْرِ مَوْعِدٍ كَالْغَمَضِ فِي النَّجْفِ الْمُسَهَّدِ
مَعَجَتَ ^(٢) بِنَا فِيهَا الْجِيَا دُ سَمِعَ الْأَمِيرَ أَبِي مُحَمَّدٍ
حَتَّى دَخَلْنَا جَنَّةً لَوْ أَنَّ سَاكِئَهَا نُحَلِّدُ
خَضِرَاءَ حَمْرَاءَ السَّائِرَا بِ كَأَنَّهَا فِي خَدٍّ أُغِيدَ
أُحْبِبْتُ تَشْبِيهَا لَهَا فَوَجَدْتَهُ مَالِيسَ يُوجَدُ
وَإِذَا رَجَعْتَ إِلَى الْحَقَا ثِقَ فِيهِ وَاحِدَةً لِأَوْحَدُ

فإذا عرض من وصف الحديقة بزروعها ، وأزهارها ، وثمارها ، ومجالى
الحسن فيها ؟ وماذا أدركنا من صورتها ؟ وأي فائدة لنا في أن يقول : أحببت لها
تشبيها فلم أجده ؟ وبم نفسرها ؟

واستمع إليه يصف جَوْشَنًا ^(٣) أخرجته إليه أبوالمشائر الحمداني ، وسأله
عن رأيه فيه ؛ فأجاب بالميتين التاليين :

(١) من السير الرجوع إلى هذه الموضوعات في ديوانه فلها عناوين خاصة فيه وفي
دواوين من ذكرنا من الشعراء . (٢) سارت لينة هادئة .

(٣) درعا .

به وبمثله شقّ الصنوفُ وزلت عن مباشره الحترفُ
فدعه ألقى^(١)؛ فإنك من كرامِ جواشئها الأيسنة والسيوفِ

فأى وصف هذا ؟ وأى إجابة ؟

بل أرى وصف يعرضه علينا حين يصف لجة عند بدر بن سمار بقوله :

وذا غدايرٍ لأعيب فيها سوى أن ليس تصلح للعناقِ
أمرت بأن تشال ففارقتنا وما ألفت لحادثه الفراقِ
إذا هجرت فمن غير اجتنابٍ وإن زارت فمن غير اشتياقِ

فهل أدركنا شيئاً من الصورة يهز شاعرنا ، ويحرك خواطرنا ؟ هل وازن
بينها وبين الصورة الحية في الحركة ، والأثر ، والجمال ؟ وهل وضع لنا شيئاً من
خصلتها (كطولها ، وحبسها ، ولونها ، وثيابها) ؟ هل عرض للروح ، وفضلها ،
وقيمتها ؟ لا شيء من ذلك كله .

وتعال نستمع إليه وهو يرتجل - في مجلس ابن العميد - وصفاً للجُمرة
محشوة بالنرجس والآس ، والدخان يخرج من خلال ذلك :

أحبُّ امرئٍ حَبَّتِ الأنفُسُ وأطيبُ^(٢) ما شَمَّتْ مَعْطِسُ
ونَشْرُ^(٣) من النَّدِّ^(٤) لَسَكِنَا مجامرُهُ الآسُ والنَّرجِسُ

(١) مهملاً مرمياً . (٢) يريد : الممدوح أحب امرئ ... والبخور أطيب مشموم .

(٣) رائحة قوية . (٤) نوع من الطيب .

وَلَسْنَا نَرَىٰ لَهُبًا هَاجِسَهُ فَهَلْ هَاجَهُ عِزُّكَ الْأَقْسَىٰ (١) ؟
وَإِنَّ الْفَيْئَامَ (٢) الَّذِي حَوَّلَهُ لَتَحْصُنَا أَرْجُلُونَا الْأَرُوسُ

أترى في هذا الوصف شيئاً يوضح فتنة المنظر وجماله ، وينقل إلى النفس
بهي صورته ورؤاه ؟ أترى للخيال وبراعته أثراً ؟

وما رأيك في القطعة التالية التي قلنا حين انصرافه من مصر ،
واقترابه من بَسِيطَةٍ (٣) ؛ فبدأ لبعض غلمانه ثور ، فظنه منارة الجامع ، ولاحق
نعامة ، فحسبها نخلة ؟ :

بَسِيطَةٌ ، مَهْلًا ، سَقِيتِ الْقَطَارَا (٤) تَرَكَتْ عِيُونَ عَبِيدِي حَيَّارِي
فَظَنُّوا النِّعَامَ عَلَيْكَ الْمَخِيلَ وَظَنُوا الصَّوَارَ (٥) عَلَيْكَ الْمَنَارَا
فَأَمْسَكَكَ حَبِي بَا كَوَارِهِمْ وَقَدْ قَصَدَ (٦) الضَّحَاكَ فِيهِمْ وَجَارَا
فهل رأيت — كهذا — وصفاً غفلاً ، وشمراً ساذجاً ؟ إنه لا يبدو أن يكون
كلاماً مألوفاً يحوى خبراً من الأخبار المرددة .

وسنوفى المقام حقه من البيان حين تشكلم على موضوعات الوصف بعد .
وحسبنا هذا الآن .

وإن الإنصاف الذي اقتضانا أن نسجل فضله في بعض شعره هو الذي

-
- (١) الثابت الأعلى . (٢) الجاعات .
(٣) موضع قرب الكوفة . (٤) المطر .
(٥) الفطيع من بقر الوحش . (٦) اقتصد ، ولم يزد عن الحد المحمود .

يحملنا على الجهر بأنه أساء إلى نفسه وإلى هواه ، وإلى الرسالة الشعرية
بإغفاله مالا يصح أن يفضله شاعر كبير . فهل كان ذلك قصورا عنه
أو تقصيرا ؟

إني أميل إلى الأول ؛ اعتمادا على ما بينت . فليس بموهوب ولا كامل
الشاعرية من تتوالى عليه بدائع المشاهد ، وفن الجمال ، وتتردد أمامه
كبار الحوادث ، وعظائم الأمور . فلا يخفق لها قلبه ، ولا يتأثر بها وجدانه
تأثرا يظهر على لسانه وصفاً وتصويرا . ولو كان الأمر مجرد تقصير مالا لزمه
في أكثر حالاته ملازمة قضت عليه بالتخلف ، وعاقته عن أن يكون بين
المجَلِّين . فلقد سبقه من هذه الناحية كثير من شعراء العباسيين الذين
عاصروه أو تقدموه ؛ كهيار ، والوأواء ، وأبي تمام ، وأبي نواس ، وابن المعتز ،
وابن الرومي . فليس مما يُعتذر به عن المتنبي أن طريقتَه كانت الطريقة
السائدة في عصره ، وأن مسلكه كان مسلك شعراء زمانه ؛ فقللت مصادره
واهية ، بل غير صحيحة . ولو صدقت ما كانت شفيهاً له ، ولا مانعة أن نطالبه
بالتجديد ، والابتكار الحمود ، وبخالفه الشعراء في هذا . ولقد أصاب
(شوقي ^(١)) حيث يقول :

(ألم يكن من القين على الشعر والأمة العربية أن يحيا المتنبي مثلاً
حياته العالية التي بلغ فيها إلى أقصى الشباب ، ثم يموت عن نحو مائتي
سنة من الشعر ؛ تسعة أعشارها لممدوحيه ، والعشر الباقي - وهو الحكمة
والوصف - للناس ؟)

(١) في مقدمته للطبعة الأولى القديمة من ديوانه ص ٦ و ٧ .

ويقول :

ألا إن هناك مُلكاً كبيراً ما خلق الشعراء إلا ليتفننوا بمدحه ، ويتفتنوا بوصفه ، ذاهبين فيه كل مذهب ، آخذين منه بكل نصيب ؛ وهذا الملك هو : السكون . فالشاعر من وقف بين الثريا والنثرى ؛ يقلب إحدى عينيه في النثر ، ويجعل أخرى في النثر . يأسر الطير ويطلقه ، ويكلم الجراد وينطقه ، ويقف على النبات وقفة الطلل ، ويمر بالمرء مرور الوابل . فهناك ينفسح له مجال التخيل ، ويتسع له مكان القول ، ويستفيد من جهة علما لا تحويه الكتب ، ولا تعينه صدور العلماء ، ومن جهة أخرى يجد من الشعر مسلياً في الهم ، ومنجياً من الهم ، وشاغلاً إذا أمل الفراغ ، ومؤنساً إذا تملكك الوحشة . ومن جهة ثالثة لا يلبث أن يفتح الله عليه ، فإذا الخاطر أسرع ، والقول أسهل ، والقلم أجري ، والمادة أغزر ، بحيث لا تمضي السنون حتى تتداول الأيدي مؤلفاته وإذا مات أكبر الناس من بعده مُخلفاته . . .)

ذلك يجعل الرأي عندي في رسالة المتنبي الشعرية . وسيزداد أمرها وضوحاً بما أعرض له من الموضوعات الأخرى التي لها صلة بفننه وأدبه .

(ب) أحمد شوقي بك^(١)

ينتمي (شوقي) لأسرة مختلفة الأصول والأعراق ؛ تجده^(٢) لأبيه تركي يمتد نسبه إلى الأكراد فالعرب . قدم مصر أيام ولاية محمد علي باشا ، فألحقه بمخاضته ، واستعان به في كثير من المكاتبات الديوانية ، حين عرف عنه إجادة التركية والمربية خطاً وإنشاء . وظل يتقلب في المناصب حتى صار أميناً « للجمارك » المصرية في عهد سعيد باشا . وجمع ثروة طائلة مات عنها ، وتركها لابنه (والد الشاعر) فبددها الابن ، وكاد يقع فريسة الفقر والبطالة ، لولا أن تداركه الخديوي (توفيق) فأقامه مفتشاً بمخاضته .

وجدته لأبيه جركسية ، عرفت بحزمها وكياستها . وجدته^(٣) لأمه تركي ، قدم مصر فتياً ، فاستخدمه إبراهيم باشا ، وزوجه بحارياً معتوقة مصرية^(٤) الأصل . وبقي يصعد في المناصب حتى مات وهو وكيل خاصة الخديوي إسماعيل باشا .

تلك هي الأصول التي ينتسب إليها (شوقي) وبسببها يقول : « إني عربي ، تركي ، يوناني ، جركسي . أصول أربعة ، في فرع مجتمعة . تكفلها لها مصر ، كما كفلت أبويه من قبل . وما زال لمصر الكنف المأمول

(١) لحصنا هذه الترجمة الموجزة مما كتبه الشاعر عن نفسه في مقدمة الطبعة الأولى القديمة لديوانه ، وزدنا عليها ما جدّ بعد كتابته .

(٢) اسمه أحمد بك شوقي ، وعنه أخذ شاعرنا الاسم واللقب .

(٣) اسمه أحمد بك حلیم النجدي ؛ نسبة إلى قرية : « النجدة » من قرى

الأناضول . (٤) من بلاد الوره ؛ إحدى المقاطعات اليونانية إذ ذاك .

والنائل الجزل . على أنها بلادي ، وهى منشئ ومهادى ، ومقبرة أجدادى ،
ولد لى بها أبوان ، ولى فى ثراها أب وجدان ، وبمض هذا تحبب إلى
الرجال الأوطان) .

ولد شوق بالقاهرة سنة ١٨٦٨ م . ولما بلغ الرابعة من عمره دخل
مكتب الشيخ صالح^(١) ، ثم مدرسة المبتدیان الابتدائية ، فالمدرسة التجهيزية
(الثانوية) . ولما أتم دراسته الثانوية دخل مدرسة الحقوق ، وقضى بها
سنتين . ثم أنشئ فيها قسم للترجمة ؛ فتمحول إليه ، وقضى به سنتين ،
نال بعدها الشهادة النهائية فى الترجمة .

وقد كان الخديوى توفيق معجباً به وبشعره الذى ينشره وهو طالب ،
فاختاره بعد تخرجه مبعوثاً إلى فرنسا ، لیتم دراسته فى الحقوق والآداب
هناك . فأقام (بمونبليه ثم باريس) ثلاث سنوات ونصف سنة ، أكل
فيها دراسته ، واستزاد مما سافر له . وتد مكنته هذه الفرصة من الطواف
بأنحاء فرنسا ، والاطلاع على كثير من شؤونها ، وأحوال أهلها ، وزيارة
إنجلترا ، وبلاد الجزائر (فى شمال إفريقيا) ، ثم عاد إلى بلاده فضمه الخديوى
إلى حاشيته ، ونادبه بعد ذلك لتمثيل مصر فى مؤتمر المستشرقين بجنيف
(عاصمة سويسرة) . فاختلف الفرصة ، وتنقل فى تلك البلاد الفاتنة ، وغادرها
بعد المؤتمر إلى بلجيكا ، فزار حاضرتها ، وبعض مدائنها الكبيرة . وقفل
راجعاً إلى وطنه وعمله .

ولما مات الخديوى توفيق وتولى العرش بعده ابنه الخديوى عباس

(١) بحى السيدة زينب .

زاد في إكرامه وتقريبه ، وجعله أديب مجلسه ، ورفيق رحلاته ، فوق أنه شاعره الخاص .

ثم اشتعلت الحرب العالمية الأولى^(١) والخديوى يصفطاف وحده في بلاد الترك (وكانت مصر تابعة لهم من الوجهة السياسية مع احتلالها بالإنجليز) فأعلن هؤلاء حمايتهم عليها ، ومنعوا الخديوى من الرجوع إليها ؛ لانتهاكهم إياه بأنه عدو لهم ، وأنه تركي الهوى ، راض عما فعله الترك ، من انضمامهم في الحرب إلى صفوف الألمان ، أعداء المحتلين . وقد اضطهد الإنجليز كثيرا من الوطنيين ، وشرّدوا المقرّبين إلى الخديوى ، ومنهم — (شوقي) فنفّوه إلى بلاد الأندلس ، وظل بها إلى آخر سنة ١٩٠٩ ، فسمحوا له بالعودة ، فوصل أول سنة ١٩٢٠ ، ولما لم يجد لأسباب سياسية حالت دون ذلك . فانطوى شوقي على نفسه حيناً ، وتفرّغ لأدبه ، وتعمية ثروته . وقد هيات له الفرص أن يزور بلاداً وأقطاراً غير التي أشرنا إليها قبلاً ؛ فزار بلاد الترك ، ولبنان ، وسورية . وتجلت عبقرية كاملة بعد عودته من المنفى ، وطلع على الناس أنضج فسكراً ، وأصنف قريحة ، وأقوى شاعرية ، وأغزر إنتاجاً ؛ فأرسل روائع الشعر ، وبدائع الفثر ، وفواتن القصص المسرحية ، وغير المسرحية . وانطلقت ملكته الموهوبة تبارى استعداداته المهيأ في جمع الجدل له ، وقصّره عليه . وقد تم لهما ما أرادا ، فلم يظفر شاعر عربي معاصر بمثل ماظفر به شوقي من شهرة وصيت .

واتفقت كلمة البلاد العربية — لأول مرة في تاريخها — على أنه أمير

(١) في أغسطس سنة ١٩١٤ وظلت إلى نوفمبر سنة ١٩١٨ .

شعرائها . ولم يكتفوا بتزديدها متفرقة في بلدان العروبة ، بل سبجوها في إجماع رائع على لسان وفودهم التي اجتمعت بالقاهرة سنة ١٩٢٧ في مؤتمر عام ، تسلم زعامته الشعرية ، وتنادى به أميراً للشعراء ، ونقدم له — في ابتهاج وإكبار واطمئنان — تاج الإمارة ولقبها . وظل محتفظاً بهما لايزاحمه عليهما شاعر حتى ودع العالم سنة ١٩٣٢ . ولم يلمع في سماء الشعر العربي حتى الساعة من توهله مواهبه للزعامة العامة ، وترشحه للإمارة بعده . تلك الإمارة سريعة بحياة هذا الشاعر . ومنها نعلم :

١ — أنه عاش قرابة أربعة وستين عاماً فياضة بالأحداث الهامة في بلاده ، وفي المملكة العثمانية التي تنبعضها بلاده ، وفي العالم أجمع . في تلك الفترة وقع الاحتلال الإنجليزي لمصر ، وامتدت آثاره وآثاره لكل شأن من شؤونها ، ونشأت الأحزاب السياسية المصرية ، وفي مقدمتها الحزب الوطني ، ووقعت الحرب العالمية الأولى التي احتملت البلاد كثيراً من ويلاتها وأهوالها . ثم تمت الهدنة ، وما تبعها من ثورة مصر سنة ١٩١٩ ثورة تاريخية جارفة ؛ كي تسترد حريتها ، وتطالب باستقلالها ، ومن أحداث سياسية أخرى ؛ كتصريح ٢٨ فبراير ، وصدر الدستور ، وقيام الحياة النيابية ... وغيرها من شئون خطيرة ؛ داخلية ، وخارجية .

٢ — وأنه تلقى علومه المختلفة في مصر والخارج ، وأتاحت له رحلاته العلمية وغير العلمية أن يشاهد كثيراً من البلدان الإفريقية ، والأوروبية ، والأسيوية ، وأن يطلع على حضارات ومدنيات متباينة ، وأن يقابل

ملوكا وأمرأء كثيرين ، ويتصل ببعضهم اتصالاً قويا ، ويخالط الشعوب ،
ويقف على الكثير من شؤونها .

فما أشبه هذا التاريخ الموجز لحياة شوقي بتاريخ نظيره المتنبي في الأساسين
العامين ؛ فكلا الشاعرين قد نهل من ثقافة عصره حتى ارتوى ، وجمع منها حتى
استوعب أو كاد . وكلاهما قد طوّف في مشارق الأرض ومغاربها ، وملاً حواسه
من مشاهدتها ، وعاصر أحداثاً سياسية وغير سياسية في بلاده وفي خارجها ، وقد
عرفنا ماسجده المتنبي عما وقع تحت حسه ، ونصيب الأدب الذاتي وغير الذاتي
منه ، فما الذي سجله شوقي ؟ وما نصيبه من الذاتية وغيرها ؟

يجيب عن هذا ديوانه - بأجزائه الأربعة - ونفائسه الأدبية الأخرى .
وحسبنا أن نستعرض عناوين ديوانه ؛ فنقرأ فيها كل هام من موضوعات
السياسة المصرية والحزبية ، وكبار الحوادث الداخلية والخارجية ، ومظاهر
الحضارة المختلفة ، ووصف المجتمع ... و ... و ... فلهذا كله نصيب محمود بين
تلك العناوين التي تضم تحتها صوراً فنية رسمها صَنِّعَ فنان .

نقرأ في الجزء الأول أحاديث عن الشؤون المصرية - تشير مكاناً الشعور
المصري ، وتبين جرائبه - وقد استطاع الشاعر بمهارته أن يرتفع بالكثير منها
عن الأدب الذاتي ، وأن يحملها إنسانية تشير كل وجدان ، وتهيج كل حس .
نقرأ في هذا الجزء العناوين التالية :

كبار الحوادث في وادي النيل ، توت عنخ آمون ، محمد علي ، وداع اللورد

كرومر ، حادث دنشواي ، الخديو إسماعيل ، السلطان حسين ، مشروع ملنر ،
تصريح ٢٨ فبراير و ... و ... و ...

كما نقرأ فيه عن الحوادث الخارجية : الأندلس الجديدة ، روسية ، الدستور
العثماني ، نكبة بيروت ، تكيليل أنقرة ، تحية للترك ، الأسطول العثماني ،
الانقلاب العثماني ، انتصارات الترك ، خلافة الإسلام و ... و ... و ...

ونقرأ في الجزء الثاني : شكسبير ، مسجد أياصوفيا ، المرأة العثمانية ،
البسفور ، دمشق ، البحر الأبيض ، نكبة دمشق ، جسر البسفور ، لبنان ،
البرلمان المصري ، مؤتمر الأحزاب المصرية ، صقر قريش .

ونلاحظ في هذا الجزء كثيراً من قصائد الوصف ، وتصوير المشاهد ،
والحوادث الكرونية ، ومخترعات العصر ، فهو يصف أويتحدث عن :
مرقص ، الربيع ، غاب بولونيا ، السلال ، منظر الطبيعة ، البسفور ،
الأندلس ، أسس الوجود ، الكونكوردي ، الفيل ، معرض ، باريس ،
طوكيو ، دمشق ، لبنان ، زحمة ، الحرية الحمراء ، طيارة ، غواصة ،
البريد ، البرلمان .

وترى في الجزء الثالث — وهو خاص بالرثاء — دموع الإكبار والوفاء ،
والاعتراف بالجميل لأوائل القادة ، والزعماء ، والعلماء ، والأدباء ، وغيرهم
من قدموا لمصر وغيرها ، ممتناً جسماً ، وأيدي بارة ؛ فسجلها الشاعر لهم ،
وخلد بها صحائفهم ، وسلك في رثائهم مسلكاً فذاً يرضى الشاعرية والعبقرية
معاً — كما سنعلم بعد :

نسمع رثاءه لأمثال : مصطفى كامل ، سعد زغلول ، قاسم أمين ،

إسماعيل صبرى ، تولستوى ، هيجو ، جورجى زيدان ، محمد فريد ،
الشاعر الموسيقى فردى ، حافظ إبراهيم و . . . و . . .

وترى فى الجزء الرابع قصصاً خفيفة قصيرة ، وحكايات على ألسنة
الحيوان والطيور ؛ تنطق بالحكمة وتقود إلى الهداية . فى لغة سهلة ، وبيان
جذاب . يجد فيها الكبير لذته العقلية ، والصغير ما يرضيه . مثل :
العصفورتان والوطن ، الأسد والفيل ، أمة الأرانب ، القبرة وابنها

تلك إشارة موجزة إلى بعض ما حواه الديوان . ويطول بنا الكلام
لو عرضنا لكل عناوينه . فكيف بنا لو عرضنا لكل قصائده ، وما حوت
من سحر ، وروعة ، وأفانين ؟ بل كيف بنا لو عرضنا لكل ما جادت به
قريحته ، ونشاطه بنائه

على أن هذا لا يمنعنا أن نسوق بلالة من ذلك النبع العذب المنهمر ،
تكون مذاقاً للتشهى المتمجل ، وإن يكون له من ورائها إلا المبالغة فى التشهى
والحرص على الاستزادة

استمع إليه يخاطب المتنازعين بسبب تصريح^(١) ٢٨ فبراير سنة ٢٢ ،
وما جره النزاع من فرقة وبلاء بين المصريين :

(١) هو تصريح تمهيدى ؛ اعترفت فيه إنجلترا لمصر بالحرية والاستقلال . لكن قيدت
هذا الاعتراف بقيود وشروط أفقدته مزيته فى رأى فريق من المصريين ، ولم تؤثر
فيه أثراً خطيراً فى رأى فريق آخر . ومن هنا انقسمت البلاد ، وتنازعت
الأحزاب ، وأساء بعضها لبعض .

إِلَامَ الْخُلَفَاءِ بَيْنَكُمْ إِلَّا مَا ؟
وَهَذِي الضَّجَّةُ الْكُبْرَى عِلَامًا ؟
وَفِيمَ يَكِيدُ بَخْسُكُمْ لِبَعْضٍ ؟
وَتَبْدُونَ الْمَدَاوَةَ وَالْخِصَامَا ؟
وَأَيْنَ الْقَوَزُ ؟ لِمَ صُرْتُ اسْتَقَرَّتْ
عَلَى حَالٍ ، وَلَا السُّودَانُ دَامَا
وَأَيْنَ ذَهَبْتُمْ بِالْحَقِّ لِمَا
رَكِبْتُمْ فِي قَضِيَّتِهِ الظَّلَامَا ؟
لَقَدْ صَارَتْ لَكُمْ مُكَمَّا وَغُنَمًا
وَكَانَ شَعَارُهَا الْمَوْتَ الزَّوَامَا

تَرَامَيْتُمْ ، فَقَالَ النَّاسُ : قَوْمٌ
إِلَى الْخِذْلَانِ أَمْرُهُمْ تَرَاخَى
وَكَانَتْ مَعْرُ أُولَ مِنْ أَصْلَيْتُمْ
فَلَمْ تُمْضِ الْجُرَاحَ وَلَا الْكِلَامَا (١)
وَيَقُولُ فِي أَوَّلِ مَجْلِسٍ (٢) نِيَابِي بَعْدَ الدِّسْتُور :

دَارُ النِّيَابَةِ قَدْ صُنِفَتْ أَرَائِكُمَا
لَا تَجْلِسُوا فَوْقَهَا الْأَحْبَارَ وَالْخُشَبَا
الْيَوْمَ يَأْتِيهِمْ ... إِذْ تَبْدُونَ مَجْلِسَكُمْ ...
تَبْنُونَ لِلْعَقَبِ الْأَيَّامَ وَالْحَقَبَا
فَمَا هُوَ الْفَرْدُ ! إِنْ شِئْتُمْ سَمَا صُعْدَا
إِلَى الثَّرِيَّا ، وَإِنْ شِئْتُمْ هَوَى صَبَبَا
وَإِنْ رَضِيتُمْ عَمَرْتُمْ رُكْنَهُ ثِقَّةً
وَأَيْنَمَا هُوَ سُلْطَانٌ يُدَانُ لَهُ
يَقُولُ عَنْكُمْ ، وَيَقْضِي غَيْرَ مُتَّهَمٍ

وَيَصِفُ الْوَسِيلَةَ لِلْجَلَاءِ الْخَتَلِينَ عَنِ الْبِلَادِ بِقَوْلِهِ :
دُونَ الْجَلَاءِ وَدُونَ يَأْنَعِ وَرْدِهِ
خُطُوتَاتُ شَعْبٍ فِي الْقِتَادِ تُسَارُ
سُورٌ ، وَمِنْ عِلْمِ الزَّمَانِ إِطَارُ
وَبِنَاءُ أَخْلَاقٍ ، عَلَيْهِ مِنَ النُّهَى

وحضارة ، من منطِقِ الوادى لها أصل ، ومن أدب البلاد نِجارٌ
ويقول في الدُّشُّورِ :

الحقُّ أبلَجُ ، وَالْكِفَانَةُ حُرَّةٌ وَالْعِزُّ لِلدُّشُّورِ ، وَالْإِكْبَارُ
الْأَمْرُ شُورَى ، لَا يَهَيْتُ مُسَلِّطٌ فِيهِ ، وَلَا يَطْفَى بِهِ جَبَّارُ
إِنْ الْعَنَاءُ لِلْبِلَادِ تَخَيَّرَتْ وَالْخَيْرُ مَا تَقْضَى وَمَا تَخْتَارُ
عَهْدٌ مِنَ الشُّورَى الظِّلِيلَةِ ، نُضِرَتْ أَصَالُهُ ، وَأَخْضَلَّتِ الْأَسْحَارُ
تَجَنَّى الْبِلَادُ بِهِ عِمَارَ جَهودِهَا وَلِكُلِّ جُهْدٍ فِي الْحَيَاةِ عِمَارُ
و . . . و . . . و . . .

وإليك لمَّا صَوَّرَهُ عَنْ الْأَحْدَاثِ الْخَارِجِيَةِ . قَالَ فِي نَكْبَةِ
دمشق (١) :

سَلَامٌ مِنْ صَبَا (بَرَدَى) (٢) أَرْقُ وَدَمْعٌ لَا يُكْفَكُفُ يَدِمَشْقُ
وَمَعْنَرَةٌ الْيَرَاعَةُ وَالْقَوَافِي جَلَالُ الرُّزْمِ عَنْ وَصْفٍ يَلِيقُ
وَذَكَرَى عَنْ خَوَاطِرِهَا لِقَلْبِي إِلَيْكَ تَلَفَّتُ أَبَدًا وَخَفَّقُ
وَبَى مِمَّا رَمَتْكَ بِهِ الْأَيْلَى جَرَاحَاتُهَا فِي الْقَلْبِ مُعَقُّ

(١) كانت سورية جزءاً من المملاكة العثمانية فاحتلها الفرنسيون عقب الحرب العالمية الأولى التي انتهت في نوفمبر سنة ١٨ - كما سبق - والتي انهزم فيها الترك وحلفاؤهم . فلما كانت سنة ١٩٢٩ هب السوريون يطالبون باستقلالهم ، وثاروا ثورة عنيفة قابلها الفرنسيون بالعنف البالغ ، وفتكوا بهم أشنع فتك ، وخرّبوا كثيراً من دمشق بمدافعهم . وظل النزاع بين الفريقين يهدأ ويشد ، ويحمد ويستيقظ - إلى أن نال السوريون ما أرادوا عقب الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥) وتم لهم الاستقلال .

(٢) نهر عظيم يخترق دمشق .

رَبَّاعُ الْخُلْدِ - وَيَحْكُ! - مَا دَهَاها؟
 وهل غَرَفُ الْجِنَانِ مُنْضَدَاتُ؟
 وأين دُمَى الْقَاصِرِ مِنْ حِجَالِ
 بَرَزَنْ وَفِي نَوَاحِي الْأَيْكِ نَارُ
 إِذَا رُمِنَ السَّلَامَةُ مِنْ طَرِيقِ
 يَلْمِزُ لِلْقَذَائِفِ وَالْمَنَايَا
 إِذَا عَقِفَ الْحَدِيدُ أَحْمَرُ أَفْقُ
 سَلَى مَنْ رَاعَ عِنْدَكَ بَعْدَ وَهْنِ
 وَلِلْمُسْتَقِيرِينَ - وَإِنْ الْأُنُورَا -

أَحَقُّ أَنَّهَا دَرَسَتْ؟ أَحَقُّ؟
 وهل لِغَيْبِهِمْ - كَامِسٍ - نَشَقُّ؟
 مُهْتَكَةٌ ، وَأَسْتَارِ تَشَقُّ؟
 وَخَلَفَ الْأَيْكِ أَفْرَاحُ زُقُ
 أَنْتَ مِنْ دُونِهِ لِمَوْتِ طُرُقِ
 وَرَاءَ سَمَائِهِ خَطْفُ وَصَعْقِ
 عَلَى جَنَابَاتِهِ وَأَسْوَدَ أَفْقِ
 أَيْنَ فُؤَادِهِ وَالصَّخْرِ فَرَقُ؟
 قُلُوبُ كَالْحِجَارَةِ لَا تَرِقُ

وقال في الثورة العثمانية التي انتهت بإسقاط السلطان عبد الحميد (١) :

سَلِّ « يَلْدِزَا » (٢) ذَاتَ الْقُصُورِ
 لَوْ تَسْتَطِيعُ إِبْجَابَةَ لِبِكَّتِكَ بِاللِّمَعِ الْفُزْرِ
 أَخْشَنِي عَلَيْهَا سَا أَنَا نَخَّ عَلَى الْخَوَرَنْقِ وَالسَّيْرِ (٣)
 وَدَهَا الْجَزِيرَةَ (٤) بَعْدَ إِسْمَاعِيلَ ، وَالْمَلِكِ الْكَبِيرِ
 ذَهَبَ الْجَمِيعُ ، فَلَا الْقُصُورَ رُ تَرَى ، وَلَا أَهْلَ الْقُصُورِ

(١) أحد سلاطين الترك ، اشتهر بالبطوة والبأس ، والفتك بخصومه ، والحرص على الحكم المطلق ، والإسراف في التمتع . وكان يوم سقوطه سنة ١٩٠٨ عيدا عاما في البلاد التركية ، التي خضعت بعده للحكم الدستوري .

(٢) كلمة تركية معناها : البهيم ، وبه سمي قصر عظيم لعبد الحميد . ثم سميت البقعة باسم القصر (٣) الخورنق والسدير : قصران بالحريرة ، الملوك الماخرة .

(٤) جزيرة قصر النيل ، غربى القاهرة ؛ حيث منطقة « الزمالك » وما حولها الآن . وكانت مقر أغنى القصور وأعجب الحدائق التي أسسها الخديوي إسماعيل .

فَلَاكٌ يَدُورُ سَمُودُهُ وَشُكُوسُهُ بِمَسَدِ الْمَدِيرِ
 أَيْنَ الْأَوَانِسُ فِي ذُرَا هَا ؛ مِنْ مَلَأْكَةٍ وَخُورٍ ؟
 الْمُتَرَعَاتُ مِنْ النَّهْمِ ، الرَّاوِيَاتُ مِنَ السَّرُورِ
 الْعَاثِرَاتُ مِنَ الدَّلَالِ ، النَّاهِضَاتُ مِنَ الْفُرُورِ
 النَّاعِمَاتُ ، الطَّيِّبَاتُ ، الْمَرْفِ ، أَمْثَالُ الزُّهُورِ
 سَمُودُهُ « يَسْرِرُ » وَالْأَفُورِ لَنْهَائِهِ النَّجْمِ الْمُنِيرِ

.....

ويقول في « طوكيو »^(١) وقد رماها زلزال عنيف بنجاح مروع :
 أَتَتِ الْأَرْضُ وَالسَّمَاءُ بِطُوفَانٍ نِي ؛ يُنَسِّي طُوفَانُ نُوحٍ ، وَعَامَةٌ
 فَتَرَى الْبَحْرَ جُنَّ سَقَى أَجَارَ^(٢) السَّيْرِ ، وَاحْتِلَّ مَوْجُهُ أَعْلَامَهُ^(٣)
 مُزِيدًا ، نَارُ الْأَجَاجِ ، كَجِيشِ قَوَّاسِ الْعَاصِفِ الْمَهْبُوبِ^(٤) خِيَامَهُ
 فَلَاكٌ نُوحٍ تَمُودُ مِنْهُ بَنُوحٍ لَوْ رَأَتْهُ ، وَتَسْتَجِيرُ زِيَامَهُ

....

أما تصوير المشاهد فخافل به ديوانه . وإليك قطرات من مناهله :
 قَالَ يَصِفُ الْآثَارَ الْفِرْعَوْنِيَّةَ بِأَسْوَانٍ ، وَفِي مَقْدَمِهَا قَصْرَ أَنْسِ الْوُجُودِ
 الْقَائِمُ فِي الْغَيْلِ ؛ وَقَدْ أَذَابَ الْمَاءُ جِدْرَانَهُ ، وَكَادَ يَذْهَبُ بِهِ :

قَفْ بِتِلْكَ الْقُصُورِ فِي الْيَمِّ ، غَرَقَى مُمَسِّكًا بَعْضُهَا مِنَ الذَّعْرِ بَعْضًا
 كَمَا رَمَى ، أَخْفَيْنَ فِي الْمَاءِ بَعْضًا^(٥) سَابِحَاتٍ بِهِ ، وَأَبْدَيْنَ بَضًا

(١) عاصمة اليابان . (٢) اجتاز . (٣) جباله . (المفرد : عِلْم) .
 (٤) الذي يثير الغيرة . (٥) جسمنا ناعما ليناً .

مُشْرِقاتٍ عَلَى الزَّوَالِ ، وَكَانَتْ مُشْرِقاتٍ عَلَى السَّكْوَاكِ نَهَضًا
شَابَتْ مِنْ حَوْلِهَا الزَّمَانُ ، وَشَابَتْ وَشَبَابُ الْفَنُونِ مَازَالَ غَضًّا
رُبَّ نَقْشٍ كَأَنَّهَا نَفَضَ الصَّا نَعُ مِنْهُ الْيَدَيْنِ بِالْأَمْسِ نَفْضًا
وَدَهَانٍ كَلَامِغِ الزَّيْتِ ، مَرَّتْ أَعْضُرُ بِالسَّرَاجِ وَالزَّيْتُ وَضًا (١)
وَمُخْطُوطٍ كَأَنَّهَا هَدَبُ رِيحٍ حَسَنَتُ صِنْفَةٍ ، وَطَوْلًا ، وَغَرَضًا
وَضَحَايَا تَكَادُ تَمُشِي وَتَرْعَى لَوْ أَصَابَتْ مِنْ قُدْرَةِ اللَّهِ نَبْضًا
وَمَحَارِيبَ كَالْبُرُوجِ ، بَنَتْهَا عَزَمَاتٌ مِنْ عَزْمَةِ الْجَنِّ أَمْضَى
وَمَقَاصِيرِ أَبْدِيَاتِ بَقِيَّتِ الْبَسْمِكِ تَرْبَا ، وَبِالْيَوَاقِيتِ قَضَا (٢)
صِنْفَةٍ تَدْهَشُ الْمَقُولَ ، وَفَنٌّ كَانَ إِتْقَانُهُ عَلَى الْقَوْمِ فَرَضًا
و . . .

وَقَالَ يَعْصِفُ مَوْقِعًا جَمِيلًا فِي الْأَسْتَانَةِ ؛ يُقَالُ لَهُ بِالْتُرْكِيَّةِ : (كَرَكْ صَو) وَمَعْنَاهُ :

مَاءُ السَّمَاءِ :

غَشِيَتْكَ ، وَالْأَصِيلُ يَفِيضُ تَبْرًا وَيَنْسِجُ لِلرُّبَا حُلَلًا ، وَيَكْسُو
وَتَذْهَبُ فِي الْخَلِيجِ (٣) لَهُ وَتَأْتِي أُنَامِلُ تَنْثُرُ الْمَقْيَانِ ، تَحْسُ
وَفِي جَيْدِ الْخَمِيلَةِ مِنْهُ عِقْدُ وَفِي آذَانِهَا قُرْطٌ ، وَسَلْسُ (٤)
وَلَأَلَاتِ الْجِبَالِ : فُضَاءٌ سَفْحُ يَسُرُّ النَّاظِرِينَ ، وَنَارَ رَأْسُ

(١) وَضَاءُ : لَامِعٌ بَرَّاقٌ .

(٢) خَلِيجُ الْبَسْفُورِ الَّذِي تَشْرِفُ عَلَيْهِ الْقِسْطَنْطِينِيَّةُ .

(٣) نَوْعٌ مِنَ الْأَقْرَاطِ .

(٤) حَصَى .

عَلَى فَلَاكِ تَسِيرُ بِنَا الْهُمُومِي
وَسِنْ شِعْرِي نَدِيمٌ لِي ، وَجِلْسُ
تُنَازَعُنَا الْمَذَاهِبَ حَيْثُ مِلْنَا
زَوَارِقُ حَوَلَنَا ، تَجْرِي ، وَتَرَسُّو
لَهَا فِي الْمَاءِ مُنْسَابُ كَطِيرٍ
تُسِفُ (١) عَلَيْهِ أَسْيَابَا ، وَتَحْسُرُ
وَإِنْ هُوَ لَمْ يَحْرُكْ فَهِيَ رَسَسُ (٢)
وَإِنْ هُوَ جَدَّ فِي الْمَاءِ انْسِيَابَا
فَكُلُّ طَرِيقِهِ وَتَرُّ وَقَوْسُ

.....

وَقَالَ يَصِفُ لَيْلَةً وَهُوَ مَنِي فِي الْأَنْدَلُسِ ، وَيَذْكُرُ أَلَمَ الْفِرَاقِ وَالْغُرْبَةِ :
وَنَابِي (٣) كَانَ الْحُشْرَ آخِرُهُ
نَطَوَى دُجَاهُ بِجُرْحٍ مِنْ فِرَافِكُو
يَكَادُ فِي غَاسِ الْأَشْحَارِ يَطْوِينَا
إِذَا رَسَا النِّجْمُ لَمْ تَرَقَا تَحَاجِرُنَا
حَتَّى يَزُولَ ، وَلَمْ تَهْدَأْ تَرَاقِينَا
حَتَّى قَمَدْنَا بِهَا حُسْرِي تَقَاسِينَا
بَيْنَا نَقَاسِي الدَّوَاهِي مِنْ كَرَاهِيهِ
يَبْدُو النَّهَارُ ، فَيُخْفِيهِ تَجَلَدُنَا
لِلشَّامِتِينَ ، وَيَأْسُوهُ تَأْسِينَا

.....

وَيَقُولُ فِي وَصْفِ الرَّبِيعِ :

مَلِكُ النَّبَاتِ ؛ فَكُلُ أَرْضٍ دَارُهُ
تَلْقَاهُ بِالْأَعْرَاسِ ، وَالْأَفْرَاحِ
مَنْشُورَةٌ أَعْلَامُهُ ؛ مِنْ أَحْمَرِ
قَانٍ ، وَأَبْيَضِ فِي الرُّبَا ، لَمَّاحِ
لَبَسَتْ لِمَقْدَمِ الْغَمَائِلِ وَشَيْهَا
وَمَوْحِنٍ فِي كَفِّ لَهْ ، وَجَنَاحِ

(١) تنزل على وجه الأرض . (٢) متحركة في هدوء وبطء .

(٣) ليل طويل ، كليل النابغة الذياني . وبه يضرب المثل في الطول ؛ لقول النابغة :

كَلَيْفِي لَهْمٍ يَا أُنَيْمَةَ نَاصِبٍ وَلَيْلِ أَفَاسِيهِ بَطْلَى الْكَوَاكِبِ
تَطَاوُلُ حَتَّى قَلْتُ لَيْسَ بِمَقْضٍ وَلَيْسَ الَّذِي رَعَى النُّجُومَ بَأَثَمِ

يَفْشَى الْمَنَازِلَ مِنْ لَوْاحِظٍ نَرَجِسٍ أَنَا ، وَأَنَا مِنْ ثُغُورِ أَقَاحٍ
وَرْدُوسٍ (مَنْشُورٍ) خَفَضْنَ لِعِزِّهِ قِيَجَانَهُنَّ ، عَوَاطِرَ الْأَرْوَاحِ
وَالْوَرْدِ فِي مُرْرِ الْفُصُونِ مُفْتَحٍ مُتَقَابِلٍ يُشْنِي عَلَى الْفَتَّاحِ
ضَاحِي السَّكْوَاكِ فِي الرِّيَاضِ ، مُمِزٌّ دُونَ الزُّهُورِ - بِشَوْكَةٍ وَسِلَاحِ
مَرَّةً النَّسِيمِ بِصَفْحَتَيْهِ مُقْبِلًا مَرَّةً الشَّفَاهِ عَلَى خُدُودِ مِلَاحِ
و

وقال يصف بعض المناظر في يوم سيرة :

.....

حَيْثُ الْجِبَالُ صَخَارُهَا وَكِبَارُهَا مِنْ كُلِّ أبيضَ فِي الْفَضَاءِ ، وَأَخْضَرَا
تَحْتَ الْقِمَامِ بِهَا بِمَوْتًا ، فَانْجَلَتْ مَشْجُوبَةً (١) الْأَجْرَامِ ، شَائِبَةُ الذَّرَا
وَالصَّخَرُ تَالِي قَامٍ يَشْبَهُ قَاعًا وَأَنَافِ (٢) مَكْشُوفِ الْجَوَانِبِ ، مُنْذِرَا (٣)
بَيْنَ السَّكْوَاكِ وَالسَّحَابِ تَرَى لَهُ أَذْنَا مِنْ الصَّخْرِ الْأَصَمِّ ، وَمِشْفَرَا
وَالسَّفْحُ مِنْ أَيْ الْجِبَاهِ أُنْتَهُ الْقَيْمَةُ دَرَجًا يَمُوجُ ، مُدَوَّرَا
نَثَرَ الْفَضَاءَ عَلَيْهِ عَقْدَ نُجُومِهِ فَبَدَا زَبَرْجَدُهُ بِهِنَّ مُجَوَّهَرَا
وَتَنَظَّمَتْ بَعْضُ الْبُيُوتِ ، كَأَنَّهَا أَوْكَارُ طَيْرٍ ، أَوْخَيْسُ عَسْكَرَا
وَالْمَاءُ مِنْ فَوْقِ الدِّيارِ ، وَتَهْتَا وَخِلَافَهَا يَجْرِي ، وَمِنْ حَوْلِ الْقَرْيِ
مَتَصَوِّبًا (٤) ، مُتَصَدِّدًا ، مُتَمَهِّلًا مُتَسَرِّعًا ، مُتَسَلِّسًا ، مُتَعَثِّرَا

(١) جيلة متوقفة (بسبب أضوائها ؛ فكأنها النجوم المتوهجة) (٢) ارتفع
وأشرف على ما حوله . (٣) مهددا بالسقوط (٤) هابطا من الأعلى إلى الأسفل .

والأرضُ جسرٌ حيثُ سرت ، وممبَرٌ يصلانِ جسرًا في المياه ، وممبَرًا
والفلكُ في ظلِّ البيوتِ مواخرًا تطوى الجداولُ نحوَّها ، والأنهرُ

* * *

تلك لمحات من شعر شوقي ؛ لا نقصد من وراء عرضها وعرض نظائرها
من شعر المتنبي إلا أن تقودنا إلى ديوانهما ؛ لنرى المميزين الأوفى ، والنبع
الأصفى ؛ فيتسع البحث ، ويطول النظر ، ويصدق الحكم . وحاشا أن
نفهم في هذه اللوحات أكثر من أنها رموز وشارات ؛ توجهنا إلى المرجع
الأول ، وتفتح أبصارنا على موارد البحث الأكل . ومن الإساءة للشاعرين ،
وقصور أسباب الحكم وفساده - أن نقف عند تلك الإشارات قانعين .
وبعد ، فما أظن باحثاً منصفاً يقرأ هذا البيان ، فيتردد في الحكم لشوقي
في هذا الميدان .

(٢) الألفاظ ، وما يتصل بها .

حظ الشاعرين منها

نستهل هذا الفصل ببيان صفات الألفاظ ، وما اشترطه البلاغيون فيها لتكون كاملة ، أو قريبة من الكمال . ويجدر بنا قبل الخوض في هذا أن نعرض - بإيجاز - لبحث مفيد في الموضوع ، وهو بحث قديم ، لكنه يتجدد على الأيام . ويدور حول أفضلية اللفظ على المعنى ، أو العكس . وبمباراة أخرى : أى الأمرين يقع به التأثير البالغ في نفس السامع والقارئ ؟ اللفظ أم المعنى ؟ وبأيهما تتحرك المشاعر ، ويهتز الوجدان ؟ أبالألفاظ أم بالمعاني ؟

ذهب الأدباء مذهبين ، وأطالوا الجدل - كهادثهم - فيما لا يحتاج إلى إطالة ؛ فقدّم بعضهم المعنى على اللفظ ، قائلاً : ماذا في اللفظ لولا المعنى ؟ وهل الكلام إلا بمعناه^(١) ؟ ودافع عن هذا الرأي بعض كبار الباحثين ؛ كعبد القاهر الجرجاني^(٢) . واعتمده كثير من الشعراء ، فأثروا المعنى « ولم يبالوا حيث وقع من هُجْنَةِ اللفظ ، وقبحه ، وخشونته^(٣) » .

وقدم فريق آخر اللفظ على المعنى . وهذا الفريق أكثر عدداً ، وأعز شيعه . وحجته^(٤) :

(١) « أن اللفظ أغلى من المعنى ثمناً ، وأعظم قيمة ، وأعز مطلباً ، فإن

(١) دلائل الإعجاز ص ١٩٤ . (٢) سيجىء الرد عليه في ص ٦١

(٣) العمدة ج ١ ص ٨٢ . (٤) العمدة ج ١ ص ٨٢ .

المعاني موجودة في طباع الناس ، يستوى الجاهل فيها والعاقل .
ولكن العمل على جودة الألفاظ ، وحسن السبك . وصحة التأليف .
ألا ترى لو أن رجلاً أراد في المدح تشبيه رجل لما أخطأ أن يشبهه
في الجود بالنفيث والبحر ، وفي الإقدام بالأسد ، وفي المضاع بالسيف ،
وفي العزم بالسيل ، وفي الحسن بالشمس ، فإن لم يحسن تركيب هذه
المعاني في أحسن حلاها ؛ من اللفظ الجيد ، الجامع للركة ، والجزالة ،
والمدوبة ، والطلاوة ، والسهولة ، والحلاوة - لم يكن المعنى قدر « اهـ » .

(ب) « فصناعة الكلام ^(١) - نظماً ونثراً - إنما هي في الألفاظ لا في المعاني ،
وإنما المعاني تبع لها وهي أصل والمعاني موجودة عند كل
واحد ، وفي طوع كل فكر منها ما يشاء ويرضى ، فلا تحتاج إلى
صناعة . وتأليف الكلام للعبارة ^(٢) عنها هو المحتاج للصناعة . وهو
بمثابة القوالب للمعاني ، فكما أن القوالب التي يُفترق بها الماء من
البحر منها آنية الذهب ، والفضة ، والصدف ، والزجاج ، والخزف ،
والماء واحد في نفسه ، وتختلف الجودة في الأواني المملوءة بالماء
باختلاف جنسها لا باختلاف الماء - كذلك جودة اللغة ، وبلاغتها
في الاستعمال ؛ تختلف باختلاف طبقات الكلام في تأليفه باعتبار
تطبيقه على المقاصد . والمعاني واحدة في نفسها ؛ وإنما الجاهل بتأليف
الكلام وأساليبه على مقتضى ملكة اللسان إذا حاول العبارة ^(٣) عن

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٣٣٠ فصل في أن صناعة النظم والنثر إنما هي للألفاظ .

(٢) أي : للتعبير . (٣) أي : التعبير .

مقصوده ولم يحسن - بمثابة المُعَدِّ الذي يروم النهوض ولا يستطيعه ، لفقدان القدرة عليه .

(د) فليس ^(١) الشأن في إيراد المعاني ؛ لأن المعاني يعرفها العربي ، والعجمي ، والقروي ، والبدوي . وإنما هو في جودة اللفظ ، وصفائه ، وحسنه ، وبهائه ، ونزاهته ، ونقائه ، وكثرة طلاوته ، ومائه . مع صحة السبك والتركيب ، والخلو من أَوَدِ النظم والتأليف . وليس يُطلب من المعنى إلا أن يكون صواباً ، ولا ينعج من اللفظ بذلك ولهذا تأنق الكتاب في الرسالة ، والخطيب في الخطبة ، والشاعر في القصيدة ، يبالغون في تهويلها ، ويفلون في ترتيبها ؛ ليدلوا على براعتهم ، وحذقهم بصناعتهم . ولو كان الأمر في المعاني لطرحوا أكثر ذلك ؛ فربحوا كذا كثيراً ، وأسقطوا عن أنفسهم تعباً طويلاً ^(٢) . . . اهـ

تلك صورة موجزة من كلام الفريقين وأدلتهم ، وإني أميل إلى الرأي الثاني ، وأرمنُ به عن يقين واقتناع ؛ ذلك لأن المعاني شائعة لا يستأثر أحد بها ، ولأنها مستقرة في نفس صاحبها ، محتجبة في أعماق سريره . ولا سبيل إلى إظهارها وإبرازها من مكانها إلا بوسيلة من وسائل الإيابة والكشف ، ومن هذه الوسائل : الكلام المنطوق أو المكتوب ، والإشارة ، والتصوير ، وسائر الرموز والعلامات الموضحة . وأقوى هذه الوسائل : الكلام بنوعيه ، وبقدْر تمكن صاحبه ، وبراعته في الأداء ، وتملكه زمام التعبير - يكون

(١) الصناعتين الفصل الأول من الباب الثاني ص ٤٣ .

(٢) قد ورد مثل هذا منسوباً للجاحظ وغيره من أئمة الأدب (راجع ص ١٩٨ من

دلائل الإعجاز) .

كشفه عن المعاني ، وإبرازها ناصعة جليلة ، تقع من نفس السامع موقعها من نفس المتكلم ، وتبدو لذلك في الصورة التي تبدو بها لهذا . فليس التعبير إلا أداة لنقل الصور المعنوية من نفس صاحبها إلى نفس السامع أو القارئ ، وعلى قدر صلاح الأداة وقوتها يكون نجاحها في أداء مهمتها . وما مهمتها — كما أشرنا — إلا نقل المعاني كاملة من نفس إلى نفس ، والسفارة بين الأفكار : لتوصيل الصور المعنوية سليمة لا تشويه فيها ولا إفساد . والأمس على النقيض من ذلك إن كانت الأداة عاجزة أضعيفة .

ومن البديه القول بأن المعنى لا يتجسم ، ولا يبرز بنفسه ، ولا يستمد التأثير من ذاته ، وإنما يبرز في قوالب من الألفاظ تظهره ، وتمده بالتأثير . فإلى اللفظ يرجع الفضل الأكبر في ظهور المعنى وبروزه ، وإلى جمال اللفظ ، وحسن اختياره ، والبراعة في أدائه — يرجع الفضل الأول في تأثير المعنى . ذلك رأي في قضية الألفاظ والمعاني وما يتصل بها . وزاد الطمأناني لهذا الرأي حين عرضت لمئات من النماذج التي وصفوها بأنها تهز النفس ، وتحرك المشاعر ، فجردتها من جميل صوغها ، وبدبع تأليفها : فرأيتها قد تجردت من باهر روعتها ، وبالع تأثيرها ، واستعجالت معنى مألوف ، بل مبتذلاً مهيناً ، لا تقبل عليه النفس ، ولا ترى فيه حسناً .

وتعال نناقش بعض تلك الأمثلة التي وصفوها بالروعة ؛ لنرى مصدر روعتها وجمالها : أهو اللفظ أم المعنى ؟ فما تخبروه :

(١) إن الميون التي في طرفها حور قتلننا ، ثم لم يُحمين قتلانا
يصرعن ذاللب حتى لا حر الكبه وهن أضعف خلق الله أركاننا

(٢) أيتها النفس أجملِي جَزَاءً إِنَّ الذي تَحْذَرِينَ قد وَقَعَا

(٣) واحْتِمَالُ الأذى ورؤيةُ جَانِبِهِ غذاءُ تَفْؤَى بِهِ الأجسامُ

(٤) لا يَسْلَمُ الشرفُ الرفيعُ من الأذى حتى يراقَ قَلَى جوانبه الدمُ

(٥) وما استمضى على قومٍ مَنالٌ إذا الأقدامُ كان لهم ركابا

(٦) ولكمُ في القِصَاصِ حياةٌ

(٧) أحسبُ حبيبك شَوْناً ما ؛ عسى أن يكون بَهِيفُك يوماً ما ...

(٨) مَنْ أبطأَ به عَمَلُهُ لم يَسْرِعْ به نَسْبُهُ .

(٩) خَيْرُ القولِ ما صدَّقه الفعلُ .

(١٠) إن الله ليزعُ بالسلطانِ ما لا يَزَعُ بالقرآنِ .

(١١) إذا عَزَّ أخوكَ فَهُنَّ ...

أَيكون انشراحنا بتلك المعاني في ثيابها الحالية كأنشراحنا بها لو ألبسناها
ثياباً لفضيلة أخرى ، وأدينا كل معنى منها بكلام ليس له ذلك الصوغ
الحسن ، والتأليف الجميل ؟

من أين يأتي التأثير لو قلنا في المثال الأول : إن العيون الجميلة قَتَلَتْنَا ،
وقَتَلَتِ المقلاء ، مع أن هذه العيون أضعف الأجزاء التي خلقها الله .
وفي الثاني : يانفس لا تَحْزَنِي بعد اليوم ؛ فإن الشيء الذي كنت تخافين
وقوعه قد وقع .

وفي الثالث : من أشق الأشياء على النفس أن تصبر على الأذى ، وعلى
رؤية المؤذي .

وفي الرابع : إن صيانة الشرف المالى لا تتحقق إلا ببذل الأرواح .

وفي الخامس : إن إدراك المطالب يتم بالجرأة والإقدام .

.....

وما يقال فى النظم يقال فى النثر ، لاشك أن الفرق فى الروعة واضح بين الأمثلة فى صياغتها الأولى وصياغتها الثانية ، وشتان بين تأثير العبارة فى صورتها الأصلية وصورتها التى تُرِجِمَتْ إليها . على أنى لم أنزل بترجمة المبارات إلى الدرك الأسفل من التعبير اللفظى ، ولم ألبس الممانى أحقر الثياب ؛ وإنما نزلت بها إلى حال مقبولة تحتها أحوال كثيرة ، وألبستها ثياباً ليست الغاية فى القبح ، ومموء المظهر . فإذا يكون الأمر لولم أعتدل ؟

واستُبدِعا فى هذه الطريقة التى أعرض بها الأمثلة الرائعة ، وأترجمها إلى أخرى أقل شأنًا ، وأقبح شكلًا ، لأصل إلى أن التأثير كله للألفاظ ؛ فقد سبقنى إليها بعض أعلام الأدب والنقد فى القديم ؛ فهذا أبو هلال المسكرى يقول^(١) فى صدد الاحتجاج لرأيه الذى ينسب فيه الفضل للألفاظ ، ويجعل الشأن لها لا للمعانى :

« إن الكلام إذا كان لفظه حلوًا عذبا ، وسليسا سهلا ، ومعناه وسطا - دخل فى جملة الجيد ، وجرى مع الرائع النادر ؛ كقول الشاعر :

ولما قضينا من منى كل حاجةٍ ومسح بالأركان من هو مسحُ
وشدَّتْ على حُذْبِ المهاري رحالنا ولم ينظر الغادى الذى هو راحُ
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطي الأباطحُ

(١) الصناعتين س ٤٢ الباب الثانى فى تمييز الكلام .

وليس تحت هذه الألفاظ كبير معنى . وهي رائعة مُعْجِبة : وإعنا هي :
ولما قضينا الحج ، ومسحنا الأركان ، وشُدَّتْ رحالنا على مهازيل الإبل ، ولم
ينتظر بعضنا بعضا - جعلنا نتحدث ، وتسير بنا الإبل في بطون الأودية .

وهذا ابن قتيبة ؛ يتخذ الأبيات السابقة نفسها مثالا للشعر الرائع الذي
يقع في النفس موقع الحسن والقبول ، ولو تأملت ماوراء من معان لم تجد شيئا
غابا^(١) ، ومثلها الجرجاني في أسرار بلاغته^(٢) و... و... و...

على أن الجرجاني بكلامه هذا يؤيد معارضيهِ (أنصار المذهب اللفظي)
من حيث يدري أو لا يدري ؛ فكلامه هنا كلامه في مواضع مختلفة من
كتابه : أسرار البلاغة^(٣) ، ودلائل الإعجاز^(٤) ؛ حيث دافع عن رأيه
في إشارته المعنى بالتمثيل ، وأطال الدفاع ، ولا سيما في دلائل الإعجاز . ولكن
دفاعه كان مشوبا بالخلط بين تأييد اللفظ والمعنى ، مُنَشَّئ بالتموض والإيهام ؛
حتى انتهب على الفاحص أن يستخلص حقيقة رأيه ، أو يهتدي إلى صريح
مذهبه ، فما يسوقه لتأييد رأيه قد يصلح لتأييد خصمه ، وكل أدلته ذو وجهين .
وإليك ما يمكن استخلاصه من شتى آرائه وأدله :

(١) إن الكلام هو الذي يعطى العلوم^(٥) منازلها ، ويبين مراتبها ، ويكشف
عن صورها . ولولا انعطلت قوى الخواطر والأفكار من معانيها ،

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٠ .

(٢) فصل في قصة التجنيس ص ١٥ .

(٣) ص ١ و ٥ و ٢٣ و ١١٨ إلى ١٢٩ .

(٤) ص ٤٠ و ٤٤ و ١٩٢ و ١٩٩ وفصول أخرى توضحها عناوينها في فهرس

كتاب الدلائل . (٥) المعلومات .

ولبقيت القلوب مقلقة على ودائمه ، والمعاني مسجونة في مواضعها^(١) .

(ب) وإن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة ، ولا من حيث هي كلم مفرد ، وإنما تثبت الفضيلة وخلافها في ملازمة معنى اللفظة بمعنى التي تليها ، أو ما أشبه ذلك ، مما لا يتعلق له بصريح اللفظ^(٢) .

(ج) وإن نظم الكلام وتأليفه إنما يحىء بعد نظم المعاني في النفس ، وعلى حسب ترتيبها في العقل أولاً ، فالنظم الكلامي صورة مترجمة للنظم العقلي ، وبقدر موافقة السبق للسابق يكون التأثير في نفس السامع والمقارىء ، وعلى قدر مطابقة الترتيب اللفظي لترتيب العقلي الذي سبقه في الوجود يكون القبول . فلا فضل للألفاظ نفسها ؛ لأنها جاءت بحاكية للمعاني ، منتظمة على منوالها . وإنما الفضل الأول للأصل المحكي ، فالألفاظ لا تفيد حتى تؤلف ضرباً خاصاً من التأليف ، ويعمد بها إلى وجه دون وجه من التركيب والترتيب ، على طريقة معلومة ، وصورة مخصوصة ، تقع في الألفاظ مرتبة على المعاني المرتبة في النفس ، المنتظمة فيها على قضية العقل . وإن يتصور في الألفاظ — من حيث هي ألفاظ — وجوب تقديم وتأخير وتخصيص في ترتيب وتنزيل . وعلى ذلك وضعت المراتب والمنازل في الجمل المركبة ، وأقسام الكلام المدونة ، فقليل من حق هذا أن يسبق ذاك ، ومن حق ما ههنا أن

(١) س ١ من الأسرار — بتلخيص —

(٢) س ٣٨ إلى ٤٥ من الدلائل .

يقع هناك ، كما قيل في المبتدأ والخبر والمفعول والفاعل^(١) .

(د) وإن وضوح المعاني وخفاءها وزيادتها أو نقصها — لا يكون إلا باختيار اللفظ الذي هو أخص بها ، وأكشف عنها ، وأتم لها ، وأحرى بأن يكسبها نبلا ، ويظهر فيها مزية^(٢) .

هذه خلاصة صادقة للمذهب الجرجاني ، ولأدلة المنشورة في كتابيه . وهي أدلة تؤيد معارضيه من أصحاب المذهب اللفظي — كما قلنا — وتنهض حجة لهم لأعليهم ؛ فليس فيهم من ينكر أن الفضل كله للألفاظ في إبراز المعاني الكامنة في أعماق النفوس ، وليس فيهم من ينكر أن اتصال المعنى بشيئه ويعتمده لا يكون إلا باتصال خاص بين اللفظ واللفظ ؛ فالصلة بين المعنيين المنشاكلين لا تجيء إلا من طريق الألفاظ بينهما . فإذا ضعفت الصلة بين هذه الألفاظ تبسها ضعف الصلة بين المعاني . وقد يُسألون أن الترتيب اللفظي ، والصلة بين الكلمات والجمل — يجيئان تبعا لترتيب المعاني في العقل ، وأن هذا الترتيب العقلي هو الذي يتحكم في الترتيب اللفظي^(٣) .

فأين الخلاف إذاً بين الرأيين ؟

إن اللفظيين يقولون : إن خال الألفاظ وفساد ترتيبها يتبعه خلل المعاني ، وإفساد ترتيبها في النفس ، فالأمر للألفاظ ، والأثر لها ، لأن المعاني مخبئة في طوایا النفس ، مرتبة في داخلها — على حسب قولهم — ترتيباً معيناً ، والألفاظ هي التي تخرجها من مكانها ، وتبرزها مرتبة على هيئة ترتيبها

(١) ص ٢ أسرار البلاغة وما بعدها و ص ٣٨ وما بعدها من الدلائل — بتلخيص .

(٢) ص ٣٥ من الدلائل .

(٣) هذا التسليم موافقة ظاهرية لإبائها لايزال موضع جدل غنيث .

الأول . فلو لا الألفاظ لما ظهرت المعاني ، ولو لا الترتيب اللفظي وما يتبعه ما سلم الترتيب المعنوي وما يتبعه .

وفي الحق أن الخلاف بين الرأيين هين ، بل هو انطى — كما يعبر القدماء — يتلخص في أن فريقاً يقول :

إن المعاني أسبق وجوداً في النفس ، واستقراراً ، وترتيباً ، وارتباطاً فيها . وأن الألفاظ جاءت بعدها لتعبر عنها ، وتماكي ذلك الترتيب والارتباط السابقين ، وتسير على هداها من غير مخالفة ، فالفضل للسابق ، والأثر له .

وفريقاً آخر يقول : إن المعاني بنفسها ، وبترتيبها ، وبروابطها وبكل ما يتصل بها — خفية . والألفاظ هي التي تظهرها ، وتظهر خصائصها ، فالفضل للألفاظ وإن كانت متأخرة والأثر للسبوق .

وإلى هذا الرأي أميل — بالرغم من سطحية الخلاف — لأنه أوضح في الدلالة ، وأقرب إلى الواقع ، وتحقيق الناية . وفيه يقول بعض الباحثين^(١) : « ليس أدل على أن الشأن الأول في البلاغة إنما هو لرونق اللفظ ، وبراعة التركيب — من أن المعنى المبذول ، أو المرذول ، أو التافه ، قد يتسم بالجمال ، ويظنر بالخلود إذا جاد سبكه ، وحسن معرضه . والصياغة وحدها هي التي سمت بالمعاني التحسية إلى أفق البلاغة ، فتداولتها الألسن ، وتناقلتها الكتب . وليس حال المعنى في ذلك حال اللفظ ، فإن اللفظ في ذاته كلاموسيقى ، يخلب الأذن ، ويلد الشعور وإن لم يترجم . »

(١) صاحب كتاب دفاع عن البلاغة (الأستاذ أحمد حسن الزيات) ص ٢٦ و ٢٨ .

أما المعنى فـ كالـ كهربـا ؛ إذا لم يكن لفظه جيد التوصيل انقطع تياره ،
فلا يُعَرِّبُ ولا يُطَرِّبُ » .

وهذا صحيح ، أزيد عليه — ما سبقت الإشارة إليه — من أن المعنى
الذى يصفونه بالروعة تزول عنه روعته إذا فقد حسن الصياغة ، وجميل التعبير .
فلو كانت الروعة ذاتية فيه ، مستمدة منه نفسه — لم يفقدها بسبب تفسير الصياغة
أو غيرها ، بل تظل ملازمة له في جميع الصور والتراكيب . فما يسمونه معنى
جيدا ، أو : رائعا أو ... ليس إلا معنى مألوفاً ؛ تناوله الخيال المبشكر بحسن التصرف
البارع ، والبسه صاحبه ثوبا من الصياغة الجميلة ، وحسن السبك ؛ فهذا
جديداً ، وما هو بجديد .

ذلك رأيي في تلك الحقيقة التي يدور حولها الجدل قديماً وحديثاً . وقد
يكون الباعث على الجدل وإنكار أفضلية الألفاظ أحد أمرين ، أو : هـامماً :
أولهما : سوء فهم المراد من التأنق اللفظي ، والتمنية بالتركيب ؛ فقد يزعم
المجادل المنكر أن المراد منه هو تلك الزخارف والحلى التي تثقله ، بل
ترهقه ، وتنفّر النفوس منه ؛ كالذي يفعله أصحاب المقامات ، وملازمو
المحسنات ، ومن لم يقف على أسرار البلاغة الحقة ، ومطالبها الصحيحة .
وذلك زعم باطل ، لا يقول به أديب متمكن ، ولا بليغ حاذق . فمن
يرضى عن كلام « حمل صاحبه »^(١) فرط شغفه بأمر ترجع إلى ماله
اسم في البديع^(٢) إلى أن ينسى أنه يتكلم ليفهم ، ويقول ليمين .
ويخيل إليه أنه إذا جمع بين أقسام البديع في بيت فلا يضير أن يقع

(١) ما يأتي كلام لعبد القاهر الجرجاني في أسرار البلاغة ص ٦ و ص ٢٩٧ باختصار .

(٢) يكثر في كلام المتقدمين استعمال « البديع » بمعنى : المحسنات البلاغية المختلفة ، المعروفة

في علوم البلاغة الثلاثة (أي : أنهم يريدون بالبديع : العلوم البلاغية الثلاثة) .

ماعناه في عمياء ، وأن يوقع السامع من طلبه في خبط عشواء وربما طمس — بكثرة ما يتكلفه — على المعنى ، وأفسده ، كمن ثقل على على العروس بأصناف الحلى حتى ينالها من ذلك مكروه في نفسها . وهذا هو الكلام البغيض ، والزخرف الشائن « أما ^(١) الاحتفال والصنعة في التصويرات التي تروق السامعين وتروعههم ، والتخيلات التي تهز المدوحين وتحركهم ، فإنها تفعل فعلا شبيها بما يقع في نفس الفاضل إلى التصاوير التي يُشكّلها الحذاق بالتخطيط والنقش ، أو بالنحت والنقر ؛ فكما أن تلك تعجب ، وتغلب ، وتروق ، وتؤنق ، وتدخل النفس من مشاهدتها حالة غريبة لم تكن قبل رؤيتها ، ويفشاها ضرب من الفتنة لا ينكر مكانه ، ولا يخفى شأنه . . . كذلك حكم الشعر فيما يصنعه من الصور ، ويُشكّله من البدع ، ويوقعه في النفوس من الممانى التي يتوهم بها الجامد الصامت في صورة الطي الناطق ، والموات الأخرس في صورة الفصيح المرب ، والمبين المميز ، والمهدوم المفقود في حكم الموجود المشاهد حتى يكسب الدنى رفعة ، والغامض القدر نباهة .

وعلى العكس يفيض من شرف الشريف ، ويطاء من قدر ذى العزة المنيف ، ويظلم الفضل ويتهضمه ^(٢) ، ويخدش وجه الجمال ويتخونه ^(٣) . . . ويصنع من المادة الخسيسة بدعا يغلو في القيمة ويعالو ، ويفعل من قلب ^(٤) الجواهر وتبديل الطبائع — ما ترى به

(١) أسرار البلاغة ص ٣٩٧ باختصار .

(٢) تغيير .

(٣) ينقصه .

(٤) يظلمه .

الكيمياء وقد صحت ، ودعوى الإكسير وقد وُفِّت . إلا أنها
رُوحانية تتلبس بالأروهام والأفهام ، دون الأجسام والأجرام .
ثانيهما : أن بعض الدخلاء في الأدب ، الواغلين على أهله - عاجزون عن
إجادة التعبير ، وحلاوة البيان ، ورشاقة التأليف ؛ فهم يدافعون عن
المعنى ، ويجأرون بأن الفضل كله له ، وليس للألفاظ منه نصيب .
وما يدافعون إلا عن أنفسهم ، وعجزهم البياني ، وما يشينهم من عي
لأسبيل إلى تداركه ، وتقصير عزٍّ على الإصلاح .

ويجئنا الكلام في المعاني إلى الكلام في أصر آخر يتصل بها ؛ فقد قالوا
إن من المعاني ما هو شريف ... ، وما هو خسيس ... ، وأن كلا منهما يستمد
تأثيره من حسن الصياغة ، وأناقة التأليف . وأن المعنى الشريف أبلغ تأثيراً ،
وأشد وقعاً في النفس بسبب شرفه . (كالذي أشار إليه الجرجاني ^(١) وغيره فيما
سبق) وهذا تقسيم - وإن اعترف بفضل اللفظ ومزيقه - غير مفهوم ،
ولا مقبول ، فالعهد بالمعاني أنها لا توصف لذاتها بشرف ولا خسة ؛ فكلٌّ منها
في مكانه مطلوب ، حيث لا يغني عنه غيره ؛ فالحاجة إليه ماسة في ذلك
المكان ، وهو فيه أصيل ؛ أصالة الآخر في مكانه ، فلا تفاوت بينهما من
هذه الجهة . ومن أين يجيء التفاوت بينهما في الشرف أو الخسة والأمر كما
وصفنا من تفرد كل معنى بموضع ، واستئثار كل موضع بمعنى ؛ بحيث
لا يصلح أحدهما إلا لصاحبه ؟

والحق أن ما يسمونه : خسة المعاني ، أوحقارتها ، أوضالة شأنها - إنما
يجيء من وضعها في غير مواضعها ، وإحلالها محلاً لم يخصص لها ؛ فليس
العيب ذاتياً فيها ، وإنما العيب من التشكك الذي يفسد الوضع ، ويسمى

(١) راجع : أسرار البلاغة ص ١٩ و ١٢٣ وما بعدها .

الاختصار ، ولا يُحْكِمُ القول إحكاماً يصيب به الهدف ، ويُوَصِّلُ إلى وضع المعاني في نصابها المحتوم . ومن هنا صح قول القائل^(١) : (لا يُجَدُّ معنىً يَحْتَلُّ إلا من جهة اللفظ ، وجريه فيه على غير الواجب) .

* * *

إلى هنا وضحت قيمة الألفاظ في الأداء ، وتجلّى فضلها على المعاني ، وعظيم شأنها في التأثير . لكن ما الألفاظ التي لها المزايا السابقة ؟ وما أوصافها التي تُعرَفُ بها ؟ ذلك ما نعرض له الآن ، ونعهد له بالأمثلة :

* * *

(١) الألفاظ وأوصافها ، وما يتصل بها :

سمع أعرابي قول جرير :

إِنَّ الْعَيُونَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا حَوَرٌ قَتَلْنَا ، ثُمَّ لَمْ يَحْمِيَنَّ قَتْلَانَا
يَصْرَعُنَّ ذَا اللَّبِّ حَتَّى لَا حَرَكَ بِهِ وَهْنٌ أَضْمَفُ خَلْقِ اللَّهِ أَرْكَانَا

فقال : ما أحسن كلمة : (يصرعن) !! وما أقبح كلمة (أركانا) !!

وسمع آخر قول الأعرج^(٢) :

نَحْنُ بَنُو الْمَوْتِ إِذَا الْمَوْتُ نَزَلَ لَا عَارَ بِالْمَوْتِ إِذَا حُمُّ الْأَجَلِ
وَالْمَوْتُ أَحْلَى عِنْدَنَا مِنَ الْعَسَلِ

وقول المتنبي :

إِذَا شِئْتُ حَقَّتْ بِي عَلَى كُلِّ سَابِحٍ رَجَالٌ ، كَأَنَّ الْمَوْتَ فِي فَمِهَا شَهْدٌ^(٣)

فقال : إن لفظة : (الشهد) في كلام المتنبي أحلى^(٤) من لفظة : العسل

في كلام الأعرج . ومعنى الكلمتين واحد ، وإن اختلفت حروفهما .

(١) صاحب العمدة ج ١ ص ٨٠ . (٢) من شعراء الحماسة .

(٣) معنى البيت : إذا دعوت قومي لسكرية أجابوني مسرعين على ظهور الخيل السريعة

مستعذبين الموت . (٤) المثل السائر ، المقالة الأولى .

وسمع ثالث قوله تعالى : (فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا ، وَلَا مُسْتَأْذِينَ
لِحَدِيثٍ ؛ إِنَّ ذَاكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ . وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي
مِنَ الْحَقِّ) .

وقول المتنبي :

تَلَذُّ لَهُ الْمُرُوءَةُ ؛ رَهْمَى تُؤْذِي وَمَنْ يَعْشَقُ يَلْذُّ لَهُ الْغَرَامُ
فقال : إن هذا البيت من أبيات المعاني الشريفة ؛ إلا أن لفظة (تؤذى)
جاءت فيه وفي الآية ؛ فحسب موقعها في الآية ، وضعف تركيبها في البيت ،
فخطت من قدره (١) .

مما سبق نرى الكلمتين توصف إحداهما بالحسن ، أو الحلاوة ، والأخرى
بالقبح أو الضعف ، وقد يكون معناهما واحدا ، بل قد يتفقان مبنى ومعنى ،
ويختلفان حكما . (أى : من جهة الحسن والقبح) فما سبب الخلاف ؟
وما الحسن الذى يُلْحَق الكلمة فتمدح به ، والقبح الذى يلحق أخرى فتذم
من أجله ؟ وقد تمدح الكلمة الواحدة فى موضع وتذم فى آخر ، فما سبب ذلك
كله ؟ وهل هناك فرق بين الحسن والحلاوة ، وبين القبح والضعف
وأشألهما ؟

ثم ننتقل من الكلمة إلى الجملة (الكلام) أيضاً ؛ فقد سمع أديب
قول جرير :

إِنَّ الَّذِينَ غَدَّوْا بِلُبِّكَ غَادَرُوا وَشَلًّا^(٢) بِهِنِكَ ؛ لَا يَزَالُ مَعِينًا^(٣)

(١) المثل السائر المقالة الأولى .

(٢) الوشل هنا : الدمم الغزير . (٣) ظاهرا جاريا .

غِيظَنَ مِنْ عِبْرَاتِهِنَّ ، وَقُلْنَ لِي : ماذا لقيتَ من الهوى وتقيينا ؟
فقال : هذا شعر لا أعلم معنى أجود ولا أحسن من معناه ^(١) . فما معنى
الجودة والحسن هنا ؟ وما المراد بالمعاني الشريفة كالتي في البيت الأسبق ؟
وهل جودة المعنى وحسنه وشرفه سواء في مدلولاتها والمراد منها ؟

وسمع آخر قول الشاعر :

ولو أرسلتُ من حُبِّي لك مَهْبُوتاً ^(٢) من الصَّيْنِ
لوافيتُك قبل الصُّبْحِ أو حينَ تَصَلُّينِ
فففر من دناءة اللفظ ، وخسسته ، وابتذال المرض ، وقبحه ^(٣) . ودهش من
استحسان الأصمى لهذين البيتين . فما دناءة اللفظ وخسسته ؟ وما ابتذال
المرض وقبحه ؟

وسئل الفرزدق : مَنْ أشعر العرب ؟ فقال : بشر بن أبي خازم
بقوله رائياً :

ثَوَى فِي مَلْحَدٍ لَا بَدَّ مِنْهُ كَفَى بِالْمَوْتِ نَأْيَا وَاعْتَرَابَا

ولما سئل جرير قال : بشر بن أبي خازم ، ولكن بقوله :

رَهِينُ بَلَى ، وَكَلُّ فِتَى سَيْبَلَى فَشَقَّى الْجَيْمَ وَانْتَحَبَى انْتَحَابَا

فاتفقا على بشر ، واختلفا في الاستشهاد . فما سبب اختلافهما ؟ وما حجة
كل منهما ؟ ولم خالفهما غيرها ممن قال : إن أشعر العرب زهير إذا رغب ،
والنابغة إذا رهب ، والأعشى إذا طرب . وامرؤ القيس إذا ركب ، وجرير
إذا غضب ؟ أو ... أو ... وما أكثر أو ...

(١) مقدمة الصناعتين . (٢) ضالا على غير هدى .

(٣) مقدمة الصناعتين .

فنعن أمام كلام يوصف نوع منه بالجودة أو الشرف ، ونوع آخر بالدناءة والابتذال . ولا ندرى على وجه الدقة سبب الحكم ، ولا المراد منه . وقد يختلف الحكم على كلام مُعَيَّن مُحدَّد ؛ فيحمده قسم ، ويذمه آخرون ؛ وهو في الحالتين واحد . وقد يكون من الشعراء من يحكم له فريق بالسبق ، ويحكم عليه آخرون بالتخلف . فما مرَدُّ الأمر في ذلك ؟ وما الذى له الحكم القاطع ، والقول الفصل ؟

إنه الذوق الخاص ، والهوى الذاتى (الشخصى) . فلم يكن أمام الأدباء والناقدين قبل القرن الثانى والثالث الهجريين ما يُحكمونه سوى هذين ؛ وكلاهما لاضابط له ، ولا حدود . ومن ثمَّ اختلفت الآراء والأحكام باختلاف الأذواق والأهواء . وظل الأمر كذلك حتى زمن التدوين فى القرنين الثانى والثالث ؛ حيث انتشر التأليف ، واستقلت فروع العربية ، وقام كل فرع منها على مسائله الخاصة ، وصنفت أبوابه وفصوله ، وبرزت مصطلحاته واضحة محددة . فانضم الأدباء والناقدون للركب ، ووضعوا للنقد معالم توضح طرائقه ، وأساليبه ، وتضبط مسائله ، وتبين مناحى الحسن والقبح فى الكلام على قدر استطاعتهم إذ ذاك . وجاء مادونوه فى هذه الناحية مفيداً فى إبانة ، ومرشداً لمن جاء بعدهم .

وفى طليعة هؤلاء الناقدين والأدباء الجاحظ (المتوفى سنة ٢٥٥ هـ) فقد ضمن كتبه المختلفة (ولا سيما البيان والتبيين) ألواناً من ذلك . ثم المبرد (المتوفى سنة ٢٨٥ هـ) فى كتابه الكامل ، وأضرابهما ؛ وقد غاب على هؤلاء مزج النقد بالأدب ، وخلط فروع العربية بعضها ببعض فى كثير من مسائلها ، وعدم استخلاص المصطلحات استخلاصاً مَوْحِداً بينهم . ثم جاء بعدهم أئمة

آخرون ساروا على الدرب ، ولكن في شئ من التباين والتغيير ؛
فقد مزجوا الأدب بالنقد كسابقهم ، وامتازوا بفصل فروع العربية ،
وبإبراز المصطلحات أكثر من قبل . ومن هؤلاء قدامة بن جعفر (المتوفى
سنة ٣٣٧ هـ على الراجح) في كتابيه : نقد النثر ، ونقد الشعر . وعبد القاهر
الجرجاني (المتوفى سنة ٤٧١ هـ) وهو أظهرهم ، وأوضحهم نفعا في هذه الناحية
بكتابه : دلائل الإعجاز ، وأسرار البلاغة ، حتى عدّه بعض الباحثين
أول مؤسس لعلوم البلاغة ^(١) .

وبالرغم من هذا كله بقيت أصول النقد وقواعده ومصطلحاته مشوبة
بالغموض ، مصابة بالخلط والتشتت . حتى انبرى لها علماء البلاغة القاعدية ؛
فتمجدوا لها ، وجمعوا أصولها ، ووجدوا مصطلحاتها ، وصنفوا مسائلها ، وألفوا
لها كتباً خاصة محكمة ، متقنة ، تداركت ما فات السابقين . وفي مقدمة العلماء
« السكاكي » ^(٢) (المتوفى سنة ٦٢٦ هـ) ومدرسته ؛ فقد خدموا البلاغة العربية
أجل خدمة . وحين نقول : البلاغة ، إنما نقول العلم الذي يتصدى لكشف
محاسن الأدب ، وضبط قواعد النقد ، مستنبطة من الأدب الأصيل ، والنصوص
العربية الصافية في أجمل صورها وأسمائها ، ويوضح معالمها (أي : الأدب
والنقد) ، ويفرد لكل ما يختص بتجليتهما ، وهذا هو موضوعه وغايته .
وأرى انفرصة سانحة لأشيد بفضل « السكاكي » ومن آف آفّه ؛ برغم
الناقمين عليه ، أو المتسرعين في حكمهم على آثاره . فقد مهد السبيل للنقد ،
ويسره ، وحدد طرائقه ، ووجد أساليبه ، وهيا النفوس لتذوق الأدب ،

(١) ومن هؤلاء يحيى بن حمزة الحسيني صاحب كتاب الطراز المتوفى سنة ٧٢٩ هـ فقد
سجل هذا الرأي في مقدمة كتابه ، وأثنى على عبد القاهر وكتابه ثناء جماً .
(٢) برغم تكلفه وتعقيد أحيانا .

والتمييز بين حسنه وقبيحه تمييزاً يقوم على دعائم من العلم والفن معاً ؛ لا على دعائم من الذوق المطلق ، والهوى المتحرر ، كما كان الحال قبل عصر التدوين والتأليف .

نعم إن البلاغة القاعدية لا تغنى عن الذوق ، وهى بما أعدته من الضوابط الدقيقة لن تستطيع أن تزيله من طريقها ، ولا أن تقهر الهوى وتخفى آثاره فى الحكم ؛ ولكنها — من غير شك — تستطيع أن تكسر حدة هذا ، وتخفف شدة ذلك ، وتصلح — إلى حد كبير — ما فسد من أمرهما وتلك مزايا لا يحدها إلا مكابر .

ولشد ما يؤلمنى أن أرى بعض المثقفين والمتأدبين يتأفف حين يسمع اسم : البلاغة القاعدية ، ولا يتورع عن اتهامها بإفساد الذوق الأدبى ، وتعطيل المواهب الفنية ، وإصابة العقول بالجمود والضييق . وهو — لهذا — ينادى بنبذها ، وتحريم دراستها فى معاهد التعليم ؛ مدعياً أن الملكة الأدبية تنمو بقراءة الأدب نفسه ، وتترعرع عليه وحده ؛ فلا خير فى قواعد البلاغة ودراستها ، ولا غناء فى فهم أصولها ، وفروعها ، وقراءة كتبها ، وكل ما يتصل بها ، بل فيها الضرر كل الضرر .

وهذه دعوى جريئة ، تقوم على كثير من المغالطة أو التسرع ؛ فليست قواعد البلاغة إلا كقواعد النحو ؛ فقد ساعدنا النحو على فهم الكلام العربى من ضبط حركانه ، كما ساعدنا على محاكاة قولاً وكتابة بغير خطأ . وكان فى استطاعتنا أن نصل إلى هذه الغاية الجلية من طريق القراءة المستمرة ، والاستماع الطويل للصحيح من كلام العرب ؛ فتنمو عندنا ملكة تقليدهم ، ومحاكاتهم فى النطق بلغة سليمة من غير أن نعرف النحو ، وقواعده ، ودروسه . لكن

أستطيع أحد أن ينصح بهذا الرأي الآن وهو يعلم مبلغ الجهد والوقت اللذين يتطلبهما الأخذ به ، حتى نصل إلى تلك الغاية ؟ أستطيع عاقل — وبخاصة في عصرنا عصر السكدح ، والعمل ، والحرص على الوقت — أن ينادى بترك النحو ودراسته لفصل إلى الغاية منه بطريق آخر ؛ هو قراءة الكلام السرى ، والاستماع له ؟ فأى الطريقتين أيسر ههنا ، وأقل زمناً ، وأضمن نجاحاً ؟ إنه لا وجه للمفاضلة والتخيير بين الاثنين ؛ فالحق واضح . كذلك الشأن في علوم البلاغة القاعدية ؛ فمن الميسور أن نتذوق الأدب بالقراءة المستديمة وحدها ، وأن ينضج بها ذوقنا ؛ فيدرك الحسن والقبح ، ويميز الخبيث من الطيب . وهذه طريقة لاشك قوية ، وعليها سار — ولا يزال يسير — كثير من الأدباء والمتأدبين . لكن أيتسع وقت الراغبين اليوم لمثل هذه القراءة ؛ مع ما يحتمله أكثرهم من أعباء أخرى ترهقهم بها الحياة ؟ أليست علوم البلاغة مما يساعدهم على سرعة التذوق ، وكمال النضج ، والسير بهم قدما إلى الغاية التي يريدونها ، فتحفظ عليهم جهداً ، وتدخر لهم وقتاً ، ينفقونها في مطالب العصر المرهقة ؟

لم يقل أحد إن قواعد النحو وحدها كفيلة بسلامة النطق ، وصحة الكلام ، بل لا بد معها من الدربة والمرانة وقراءة الصحيح ؛ كذلك البلاغة القاعدية لا تغنى عن الأدب الأصيل ونصوصه ، ولم يقل أحد إنها تخلق الأديب الموهوب . وإنما قالوا إنها تبين على كشف نواحي الأدب ، وتبين محاسنه ومساويه ؛ في يسر ، وسرعة ، وراحة . وتجمع الباحثين والناقدين حول أصول موحدة ، وضوابط مقررّة ؛ وكفى بهذا فضلاً يقتضينا أن ندود عنه ، ونزعا ، ونزيد عليه ما تدعو الحاجة إليه .

البلاغة — إذاً — كالنحو . بل هي كباقي العلوم الأخرى ذوات القواعد والأصول العامة ؛ لا بد لتحقيق غاياتها الكاملة من الثَّربَةِ ، وحسن المزاولة . ولا يكفي الاختصار على ناحيتها النظرية ؛ إذ لا يصير الإنسان زارعاً ناجحاً ، أو مهندساً نافعاً ، أو جراحاً ماهراً ، أو غير ذلك بمجرد استظهار النظريات الزراعية ، أو الهندسية ، أو الطبية ، أو سواها ؛ بل لا بد منها من المزاولة العملية الواسعة ، والتطبيق الأوفى .

فليس من الحق ، ولا من صواب الرأي أن يرتفع صوت بإلغاء القواعد البلاغية ، أو إهمالها ، أو إهمال مصطلحاتها ، من غير أن يحل محلها ما يغني غناؤها ، ويقوم مقامها ؛ بالوسائل العلمية الناجمة ، والطرق السليمة المأمونة . وإلا كان ذلك رجعة إلى البلبلة ، وردة إلى الفوضى التي كانت سائدة قبل عصور التدوين والتأليف ، وانتكاساً إلى حالة أجهل المتقدمون أنفسهم للخروج منها ، والتخلص من آثامها على الوجه الذي أوضحناه آنفاً^(١) .

وها نحن أولاء نشهد من بوادر الفوضى في عصرنا ما يدعونا لمقاومتها ؛ فقد أصبحنا نصدّع بمن يذم البلاغة العربية ؛ لا شيء إلا لنزعة طائشة ، أو شهوة جاححة ، أو محاكاة حتماء . وصرنا نسمع من يصف هذه الكلمة بأنها : حلوة ، أو ناعمة ، أو جافة ، ومن يصف تلك بأنها : حسنة ، أو مرنة ، أو خشنة . ومن يصف غيرها بأنها : هادئة ، أو لينة ،

(١) وقد رأيت إماماً من أئمة الأدب والنقد الأقدمين (هو ابن الأثير الجزري) ينعي على بعض نظرائه إهمالهم شؤون البلاغة القاعدية عند الموازنة بين الشعراء . . . (راجع ص ٢٤١ ج ٢ الصبيح المنبي هامش العكبري) .

أو مُدَوِّية . من غير أن ندري — على وجه الدقة — ما يريده كل منهم بوصفه ، بل من غير أن يدري أحدهم ما يريده الآخر . بل ربما كان المتكلم بها لا يدري أيضا ؛ وقد انتقل الداء من الكلمة المفردة إلى الجملة المركبة (الكلام) ؛ فأصاب هذه ما أصاب تلك ، وصيرنا نسمع في وصف الكلام في معرض نقده : أنه سائح ، أو بغيض ، طلي ، أو مستهجن ، جديد أو تقليدي . . . إلى غير ذلك من الأحكام المبهمة ، والآراء الغامضة التي لا تعتمد على اصطلاح معروف .

ويزيد الألم حين نسمع صاحب هذا القول الفج يقول : هذا رأيي ؛ لا أبالي أكان موافقا للبلاغة القاعدية أم غير موافق ؟ وهذا منتهى القوضى والعيب . ومماثل قائله إلا مثل من يتنكر للقواعد النحوية ؛ لا يبالي بأحكامها ، ولا يرجع إلى مصطلحاتها . وذلك هو الفساد الذي لا يشبهه فساد .

فما أجدرنا بمحاربة هذه النزعة الطائشة ، والقضاء عليها قبل استفحالها ، وأن نقف إلى قول أمير الشعراء :

يَجِدُونَ كُلَّ قَدِيمٍ شَيْءٍ مُنْكَرًا	لَا تَحْذَرُوا عَصَابَةَ مَفْتُونَةٍ
من مات من آبائهم ، أو عُمرًا	ولو استطاعوا في الجائع أنْكَرُوا
وإذا تقدم للبناءية قصيرا	من كل ماضٍ في القديم وهدمه
والعلم نَزْرًا ، والبيان مُثْرَيرًا	وأني الحضارة بالصناعة رثّة

ولعل الذي خلق العداء للبلاغة القاعدية ، ودعا للثورة عليها أحد أمرين ، أو : هما معاً :

أولهما : جهل أعدائها بحقيقتها ، ومراميتها ، ووظيفتها على وجهها الحق الذي دَوَّنه الأعلام من رجالها الأوائل .

وثانيهما : ما أصاب قواعدها في عصورها المتأخرة من عُقم وفساد ؛ أبعدها عن جوهر الأدب الخالص ، وحالاً بينها وبين نصوصه الأصيلة النقيّة ، وقرباً بينها وبين الفلسفة الدقيقة ، والمنطق الضيق ، والجدل السخيف ، والمباحكات اللفظية ، والعقد والإشكالات التي هي أقرب إلى الأحاجي والألغاز ، منها إلى الوسائل اليسيرة النافعة ؛ فشوهت جمالها ، وأسأت إليها وإلى كتبها (ولا سيما المؤلفة في العصور المتأخرة) وذادت الناس عنها وعن قراءتها ودراستها ؛ إذ كانت حينئذ طويلة مفرطة الطول ، أو مختصرة سيئة الاختصار ، وآنا محتاجة لشرح أو شروح ، ومن وراء الشرح تنبيهات ، وتقارير ، وتفصيلات ؛ واستدراكات . . . إلى غير ذلك مما لا شأن لصميم البلاغة القاعدية به ؛ فليس العيب أصيلاً فيها ، وإنما هو دخيل مُقحّم عليها .

وشأننا في إصلاحها كشأننا في تدارك كل عيب طارئ ؛ نُبقي على الأصل النافع ، ونُخلصه من شوائبه وعيوبه ، ولا نستأصله انفساد طارئ عليه ، يمكن علاجه أو الخلاص منه في يسر وسهولة . وواجب الأمانة للفتنا ، وأدبها ، والحرص على قوميتنا - يُهيب بنا أن نحرص على تراثنا الغالي ، ونستصفيه من الأدران ، ونزيده من كل جديد مفيد تكشف عنه الأيام ، ونذود عنه ألسنة سوء وأقلامها^(١) .

تلك كلمة لم يكن منها بُدّ في هذا المقام نعود بعدها إلى مانحن بصدده مما قرره البلاغيون عن أوصاف الكلمة والكلام ؛ ما يحمد منهما أو يذم .

* * *

(١) سأوضح الطريق لذلك في بحث مستقل .

« لن ^(١) يستغنى الأديب في تأليف كلامه عن ثلاثة أشياء :
أولها : اختيار الألفاظ المفردة . وحكم ذلك حكم اللآلئ المبددة ؛ فإنها
تُتَخَيَّرُ وتُنْتَقَى قبل النظم .

ثانيها : نظم كل كلمة مع اختها المشاكلة لها ؛ كي لا يجرى الكلام قلقاً نافرأ
عن مواضعه . وحكم ذلك حكم العقد المنظوم في اقتران كل لؤلؤة منه
بأختها المشاكلة لها .

ثالثها : الغرض المقصود من الكلام على اختلاف أنواعه . وحكم ذلك حكم
الموضع الذي يوضع فيه العقد المنظوم ؛ فتارة يُجْعَلُ إكليلاً على
الرأس ، وتارة يحمل رقادة في العنق ، وتارة يجعل قرطاً في الأذن .
ولكل موضع من هذه المواضع هيئة من الطين تخصه .

« فهذه ثلاثة أشياء لابد من العناية بها وهي الأصل المعتمد عليه
في تأليف الكلام نظماً ونثراً » .

فأما عن الكلمة فقد عرض كثير منهم ^(٢) لأوصاف حسننها وقبحها ،
وتكاد آراؤهم تلتقي في أن الكلمة الحسنة ، أو : الجيدة ، أو : الجميلة ،
أو : ما شئت من أسماء المديح والاستحسان هي : (الفصيحة) . واستغنوا

(١) المثل السائر المقالة الأولى ص ٥٦ باختصار .

(٢) في مقدمة هؤلاء : ابن سنان الحفاجي (المتوفى سنة ٤٦٦ هـ) في كتابه
سر الفصاحة ، ص ٥٥ وما بعدها . وضياء الدين النوصلي في كتابه : المثل السائر . وكذلك
شروح السعد ، وغيره من كتب القواعد البلاغية التي لا يخلو كتاب منها من التعرض لهذا البحث
عند الكلام على الفصاحة ، والبلاغة ، ومعناها .

(بالفصيحة) عن كل اسم أو وصف آخر محمود ، وارتضوها وصفاً مَوْحِداً ،
واصطلاحاً عاماً لا توصف الكلمة الطيبة بغيره .

لكن ما الكلمة : (الفصيحة) التي ارتضوها ! وما مدلولها المرَكِّز
الذي يغنى عن الأوصاف الجميدة كلها ، وعن الأحكام المختلفة التي كانت
تدل عليها الكلمات المتفرقات الأخرى ؟ وإن شئت فقل : ما معنى الفصاحة ؟
وما المقصود منها ؟

لقد حدّدوا هذا المعنى أو المدلول تحديداً دقيقاً في كتبهم ، وأوضحوه
بالأمثلة والشواهد . فرجعه الأوفى هناك . ولكن هذا لا يمنع أن نشير إشارة
عابرة موجزة إلى بعض ما قالوه مما يتصل بموضوعنا .

فالفصيحة عندهم^(١) : ما تحققت فيها أوصاف مميّزة ، إذا تكاملت
بلغت أسمى الغاية في الحسن . وعلى قدر الموجود أو المفقود من تلك
الأوصاف تأخذ الكلمة قسطها من الحسن أو القبح . وتتلخص^(٢)
في أن تكون :

(سهلة النطق على اللسان^(٣)) (جميلة الجرس على الأذان^(٤)) (واضحة

(١) كتاب : سر الفصاحة ص ٦٠ وما بعدها — باختصار —

(٢) راجعها مشروحة في المرجع السابق ص ٦٠ . وما أكرهها في المراجع الأخرى .

(٣) أي : خالية مما يسمونه : تناثر الحروف ؛ بسبب تكرارها أو تقارب مخارجها .

(٤) أي : تكون موسيقية ؛ كما يقال الآن . وهذا يتطلب التأنيق والمبالغة في اختيارها ملائمة

لجاراتها ، والموضوع الذي تعرض فيه ؛ فموضوع الغزل والعتاب يقتضى أن
تكون رقيقة ، وموضوع الحرب والتهديد يقتضى أن تكون جيزة ؛ فإن لم يتحقق هذا
فقدت موسيقيتها ، ووصفت بأنها : ركيكة نائية ...

المعنى للخاصة ، مألوقة عندهم^(١) (موافقة لأصول الالفة وقواعدها الفرعية^(٢))
 (معتدلة في عدد حروفها^(٣)) (ليس بين معانيها الشائعة ما تنفر منه النفس ،
 وتشمئز عند سماعها وقراءتها) (مطبوعة بطابع الطرافة^(٤) والخصوصية^(٥)) .
 هذا عن الكلمة ، وأما عن الجملة وأوصافها (أى : عن الكلام المركب)
 فشبيه بما سبق ؛ فالكلام المحمود عندهم : ما كان فصيحاً . ولا يوصف
 بالفصاحة إلا إذا (كان سليم التأليف ؛ أى : بعيداً من الخطأ اللغوي ،
 ومخالفة الأصول والقواعد العربية المختلفة) (وكان فصيح المفردات ؛ واحدة
 واحدة على الوجه الذى سبق) (مؤلف الكلمات متجانسها ؛ فلا انفار بينها
 ولا عداء^(٦)) (سهلاً على اللسان والأذان ؛ أى : لا تكرار في حروفه أو كلماته

(١) فلا تكون متوعرة ، وحشية ، غريبة المعنى والاستعمال عندهم .

(٢) كالنحو ، والصرف ، والعروض

(٣) فلا تكون كثيرة الحروف ، يصعب النطق بها ، مثل : سويداواتها (جمع سوداء)

في بيت المتنبي : إن الكرام بلا كرام منهم مثل القلوب بلا سويداواتها

(٤) بأن تكون عربية ، مصونة ؛ ليست رائجة بين العامة والسوقة .

(٥) يريدون بخصوصيتها أصراً :

« أ » أن نستعمل ألفاظ المدح في المدح ، وألفاظ الرثاء في الرثاء ، ... وهكذا ،
 من غير خلط ، ولا تجاوز في الاختصاص . إلا الألفاظ الخاصة بالمصطلحات العلمية
 فاستعمالها معيب في الأدب .

« ب » وأن نستغنى بالكلمة الواحدة التي هي نص في المعنى وفي الموضوع عن التي
 ليست نصافيه ، وعن الجملة المركبة ؛ تقول : امرأة صناع . بدل امرأة ماهرة ؛
 لأن كلمة : « ماهرة » لا تؤدي ما تؤديه الصناع (أى : الماهرة في الأعمال اليدوية)
 فالأولى مختصرة ، ونص في موضوعها دون الثانية . ومثلها : أنجب فلان ؛ بدلاً من فلان
 ولد له ولد ذكي ، كريم السجايا ؛ فإن هذه الألفاظ الكثيرة تغني عنها الكلمة الأولى .

(٦) يريدون بذلك أن تكثر الكلمات الجزلة في المواطن التي تقتضي الجزالة والكلمات
 الرقيقة في المواطن التي تتطلب الرقة . وأن تتغلب ألفاظ المديح في موضعه ، والرثاء
 في موضعه . وكذلك باقي الأغراض ، فلا توضع كلمة جزلة بجانب رقيقة في موضع
 يتطلب أحدهما دون الأخرى ، ولا تجمع بين لفظة للرثاء وأخرى للتهنئة في موضع
 يقتضي واحدة منهما ، ويتأبى غيرها .

يثقلها) (واضح المعنى عند الخاصة) . ثم هو محتاج بعد هذا كله إلى مطابقته لمقام القول ؛ من مدح ، وذم ، ورثاء ، وابتداء ، وطلب ، وإنكار ، وجزالة ، ورقة ، وفصل ، ووصل ، وإيجاز ، وإطناب ، ومساواة . . .
وأما عن الغرض من الكلام وموضوعاته فله موضعه الخاص من هذا الكتاب .

ذلك ما قالوه ، وتلك ضوابطهم السليمة . ولهم فيها إبانة ، وإفاضة ، وشواهد ؛ فليرجع إليها من شاء استزادة ، أو استبانة .

فما مبلغ توفيق « المتنبى » و « شوقي » في هذه الناحية ؟
فأما المتنبى فلم يُوفِّقْ — إلا قليلا — في اختيار كلماته المفردة ، وكلامه المركب . وسنعرض عليك من هذا وذاك ما يقنعك ، من غير أن نتعمّد اختيار أمثلة بعضها ، أو تعصّد نماذج خاصة ؛ فالشواهد كثيرة ؛ لاتكاد تخلو قصيدة منها ، ولا يصعب على الباحث أن يجد منها في الديوان ما يتجاوز العشرات إلى المئات . وليس في هذا القول سرف ولا مبالغة ، بل هو الحق الصّراح .

وهذه طائفة ^(١) منها ندع للقارئ الحكم عليها (مفردة أو مركبة) بما يراه ، مسترشدا بما دَوَّنه الناقدون البلاغيون .

(١) وَأَنَّ الْبُخْتَ ^(٢) لَا يُرْقِنُ ^(٣) إِلَّا
وَقَدْ أَنْصَى ^(٤) الْمَذَاوِرَ ^(٥) الْأَكَاكَ ^(٦)

(١) من شاء أن يرجع إليها في الديوان لم يجد عمرا في ذلك ؛ لأن فصائد الديوان مرتبة على حسب الحروف الأبجدية ، فإذا عرفنا آخر حرف في البيت هنا أمكننا أن نهتدى منه إلى قصيدته . (٢) الإبل الحراسانية . (٣) لا يدخلن العراق . (٤) أتعبها (أى : الأعراق) ؛ حتى صارت هزيلة . (٥) الناقة الشديدة . (٦) الناقة المكتنزة اللحم .

(٢) سَلِيَ عَنْ سِيرَتِي فَرَسِي ، وَسَيَّنِي
 وَرُشِي ، وَالْمَلَمَّةُ (١) الدَّفَاقُ (٢)
 (٣) ويقول متغزلاً ، يصف الشعر :

حَالِكٌ (٣) كَالْفَدَافِ (٤) ، جَمَلٌ (٥) كَجَوْجِي (٦) (م)
 أُثِثُ (٧) ، جَمَدٌ (٨) وَلَا تَجْعِيْدُ
 ثم يقول مفتخراً :

لَأَمَّةٌ (٩) ، فَاضَةٌ (١٠) ، أَضَاةٌ (١١) ، دِلَاسٌ (١٢)
 أُحْكَمْتُ نَسْتَجِبَهَا يَدَا دَاوُدَ
 يُقْتَلُ الْعَاجِزُ الْعَجَبَانُ ، وَقَدْ
 يَعْجِزُ عَنْ قَطْعِ بُخْمَقِ (١٣) المولود
 وَيُوَقِّي الْفَتَى الْمِخْشُ (١٤) وَقَدْ خَوَّ (م)
 ضَ فِي مَاءِ كَبَّةِ الشَّيْءِ نَدِيدُ

(٤) وقال في مدح بدر بن عمار حين جاء الطبيب لفصده :
 لَمَّا تَبَقَّ إِلَّا قَلِيلَ عَافِيَةٍ قَدْ وَفَدَتْ تَجَمُّدِيكَهَا (١٥) الْمِلَلُ

(١)	الناقة الخفيفة القوية .	(٢)	السريعة المتدفقة في المشي
(٣)	شديد السواد .	(٤)	كالغراب . (٥) غزير
(٦)	أسود .	(٧)	غزير .
(٨)	فيه التواء وتقبض .	(٩)	مُحْكَمَةٌ (يصف درعه) .
(١٠)	سابقة .	(١١)	ضافية . (١٢) لينة براقية .
(١٣)	غطاء الرأس .	(١٤)	الجرى الذى يقتحم الحروب وغيرها لا يبالي .
(١٥)	تطلبها منك هبة .		

(قال الشراح معناه : أذهبت مالك بالمطاء ، فلم تبق إلا قليلا من المافية ؛

فقدمت عليك الملل تطلبه) .

(٥) وَلَا وَقَنْتُ بِجِسْمٍ مُسْنً (١) ثَلَاثَةً ذِي أَرْسُمٍ دُرُسٍ فِي الْأَرْسُمِ الدُّرُسِ

(٦) فَصَبَّحْتَهُمْ رِيحًا لَهَا (٢) شُرْبًا (٣) بَيْنَ ثُبَاتٍ (٤) إِلَى عِبَادِيدِ (٥)

تَحْمِلُ أَعْمَادُهَا الْفِدَاءَ لَهُمْ فَانْتَقَدُوا الضَّرْبَ كَالْأَخَادِيدِ (٦)

(٧) وَيَقُولُ فِي الْفَزْلِ أَيْضًا :

بَانُوا مَخْرُجُوبَةً (٧) لَهَا كَفَلٌ يَكَادُ عِنْدَ الْقِيَامِ يُقَعِّدُهَا

رَبِّحَ لَهَا (٨) ، أَسْمَرَ مُقْبِلَهَا سَبَّحَلَةً (٩) ، أَيْبَضَ مَجْرَدُهَا

(٨) وَيَقُولُ مَتَفَرِّلا أَيْضًا :

دَرَّ دَرُّ الصَّيْبِ . أَيَّامَ تَجْرِي سِرِّ ذِيُولِي بِدَارِ أَثَلَةٍ عُوْدِي

(٩) غَشَاةٌ عَيْشِي أَنْ تَنْفُتْ كِرَامِي وَلَيْسَ بَشْتٌ أَنْ تَفْتَّ الْمَاءَ كُلُّ

(١٠) مَاذَا الْوَدَاعُ وَدَاعُ الْوَامِقِ الْكَمْدِ هَذَا الْوَدَاعُ وَدَاعُ الرُّوحِ لِلْجَسَدِ

(١١) يَجُودُ بِهِ مِنْ يَفْضَحُ الْجُودَ جُودُهُ وَيُحْمَدُهُ مِنْ يَفْضَحُ الْحَمْدَ حَمْدُهُ

(١٢) مَبِيتِي مِنْ دِمَشْقٍ عَلَى فِرَاشٍ حَشَاهُ لِي بِحَرِّ حَشَايَ حَاشِ

(١٣) وَأَفْجَعُ مَنْ فَقَدْنَا مِنْ وَجَدْنَا قَبِيلُ الْفَقْدِ مَفْقُودَ الْمَشَالِ

(٢) خيولها .

(١) مساء .

(٣) ضوامر . (المفرد : شارب) . (٤) جماعات (المفرد : تبة)

(٥) جماعات متفرقة . (٦) ومعنى البيت : ضمن أعدائك أن يأخذوا الفداء فضة

وذعبا ؛ فلم يحصلوا إلا على ضرب من السيوف عميق ، كالأخاديد (جمع : أخدود ،

وهو الجحر) أخذوه نقدا . (٧) امرأة ناعمة ، سابة ، دقيقة العظام .

(٨) سمينة طويلة عظيمة . (٩) سمينة طويلة عظيمة .

(١٤) لَوْلَمْ تَكُنْ مِنْ ذَا الْوَرَى الَّذِي هُوَ عَقِمَتْ بِمَوْلِدِ نَسْلِهَا سَوَاءَ

(١٥) وَنَهَبُ نَفُوسِ أَهْلِ النَّهْبِ أُولَى بِأَهْلِ الْمَجْدِ مِنْ نَهْبِ الْقُمَاشِ

(١٦) جَوَابُ مُسَائِلِي : أَلَهُ نَظِيرُ ؟ وَلَآلِكَ فِي سُؤَالِكَ . لَآ ، لَآ ، لَآ (١)

(١٧) عَظُمْتَ ، فَأَمَّا لَمْ تُكَلِّمْ مَهَابَةً

تَوَاضَعْتَ ؛ وَهُوَ الْعَظُمُ عُظْمًا عَنِ الْعُظْمِ

(١٨) وَلَا الضَّعْفَ حَتَّى يَتَّبَعَ الضَّعْفَ ضَعْفُهُ

وَلَا ضِعْفَ ضِعْفِ الضَّعْفِ ، بَلْ مِثْلَهُ أَلْفُ

(١٩) سُمِّيَتْ بِالذَّهَبِيِّ الْيَوْمَ تَسْمِيَةً مُشْتَقَّةً مِنْ ذَهَابِ الْعَقْلِ لَا الذَّهَبِ

مُلَقَّبُ بِكَ مَا لَقَّبْتَ وَيَكُ بِهِ بِأَيُّهَا اللَّقْبُ الْمُلَقَّى عَلَى اللَّقْبِ

(٢٠) أَبْقَى زُرَيْقٌ لِلشُّغُورِ مُحَمَّدًا أَبْقَى نَفِيسٌ لِلنَّفِيسِ نَفِيسًا

وَبِهِ يُضَنُّ عَلَى الْبَرِيَّةِ ، لِأَيِّهَا وَعَلَيْهِ مِنْهَا لِأَعْلِيهَا يُوسَى (٢)

(٢١) أَيَا خَدَّدَ اللَّهُ وَرَدَ الْخُدُودِ وَقَدَّ قُدُودَ الْحَسَبِ الْفُؤُودِ

(٢٢) وَلَمْ أَرِ مِثْلَ جِبْرَانِي وَمِثْلِي لِمِثْلِي عِنْدَ مِثْلِهِمْ مَقَامُ

(٢٣) الْعَارِضُ الْهَتَنِ ابْنُ الْعَارِضِ الْهَتَنِ ابْنُ

نِ الْعَارِضِ الْهَتَنِ ابْنُ الْعَارِضِ الْهَتَنِ

(١) معنى البيت كما قالوا : إذا سألتني سائل : هل له نظير ؟ فالجواب : لا ، وليس لك نظير في سؤالك ؛ لأن أحدا لا يجهل هذا غيرك . وفي البيت تقديم ؛ وأصله : لا ، ولا لك .

(٢) أسيت عليه أسي : إذا حزنت . وقد اختلف الشراح في معنى البيت ، وأوضح ما قيل فيه ما نقله العكبري عن الواحدى : أن الناس لو ساموا دونه لم يساوا قدره ؛ لذا يُبَخَّلُ به عليهم . ولو صاروا فداء له لم يُبَخَّلَ بهم عليه ، لأنه أفضل منهم مجتمعين ؛ ففيه خلف عنهم ، وهم جميعا لا يخلفونه .

(٢٤) وَنَفْسِي لَهُ ، نَفْسِي الْفِدَاءَ لِنَفْسِهِ وَلَكِنْ بَعْضُ الْمَالِكِينَ عَنيفٌ

(٢٥) لَوْلَا الْعُلَا لَمْ تَجِبْ^(١) بِي مَا أُجُوبُ بِهَا

وَجُنَّاهُ^(٢) حَرْفٌ^(٣) ، وَلَا جَرْدَاهُ^(٤) قَيْدُودٌ^(٥)

(٢٦) وَأَمَقٌ^(٦) ، لَوْ خَدَتِ^(٧) الشَّيْئَالُ بِرَأْكِبٍ

فِي عَرْضِهِ لَأَنَاحَ وَهِيَ طَلِيحٌ^(٨)

(٢٧) وَيَقُولُ مَتَغَزَلَا :

أَشَارُوا بِتَسْلِيمٍ فَجَدْنَا بِأَنْفُسٍ تَسِيلُ مِنَ الْأَمَقِ ، وَالسَّمَّ أَدْمَعُ

يريد بالسَّم : الاسم (لغة فيه) فانظر المعنى الجميل كيف يُفسده اللفظ

القمييح ؟ وأين هذا من قول شوقي :

أَنَادَى الرَّسَمَ ؛ لَوْ مَلَكَ الْجَوَابَا ! وَأَجْزِيهِ بِدَمْعِي ؛ لَوْ أَثَابَا !

وَقَلَّ لِحَقِّهِ الْعَبْرَاتُ تَجْرَى وَإِنْ كَانَتْ سَوَادَ الْقَلْبِ ذَابَا

وقوله يصف قلبه :

تَسَرَّبَ فِي الدَّمُوعِ ؛ فَقُلْتُ وَلِي وَصَفَّقَ فِي الضَّلُوعِ فَقُلْتُ : آبَا

(٢٨) وَيَمْنَعُنِي مِمَّنْ سِوَى ابْنِ مُحَمَّدٍ أَيَادِي لَهُ عُنْدِي يَضِيقُ بِهَا عِنْدُ

(٢) ناقة عظيمة الوجنات .

(١) تقطع .

(٤) فرس هزيلة .

(٣) ضامرة هزيلة .

(٦) مكان طويل .

(٥) طويلة .

(٧) أسرع . (الوخذ : ضرب من السير ، فيه سرعة) .

(٨) يشكو التعب والإعياء . ومعنى البيت : لو حملت ريح الشمال إنسانا ، وسارت به

في هذا البلد الطويل — لأنناح الراكب ، وسقطت الشمال تعباً وإعياء من طوله .

فإذا كانت الريح تمنيا فيه فكيف المسافر ؟

فانظر كلمة : عند .

(٢٩) إِنَّ الَّتِي سَفَكَتُ دَمِي بِجَفْوَتِهَا لَمْ تَدْرِ أَنَّ دَمِي الَّذِي تَتَقَلَّدُ

يُتَسَاءَل الشراح : ماذا يريد ؟ أكانت تلبس قلادة حراء ، لونها كلون دمه ؟ أم يريد : أن ذنب قتله لاصق بمنقها ، وأنها مسئولة عنه ؟ .

(٣٠) وَأَبْعَدَ بُعْدَنَا بُسْدَ التَّدَانِي وَقَرَّبَ قُرْبَنَا قُرْبَ الْمِيَادِ
فما المعنى ؟ وما النسج (١) ؟

(٣١) أَلَوْمْ بِهِ مِنْ لَامِي فِي وَدَادِهِ وَحُقَّ لَخَيْرِ الْخَلْقِ مِنْ خَيْرِهِ الْوَدُ
(٣٢) يُقَالُ إِذَا أَبْصَرْتُ جَيْشًا وَرَبَّهُ : أَمَامَكَ رَبٌّ ، رَبُّ ذَا الْجَيْشِ عَبْدُهُ (٢)

(٣٣) يَا أُخْتَ خَيْرِ أَخٍ ، يَا بِنْتَ خَيْرِ أَبٍ كَفَايَةً بِهِمَا عَنْ أَشْرَفِ النَّسَبِ
(٣٤) وَمَهْمَه (٣) جُبْتُهُ عَلَى قَدَمِي تَعَجَّزُ عَنْهُ الْعَرَامِسُ (٤) الذُّلُّ (٥)

(٣٥) أَنَا السَّابِقُ الْهَادِي إِلَى مَا أَقُولُهُ إِذَا الْقَوْلُ قَبْلَ الْقَائِلِينَ مَقُولُ
(٣٦) وَيَقُولُ فِي مَدَحِ بَدْرِ بْنِ عَمَارٍ :

(١) المعنى كما قال الشراح : السَّيْرُ إِلَى الْمَدْحِ أَوْ الْبَعْدُ عَنِ الْبَعْدِ الَّذِي كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ ، وَقُرْبُ الْقُرْبِ الَّذِي صَارَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ . أى : أنه قُرْبِي إِلَيْهِ بِحَسَبِ مَا كَانَ بَيْنَنَا مِنَ الْبَعْدِ ، وَكَانَتْ عَلَى غَايَةِ الْبَعْدِ مِنْهُ ، فَعَمَرْتُ فِيمَا بَعْدَ عَلَى غَايَةِ الْقُرْبِ مِنْهُ ، فَقَدْ كَانَ الْعَسِيرُ الْفَضْلُ فِي أَنْ جَعَلَ بُعْدَهُ بَعِيدًا عَنْ وَقْرِهِ قَرِيبًا .

(٢) معنى البيت : إِذَا رَأَيْتَ مَلِكًا عَظِيمًا وَجَيْشَهُ ، وَعَجَبْتَ مِنْ عَظَمَتِهِمَا وَقُوَّتِهِمَا — قِيلَ لِي : مَنَّاكَ مَلِكٌ آخَرُ أَعْظَمُ (يَقْصِدُ الْمَدْحَ) وَهَذَا الْمَلِكُ الَّذِي تَرَاهُ الْآنَ عَبْدُهُ .

(٣) أرض واسعة بعيدة الأطراف .

(٤) النوق الصلاب الشديدة (المفرد : عَرَامِس) .

(٥) المروضة التي تعودت السير — (المفرد : ذُكُول) .

رأينا بـبدرٍ وآبائه لبدرٍ ولُوداً وبدرًا ولِيداً^(١)

(٣٧) فشكري لهم شكرانٍ ؛ شكرٌ على النَّدَى

وشكرٌ على الشكرِ الذي وهبوا بهـدُ

(٣٨) وانظر كيف وصف الشرفاء بالبييض ، والعلم بالتبريح^(٢) حيث يقول :

إذا الشرفاء البييضُ متُّوا^(٣) بقتوه^(٤)

أنى نسبُ أعلى من الأبِ والجدِ^(٥)

تفضلت الأيامُ بالجمع بيننا فلما حمَدنا لم تُدسِّنا على الحمدِ

جمَلَنَ وداعِي واحدًا لثلاثةٍ جمالاتٍ ، والعلمُ المبرِّحُ ، والمجدُ^(٦)

(٣٩) ويمدح ابن الحميد بالسكرم :

فنى ، فأتى المدوى من الناس عينه فما أرمَدَتْ أجفانهُ كثرةُ الرُّمْدِ

فما معنى البيت ؟ وإن كان معناه كما دوَّنه الشراح ، فهل أحسن اختيار

الكلمات فى المديح ؟ وهل يسوغ هنا ذكرُ المدوى والرمد حيث يريد أن يقول :

(إن الناس عُغمى ، وهو البصير بينهم ؛ فعيون الناس لم تصل إليه . فهو بصير

بالمكارم ، والناس عُغمى عنها) ؟

(١) الولود : الوالد . والوليد : المولود . والبدر الأول هو : الممدوح . والبدران

الآخران : قران . والمعنى : رأينا برؤية بدر وآبائه والد القمر وقرا مولودا .

(٢) أكثر ما يستعمل التبريح فيما فيه شقاء وتعذيب . قال العكبرى : لم يعصف أحد العلم

بالتبريح إلا المتنبى . (٣) تقربوا . (٤) القتل : الخدمة

(٥) معنى البيت : إذا تقرب الشرفاء إلى هذا الممدوح بخدمته ، فقد اكتسبوا شرفا

أسمى وأطهر من شرفهم الموروث عن آبائهم وأجدادهم .

(٦) معنى البيت : إنى حين أودع هذا الممدوح أودع ثلاثة أشياء ليست لأحد سواه .

(٤٠) وما مشورك عند ما تسمع كلمة (عرض) في أبياته التي يمدح ، ويصف بها خلعة أرسلها إليه الأمير الحمداني سيف الدولة :

فكأن صخرة نسجها من لفظه وكأن حسن نقائها من عرضه
(٤١) ويقول مادحا :

ومن توهمت أن البحر راحته جوداً ، وأن عطايه جواهره
فهل يحسن في المدح أن يقال : (توهمت) وهي كلمة لم تجر في الاستعمال
الشائع إلا مجرى الشك ، أو ما هو أضعف منه ؟
(٤٢) أمي^(١) أبا الفضل^(٢) المبر^(٣) أليتي^(٤)

لا يمتن أجلاً بحر جوهراً^(٥)
(٤٣) ويقول مادحا داعياً :

وإذا ارتحلت فشيعةك سلامة حيث اتجهت ، وديمة مذار
وأراك دهرك ما تحاول في العدا حتى كأن صروفه أنصار
وبدون ما أنا من وداك مضمر ينفض المطي ، ويقرب المستار
فتأمل الكلمات الثلاث : (شيعةك) و (كأن) و (المستار) ؛ يعني السير أو مكانه) . وقف عندها لتري كيف أساء الشاعر اختصارها ، فأضعف بها المعنى ؛ فالتشيع (وإن كان من معانيه : التوديع) لم يشتهر منذ أقدم

(١) اقصدى . (٢) هو أبو الفضل بن العميد . . .

(٣) الذي يجعل يعني بارة ؛ لاحظ فيها . (٤) يعني وقسمي وهي التي في الشطر الثاني .

(٥) معنى البيت : لما حلفت (أن أقصد أجل بحر جوهراً) برت يعني بالذهاب إليه ؛ لأنه أحسن مقصد .

العصور إلا في الجنائز والأُمور البغيضة . والتشبيه غير حميد في مكانه ، حيث لا يحسن إلا التحقيق والتأكيـد . والمستار غريبة ، نابية .

(٤٤) وأنت أبو الهيجا، ابن حمدان، يابنة^(١) تشابه مولود^(٢) كريم^(٣) ووالد^(٤)

وَحَمْدَانُ حَمْدُونُ ، وَحَمْدُونُ حَارِثُ^(٥) وَحَارِثُ لَقْمَانُ ، وَلَقْمَانُ رَاشِدُ^(٦)

(٤٥) أُسْأَلُهَا عَنِ الْمُتَدِيرِهَا^(٧) فَلَا تَدْرِي ، وَلَا تَدْرِي دَمُوعَا

(٤٦) إِنْ كَانَ مِثْلُكَ كَانَ أَوْ هُوَ كَأَنْ فَبَرِئْتُ حِينَئِذٍ مِنَ الْإِسْلَامِ

(٤٧) فِرَاقٍ ؛ وَمَنْ فَارَقْتُ غَيْرُ مُذَمَّمٍ وَأُمٌّ ؛ وَمَنْ يَمُوتُ خَيْرُ مُيَمَّمٍ

(٤٨) أُحَادٌ ، أَمْ سُدَّاسٌ فِي أُحَادٍ لِيَمْلِئَنَا الْمَنُوطَةُ^(٨) بِالتَّنَادِ ؟

لقد علم المتنبي أن التصغير قد يكسب الكلمة خفة ورشاقة ، إذا عبر بها عن شيء لطيف ، أو خفي^(٩) ، أو قليل ، أو نحو ذلك . فأتى بكلمة (ليملئنا) مصغرة ؛ ناسيا شرط الحسن في التصغير ، وما جلبه هنا من ثقل ، فوق ما في البيت من غموض معنوي شديد . ومثله كلمة « الْأَصْمِييَّة »^(١٠) في بيته .

(١) سيف الدولة بن أبي الهيجا عبد الله بن حمدان ، بن حمدون ، بن الحارث ، ابن لقمان بن راشد . فعنى البيت أبوك أبو الهيجا ، وأنت ابنة ، وأبو الهيجا أيضاً ، فأنت صحيح الشبه به ، حتى كأنك هو ، فقد تشابه المولود والوالد .

(٢) معنى البيت : أنت تشبه أباك حمدان ؛ فكأنك هو ، وحمدان هو أبوه حمدون ، وحمدون هو أبوه حارث وهكذا فكل ابن هو الأب ؛ لأنه يشبهه تماما ، وفيه كل أخلاقه وصفاته الكريمة .

(٣) الذين اتخذوها داراً . (٤) سر الفصاحة ص ٨٢ .

(٥) قال العكبري : إنما تصغر الصبية والصبيان

فَأَرْهَقَتِ السَّادِرِي مِرْدَفَاتِ وَأَوْطَيْتِ الْأَسَدِيَّةُ الصَّغَارُ^(١)

(٤٩) ومن رثائه لأخت سيف الدولة ، واسمها خولة :

كَأَنَّ فَعْلَةً لَمْ تَمْلَأْ مَوَاكِبَهَا دِيَارَ بَكْرِ ، وَلَمْ تَخْلَعْ وَلَمْ تَهَبْ

وَنَحْمُهَا فِي الْعُلَا وَالْمَلِكِ نَاشِئَةً وَهُمْ أَنْزَابُهَا فِي الْهَوِ وَالْمَلْعِ

يَعْلَمَنَّ حِينَ تُحْيَا حُسْنَ مَبْسِمِهَا وَلَيْسَ يَقْلَمُ إِلَّا اللَّهُ بِالشَّنْبِ^(٢)

قف عند كلمة : « فَعْلَةً » التي كفى بها عن خولة (لأنها على وزنها)

وتأمل قبجها ، وسوء اختياره للألفاظ ؛ بذكر مَبْسِمِ الأميرة ، وشنبها .

وهذا مما لا يصح ذكره في الرثاء عامة ؛ فكيف برثاء الأميرات

العربيات المصونات ؟

(٥٠) ومثله في رثاء والدته الأمير :

سَلَامَ اللَّهِ خَالِقَنَا حَنُوطٌ عَلَى الْوَجْهِ الْمُبْرَقِ بِالْجَمَالِ

ولقد عوّب في هذا ، وقيل له^(٣) : أما استحييت من الأمير ؟

(٥١) بِيَاضِ وَجْهِ يَرْيِكِ الشَّمْسِ حَالِكَةً وَدُرُّ لَفْظِ يَرْيِكِ الدُّرِّ مَخْشَلِبًا^(٤)

(٥٢) أَقْلٍ ، أَنْلٍ ، أَقْطَعُ ، أُحِجِلْ ، عَلٍّ ، سَلٍّ ، أَعِذْ

زِدْ ، هَشْ ، بَشْ ، تَفَخَّضْ ، أَدْنِ ، سُرْ ، صِلِ

(١) البيت من قصيدة في مدح سيف الدولة وتهنئته بالانتصار على الخارجين عليه .

ومعناه : أن الأعداء هربوا فرعين ، يدوسون بالجيل صبيانهم الذين لم يقدروا على

حملهم ؛ لشدة سرهم . وأردفوا وراءهم العذارى ، طلباً لنجاتهن ، وحرصاً

عليهن ؛ فأرهقوا من بهذا الإرداف .

(٢) غزوة فيها ، وسلامة أسنانها . (٣) الصبح المنبج ج ١ ص ١٥٢ .

(٤) خرواً .

فهل رأيت ثِقَلًا وقبعا كهذا ؟ وهل رأيت هَذَرًا كهذوله :

عِشْ ، اَبَقْ ، اَسْمُ ، سُدْ ، قُدْ ، جُدْ ، مَرْ ، اِهْ ، رِفْ ، اَسِرْ ، نِلْ
غِظْ ، اِرْمْ ، صِيبْ ، اَحْمْ ، اَغْزْ ، اُسْبْ ، رُغْ ، زَعْ ، دِلْ ، اُثْنْ ، نُلْ
(٥٣) اُسْدُ فَرَّ اِسْمَهَا الْاُسُودُ ، يَقُودُهَا اُسْدٌ تَبْسِيرُ لَهُ الْاُسُودُ ثَمَالِبا

(٥٤) وقال مادحا بحسن التدبير والجرأة في الإقدام :

تَذَبِيرُ ذِي حُنْكَ (١) يَفْكَرُ فِي غَدٍ وَهُجُومٌ غِرٌّ (٢) لَا يَخَافُ عَوَاقِبَا
فَإِذَا تَرَى فِي كَلِمَةٍ غِرٌّ ؟ أَلَمْ يَكُنْ فِي اسْتِطَاعَتِهِ أَنْ يَخْتَارَ مَا لَا يُشْتَمُّ مِنْهُ
السُّوءُ فِي مَوْقِفِ الْمَدِيحِ ؟

(٥٥) أَرَاكَ كَاتِبَ الْأَحْبَابِ ، إِنَّ الْأَدُمْعَا

تَطِيسُ (٣) الْخُدُودَ كَمَا تَطِيسُنَ الْيَوْمَمَا (٤)

قَدْ كَانَ يَمْنَعُنِي الطَّيَاءُ مِنَ الْبُكَاءِ فَالْيَوْمَ يَمْنَعُهُ الْبُكَاءُ أَنْ يَمْنَعَا (٥)

(٥٦) يَرَى أَنْ مَا مَا بَانَ مِنْكَ لَضَارِبٍ بِأَقْتَلَ مِمَّا بَانَ مِنْكَ لِعَائِبٍ (٦)

(٥٧) فَلَا مُشَادَّ ، وَلَا مُشِيدٌ حَتَّى وَلَا مُشِيدٌ أَغْنَى وَلَا شَائِدٌ

(٥٨) ثَنَاهُمْ وَبَرَقَ الْبَيْضُ فِي الْبَيْضِ صَادِقٌ عَلَيْهِمْ وَبَرَقَ الْبَيْضُ فِي الْبَيْضِ خَلَبٌ (٧)

(١) جمع : حُنْكَ ، وهى : التجربة . (٢) غير مجرب ولا خبير .

(٣) تدق . (٤) المحبارة الصغيرة اللينة .

(٥) يريد أن يقول : كان حياثي يتغلب على البكاء فيمنعه ، أما اليوم فالبكاء قد تغلب عليه

(٦) الموضع الذى يبين منك للسيف ، ويعرضك للقتل - ليس أقسى ولا أقتل من الذى

يبين لعائبك . أى : أن مقاتلك ليست أفتك ولا أكثر خطراً عليك من معايبك .

(وكلمة « ما » الأولى زائدة ، أو بمعنى ليس) .

(٧) البَيْضُ : السيوف . (المفرد : أبيض) . وَالْبَيْضُ : الخوذات . (المسرد : بَيْضَةٌ)

(٥٩) إن الكريم بلا كرام منهم مثل القلوب بلا سؤيداً وأنتها

فتأمل ثقل الحروف في البيت كله ، وطول الكلمة الأخيرة منه ^(١) :

(٦٠) أقول لها اكشفى ضررى وقولى بأكثر من تدللها - خضوعاً ^(٢)

(٦١) وقوله يتشعب :

خف الله ، واستر ذا الجمال برقع فإن لحت حاضت في الخدور المواتق ^(٣)

فأى ذوق يرتضى هنا كلمة : حاضت ؟

(٦٢) الخائض الفمرات ^(٤) غير مدافع والشمرى ^(٥) المطعن ^(٦) الدعيسا ^(٧)

(٦٣) وهل يرضى الأدباء عن استعمال المصطلحات النحوية وأشباهاها حيث

يقول مادها :

إذا كان ما تنويه فعلاً مضارعاً مضى قبل أن تلقى عليه الجوازم

وقوله :

أمضى إرادته ، (فسوف) له (قد) واستقرب الأقدى ، (فثم) له (هنا)

وقوله :

وكان ابناً عدو كثر أهله ياءى حروف أنيسيان ^(٨)

* * *

(١) سر الفصاحة ص ٨١ . (٢) أى : بأكثر خضوعاً من تدللها .

(٣) الفتيات اللاتي قاربن البلوغ (المفردة : عاتق) .

(٤) الشدائد . (٥) الشمر لاقتحام الأمور والمصاعب .

(٦) الجيد الطعن . (٧) كثير الطعن .

(٨) هذا البيت متم في معناه لما قبله . يريد : عدوك الذى له ولدان يكائر بهما ، هما

كياين زائدتين في لفظ « أنيسان » لأنه وهو مكبر خمسة أحرف ؛ فاذا صغر زيد

فيه ياءان فنقص في معناه وفخره ؛ فهما زائدتان في نقصه .

و بعد ؛ فقلك تماذج من عيوب المتنبي اللفظية . وإنها لقليلة إلى جانب ما في ديوانه من عيوب لا تقتصر على أبيات فرّادى منشورة في قليل من القصائد والمقطوعات ؛ بل إنك لتري العيوب تتخلل منظومات كاملة ، ولا تقتصر فيها على بيت ، بل تموج خلال المقطوعة أو القصيدة . ولا بأس أن أسوق صوراً من هذه وتلك .

فمن المقطوعات واحدة تقوم على خمسة أبيات في وصف بازاءنقض على حجة^(١) فصادها ، فقال :

وطائرةٍ تَتَّبَعُهَا الْمَنَاسِيَا على آثارها زَجَلٌ^(٢) الجَنَاحِ
كَأَنَّ الرِّيشَ مِنْهُ فِي سِهَامٍ على جَسَدٍ تَجَسَّمُ مِنْ رِيحٍ
كَأَنَّ رَهْوسَ أَقْلَامٍ غِلَاطٍ مَسْحَنَ بَرِيشٍ جُؤْجُؤُهُ^(٣) الصَّحَّاحِ
فَأَقْعَصَهَا^(٤) بِحُجْنٍ^(٥) تَحْتَ صُقْرٍ^(٦) لَهَا نِقْلُ الْأَسْنَةِ وَالرَّمَّاحِ
فَقُلْتُ لِكُلِّ حَيٍّ يَوْمُ مَوْتٍ وَإِنْ حَرَّصَ النُّفُوسُ عَلَى الْفَلَاحِ

ومن القصائد قصيدته الشينية في مدح علي بن حمدان ، وتبلغ نحو ستة وثلاثين بيتاً ، مطلعها :

مَبِيتِي مِنْ دِمَشْقَ عَلَى فِرَاشِ حَشَاءُ لِي بِحَرِّ حَشَائِي حَاشِ

(١) نوع من الطيور ؛ كالكروان . (٢) مصوت . (٣) صدره .

(٤) دق عنقها ، كناية عن الموت السريع .

(٥) أى : بمخالب حجن (جمع : أحجن ، بمعنى : معوج) .

(٦) أى : أصابع صُقْر (جمع : صُقْر ؛ بمعنى : إصبع قوية) .

ومن أبياتها بغير ترتيب :

لَقِيَ^(١) لَيْلٍ ؛ كَمَيِّنِ الطَّيِّ لَوْثًا
فَبَانَ الْعَارِسَ الْمُنْعَوْتَ خَذَتْ
فَوَلَّوْا بَيْنَ ذِي رَوْحٍ مُفَاتٍ
وَمُنْعَمٍ لِنَهْلِ السَّيْفِ فِيهِ
يُدْمَى بَعْضُ أَيْدِي الْخَيْلِ بَعْضًا
وَرَأَاهَا وَحِيدَةً ، لَمْ يَرُغْمَهُ
كَأَنَّ تَلَوَّى النَّشَابِ فِيهِ
يُشَارِكُ فِي الْإِدَامِ^(١٠) إِذَا نَزَلْنَا
وَمِنْ قَبْلِ النَّطَاحِ وَقَبْلَ يَأْتِي
وَكَيْفَ ؟ وَأَنْتَ فِي الرُّؤْسَاءِ عِنْدِي
فَمَا خَاشِيكَ لِلتَّكْذِيبِ رَاجٍ
تُطَاعِنُ كُلَّ خَيْلٍ^(١٥) سِرَّتَ فِيهَا
وَهَمَّ ، كَالْحَمِيَّا^(٢) فِي الْمَشَاشِ^(٣)
لِمُنْصَلِّهِ الْفَوَارِسُ كَالرَّيَاشِ^(٤)
وَذِي رَمَقٍ وَذِي عَقْلٍ مُطَاشٍ
تَوَارَى الضُّبُّ خَافَ مِنْ احْتِرَاشِ^(٥)
وَمَا بِعِجَايَةٍ^(٦) أَمْرُ ارْتِمَاشِ^(٧)
تَبَاعَدُ جَيْشُهُ وَالْمُسْتَجَاشِ^(٨)
نَلَوَّى الْخُوصَ فِي سَعَفِ الْعِشَاشِ^(٩)
بَطَانٍ^(١١) لَا تَشَارِكُ فِي الْجِحَاشِ^(١٢)
تَبَيَّنَ لَكَ النَّمَاجُ مِنَ السَّكَبَاشِ
عَمِيقٍ^(١٣) الطَّيْرِ مَا بَيْنَ الْخَشَاشِ^(١٤)
وَلَا رَاجِيكَ لَلتَّخْيِيبِ خَاشِي
وَلَوْ كَانَ النَّبِيْطُ^(١٦) كَلَى الْجِحَاشِ^(١٧)

(١) لقي : حال ، أى : أبيت لقي ليل . (٢) الحمير . (٣) رؤوس العظام اللينة

(٤) الريش المنطائر (والرياش جمع : ريش) . (٥) صيد الضب .

(٦) عصب فوق اليد . (٧) صك اليدن حتى تمزق عروقها .

(٨) الذى يُطَلَّب الجِدش منه . (٩) النخل قليل السعف (المفرد : عشة) .

(١٠) المنادمة . (١١) كبار البطون (المفرد : بطلين) .

(١٢) للدافعة فى القتال . (١٣) أصيل . (١٤) صفار الطير .

(١٥) أى : كل جماعة راكبة الخيل . (١٦) جماعة فى سواد العراق فلاحون .

(١٧) جمع جعش . ومعنى البيت : من سار معك من راكبي الخيل فإنه يتشجع ويقاقل ،

ولو كان من النبيط الذين يركبون الجموحش .

إِذَا ذُكِرَتْ مَوَاقِفُهُ حِطَافٍ ^(١) وَشَيْكٍ ^(٢) فَهَيْئَتُكَ لَانْتِقَاشٍ ^(٣)
تُزِيلُ كَخَفَةِ الْمَضْبُورِ ^(٤) عَنْهُ وَتُلْهِى ذَا الْفِيَّاشِ ^(٥) عَنِ الْفِيَّاشِ
وغير هاتين - من المقطوعات والمصائد - كثير تشيع فيه الصيوب
اللفظية . وحسبنا ما تقدم مُتَمِّنًا أو حافزاً للرجوع إلى الديوان ؛ فما أكثر
النظائر فيه ، وما أكثر مصادفتها هناك .

ومن عجب أن تكون ألفاظ المتنبي على هذه الشاكلة ، وأن تفقد
تجانسها واثتلافها في مواطن كثيرة - مع ما نال من شهرة ، وما عُرف عنه
من تجويد ، وحرص على استهفاء شعره ، وتنقيته من الشوائب ، ودفعه
للإلمام اللغوي الفحوى الأديب (ابن جني) ؛ ليقراء عليه ، ويراجعه ^(٦) فيه .
فكيف به لو لم يفعل ؟

نعم عجيب أن تكون ألفاظ المتنبي على ما وصفنا حتى وَجَدَ فيها كثير
من قدامى اللغويين والأدباء والنحاة بُغْيَتَهُمْ من الأمثلة والشواهد المعيبة ،
وَدَوَّنُوا عنها وعن صاحبها أحكاماً لا نرضاها لشاعر كالمُتَنَبِّي . فهذا ابن جني -
راوِيته ، وأمينه على ديوانه - يلاحظ أنه يكرر ألفاظاً مُعَيَّنَةً ، ويقول له :
(إنك تكرر في شعرك كلمة : « ذَا » ، و« ذِي » ، كثيراً) . فبفكر المتنبي ، ثم
يجيبه : « إن هذا الشعر لم يعمل كله في وقت واحد » . فيرد عليه ابن جني :
« صدقت » ، إلا أن المادة واحدة « فيسكت المتنبي ^(٦) . ويقول بعض

(١) دخل في رجله الشوك . (٢) إخراج الشوك .

(٣) المحبوس . (٤) المفاخرة الكاذبة .

(٥) العكبري ج ٢ ص ٣٤٠ في شرح القصيدة الميمية التي أولها :

لا افتخار إلا لمن لا يضام . . . عند البيت : وعوار لوامع دينها

(٦) سر الفصاحة ص ٩٩ .

الباشين^(١) : « إنه أ كثر استعمالاً لكلمة « ذا » التي للإشارة ، وهي ضعيفة في صنعة الشعر ، دالة على التكلف . وربما وافقت موضعاً يليق بها ؛ فاكنت قبولاً . فأما في مثل أبيات المتنبي (وساق منها ستة عشر بيتاً) فضعيفة ضعيفة . ولو تصفحت شعره لوجدت فيه أضاف تلك الأبيات . وأنت لا تجد واحدة من كلمة : « ذا » في عدة دواوين جاهلية . والمحدثون أ كثر استعمالها في الفرط والندرة ، أو على سبيل الغلط ، والقلّة . . . » وهذا الجرجاني — الذي نصّب نفسه قاضياً عدلاً للحكم على شعر المتنبي ، بل مدافعاً عنه أمام خصومه — يقول في كتابه : (الوساطة) مخاطباً أحد أولئك الخصوم^(٢) :

« ما أنكر أن يكون كثير مما عدته من الأبيات ساقطاً عن الاختيار ، غير لاحق بالإحسان ، وأن منها ما غلب عليه الضعف ، ومنها ما أثر فيه التعسف ، ومنها ما خانه السبك ؛ فساء ترتيبه ، وأخل نظمه ، ومنها ما حمل على التعمق ؛ فخرج به إلى الغشاة والبرد ، وإن كان أ كثرها لم يأت من قبل المعنى وشرفه . . . » .

وهذا صاحب^(٣) العمدة يقول :

« من الشعراء من يُؤثر المعنى على اللفظ ؛ فيطالب صحته ، ولا يبالي حيث وقع من مُجَنَّة اللفظ ، وقبحه ، وخشونته ؛ كابن الرومي والمتنبي ومن شا كلهما . وإذا كانت اللفظة خشنة مستغربة ، لا يملأها العالم المبرز ،

(١) الوساطة ص ٨٥ وما بعدها . (٢) الوساطة ص ٨٩ .

(٣) ص ٨٢ ج ١ و ٢٠٥ ج ٢ .

والأعرابي القُح — فتلك وحشية . وكذلك إن وقعت غير موقعها ، وأُتِيَ بها مع ما يتنافرهما ، ولا يلائم شكلها . وكان أبو تمام يأتي بالوحشي كثيراً ، ويتكلف . وكذلك أبو الطيب ؛ كان يأتي بالمستغرب ؛ ليبدل على معرفته ، فهو قوله :

كلُّ أَخَانِيهِ ^(١) كِرَامُ بَنِي الدُّنْ يَا وَآكِئُهُ كَرِيمُ كِرَامِ

وهذا — مع غرابته ، وتكلفه — غير محمول على ضرورة يكون فيها عذر ؛ لأن قوله : « كل إخوانه » — يقوم مقامه بلا بغاضة . . . »

وهذا الصاحب بن عباد يسمع قول المتنبي :

وَحَمْدَانُ حَمْدُونُ ، وَحَمْدُونُ حَارِثُ وَحَارِثُ لَقْمَانُ ، وَلَقْمَانُ رَاشِدُ ^(٢)

فيهزأ بالبيت ، ويقول :

إنه من الحكمة التي ذخرها أفلاطون وأرسططاليس لهذا الخلف الصالح ^(٣) .

ويقول عن المتنبي في موضع آخر :

« إنه يعيد المرثى في شعره ، كثير الإصابة في نظمه ؛ إلا أنه ربما

يأتي بالفقرة الغراء ، مشفوعة بالكلمة الموراء ^(٤) . . . »

وهذا صاحب كتاب سر الفصاحة ^(٥) يقول :

(١) جمع أخ . (٢) سبق شرح هذا البيت ص ٨٩ .

(٣) العكبري عند شرح البيت السابق . نعم إن الصاحب كان يكره المتنبي ، وإن بعض

الباحثين دافع عن البيت السابق — ولكن هذا لا ينهض عذرا المتنبي .

(٤) الكشف عن مساوي المتنبي . تأليف الصاحب : طبعة القدس ص ٣

(٥) ص ٩٥ وما بعدها .

« وأما بيت المتنبي :

العارضُ الهَتَنِ، ابنُ المارضِ الهَتَنِ، ابنُ المارضِ الهَتَنِ
فمن أقبح ما يكون من التكرار ، وأسنع . وإذا كان يقبح تكرار
الحروف المتقاربة الخارج فتكرار الكلمة بعينها أقبح وأسنع . وأما قوله :
لكَ الخيرُ ؛ غيري رامٌ من غيرك الغنى وغيري بفسير اللاذقية لآحقُ
فلا خفاء بتبعه ؛ التكرار . وكذلك قوله :

وَمِنْ جَاهِلٍ بِي، وَهُوَ يَجْهَلُ جَهْلَهُ وَيَجْهَلُ عِلْمِي أَنَّهُ بِي جَاهِلٌ
لأنه ذكر الجهل خمس مرات ، وكرّر : (بِي) . فلم يبق من ألفاظ البيت
مالم يُعِدَّهُ ، إلا اليسير .
وأما قوله أيضاً :

فَقَلَقْتُ بِالْهَمِّ الَّذِي قَلَقَ الْحَشَا (١) قَلَقَ عَيْسٍ (٢) كَلَهُنَّ قَلَقَلُ (٣)
عَشَاةٌ عَيْشِي أَنْ تَفِثَ كَرَامِي وَلَيْسَ بِفِثٍ أَنْ تَفِثَ الْمَا كُلُّ
فقد اتفق له أن كرّر في البيت الأول لفظة مكررة الحروف ؛ فجمع القبح
بأسره في صيغة اللفظة نفسها ، ثم في إعادتها وتكرارها ، وأتبع ذلك :
« بعشاة » في البيت الثاني ، وتكرار (تَفِثَ) ؛ فلست تجد ما تزيد على
هذين البيتين في القبح . . . وأما قوله :

قَبِيلُ أَنْتَ ، أَنْتَ . وَأَنْتَ مِنْهُمْ وَجَدُّكَ بِشَرِّ الْمَلِكِ الْهُمَامُ
فقبیح التكرار . وقد زاده قبحاً وقوعه بخير فصل . والحروف التي

(١) قَلَقَ عَيْسٍ : جمع : قَلَقَلْ ، وهى : الناقة الخفيفة ، وناقة قلقل : سريعة الحركة .
(٢) قَلَقَ عَيْسٍ : جمع : قَلَقَلْ ، وهى : الناقة الخفيفة ، وناقة قلقل : سريعة الحركة .
(٣) قَلَقَلْ : جمع : قَلَقَلْ ، وهى : الناقة الخفيفة ، وناقة قلقل : سريعة الحركة .

تربط بعض الكلام ببعض ، وتدل على معنى في غيرها — كما يقول النحويون — يتبع تكرارها في الكلام ، وإن اختلفت ألفاظها ؛ وذلك لأنها جنس واحد ، ومشاركة في المعنى ؛ وإن تميزت فائدة بعضها من بعض . وثما يُسهّل الأسر فيها قليلا وقوع الفصل بينها بكلمة من غيرها . فأما أن ترد على نحو ما قال أبو الطيب :

وَأَسْهَدُنِي ^(١) فِي غَمْرَةٍ ^(٢) بَعْدَ غَمْرَةٍ سَبُوحٍ ^(٣) لَهَا مِنْهَا عَلَيْهَا شَوَاهِدُ
فذلك العيب الذي لا يتوجه عذر فيه وما أعرف شيئا يقدح في الفصاحة ، وينقض من طلاوتها — أظهر من التكرار لمن يؤثر تجنّبه ، وصيانة نسجه عنه ؛ إذ كان لا يحتاج إلى كبير تأمل ، ولا دقيق نظر »

وبهذه المناسبة الخاصة بفتح التكرار في حروف الربط ، أشير إلى أن المتنبي أكثر الشعراء وقوعا في هذا القبح الذي يفسد جمال أسلوبه ، وروعة ممانيه ؛ كالبيت السابق (سبح . . .)

وكقوله مادحا سيف الدولة (حين لبي قائدا أسيرا استغاث به ؛ فاستخلصه من الأسر) :

دَعَا فَسَمِعْتَ ، وَكَمْ سَاكِتٍ عَلَى الْبُعْدِ عِنْدَكَ كَالْقَائِلِ !!
فَلَبَّيْتَهُ بِكَ فِي جَحْفَلٍ لَهُ ضَامِنٌ ، وَبِهِ كَافِلٌ
خَرَجْنَا مِنَ النِّقْعِ فِي عَارِضٍ وَمِنْ عَرَقِ الرِّكْضِ فِي وَابِلٍ

(١) تساعدني . (٢) كرب وشدة .

(٣) فرس سريعة الجرى .

وقوله :

وشوقٍ كالتَّوقِدِ ، في فؤادٍ كَجَمَرٍ في جِوَاهِرِ كَالْمَحَاشِ (١)

وقوله :

بَنَّا مِنْكَ فَوْقَ الرَّمْلِ مَا بَلَكَ فِي الرَّمْلِ وَهَذَا الَّذِي يُضْنِي كَذَاكَ الَّذِي يُبْهِلِي

وقوله :

عَلَى أَنِّي طَوَّقْتُ مِنْكَ بِنَهْمَةٍ شَهِيدٍ بِهَا بِمَضَى لَغِيرِي عَلَى بَعْضِي

وقوله :

أَسْفَى عَلَى أَسْفَى الَّذِي دَلَّهْتَنِي (٢) عَنْ عِلْمِهِ ؛ فَبِهِ عَلَى خَفَاءِ (٣)

وقوله :

إِذَا عَرَّضْتُ حَاجًّا إِلَيْهِ فَنَفْسُهُ إِلَى نَفْسِهِ فِيهَا شَفِيعٌ ، مُشَفَّعٌ

وقوله :

وَكُنِّي بِمَنْ فَضَحَ الْجَدَايَةَ (٤) فَأَضْحَا لِحَبِيبِهِ ، وَبِمَعْرِعِي ذَا مَضْرَعَا

وقوله :

وَعَلَى التَّرَابِ مِنَ الدَّمَاءِ مَجَاسِدُ (٥) وَعَلَى السَّمَاءِ مِنَ الْعَجَاجِ مُسُوحُ

وقوله :

وَمَا مَوْتُ أَبْفَضَ مِنْ حَيَاةٍ أَرَى لَهُمْ مَعِيَ فِيهَا نَصِيبًا

و ... و ... و ...

(١) مَا أَحْرَقَتْهُ النَّارُ وَسَوَدَتْ لَوْنَهُ . (٢) أَذْهَبَتْ عَقْلِي .

(٣) مَعْنَى الْبَيْتِ . لَأَنِّي حَزِينٌ لِضَيَاعِ عَقْلِي بِسَبَبِ حُبِّكَ ، حَتَّى صِرْتُ - لَجَنُونِي - أَجْهَلُ

أَنِّي حَزِينٌ . (٤) وَلَدُ الظُّبْيِ .

(٥) جَمْعُ : مَجْسَدٌ ، وَهُوَ الْمَصْبُوغُ بِلَوْنٍ أَمْرٍ شَدِيدِ الْحُمْرَةِ .

والحق أن الباحث لا يهتدى إلى ما يدافع به عن عيوب المتنبي اللفظية .
ولعلها من أقوى الأسباب التي جعلته يصف نفسه بأنه حكيم ، وليس بشاعر^(١) .
وهل في سكناه البادية نحو سنتين وأشهر ما ينهض للاعتذار عنه ، وهو ليس
بأول شاعر حضري قصد البادية ، وأقام فيها فترة ما ؟

لقد سبقه إليها من شعراء دولته العباسية : بشار ، والبحتري ،
وأبو نواس . . . وغيرهم ، ممن قصدوها لمثل غايته ؛ فلم تطبعهم بطابعها ،
ولم تؤثر في صفاء ألفاظهم ، وجودة عباراتهم . بل إن الأدباء والناقدين
ليعدّونهم في الصف الأول ؛ نقاء ألفاظ ، وحلاوة عبارات ، ولا سيما البحتري .
وكيف يتأثر المتنبي تأثره البالغ بحياة البادية — وقد سكنها فترة قصيرة —
ولا يتأثر بحياة الأمصار ، وبجالة الملوك ، ومعاشرة الأعراء ، وقد دامت له
سنوات طويلاً ؟

وكيف تغلب عليه الحياة البدوية في جميع مظاهره الشعرية وغير
الشعرية ولا تغلب عليه حياة الرفاهة ، والنعمة ، وخصب العيش الحضري ؟
لم انفرد المتنبي بما لم يشاركه فيه أحد من شعراء العباسيين الذين سبقوه
أو عاصروه ؟

لعل مرَدَّ الأمر إلى طبيعته المتمردة ، العنيفة ، الصخبية التي زادت بها
الأحداث عنفاً وصخباً ، وإلى ما فطّر عليه من غلظة ، وقسوة ، لا يجنحان
إلى رقة ، وعذوبة ، وملاينة في شعر أو غير شعر . وضح هذا في حياته

(١) سئل المتنبي عن نفسه ، وعن أبي تمام ، والبحتري . فقال : « أنا وأبو تمام

حكيمان ، والشاعر البحتري » (راجع الصبيح المنبي على هامش العكبري ج ١

الخاصة والعامة ، وفي علاقته باتباعه وسواه . كما وضح في شعره ؛ فجاء في أغلب نواحيه خشناً ، صلباً ، تشيع فيه الجزالة وإن اقتضى الأمر الفرار منها ، محروم الرقة وإن فرضها المقام . فإلى طبيعته الصلبة الثائرة يرجع السبب فيما نحن بصددده ؛ فقد وجدتُ بينهما وبين الصحراء تلاؤماً وتشابهاً فسالت إليها ، وانهقدت بينهما أواصر التآلف والتحاليف ؛ وضح لهذا أن يوصف المتنبي بأنه : بدوى في خلقه وأدبه . وإن شئنا زخرفة القول وتجويده قلنا ما قاله السابقون : « إنه ^(١) كالمالك الجبار ؛ يأخذ صاحبه قهراً وعنوة . أو : كالشجاع الجريء ؛ يهجم على ما يريده لا يبالي ما لقي ولا حيث وقع » . وتلك أخص صفات البدو ، وسكان الصحارى .

وإذا كنا قد عرضنا لألفاظ المتنبي بما سبق فإن الحق والإنصاف يفرضان أن نعترف له بالمقدرة والبراعة في اختيارها ، وحسن انتقائها أحياناً ، حتى ليكاد يسبق فيها جمهرة الشعراء . وكذا نرجو لو يلزمه التوفيق في كل الأحيان ، أوفى أكثرها ؛ كي يكون تفرده بالسبق خالصاً ، والحكم له بالأولوية لاتعقيب فيه . لكن لم يتحقق الرجاء . وبالرغم من عدم تحققه لانجحد ما قد يصادفه من توفيق عجيب . فأى منصف خبير لا يهتز إعجاباً بحرياته ؟ وأى أديب لا يطرب للأبيات الآتية ، وما فى ألفاظها — مفردة ومركبة — من جمال بلاغى فتان ^(٢) تماثلت فيه السلاسة مع الجزالة ، واثقلت فيه الرقة مع القوة ؛ فكان لهذا التوافق إيقاع عذب ، وتلحين موسيقى حلو النغم ؟

(١) العمدة ج ١ ص ٨٧ .

(٢) وإن التزم فى أكثرها — كعادته — جانب الجزالة بداعه ونغمه داع .

- (١) بَأبَى مِنْ وَدِدَتُهُ فَأَفْتَرَقْنَا وَقَضَى اللَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ اجْتِمَاعًا
وَأَفْتَرَقْنَا حَوْلًا ؛ فَلَمَّا التَقَيْنَا كَانَ تَسْلِيمُهُ عَلَيَّ وَدَاعًا
- (٢) خُشَّاشَةُ نَفْسٍ وَدَّعَتْ يَوْمَ وَدَّعُوا فَلَمْ أَدْرِ أَيَّ الظَّاعِنِينَ أُشِيعُ
(٣) يَمْشِي الْكِرَامُ عَلَى آثَارِ غَيْرِهِمْ وَأَنْتَ تَخْلُقُ مَا تَأْتِي ، وَتَبْتَدِعُ
- (٤) حَسَمَ الصَّلَاحُ مَا شَتَّهَتْهُ الْأَعَادِي وَأَذَاعَتْهُ أَلْسُنُ الْحَسَادِ
وَأَرَادَتْهُ أَنْفُسُ حَالِ تَدْبِيرِكَ مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْمُرَادِ
صَارَ مَا أَوْضَعَ الْمُخْبِتُونَ فِيهِ مِنْ عِقَابٍ زِيَادَةً فِي الْوِدَادِ
وَكَلَامُ الْوُشَاةِ لَيْسَ عَلَى الْأَسْبَابِ سَاطِئُهُ ، عَلَى الْأَضْدَادِ
إِنَّمَا تَنْجَحُ الْمَقَالَةُ فِي الْمَرْءِ إِذَا صَادَفَتْ هَوًى فِي الْفُؤَادِ
- (٥) أَمَّا الْفِرَاقُ فَإِنَّهُ مَا أَعْهَدُ هُوَ تَوَّعِي ؛ لَوْ أَنَّ بَيْنَنَا يُوَلَدُ
مَنْ خَصَّ بِالْذَمِّ الْفِرَاقَ فَإِنِّي مِنْ لَا يَرَى فِي الدَّهْرِ شَيْئًا يُحَمِّدُ
- (٦) وَقَيَّدْتُ نَفْسِي فِي ذَرَاكَ مَحَبَّةً وَمَنْ وَجَدَ الْإِحْسَانَ قَيْدًا نَقِيدًا
إِذَا سَأَلَ الْإِنْسَانُ أَيَّامَهُ الْفَنَى وَكَنتَ عَلَى بُعْدِ جَمَلَتِكَ مَوْعِدًا
- (٧) وَمَنْ تَكُنِ الْأَسَدُ الضَّوَارِي جَدُودَهُ
يَكُنْ لَيْلَهُ صَبِيحًا وَسَطْعُهُ غَضَبًا
- (٨) أَلَا كُلُّنَا يَبْتَغِي الْحَيَاةَ لِسَعْيِهِ حَرِيصًا عَلَيْهَا ، مُسْتَهَامًا بِهَا ، صَبًا
فَحَبُّ الْجَبَانِ النَّفْسَ أَوْرَدَهُ التَّقَى
- وَحَبُّ الشَّجَاعِ النَّفْسَ أَوْرَدَهُ الْحَرْبَا
- (٩) وَإِنَّمَا النَّاسُ بِالْمُلُوكِ ؛ وَمَا تَفْلِحُ عُرْبٌ مُلُوكُهَا عَجَمٌ

وتأمل الأبيات الآتية ، وما فيها من قوة الأصرّة ، وجهيل الجرّس ،
وإحكام التأليف ، وحسن الجزالة^(١) :

(١٠) لِعَيْنَيْكَ مَا يَلْتَقِي الْفُؤَادُ ، وَمَا لَقِيَ وَلِلْحُبِّ مَا لَمْ يَبْقَ مِنِّي ، وَمَا بَقِيَ
وَمَا كُنْتُ تُمْنٌ يَدْخُلُ الْمَشَقَّ قَلْبُهُ ؛ وَلَسَكُنَّ مَنْ يُبْجِرُ جُفُونَكَ يَعْشَقُ
وَبَيْنَ الرِّضَا وَالسَّخَطِ وَالْقُرْبِ وَالنَّوَى تَجَالَى لِدَمْعِ الْمَقْلَةِ الْمُسْتَفْرِقِ
وَأَحْلَى الْهَوَى مَا شَكَ فِي الرِّصْلِ رَبُّهُ وَفِي الْمُهْجَرِ ؛ فَهَوَى الدَّهْرِ - يَرْجُو ، وَيَتَّقِي
سَقَى اللَّهُ أَيَّامَ الصَّبَا مَا يَسُرُّهَا وَيَفْعَلُ فَمَلَّ الْبَابِلِيُّ الْمُعْتَقِ
وَلَمْ أَرَ كَالْأَلْحَاطِ يَوْمَ رَحِيلِهِمْ بَمَنْ بَكَى الْقَتْلَ مِنْ كُلِّ مُشْفِقِ
أَذْرَنَ عَيُونًا حَائِرَاتٍ ؛ كَأَنَّهَا مُرْكَبَةٌ أَحْدَاقُهَا فَوْقَ زُبُقِ
عِشِّيَّةٍ يَدُونَنَا عَنِ النَّظَرِ الْبُكَاءِ وَعَنْ آتَةِ التَّوَدِّيعِ خَوْفُ انْتِفَاقِ
وفي هذا القدر ما يكفي في موضوعنا ، وإن كان لا يغني عن الرجوع إلى
الديوان — كما قلنا — ففيه الفناء الأوفى .

وأما شوقي فكلماته مُنتقاة ، وألفاظه مختارة ، يضع الكلمة الملائمة
في الموضع اللائق ؛

فلم تك تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لها
تتوسط أخوات مؤتلفات ؛ فلا نفور ، ولا قلق ، ولا إكراه . وما مثله
إلا كالصيرفيّ النقداء ؛ يختار الدراهم الجياد ، ويرفض زائفها . أو : الجوهرى

(١) بالرغم من أن الجزالة لا تحسن في مواقف الغزل والنشيد .

الحاذق ؛ ينفق أصفى الجواهر مادة ، وأحسنها صقلا ، وأنسبها لمكانه ،
ويطرح ما عسده ؛ فهو بَحْتَرِيٌّ زمانه . وإن شئت فقل : إنه يجري مع
البَحْتَرِيِّ والنَّوَّاسِيَّ في ميدان لفظيٍّ واحد ، ويسابقهما إلى هدف عزيز
المنال ، لم يستأثر به أحد الثلاثة دون أخيه ، ولم ينل منه أكثر مما نال
قريبه . فإن ساع للقدّامي أن يباهوا بألفاظ البَحْتَرِيِّ وأبي نواس ، ويمدونها
المثل الأسمى للجمال اللفظي — فما أجدرنا أن نضم إليهما شوقي ، ونسلكه
معهما في سبط واحد ، مؤمنين أن القدّامي لو تأخر بهم الزمان ، وعرفوا
ما عرفناه من ألفاظ شوقي ، أو تقدم الزمان بشوقي فعرض عليهم ألفاظه —
ما وسعهم إلا أن يَحْكُمُوا حُكْمَنَا ، ويرتضوا رأينا .

والحق أن — شوقي — من هذه الناحية بارع خبير . وتزداد براعته
وضوحاً ، وخبرته جلاء — في قصائده التي صاغها بعد عودته من المنفى ؛
تلك العودة التي كانت فاتحة حياة أدبية جديدة ، تنقسم بالنضج ، والكمال ،
والخشب ، والسموّ إلى آفاق أدبية عالية ، بعيدة المدى . ومن الخير أن
نعرض صوراً من ألفاظه في مرحلتها : الأولى والأخيرة . فاستمع إليها ، وقف
عند كل كلمة من كلماتها .

يقول في حادثة الانقلاب^(١) العثماني ، وسقوط السلطان الطاغية المستبد
(وقد سبق بعض أبياتها في مناسبة أخرى)^(٢) .

(١) كان هذا سنة ١٩٠٨ م وكان السلطان عبد الحميد قد اقترف من الجرائم ،
 وأنواع الفتن ، ومظاهر الاستبداد ما لا منيل له ؛ فدبرت مؤامرة لإسقاطه ،
 وإقامة حكم يقوم على أساس دستوري .

(٢) في س . ٤٩ .

سَلَّ « يَلْدِزَا » ذاتَ القُصورِ هَلْ جَاءَهَا نَبَأُ البَـسـدورِ
 لَوْ تَسْتَطِيعُ إِجَابَةً لِبَكْتِكَ بِالدَّمْعِ الْغَزِيرِ
 أَخْضَنِي عَلَيْهَا مَا أَنَا نَحْ عَلَى الْخَوَرَنْقِ ، وَالسَّدِيرِ
 وَدَهَا الْجَزِيرَةَ ^(١) بِمَدِ إِسْمَاعِيلَ وَالْمَلِكِ الْكَبِيرِ
 ذَهَبَ الْجَمِيعُ ؛ فَلَا الْقُصُورَ رُتْرَى ، وَلَا أَهْلَ الْقُصُورِ
 فَلَاكَ يَدُورُ سَعُودُهُ وَنَحْوُهُ بِمَدِ الْمَدِيرِ
 أَيْنَ الْأَوَانِسُ فِي ذَرَا هَا ؛ مِنْ مَلَأُكَةِ ، وَحُورِ ؟
 الْمُنْتَرَعَاتُ مِنْ النَّمِيمِ ، الرَّاوِيَاتُ مِنَ السَّرُورِ
 الْعَاثِرَاتُ مِنَ الدَّلَالِ ، النَّاهِيَّاتُ مِنَ الْفُرُورِ
 الْآمِرَاتُ عَلَى الْوَلَاةِ ، النَّاهِيَّاتُ عَلَى الْبَسَدُورِ ^(٢)
 النَّاعِمَاتُ ، الطَّيِّبَاتُ تِ الْقَرْفِ ؛ أَمْثَالُ الزَّهْوَرِ
 الذَّاهِلَاتُ عَنْ الزَّمَانِ بِنَشْوَةِ الْعَيْشِ النَّضِيرِ
 الْمُشْرِفَاتُ — وَمَا انْتَقَلْنَ — عَلَى الْمَمَالِكِ وَالْبُحُورِ
 مِنْ كُلِّ بَلْقَيْسٍ عَلَى كُرْسَى عَزَّتْهَا الْوَثِيرِ
 أَمْضَى نَفُودًا مِنْ زُبَيْدَةٍ فِي الْإِمَارَةِ ، وَالْأَمِيرِ
 بَيْنَ الرِّفَارِفِ ، وَالْمَشَارِفِ ، وَالزَّخَارِفِ ، وَالْخَرِيرِ
 وَالرُّوضِ فِي حَجْمِ الدُّنَا وَالْبَحْرِ فِي حَجْمِ الْغَدِيرِ

(١) يقصد : جزيرة الروضة بالقاهرة غربى النيل ، وكان بها أعظم قصور إسماعيل
 « وبلدز » كلمة تركية ، معناها : النجم ، وبها سمى قصر السلطنة والجهة التي
 به في القسطنطينية — كما سبق —

(٢) كان الترك يطلقون على رئيس الوزارة لقب : الصدر الأعظم .

واللَّحْرُ مُؤْتَلِقُ السَّنَا والمسكِ فَيَاحِ الْعَمِيرِ
 فِي مَسْكِنٍ فَوْقَ السَّمَاءِ لِكَ ، وفوق غارات المغيرِ
 بَيْنَ الْمَسَاكِلِ ، وَالْقَنَا والخيلِ والجَمِّ الخفيرِ
 سَمَوُهُ : « يَلْدَز » ؛ وَالْأَفْوَى لُ نِهَايَةُ النَجْمِ المغيرِ

ويقول من قصيدة في انتحار الطلبة :

فِيمَ تَجْنُونَ عَلَى آبَائِكُمْ أَلَمْ الشَّكْلِ شَدِيدًا فِي الْكِبَرِ ؟
 وَتَعْقُونَ بِلَادًا ؛ لَمْ تَزَلْ بَيْنَ إِشْفَاقٍ عَلَيْكُمْ ، وَحَذَرِ ؟
 فَمَصَابُ الْمُلْكِ فِي شُبَّانِهِ كَمَصَابِ الْأَرْضِ فِي الزَّرْعِ النَّصِيرِ
 لَيْسَ يَدْرِي أَحَدٌ مِنْكُمْ بِمَا كَانَ يُعْطَى ، لَوْ تَأَنَّى وَانْتَظَرَ
 رَبِّ طِفْلِ بَرَّحَ الْبُؤْسُ بِهِ مُطَرَّ الْخَسِيرِ فَتِيًّا وَمَطَرُ
 وَهَمِّيَّ أُرْزَتْ الدُّنْيَا بِهِ شَبَّ بَيْنَ الْعِزِّ فِيهَا ، وَالْخَطَرِ
 وَرَفِيعٍ لَمْ يُسَوِّدْهُ أَبٌ مَنْ أَبُو الشَّمْسِ وَمَنْ جَدُّ الْقَمَرِ ؟
 فَلَاكُ جَارٍ ، وَدُنْيَا لَمْ يَدُمْ عِنْدَهَا السَّعْدُ ، وَلَا النَّحْسُ اسْتَمَرَّ

وقف عند ألفاظه — واحدة واحدة — في قصيدة أبي الهول التي منها :

أَبَا الْهَوَلِ . مَا أَنْتَ فِي الْمَعْضَلَاتِ ؟ لَقَدْ ضَلَلْتَ الشُّبْلَ فِيكَ الْفِكْرُ
 تَحَيَّرْتَ الْبَدْوُ ؛ مَاذَا تَكُونُ ؟ وَضَلَلْتَ - بَوَادِي الظُّنُونِ - الْخَضَرُ
 فَكُنْتَ لَهُمْ صُورَةَ الْعُنْفَوَانِ ، وَكُنْتَ مِثَالَ الْحِجَا وَالْبَصَرُ
 وَسِرُّكَ فِي حُجْبِهِ ؛ كَلَّمَآ أَطْلَأَتْ عَلَيْهِ الظُّنُونُ اسْتَمَرَّ

وماراعهم غيرُ رأسِ الرجالِ على هيكلٍ من ذواتِ الظفرِ
ولوصوروا من نواحي الطَّبَّاعِ تَوَالُوا عليك سِباعَ الصُّورِ
فيأربَّ وجهٍ كصافي النَّمِيرِ ؛ تشابهَ حامله والنَّمِيرِ
أبا الهول . ويحك !! لا يُسْتَقَلُّ معَ الدهرِ شيءٌ ، ولا يُحْتَقَرُ
تَهَزُّأتَ دهرًا بديكِ الصَّبَّاحِ فنَقَرَ عَيْنَيْكَ فيما نَقَرَ
أسالَ البياضَ ، وسلَّ السَّوَادَ ، وأوغَلَ مِنقارَهُ في الحُفَرِ
فعدتَ ؛ كأنك ذو المحبِّسَيْنِ ؛ قطعَ القيامِ ، سَلَبَ البَصَرِ
كأنَّ الرمالَ على جانبيِّكَ وبينَ يديكَ ذنوبُ البشرِ
كأنك فيها لواءُ القضاءِ على الأرضِ ، أو ديدانُ القَدَرِ
كأنك صاحبُ رملٍ ؛ يَرَى حنايا الغيوبِ خلالَ السَّطَرِ^(١)
أبا الهول . أنت نديم الزمانِ نجى الأوانِ ، سميرُ العُصْرِ
بَسَطْتَ ذِراعَيْكَ من آدمٍ وولَّيتَ وجهك شَطْرَ الزُّمَرِ
تَطِلُّ على عالمٍ يُسْتَهْلُ وتُوفى على عالمٍ يُحْتَضَرُ ؛
فَعَيْنٌ إلى مَنْ بَدَأَ لِلوُجُودِ ، وأخرى مُشِيعَةٌ مَنْ عَبَرَ
فحدَّثَ ؛ فقد يُهْتَدَى بالحديثِ وخَبَرٌ ؛ فقد يُوتَى بالخَبَرِ

.....

وفي قصيدة : (فرُّوق) (أى : القسطنطينية ، وقد كانت حاضرة البلاد
التركية ، وبها أجمل المناظر الفاتنة الساحرة) :

(١) أى : السَّطَر .

مَنِ اهْدَكَ يَا (فَرُوقُ) نَحِيَّةً ؛
 أَوْ : كَالنَّسِيمِ ؛ غَدَا عَلَيْكَ ، وَرَاحَ مِنْ
 أَوْ : كَالْأَصِيلِ جَرَى عَلَيْكَ عَقِيْقَةُ
 تِلْكَ الْخِثَالِ وَالْعِيُونُ اخْتَارَهَا
 قَدْ أَفْرَغَتْ فِيكَ الطَّبِيعَةُ سِحْرَهَا
 خَلَعَتْ عَلَيْكَ جَاهِلَهَا ، وَتَأَمَّلَتْ ؛
 تَاللَّهِ مَا قَتَنَ الْمِيسُونَ وَلَذَّهَا
 عَنْ جِيدِكَ الْحَالِي تَلَفَّتْ الرُّبَا
 وَفِي قَصِيْدَةِ يَخَاطِبُ فِيهَا الْمَعْلَمِينَ :

رَبُّوْا عَلَى الْإِنْصَافِ فِتْيَانُ الْحَمَى
 فَهُوَ ^(٢) الَّذِي يَبْنِي الطَّبَاعَ قَوِيْمَةً
 وَيُقِيْمُ مَنَاطِقَ كُلِّ أَعْوَجٍ مَنَاطِقَ
 وَإِذَا الْمَعْلَمُ لَمْ يَكُنْ عَدْلًا مَشَى
 وَإِذَا الْمَعْلَمُ سَاءَ لِحَظٍ بَصِيْرَةٍ
 وَإِذَا أَتَى الْإِرْشَادُ مِنْ سَبَبِ الْمَوَى
 وَإِذَا أَصِيبَ الْقَوْمُ فِي أَخْلَاقِهِمْ
 وَقَوْلُهُ فِي قَصِيْدَةِ نَابِلِيَّوْنَ :

أَرَأَيْتَ الْخُلَـيْرَ وَافِيَ أُمَّةً
 لَمْ يَمَالُوا حِظَّهُمْ فِي النَّابِغِينَ ؟

(١) الفوف : ثياب عينية رقيقة منقوشة ، يشبه بها الزهر (المفرد : فوفة) .

(٢) أى : الإنصاف .

يَصْلُحُ الْمَلِكُ عَلَى طَائِفَةٍ هُمْ جَمَالُ الْأَرْضِ حِينَ بَعْدَ حِينَ
مَلَأُوا الدُّنْيَا عَلَى قِلَّتِهِمْ وَقَدِيمًا مَلَأَتْ بِالْمُرْسَلِينَ
يَحْسُنُ الدَّهْرُ بِهِمْ مَا طَلَعُوا وَبِهِمْ يَزْدَادُ حُسْنًا آفِلِينَ
قَدْ أَقَامُوا قَدْوَةً صَالِحَةً وَمَضَوْا أَمْثَلَةً الْمُحْتَذِينَ
إِنَّمَا الْإِسْوَةُ — وَالدُّنْيَا أَسَى — سَبَبُ الْحَمْرِ ، نَظْمُ الْعَالَمِينَ

تلك صَوَرٌ من أَلْفَاظِ شَوْقٍ ؛ لم أَنْخِرْهَا ، ولم أَقْصِدْ إِلَى اتِّقَائِهَا ؛
فَمَا لَهَا فَضْلٌ عَلَى سِوَاهَا . وَبِحَسْبِكَ أَنْ تَقْلِبَ صَفَحَاتِ دِيْوَانِهِ فَتُصَادِفَ
نَظَائِرَهَا ، بَلْ خَيْرًا مِنْهَا .

عَلَى أَنْ شَوْقِي شَاعِرُ كَسَائِرِ فَرَسَانَ الشَّعْرِ ؛ لَهُ كَبَوَاتٌ وَسَقَطَاتٌ .
فَلَيْسَ الْمَتْنِيُّ وَلَا غَيْرُهُ بِدَعَا فِي زَلَّاتِهِ ، وَهَفَوَاتِهِ . وَفَضْلُ الشَّاعِرِ عَلَى
الشَّاعِرِ فِي هَذِهِ النَّاحِيَةِ إِنَّمَا يَكُونُ بِقَلَّةِ الزَّلَالِ ، وَخِفَةِ السَّقَطِ . أَمَّا الشَّاعِرُ
الْمُبْرَأُ فَلَمْ تَرَهُ الدُّنْيَا ، وَلَمْ يَعْرِفْهُ الْأَدَبُ . وَمَنْ ثُمَّ وَجِبَ قَصْرُ الْمَوَازِنَةِ اللَّفْظِيَّةِ
بَيْنَ الْمَتْنِيِّ وَشَوْقِي عَلَى هَذِهِ النَّاحِيَةِ ؛ نَاحِيَةِ كَثْرَةِ الْعَيُوبِ ، وَاسْتِفَاضَةِ الزَّلَالِ
وَهَذِهِ وَحْدَهَا لَا تَكْفِي ؛ فَقَدْ تَكُونُ كَثْرَةُ الْعَيُوبِ مُحْتَمَلَةً ؛ لِأَنَّهَا لَمْ تَبْلُغْ
مِنَ الْقُبْحِ وَالشَّنَاعَةِ مَبْلَغًا كَبِيرًا . وَقَدْ تَكُونُ اسْتِفَاضَةُ الزَّلَالِ هَيِّئَةً لَا تَبْلُغُ
فِي ثِقَلِهَا مَا يَبْلُغُهُ نَوْعٌ وَاحِدٌ آخَرُ ؛ فَلَا بُدَّ لِلْحَكْمِ الصَّحِيحِ مِنَ الْمَوَازِنَةِ بَيْنَ
كَثْرَةِ الْعَيُوبِ اللَّفْظِيَّةِ وَنَوْعِهَا مَعًا . أَوْ كَمَا يَقُولُونَ : لَا بُدَّ فِي الْمَوَازِنَةِ اللَّفْظِيَّةِ
مِنَ مِلَاحَظَةِ الْحُكْمِ وَالْكَيْفِ مَعًا .

وَإِذَا أَخَذْنَا أَنْفُسَنَا بِهَذَا الدِّسْتُورِ رَأَيْنَا مِنْ أَلْفَاظِ شَوْقٍ مَا هُوَ مَعْجَبٌ .

ولسكن عيوبه — بالنسبة لألفاظ المتنبي — أقل ، ووزنها أخف . وإليك الأمثلة التي عثرنا بها بعد استقصاء جماعة ، نزيه ؛ نعرضها بأمانة على الوجه الذي عرضنا به ألفاظ المتنبي . ولسنا بحاجة إلى التذكير بصنوف العيوب اللفظية وما ينبذه الأدباء والبلاغيون منها ؛ فقد سبق إيضاحها . وسنكتفي بسوق الأمثلة ؛ لتستبين منها تلك العيوب .

يقول في قصيدته : كبار الحوادث ؛ وهي أول قصيدة في ديوانه :

(١) تَهَتَّ الْفَلَكَ ، واحتواها الماء وَحَدَّاهَا بَيْنَ ثَقَلُ الرِّجَاءِ

ضَرَبَ الْبَحْرُ ذَوِ الْمُبَابِ حَوْلَيْهَا سَمَاءً ؛ قد أكَبَرَتْهَا السَّمَاءُ

وَرَأَى الْمَارْقُونَ مِنْ شَرِّكَ الْأَرْضِ ضِيقَ شَيْبَاكَ كَأَنَّهَا الدَّامَةُ^(١)

وَجِبَالًا مَوَائِجًا فِي جِبَالٍ تَتَدَجَّى ، كأنها الظُّلُمَاءُ

وَدَوِيًّا ، كما تَأْهَبُ الْخَيْلُ ، وَهَاجَتْ مُجَاهَتُهَا الْهَيْجَاءُ

لُجَّةً عِنْدَ لُجَّةٍ عِنْدَ أُخْرَى كَهَضَابٍ مَاجَتْ بِهَا الْبِيدَاءُ

(١) أبيات من قصيدته الثانية (صدى الحرب) :

(ب) وَتَسْحَبُ ذَيْلَ الْكِبْرِيَاءِ ، وَهَكَذَا يَدِيهِ ، وَيَخْتَالُ الْقَوِيُّ الْمَغْلَبُ

(ح) وَتَبْدُو عَلَيْهِ^(٢) الْفَلَكَ شَيْئًا ، كأنها بُشُورٌ^(٣) ، تُرَاعِيهَا عَلَى الْبُعْدِ عَقَبُ^(٤)

(د) فَمَا زِلْتَ بِالْأَهْوَالِ حَتَّى اقْتَحَمْتَهَا وَقَدْ تُرَكِبُ الْحَاجَاتُ مَا لَيْسَ يُرَكَّبُ

(هـ) تَذَبْذَبَ أَسْطُورَ لَاهُوتٍ ، فَدَعَتْهُمَا إِلَى الرُّشْدِ نَارٌ ثُمَّ لَا تَتَذَبْذَبُ

(١) البحر . (٢) أى : على البحر (يصف البحر وفوقه السفن الحربية) .

(٣) جمع باز : وهو من الطيور الكاسرة .

(٤) جمع عَقَاب : وهي من الطيور الكاسرة .

- (و) فلماد جى داجى العوان، وأطبقت
 (ز) كأن خيام الجيش في السهل أينق
 (٢) لم يطعم الغرض جمن المسلمين لها
 (٣) نحية أيها الغازي ، وتهنئة
 (٤) وازيدت أمهات الشرق، واستبقت
 (٥) فيضاً على الأوطان من حرية ؛
 (٦) الله صاغك جنّتين خلّقه
 (٧) غال في قيمة ابن (بطرس غالي)
 (٨) فرحباً بكما من طالعين به^(٢)
 (٩) عاد الزمان فأعطى بعد ما حرمنا
 (١٠) جشمتها من الأحوال أربعة
- تبليج والنصر — الهلال المحجب
 نواشز، فوضى، في دجى الليل شرب
 حتى أنجلي ليأها عن صبحه الشنب
 بآية الفتح تبقى آية الختب
 مهارج^(١) الفتح في الموشية القش
 فيكلا كما المفتك من أغلاله
 تحفوفتين بأنهم لمياله
 علم الله ليس في الحق غال
 على سوى الطائر الميمون ما قدما^(٣)
 وتاب في أذن المحزون ، فابتدأ
 الرعد، والبرق، والإعصار، والظلمة

فكلمة : « أربعة » من الفاظ الحسابين التي لا تحسن في الشعر . ومع
 أنها حسابية مردولة — قد فهمت هنا . ولم يفهم مدلولها في قصيدة نابليون
 حيث يخاطبه قائلاً :

وَأَعَدَّهَا كَلِمَاتٍ أَرْبَعًا قد أحاطت بالقرون الأربعين^(٤)
 (١١) كيف نحصى على غلاك ثناء ؟ لك منه الثناء والإكرام

(١) جمع : مهرجان ، بمعنى : عيد . (٢) أى : يركب الطيران (الطيارة) .

(٣) أى : ما قدما على سوى الطائر الميمون .

(٤) لما قدم نابليون على رأس الحملة الفرنسية، ووصل بمجنوده إلى الجزيرة، وأطل عليهم
 الأهرام — خطب فيهم عنده قائلاً : إن أربعين قرناً تنظر إليكم من قمة الأهرام .

(١٢) في وصف القمر :

بِمَرَأَى ؛ كَمَا الْحُلُمِ ضَاحٍ ، سَمِيدٌ ؟

لِمَنْ غُرَّةٌ تَنْجَبِلِي مِنْ بَسِيدٍ

ظِلْمَاتٍ ؛ كَذَجَى اللَّيْلِ حَبَابًا

(١٣) الْمَاهِيَا كُتْمَشِي ظُلْمُهُمْ

حَتَّى أَنَافَ ، فَلَاحَ طَارًا أَكْبَرًا

(١٤) فَسَمَتْ ؛ فَكَانَتْ نَهْفَ طَارٍ ، مَا بَدَا

يُصِفُ الشَّمْسَ ، فَمَا الطَّارُ ؟

وَرَوْضٍ ، فَوْقَ رَوْضٍ ، فَوْقَ رَوْضٍ

(١٥) وَكَمْ أَرْضٍ هُنَاكَ ، فَوْقَ أَرْضٍ

مِنْ وَقَارِ اللَّيْلِ أَلَا يُحْتَضَرُ

(١٦) مَيِّتَةٌ لَمْ تَكُنْ مِنْهَا عَلَزًا (١)

كَنْظِي فِي كَوَاعِبِهَا الشَّبَابَا (٢)

(١٧) نَثَرْتُ الدَّمْعَ فِي الدُّمَنِ الْبَوَالِي

وَبِالْأَيْتَامِ حُبًّا ، وَارْتِبَابًا (٣)

(١٨) أَرَادَ اللَّهُ بِالْفَسْقَاءِ بَرًّا

وَيَشْفِي مَنْ تَعَلَّمَهَا (٤) الْكَلَابَا

(١٩) وَإِنَّ الْمَاءَ تَرَوِي الْأُسْدُ مِنْهُ

بِشَائِرِهِ الْبَوَادِي ، وَالْقَصَابَا (٥)

(٢٠) تَجِبَلِي مَوْلِدَ الْهَادِي ، وَنَعَمْتُ

فَإِنْ مَدَحْتُكَ اقْتَدَتْ السَّحَابَا

(٢١) مَدَحْتُ الْمَالَكِينَ ؛ فَزِدْتُ قَدْرًا

بِدَا تَوَلَّفَهَا دُرًّا وَخَشَلَبَا (٦)

(٢٢) خَلُّوا الْأَكَالِيلَ لِلتَّارِيخِ ؛ إِنَّ لَهُ

قُمْصَ (٨) الْبَعُوضِ ، وَمُسْتَخَسَّ إِهَابِهِ ؟

(٢٣) هَلْ كَانَ «تَوْتَنَخُ» تَقْمَصُ (٧) رَوْحُهُ

أَوْهَامَ مَغْلُوبٍ عَلَى أَعْصَابِهِ

(٢٤) غَلِبُوا عَلَى أَعْصَابِهِمْ ؛ فَتَوَقَّعُوا

(١) فزعاً وشدة خوف . (٢) الشعر . (٣) عناية وتربية .

(٤) تحريك لسانها من شدة العطش .

(٥) جمع : قَصَبَة ، وعى : المدينة الكبيرة .

(٦) حصى . أو : زجاج . (٧) أى : تقمص . (٨) جمع : قيس .

- (٢٥) ويخاطب الله فلا يحسن الاحتراس :
- وإني — ولا من عليك بطاعة — أَجِلْ ، وَأُغْلِي فِي الْفَرُوضِ زَكَاةً
- (٢٦) ويخاطب الخليفة الميثاني (وكانت مصر تابعة له) فلا يحسن الخطاب
- ومن كان مثلي — أَحَدَ الْوَقْتِ — لَمْ تَجْزُ عَلَيْهِ (ولو من مثلك) الْمَسْدَقَاتُ
- (٢٧) هَتَكُوا بِأَيْدِيهِمْ مُلَاءَةً نَغَرِهِمْ مَوْشِيَّةً بِمَوَاهِبِ الْفَتَّاحِ
- (٢٨) ويمدح رئيس الجمهورية التركية فيقول :
- هُوَ رَكْنٌ مَمْلُوكَةٌ ، وَحَائِطٌ دَوْلَةٌ . وَقَرِيعٌ ^(١) شَهْبَاءٌ ^(٢) ، وَكَبَشٌ نَطَاحٌ
- (٢٩) ويخاطب الحرم فيقول :
- تِلْكَ الرَّمَالُ بِجَانِبِكَ بِفِيَّةٍ ^(٣) مِنْ نَعْمَةٍ ، وَنِسْمَاخَةٍ ، وَرَمَادٍ .
- يقصد بالرماد : الْكَرَم .
- (٣٠) خُطِبَ الْأَمَامُ عَلَى النَّظِيمِ ^(٤) يَعْزُ شَرْحًا ، وَالنَّيِّرِ ^(٥)
- (٣١) حَلَّ ^(٦) يَوْمَ الْفَرَسِ مِنْهَا نَفْسَهُ رَحِمَ اللَّهُ الْمُرُوسَ الْمُخْتَصِمَ ^(٧)
- (٣٢) ويقول في النحلة :
- ذَائِدَةٌ عَنْ حَوْضِهَا طَارِدَةٌ مِنْ كَدَرَةٍ
- حَتَّى إِذَا جَاءَتْ بِهِ جَاءَتْ خِلَالَ الْأَدْوَرَةِ ^(٨)
- (٣٣) ويقول في مدح الأزهر :
- وَسَمَاءٌ بِأَرْوَقَةِ الْهَدَى ؛ فَأَحْلَاهَا فَرْعَ الثَّرَيَا ، وَهِيَ فِي أَصْلِ الثَّرَى
- (٣٤) وَاجْعَلْ مَكَانَ الدُّرِّ إِنْ فَصَلْتَهُ فِي مَدْحِهِ خَرَزَ السَّمَاءِ النَّيِّرَا

(١) القرية : الذي يغلب عند المقاتلة . (٢) السكتية المسلحة . (٣) النظم
(٤) النثر . (٥) أطلق وفك . (٦) الميت في روعة الشباب .
(٧) جمع : دار .

(٣٥) ويقول في السابقين من الصالحين :

أولئك مرؤوا كدود الحرير شجاءاً الفئاع^(١) ، وفيه التأف
(٣٦) فكنت لبنته المحجوج ركناً وكنت لبنته الأتقى سطاناً^(٢)
(٣٧) كهرون الرشيد ، ندبى ، وبأساً وكلامون في جال زما^(٣)

(٣٨) يقول في السفينة :

وهلل في الجو قيئومها^(٤) وكبر في الماء شكانها^(٥)
(٣٩) ويتنزل في ظي لبناني فيقول :

لبنان دارته ، وفيه كناسة بين القنا الخطار خط نحيته
فما النحيت ؟ إن من معانيه السجية ، والطبيعة ، والمشي البطىء من
التمب ، والأنين . فأين أراد ؟
أليست هذه هي الكلمة العوراء التي تشوه الكلام الحسن ، والمعنى
الجميل ؟

(٤٠) ويخاطب توت عنخ آمون :

فتتأت : يا ماجدها وجفدها^(٦) لوام تلك ابن الشمس كنت رثدها^(٧)

(٤١) ويمدح الطيارين والشجعان ، فيقول :

من كل أهوج في الهواء : عناقته هوج الرياح ، ومزجه الإغصار

(١) النفع . (٢) السطاع : عمود البيت . (٣) عزما وإقداما .
(٤) مقدمها . (٥) دقها . (٦) كرمها .
(٧) نظيرها .

وأكثر ما يستعمل : « الموجح » في الحق والتسرع بغير تفكير : وإن كان معناه هنا : الجرأة والشجاعة ، وعدم المبالاة في الحرب ، وغيرها .
(٤٤) بنت^(١) البقاع ، وأمّ برّدونيتها طيحي كجائق^(٢) ، واسكبي برّدالك^(٣)

فكلمة : « بردونيتها » ثقيلة ، ومعناها غير معروف لي ، ولعلها اسم نهر .
(٤٣) يا نائحات محمد سيد تحتنه غصن الإهاب

(٤٤) وقال يصف ثروت باشا في سفارضة الإنجليز نائباً عن مصر :
لولا سفارتك المهدية اختصما وهل طول الفضال الذائب والنقد^(٤)
(٤٥) فيالك قهراً أكنّ الكنوز وساجّ الحقوق ، وحاطّ اليهود
(٤٦) وقال (في رثاء والدته) يصف الأبدلس :

أريج^(٥) أريج^(٦) المسك في عوصاتها وإن لم أريج (مرّوان) فيها ولا (أخما)
(٤٧) شيداً لأمرو بكل أرض إذا هو حل في بلد تعادى
يريد . إذا هو حل في بلد قد تعادى أهله ، وتباغضوا

* * *

ومما يؤخذ على شوقي في ألفاظه استخدامه بمض القديم الذي لا يلائم العصر ، أو لا يناسب الموضوع : كاستعماله كلمات : الهودج ، والحداء ، والإناخة ، واللجم ، والنجائب ، والشرج ، والأعنة ، وأشباهها في قصائد مختلفة لا تحسن فيها هذه الكلمات .

(١) بشير : إلى مدينة « زحلة » اللبنانية القريبة من سهل البقاع .
(٢) كدهشق . (٣) برّدكي : نهر دمشق . يريد اسكبي نهر ك الذي كبردى .
(٤) النقد : نوع قبيح ، هزيل من الغنم . شبه به مصر ، وشبه لإنجلترا بالذئب .
(٥) أنعم . (٦) رائحة .

(١) كقولہ فی مطلع قصیدۃ استقبل بہا أم الحسنین (والدۃ الخدیوی عباس)
حين عودتها من تركية^(١) :

ارْفَعِي السُّتْرَ ، وَحَيِّ بِالْجَبِينِ وَأَرِينَا فَلَقَ الصُّبْحِ السُّبِينِ
وَقِفِي الْهُودَجَ فِينَا سَاعَةً نَقْتَدِسُ مِنْ نُورِ أُمِّ الْمُحْسِنِينَ
فأى هودج كانت تركه أم الحسنين ؛ ربيبة النعمة الغامرة ، والترف
البالغ ؟ وأين الهودج من أنخم السيارات التي استقبلتها يوم عودتها ،
وحملتها في الإسكندرية والقاهرة ؟

(٢) وقوله بعد أبيات :

خَطَرَ السُّتْرُ ؛ فَكَبَّرْنَا ، كَمَا خَطَرَ الْمُصَحَّفُ بَيْنَ التَّابِعِينَ
وَحَدَّوْنَاهُ^(١) إِلَى حُرَّابٍ وَأَخْفَاهُ الَّذِي الْخِذْرُ السَّكِينُ^(٢)
فما معنى الحداء والإناخة في موكب ليس فيه إبل ، ولا دواب
للكوب ؛ وإنما فيه سيارات من أنخم السيارات الحديثة ؟

(٣) وقوله في استقبال طيارين تركيين زارا مصر على طيارتهما التي تسمى :
« أَدْرَمِيد » :

يَا سَاحِبِي (أَدْرَمِيد) حَسْبُهَا شَرْفًا أَنَّ الرِّيحَ إِلَيْهَا أَلْقَتِ الْأَجْمَا
فأى لُجْم تلقىها الرياح للطيارة ؟ وهل نستطيع أن نهتذر عن الشاعر
في هذا إلا متجاوزين متكفين في مقام لا يحسن فيه المجاز والتكلف ؟

(٤) وقوله في وصف مركب الطيران (الطيارة) :

مُسْرَجٌ فِي كُلِّ حِينٍ مُلْتَجِمٌ كَامِلُ الْمُدَّةِ ، مَرْمُوقُ الرِّوَاءِ

(١) كانت تلك العودة بعد سنة ١٩٣٠م أي : بعد شيوع السيارات في جميع أرجاء مصر

(٢) غنيانا ؛ كما يحدو السائق إبله ، وينفى لها . (٣) أي : المكنون المصون .

(٥) وقوله في الطيارين :

حِينَ ضَاقَ الْبَرْقُ وَالْبَعْثُ بِهِمْ أَشْرَجُوا الرِّيحَ ، وَسَامُوهاَ اللَّجَاجَا

.....

وللا ألفاظ القديمة نصيب من غزلياته بجارى فيه الشعراء السابقين الذين رددها في شهرهم جيلا بعد جيل ؛ كالرَّم ، والبان ، والعلم ، وظبي جاسم ... وأمثال هذا مما سنعرض له ، ونوفيه حقه في مكانه من موضوع الغزل وغيره . وفي ألفاظه عيب آخر يضرب في نواحي شعره ، ويكاد يتخللها جميعاً ؛ ذلك أنه يؤثر الرقة في أغلب لفظه وإن أباهها المقام ، ويتوقى الجزالة وإن تطلَّبها الغرض . وهذا عيب لا فسحة فيه ، لعذر . وشأنه شأن المتنبي الذي يناقضه ؛ فيلتزم الجزالة في أغلب مواقفه ؛ لا يبالي أصلحت لها أم لم تصلح . فمن يرضى عن ألفاظ شوقي وهو يتحدث بلسان بطل يفرض غمار معركة حربية ؛ فيقول عن نفسه وحصانه :

فَقِيلَ : أُنِْلْ أَقْدَامُكَ الْأَرْضَ ؛ إِنَّهَا	أَبْرُ جَوَادًا إِنْ فَمَلْتَ ، وَأُنْجَبُ
فَقَالَ : أَيْرَضَى وَأَمْبَ النِّصْرَ أَنْسَا	نَمُوتُ كَوْتَ الْفَانِيَاتِ ، وَنَسْطَبُ ؟
ذُرُونِي وَشَأْنِي ، وَالْوَعَى ؛ لَا مَبَالِيَا	إِلَى الْمَوْتِ أَمْشِي أَمْ إِلَى الْمَوْتِ أَرْكَبُ ؟
أَيْحَمَلُنِي عُمرًا وَيَحْمِي شَبِيبَتِي	وَأَخْذُهُ فِي وَهْنِهِ ، وَأُخْيَبُ ؟
إِذَا نَحْنُ مِتْنَا فَادْفِنُونَا بِمَقْعٍ	يُظَلُّ بِذِكْرَانَا ثَرَاهَا يُهْلِكُ
وَلَا تَمْجِبُونَا أَنْ تَبْسُلَ الْخَلِيلُ ؛ إِنَّهَا	لَهَا - مِثْلُ مَا لِنَاسٍ - فِي الْمَوْتِ مَشْرَبُ
فَمَا أَمَامَ اللَّهِ مَوْتٌ بِسَالَةٍ	كَأَنَّهُمَا فِيهِ مِثَالُ مُنْهَبُ

وما شهداء الحربِ إلا عمادُها وإن شِئِدَ الأحياءُ فيها ، وَطَنُها
... ..

وهل قبلهم من عانقَ النارَ راغبًا ؟ ولو أنه عَبَادُها المترهبُ
وهل نال ما نالوا من الفخرِ حاضرٌ ؟ وهل حَيَّ الخالون منه الذي حُبُّوا ؟
فما أَجملُ المعنى ، وأَوْهَى اللفظ !!
... ..

وكذلك قصيدته في الحرب والسياسة التركية : ومطلعها (١) :
اللهُ أَكْبَرُ ، كم في الفتح من عجب !! يا خالداً التركِ جَدُّ خالداً العربِ
وفي أَعْدائِهِم يقول :

يا حُسْنَ ما انسَحَبُوا في مَنطِقِي عَجَب تَدْعِي الهزيمةُ فيهِ حُسْنَ مُنْصَبِ
لم يدُرِ قائِدُهُم لِمَ أَخطأتُ بِهِ هَبَّطتْ مِنْ صَحْدٍ (٢) أُمُّ جِثَّتْ مِنْ صَبَبِ (٣) ؟
... ..

تلك الفراسخُ من سهلٍ ومن جبلٍ قَرَّبَتْ ما كانَ منها غَيْرَ مُقْتَرَبِ
خيلُ الرسولِ من الفولاذِ معدنها وسائرُ الخيلِ من لحمٍ ومن عَصَبِ
... ..

والصبرُ فيها وفي فُرسانِها خُلقٌ تَرَارثوه أبا في الرُّوعِ بَشَدِ أَبِ
فأين الجزالة في هذا الكلام ؟ وإن لم تُحَمَّدَ هنا ففي أي موضع آخر
تُحَمَّدَ ؟ وأين هذا من حربيّات المتنبي التي تسمعها فتسمع صليلاً السيوف ،

(١) لنا في هذا المطلع كلام يجيء في موضعه من المطلع .

(٢) بقعة مرتفعة . (٣) بقعة منخفضة .

ورنين الحديد ، ومقارعة الأبطال ، وصهيل الخيول ، وتشهد المركة
فرسانا ، وأفراسا ، وحديدا ، ونارا ، وغباراً يعلأ الآفاق ، ودويّاً
يُصمّ الآذان :

كجبل من الرخام انشَقَّ أو كالنحاس بالنيحاس دُقَّ

وإذا كان لطبيعة المتنبي المتمرد ، العنيفة ، الشائرة — أكبر الأثر
فيما نرى ، فأغلب الظن أن لطبيعة شوقي الهادئة ، الوديمة — كما وصفها
خلمصاؤه — أكبر الأثر فيما نرى أيضاً . فقد استجابت للحياة الناعمة
المترفة ، ولمظاهر المدنية الحديثة التي انغمس فيها صاحبها ، وتلازماً واتفقاً ؛
فكان من ذلك الرقة التي لا تنكاد تفارقه ، ولو رام التخفف منها أحياناً .
فألماظ شوقي الصافية المذبة الرقيقة صورة لنفسه وحياته .

هذا وله بعض كلمات طويلة النفس ، كثيرات الحروف ؛ لا يرضاها
النقد البلاغيون (إذا لم تعهظ في قبول رأيهم) فما عسى أن يكون
رأيهم في كلمات طويلة ليس من بعضها بُدُّ ؟ كقولهِ في قصيدة (غاندى)
الزعيم الهندى العظيم ، حين مرَّ^(١) بالسواحل المصرية على باخرة تدعى :
(رجبوتان) قاصداً بلاد الإنجليز لمفاوضتهم فى أصر استقلال بلاده ؛ فقد شبهه
شاعرنا بكشفشيموس^(٢) قائلاً :

بَنَى مِصْرَ ارْفَعُوا النُّجُومَ وَحَيُّوا بَطْلَ الْهِنْدِ

.....

(١) كان ذلك سنة ١٩٣١ .

(٢) نبي عند الصين ، وإله عند بعض تلك الأجناس الصغرى .

عَلَى إِفْرِيزِ (رَجَبُوتَا نَ) تَمَثَّلُ مِنْ الْمَجْدِ
نَبِيٍّ مِثْلِ (كَنْفُشِيُو سَ) أَوْ مِنْ ذَلِكَ الْمَهْدِ

فهذه الكلمات وأشباهها قد نفُضُ عنها ؛ لاضطرارنا إليها . ولكن الإغضاء —
وإن مَنَحَهَا رخصةً ليست لنظائرها — لا يُخرجها من مِنطَقَةِ الثقل البغيض ،
ولو خَفَّفَ نَصيبُهَا منه .

ولشوقي كلمات قلقة في سواطنها ؛ تتأبى الاستقرارَ وأكثُرُ ما تكونُ
في قصائده التي يعارض بها شاعراً آخر ؛ فترى الكلمات نافرة ، والقوافي مفتعبة
مقهورة . وأوضح مثال لذلك : سينيته ^(١) ، ونونيته ^(٢) (مع أنهما من أبداع
روائعه) فمن الأولى قوله :

رُبَّ لَيْلٍ سَرَيْتُ ، والبرقُ طُرِفِي ^(٣) وبِساطٍ طَوَيْتُ ، والريحُ عَنَسِي ^(٤)
أَنْظِمُ الشَّرْقَ فِي (الْجَزِيرَةِ) ^(٥) بِالْفَر بِي ، وَأَطْوَى الْبِلَادَ حَزْناً لِدَهْسِ ^(٦)
فِي دِيَارِ سَنِ الْخُلَافِ دَرَسِ وَمِنْ بَارِ مِنْ الطَوَائِفِ طُمَسِ
وَرُبَّ كَابِلِجْنَانٍ فِي كَنْفِ الزَّيْقُو نِ خُضْرٍ ، وَفِي ذِرَا الْكَرَمِ طُلَسِ ^(٧)
حِصْنِ غُرْنَاطَةٍ ، وَدَارِ بَنِي الْأَحْمَرِ ؛ مِنْ غَافِلٍ ، وَتَيْقُظَانِ نَدَسِ ^(٨)

(١) التي أولها :

اختلاف النهار والليل عسى اذكرا لي الصبا وأيام أنسى
معارضاً بها سينية البعترى التي أولها :
صنت نفسي عما يدنس نفسي . . .

(٢) التي أولها : يانائع الطلح أشباه عوادينا . . .

معارضاً بها نونية ابن زيدون وأولها : أضجى التناثي بديلاً من تدانينا . . .

(٣) حصاني . (٤) نافتي . (٥) المراد: الجزيرة الأندلسية ؛ إذ كان منفيها بها .

(٦) لِمَكَانٍ سَهْلٍ . (٧) جمع أطاس ؛ وهو لون فيد غبرة .

(٨) ذكي يفهم .

ياديَاراً نزلت ؛ كالحلـدِ ظِلًّا ، وجـنـى دانيـا ، وساسـال أنسـ
محسـناتِ المصـول ؛ لا نـاجـر^(١) فيـسـها بـقيـط ، ولا بُـجـادى بـقـوس^(٢)
لا تـحسـ الميـونُ فـوقَ رباها غير حـور ، حـو المرآشـف ، أحـس^(٣)
... ..

ومن الثانية قوله يخاطب سارى البرق .
بالله إن جُبِيتَ ظلماء السُّبَابِ على نجائب النور تحذوا بحجرينا^(٤)
وأحرزتك شُفُوفُ اللَّازَوَرْدِ على وشي الزبرجد من أفوافِ وادينا
فقف إلى النيل

* * *

إلى هنا انتهى الحديث عن الألفاظ شوقى . وما أظن المنصف الذى
يساير الشعراء فى الأمثلة السابقة وفى ديوانهما — يتردد فى الحكم لشوقى ،
وتفضيله فى هذه الناحية الهامة .

على أن الموازنة اللفظية لا تكون كاملة سلبية إلا إذا أردفناها بتفصيل
ناحيتين أخريين لهما أتم الصلة بها ؛ وأعنى :

- (أ) طرافة الألفاظ ، وخصوصيتها .
- (ب) أخطاء الشعراء ، وضروراته ، ومبلغ قدرته على استخدام الأصول
اللغوية ، والمحسنات البلاغية المختلفة فى حدودها الموسومة ،
ولا سيما : السرقات والمطالع .
وإليك البيان فيهما :

* * *

(١) اسم لكل شهر من أشهر الصيف (٢) بشديد البرودة .
(٣) جمع : لمساء ، ومى : المرأة التى فى شفتها سمرة خفيفة مستلحة .
(٤) أى : جبريل .

(١) طرافة الألفاظ وخصوصيتها .

نحط الشاعرين منها .

قد سبق^(١) الإشارة التي توضح المراد من هذين الوصفين . ويريد أن يخصهما بمزيد من الإبانة والإيضاح ؛ لأهميتهما ، فنقول : لا يكفي في حسن الألفاظ أن تكون عربية فصيححة على الوجه الذي أسلفنا ؛ بل لابد فوق ذلك أن تكون طريفة جديدة ، وأن تكون خاصة ، كما يقول البلاغيون الأدباء .

(١) ويحنون بمطرافتها ألا تكون سوقية مبتذلة ؛ تشيع على السنة العامة وأشباههم ، ككلمة : « المائلة » ؛ فإنها عربية صحيحة ، ولكنها بغيضة ؛ إذ لا يكاد العامة ينطقون بغيرها للدلالة على : « الأسرة والعشيرة » . ومثلها : « الخطاب » بمعنى : الرسالة . « والفسحة » بمعنى : التنزه . « وتفرعن » بمعنى : طفى وتجرى . وكذلك : « النسيم الليل »

فقد بلغ من ذبوع هذه الكلمات وانتشارها في عصرنا أن صارت تجري على كل لسان ؛ حتى فقدت جمالها الأول ، وذهب الاستعمال بما لها من نضرة وسهاء ؛ ولهذا يتوقاها الأدباء . فإن القصد من الكلام — كما عرفنا — إنما هو الإبداع^(٢) والتأثير معاً . وتأثر النفس بالطريف الجديد ، وإقبالها عليه — أشد وأقوى من الشائع المبدول ؛ فإنه مملول (يضع من قدر

(١) ص ٨٠ (٢) نقل الصور الذهنية من الكلام إلى السامع ، وإصالها إلى نفسه .

الكلام ولو كان المعنى شريفاً^(١) وهو « وإن لم يؤثر في الفصاحة كبير تأثير — عَيْبٌ يحسن صيانتها عنه ؛ لأن الفصاحة تُنْجِي عن اختيار الألفاظ وحمئها ، وظلاوتها . أما هو فوصف من أوصاف النقص التي يجب إطرأها ، والبعد عنها^(٢) » ولعل الأمر لا يختلط علينا بين الكلام المزين المبذول ، والسهل المحبوب ؛ فالأول هو ما تستعمله العامة في محاوراتها ، ودارج كلامها ، وتدرج معناه . والثاني تفهم الكثير منه إذا سمعته ، ولكن لا تردده إذا تكلمت^(٣) .

وصفة الابتذال متغيرة ؛ ليست كغيرها من صفات القبح التي تلزم الكلمة ؛ فقد تكون الكلمة طريفة في عصر مبتذلة في آخر ، والعكس صحيح . بل قد تكون مبتذلة عند قوم طريفة عند آخرين ؛ يعيشون معهم في عصر واحد ، أو إقليم واحد . ومن هنا كان الحكم على ألفاظ السابقين بالطراوة أو الابتذال عرضة للقدح ؛ لأننا لم نعيش معهم ، فنحرف مبالغ ذيوخ الكلمة أو عدم ذيوخها عندهم قبل الحكم عليها . اللهم إلا بعض أساليب مرددة ، يشترك فيها طبقات متعاقبة ؛ كأن يقولوا في المديح : إنه جرى كالأسد ، جهيل الوجه كالبدْر ، أحر الخلد كالورد

(٢) وَيَعْنُونَ بِخُصُوصِيَّتِهَا أُمْرَيْنِ :

أولهما : أن تكون من الكلمات المستعملة في الغرض الذي سيق الكلام لأجله ؛ فللمدح ألفاظ ، وللهجاء أخرى . وكذلك للفرل ، والتهنئة ،

(١) المثل السائر من ٧٠ المقالة الأولى في الصناعة اللفظية .

(٢) سر الفصاحة ص ٧٧ بتلخيص . (٣) الصناعتين ج ١ ص ٧٧ بتصرف .

والرثاء ، والجد ، والهزل ، وغيرها من باقى الأغراض ؛ فلا يصح
أن نضع فى المدح ألفاظاً تشمر بالذم . ولا يليق أن نضع فى الرثاء
ما يوصى إلى الفرح ، ولا أن نهشـة ما يدفع إلى التشاؤم .
وهكذا (١)

وثانيهما : أن تكون الكلمة الواحدة نصّاً فى المعنى ، تؤدى ما يؤديه كلمتان
أو أكثر ، وتغنى فى مكانها عن كل زيادة فى الألفاظ ككلمة :
الهلـع ؛ فإن معناها : الحزن الشديد ، وقلة الصبر . وكلمة : المرجفين ،
فإن معناها : الذين ينشرون الإشاعات الكاذبة فى المدينة ؛ بقصد
الايـزعاج ، ونشر الفوضى فليس من النصيحة أن ندع الكلمة
الخاصة ، الصريحة فى موضوعها ، ودلالاتها — لتتعمل مكانها
كلمتين أو كلمات ، ونترجم معناها بألفاظ كثيرة ، نستطيع أن
نستغنى عنها بالقليل بل باللفظة المفردة . وليس من هذا المصطلحات
العامة وأشباهها فإن ألفاظها تشوّه الأساليب الأدبية .

ذلك ما قالوه . فما حظ الشاعر من تحقيقه ؟

فأما ألفاظ المتنبي فليس لنا أن نحكم عليها بالطرافة والابتذال لما قدمنا .
نرى بآسن فى هذه الناحية . لكنها مجرّحة فى ناحية الأساليب المرددة
المشتركة بين الشعراء كما أشرنا قريباً . مجرّحة كذلك فى إحدى ناحيتي
خصوصيتها ؛ فما أكثر ما يقع المتنبي فى عيب الكلمات التى لاتناسب
الغرض . دون أن يقع فى العيب الثانى الذى صانه منه تمكنه من اللغة ،
وأدبها ، ومعاشرته السرب الخالص ؛ وهم بطبيعتهم ميالون إلى التركيز
والإجمال والتقصيص . ومن أمثلة الأولى :

(١) راجع صفحة ١٥٤ من سر النصيحة .

(١) قوله يعزى سيف الدولة في عبده « يَمَّاكَ » التركي :

لَأَبْقَى « يَمَّاكَ » فِي حَشَايَ صَبَابَةً إِلَى كُلِّ تَرْكِيٍّ الْقُبَّارِ (١) جَلِيلٍ

وَمَا كُلُّ وَجْهِ أَيْضٍ بِمُبَارَكٍ وَلَا كُلُّ جَفْنٍ ضَيِّقٍ بِفَجِيصٍ

فكلمة : (جليل) أفادت الرثاء ؛ لأن معناها : الغريب المجلوب من

بلد إلى بلد . وليس يحسن في الرثاء أن يقال في إظهار الحزن على الميت :

إنه غريب ، وإنه ضيق السنين .

(٢) وفيها يقول عن سيف الدولة :

وإِنَّ الَّذِي أُمِّتَ نَزَارَ عَيْسِدَهُ غَنَى عَنْ اسْتِعْبَادِهِ لِقَرِيبٍ

إِذَا اسْتَقْبَلَتْ نَفْسُ الْكَرِيمِ مُصَابَهَا بِفُحْبُثٍ ثَنَتْ ؛ فَاسْتَدْبَرَنَهُ بِطَيْبٍ (٢)

فقد عرّض بالميت مرة أخرى ، ووصفه بأنه دخييل . كما وصف

سيف الدولة بأنه غنى عن استعباد الغرباء . وكلمة : « الاستعباد » هنا

رويشة ؛ لأنها تُشعر بالظلم والظغيان . وأردأ منها كلمة : « الخُبْثُ »

بمعنى : الجزع .

(٣) وقوله في الفزل (يخاطب الحبيب) :

تَفَرَّدَ بِالْأَحْكَامِ فِي أَهْلِ الْهَوَى فَأَنْتَ جَمِيلُ الْخُلْفِ ، مُسْتَحْسِنُ الْكَذِبِ

فاستحسن الكذب مريب لا يصح التصريح به ، وإن تأول لذلك

المتأولون .

(٤) وقوله من قصيدة يمدح فيها سيف الدولة حين بنى حصن « مَرَعَش » :

كَفَى عَجَبًا أَنْ يَفْجَبَ النَّاسُ أَنَّهُ بَنَى « مَرَعَشًا » . تَبًّا لَأَرَائِهِمْ ، تَبًّا

« فالمعجب » هنا من قبيح الألفاظ في المدح : لأنه يشعر السامع أن قدرة المدوح موضع الشك .

(٥) قوله يعاتب سيف الدولة ، ويذكره بمدائح ، والمثناء عليه .
أهذا جزاء الصديق إن كنت صادقاً ؟ أهذا جزاء الكذّاب إن كنت كاذباً ؟
فكلمة « جزاء الصديق والكذّاب » في مقام العقاب من أقبح الكلمات اختياراً ؛ لانطوائها على إساءة للمادح والمدوح معاً ؛ فإن كان صادقاً فقد اجتراً على الأمير ، وعرض به ، والدعه بكلامه . وإن كان كاذباً فقد وسّم نفسه ريمة دنيئة ، وصرّح أن الأمير لا يستحق شيئاً مما مدحه به .

(٦) قوله في رثاء أخت سيف الدولة :
يَقْلَمَنَّ - حِينَ تَحْيَا - حُسْنَ نَبِيِّهَا وَلَيْسَ يَعْلَمُ إِلَّا اللَّهُ بِالشَّنَبِ (١)
مَسْرُةٌ فِي قُلُوبِ الطَّيِّبِ مَمْرُقُهَا وَحَسْرَةٌ فِي قُلُوبِ الْبَيْضِ وَالْيَكَبِ (٢)
فكيف يسوغ في مواقف الرثاء أن يعرض لحسن النهم ، والأسنان ، والفرق — كما أشرفنا من قبل — ولو ساع أن يقوله في رثاء رجل أفيسوغ في رثاء أميرة مُنَمَّعةٌ مُتَوَرِّةٌ ؟ وهل تمدح النساء — ولا سيما الأميرات — بالبيس الببيض واليكلب .

(٧) وقوله فيها :
فَإِنْ تَكُنْ خُلِقْتَ أَثْنَى لَقَدْ خُلِقْتَ كَرِيمةً ، غَيْرَ أَثْنَى الْعَقْلِ وَالْحَسَبِ
فقد غمزها بكلمة (أثنى) من حيث أراد مدحها .

(٨) وقوله (يردّ على سيف الدولة حين استدعاه الرجوع إليه بعد الغضب فلم يرجع) :

وما عاقني غير خوف الوشاة وإن الوشايات طريق الكذب
وتكثير قوم ، وتقليلهم وتقرّبهم بيننا ، والخبب
وقد كان ينصرهم سمعته وينصرني قلبه ، والحسب

... ..

وما لاقني ^(١) بلدة بعدكم ولا اعتضت من ربّ نعمائي رب
ومن ركب الثور بعد الجوا وأنكر أظلافه ، والغيب ^(٢)

فكلمة : « ينصر » في البيت الثالث أسبغت على الأمير صفة النفاق .
وكلمة : « الثور » و « الأظلاف » و « الغيب » أساءت إلى المراد
أيما إساءة .

(٩) وقوله في الفزل :

لولا ظباء ^(٣) عديّ ماشقيت بهم ولا بربر بهم ^(٤) ، لولا جاذرة
فليس بسائغ في وصف الحبيب أن يقال إنه جلب الويل والشقاء
لمن يحبه .

(١٠) وقوله في التغزل بمحبته (وهو مثال للكلمة السيئة ؛ لا بنفسها ، ولكن
بما ترمز إليه) .

(١) ضمني وأمكنى . (٢) اللحم المتدلى تحت فم البقر .

(٣) يريد : النساء الجميلات من قبيلة عدي ، اللاتي يشبهن الظباء .

(٤) البربر : القطيع من بقر الوحش ، ويشبه به النساء في جمال العيون .

أَعَارَنِي سُقَمَ عَيْنَيْهِ ، وَتَحَلَّنِي مِنْ الْهَوَى ثِقَلٌ مَا تَحْوِي مَازِرُهُ
فقد ختم البيت بكفاية لا يصح عرُضُهَا في معرض الغزل . ومثلها : -

إِنِّي عَلَى شَفَفِي بِمَا فِي خُفْرِهَا لَأَعِفُّ عَمَّا فِي سَرَائِيلَاتِهَا

قال أحد الناقدين^(١) : (لاشئ أقبح من ذكر السراويلات . وما أعرف كناية ؛ أشهد الله ، أن التصريح أجمل منها ، ووصف عفة سلوك الرِّيب والتهم أحسن من التلطف منها — إلا كناية المتنبي هذه ، ونعته عفاه هذا النعت) .

(١١) وقوله في الغزل : —

وشادني ، روحٌ مَنْ يهواه في يدهِ سَيْفُ الصَّدودِ عَلَى أَعْلَى مُقْلَدِهِ
ما اهتزَّ منه على عضوٍ لِيَبْتَرُهُ إِلَّا اتَّقَاهُ بِتُرْسٍ مِنْ تَجَشُّهِ
إِنْ يَقْبُحُ الْحَسَنُ إِلَّا عِنْدَ طَلْعَتِهِ فَالْعَبْدُ يَقْبُحُ إِلَّا عِنْدَ سَيِّدِهِ^(٢)

فوقاية الحب نفسه بالترس من صدود الحبيب أمر معيب ؛ فما كان له أن يستخدم الوقاية والترس في موقفه هذا . وما كان له أن يبر عن الحسن : « بالبد » ويصفه بأنه مستقبح إلا عند مالكه ، وهو : الحبيب ؛ فالعبد لا يُشرف سيده ، ولا يرفع قدره . والمظيم لا يمدح بأنه يملك عبدا قبيحا عند الناس أو غير قبيح . فقد أساءت الكلمة إلى المعنى ، وكادت تذهب بالنهاية الجميلة منه .

تلك بعض الأمثلة المميبة من هذا النوع وما أكثرها عند المتنبي كما قلنا !

(١) كتاب سر الفصاحة ص ٦٩ . (٢) معنى البيت : كلُّ حُسن فهو قبيح ، إلا في طلعة هذا الحبيب ؛ كالعبد لا يحسن عند أحد إلا عند مولاه . فكأن الحبيب مولى الحُسن الأكل الذي يُقبح كل حسن آخر بالنسبة إلى حُسنه .

ولا شك أن لخشونته ، وجفاء طبيعته ، وأساليب حياته — دخل في هذا .

أما شوقي فهو غور النصيب من طريف الألفاظ ، وخاصتها . مكنته من ذلك ثقافة واسعة ؛ شرقية وغربية ، وصلة بالملوك والأشراف وطيدة ، وحظ من المدنية وافٍ ، تنعَّم به نفس مطمئنة . وحسبنا أن نشير إلى قصيدته الأندلسية ، ومطلعها : —

اختلافُ النهار والليل يُنسى	اذ كُرا لي الصُّبا ، وأيام أنسى
وصيفا لي مُلاوة ^(١) من شباب	صوَّرتُ من تصوراتٍ ومَسَّ
عصفتُ كالصُّبا المحبوب ، ومرت	سِنَّةٌ خُلوةٌ ، ولذَّةٌ خلس
وسلا مصرًا ؛ هل سلا القلب عنها ؟	أو أسا جرحه الزمانُ المؤسَّى ؟
كلما مرت الليالي عليه	رقَّ . والسهدُ في الليالي تقسَّى

.....

وقصيدته في توت عنخ آمون ، ومنها : —

خليلى ، اهبطا الوادى ^(٢) ، وميلا	إلى عُرفِ الشُّموس الغارينا
وسيرا في محاجرهم ^(٣) رويدًا	وطوفًا بالمضاجع خاشعينا
وخصًا بالعمار ^(٤) وبالتحايا	رفات المجد من « توتنخمينا »
وقبرا كاد من حُسنٍ وطيبٍ	يُضىء حجارةً ويَضُرْعُ ^(٥) طيفًا

(١) فترة قصيرة . (٢) يريد : وادى الملوك بالأقصر ، وفيه كشفت آثار

« توت عنخ آمون » وغيرها من بدائع الآثار .

(٣) أما كنهم المقدسة التى يحمونها . (٤) نوع من الرياحان يقدم تحية للملوك .

(٥) نفوح رائحته الطيبة .

يخالُ لروعة التاريخ قدت جَنَادِلُهُ الملا من (طورسينا)

.....

وقصيدته في الفزل : —

رَوَّعُوهُ ؛ فتولَّى مغضباً	أعلمتم كيف ترتاع الظبأ ؟
خلقتْ لاهية ، ناعمة	ربما رَوَّعَهَا مرُّ الصبأ
لى حبيب ؛ كلما قيل له	صدق القول ، وزَكَّى الرِّيبأ
كذب العذَّالُ فيما زعموا ؛	أملَى في فاتنى ما كَذَبَا
لو رأونا !! والهوى ثالثنا	والدُّجَى يُرْخَى علينا الحُجْبَا
في جوارِ الليلِ ، في ذِمَّتِهِ	نذكر الصبحَ بالألَّا يَقْرُبَا
مِلْءُ بُرْدَيْنَا عَفَافٌ وَهَوَى	حِفْظُ الحِسنِ ، وصنْتُ الأدْبَا
يا غزالاً أَهْلَ القلبِ به	قلبي السَّفْحُ ، وأُخْنَى ملْعَبَا
لك ما أَحْبَبْتَ من حَبَّتِهِ ؛	منهلاً عَذْبَا ، ومصرَعَى طيِّبَا
هو عند المِلاكِ الأوَّلَى به	كيف أشكُّو أنه قد سُلِبَا ؟
إن رأى أبقي على مملوكه	أو رأى أتلفه ، واحتسبَا

.....

إلى غير هذا مما يزدان به الديوان (ولاسيما شعره بعد المنفى) .

على أن كلماته — وقد فاز أوفرها بالطرافة والتخصيص — أصيب
قليل منها بالتمذلل والامتهان ، أو بوضعه وضماً غير حميد لا يلائم فيه المقام ،

فمن أمثلة الأول :

- (١) كذا الناس بالأخلاق يبقى صلاحهم وَيَذْهَبُ عَنْهُمْ أَمْرُهُمْ حِينَ تَذْهَبُ
- (٢) وتسحب ذيل الكبرياء وهكذا يتيه ويختال القوى المُغَلَّبُ
- (٣) وطار الأهالي نافرين إلى الفلا مئينَ وآلافًا تَهيمُ وَتَسْرُبُ
- (٤) أمن حرب البسوس إلى غلاء يكادُ يُعِيدُهَا سَبَقًا صِعَابًا
- (٥) ولم خلقت قلوب من حديد لما حَمَلَتْ كَمَا حَمَلَ الْعَذَابُ
- (٦) وليس بالفاضل في نفسه من يُنْكِرُ الْفَضْلَ عَلَى رَبِّهِ
- (٧) ينال باللين الفتى بعض ما يعجز بالشدّة عن غَضَبِهِ
- (٨) ضمّوا الجهودَ واخلوها مُنْكَرَةً لَا تَمْلَأُوا الشَّدَقَ مِنْ تَعْرِيفِهَا ؛ عَجَبًا
- (٩) أم بالتكاتف^(١) حول الحق في بلد من أربعين يُنادي الويلَ وَالْحَرَبَا .
- (١٠) إِنَّ الْمُتَّقِينَ عِنْدَ اللَّهِ وَالنَّاسِ ثَوَابًا
- (١١) واستقيموا يَفْتَحِ اللَّهُ لَكُمْ بَابًا

.....

ومن أمثلة الثاني : —

- (١) قصيدته في تهنئة خليفة المسلمين^(٢) بالنجاة من قذيفة أقيمت عليه .
وفيها يقول :

زَهَدْتُ الَّذِي فِي رَاحَتَيْكَ^(٣) ، وشاقتني جوائزُ عِنْدَ اللَّهِ مَبْتَغِيَاتُ

فقد خانه التوفيق في هذا ؛ إذ لا يصح أن يقول للخليفة : (وبخاصة عند المدح والتهنئة) زهدت ما في يديك .

(١) لم أهتم إلى تصويب كلمة : « التكاتف » كما سيجيء . (٢) السلطان عبد الحميد .
وكانت الحادثة سنة ١٩٠٥ . (٣) يريد : لاني غير راغب فيما بيدك من العطايا والمنح .

(٢) وفيها يقول أيضاً :

ومن كان مثلي «أحمد»^(١) الوقت لم تجزُ عليه — ولو من مثلك — الصدقاتُ
فما أقبح مواجهة الخليفة بقوله : « ولو من مثلك » !! وما أقسى ما تحمله
العبارة من معان تتوارد على الخواطر !! . عجيب أن يفتب هذا عن شوق ؛
نديم الخلفاء والملوك ، وصاحب الحس المرهف ، والذوق المصقول .
(٣) وقوله في مدح محمد علي الكبير :

وتصونُ النوالَ عن حسنِ صنعٍ لك يُنسى ، ونعمةٌ لك تُجحدُ
فهذا مدح هو بالذم أشبه ، وإليه أقرب ؛ فإن الملوك لا تُمدح
بحسب الصنيع عن جاحده ، ومنع النعمة عن منكرها . (هذا وفي البيت
من ضعف الصياغة وحشو اللفظ مالا يخفى) .
(٤) وقوله يهنيُ محامياً ببراءته من تهمة عزيت إليه ، ومنع بسببها من
مزاولة عمله حتى حُكم القضاء ببراءته : —

هذا القضاء رماك بالأيمنى ، وباليُسرى نزعُ
فقد سوى بين حالى القضاء فى الرمى والنزع ، أو فى الاتهام والبراءة ؛
فلم يكن القضاء مخطئاً فى الأولى ولا فى الثانية . وليس فى هذا دفاع عن
المحامى ، ولا ترجيح لنزاهته ، ولا إشارة إلى ظلم اتهامه ؛ بل ربما كان
الكلام إلى التجريح أقرب .

(٥) وقوله فى قصيدة يخاطب بها الخديوى حين عزم على الحج : —
فقلْ لرسول الله : ياخيرَ مرسلٍ أبشك ما تدرى من الحسراتِ

(١) يرمز إلى أنه فى العصر الحاضر كأحمد المتنبي فى العصر السالف .

شعوبك في شرق البلاد، وغربها كأصحاب كهف؛ في عميق سُبَاتِ
فليس بسائغ في مقام الرسول الأسمى، وما ينبض له من أدب
في الخطاب — أن يواجه هذه المواجهة الصريحة بأن شعوبه نائمة، بل
ميتة. ولقد كان في الاستطاعة الحديث عن تلك الشعوب من غير إضاعتها
إلى الرسول، ونسبتها إليه؛ تلك النسبة التي قد تترك العقل يفهم منها
مالا يريده شوقي، ولا يرضاه أدبه العالى، وخلقه الكريم.
(٦) ويهني السلطان حسين كامل بعرش مصر؛ فيعترف بأن الفضل
في ذلك للإنجليز فيقول فيهم:

حلفاؤنا الأحرار، إلا أنهم أرقى الشعوب عواطفاً، وشيولاً
لما خلا وجه البلاد لسيئفهم ساروا سماحاً في البلاد، غدولاً
وأثوابكابرها، وشينخ ملوكها ملكا عليها، صالحاً، مأمولاً
وتلك زلة كبيرة لا أدري كيف وقع فيها شوقي، وبخاصة حين
يهني سلطاناً مصرياً بعرش بلاده، وهل يحسن ذكر السيف هنا مع
السماحة والعدل؟
(٧) وفيها يقول:

يا أهل مصر كلوا الأمور لربكم فالله خير موثلاً ووكيلاً
أيقال هذا في صدد التهنية بالسلطنة وكل حرف من حروفه يدعو إلى
اليأس، ويدفع إلى الانصراف عن السلطان الجديد؟
(٨) ويقول فيها:

جرت الأمور مع القضاء لغاية وأقرها من يملك التحويلاً

فإذا أراد بملك التحصيل الإنجليز فما عمل السلطان إذا ؟ وبأى شئ يهنئه ؟ وإن أراد به الله فالبیت سقط مبذول .

(٩) ويقول مخاطباً الملك فؤادا في قصيدة شهيد الحق :

ويا بن الغيث ، بالوادي غليل إلى الإصلاح ؛ فامنحه الفمّاما

أرّى وطناً تحيّر ناشئوه فما يجدون من عمل قواماً^(١)

فكيف يقول الملك : إن البلاد ممتطشة إلى الإصلاح ، وإن الناشئة لا تجد عملاً ملائماً ؟ لقد كان الوصول إلى ما يريد من طريق آخر أليق بخطاب الملوك ، وأكرم لأدبه .

والحق أن أشباه هذا قليل إذا قيس بنصيب المتنبي منه . كما أن نصيب المتنبي من النوع الثاني^(٢) أقل من نصيب قريعه ؛ فهما في خصوصية اللفظ متعادلان ؛ لأفضل لأحدهما على الآخر .

* * *

(ب) الأخطاء والضرورات . ومبلغ القدرة على استخدام الأصول اللغوية ، والمحسنات البلاغية :

نعني بالخطأ هنا : ما لا يسوغ ارتكابه في شعر أونثر ، سواء أكان الخطأ في النحو ، أم الصرف ، أم العروض ، أم غيرها من فروع اللغة ، وعلومها ؛ كرفع ما يجب نصبه ، وجر ما يجب رفعه ، وحذف ما لا يصح حذفه ، وفك المدغم ، والإخلال بوزن البيت

(١) ما يقيم الإنسان ، ويصون حياته .

(٢) وهو العيب الحاس بأن الكلمة ليست نصاً في المعنى

ونعني بالضرورة : ارتكاب الشاعر بعض المخالفات النحوية ، أو غير
النحوية التي تباح في الشعر دون النثر ؛ كتنوين مالا ينصرف ، ومد
المقصور ... ، وغيرها مما هو محدود في الضرورات التي حصرها العلماء .
ومما تقدم ندرك الفرق بين الخطأ والضرورة الشعرية ؛ فالخطأ لارخصة
فيه في شعر ، أو نثر . والضرورة مباحة في الشعر وحده . ومما يجدر التنبيه
له أن الضرورة — وإن كانت مباحة — لا تخرج عن كونها عيباً يحسن
تنزيه الكلام عنه ، وعدم الاتجاه إليه جهد الطاقة . والشاعر الفحل يتنبأ
أن يرتكبه ما وجد لنفسه مندوحة . وكثرة الضرورات في شعر دليل على
قصور صاحبه ، وعجزه ، بالرغم من إباحتها له ؛ فليس كل مباح مرغوباً فيه .
وشتان بين شعر مُبرِّأ من العيوب ، وآخر مريب . ولو كان العيب مباحاً .
وفي هذا يقول ابن خلدون ^(١) :

« على الشاعر ألا يستعمل من الكلام إلا الأفصح من التراكيب ،
الخالص من الضرورات اللسانية . فليجبرها ؛ فإنها تنزل بالكلام عن
طبقة البلاغة . وقد حَفَظَ أئمة اللسان على المولد ارتكاب الضرورة ^(٢) ؛
إذ هو في سعة منها ؛ بالمدول عنها إلى الطريقة المثلى من الملكة » .
ويقول صاحب كتاب نقد النثر ^(٣) : « إن البلاغة والإيجاز إذا وقعا في
الشعر والقول (أي : النثر) قُضِيَ للشاعر بالفاج ^(٤) . والهي والإسهاب إذا وقعا

(١) مقدمة ابن خلدون فصل الكلام على فني النظم والنثر ص ٣٢٩ .

(٢) وهذا أخذ بالرأي المتشدد ، وترك للرأي المتسمح الأغلب .

(٣) قدامة بن جعفر ص ١٠٢ . (٤) بالسبق والفوز .

في الشعر والقول كان الشاعر أعذر^(١) ، وكان العذر عن المتكلم (الفائر) أضيق ؛ وذلك لأن الشعر محصور بالوزن ، محصور بالقافية ؛ فالكلام يضيق على صاحبه . والنثر مطلق غير محصور ؛ فهو يتسع لقائله . . . فأما عذرهم للشاعر في التقصير ، واعتفائهم له العيوب — فقد جَوَّزوا من قصر الممدود ، وحذف الحركة ، وتخفيف الهمزة ، وصرف ما لا ينصرف — ما لم يجيزوه للمتكلم . وأجازوا له في الوزن أشياء . . . وكل ذلك عيوب . وهي على من استعمل البديهة ، وقال الشعر على المأجس^(٢) والسجية — أقل عيباً منها على من استعمل الروية ، والتفكير ، وكرر النظر ، والتدبر .

ونسود بعد هذا إلى أخطاء المتنبي ؛ لنبين أن النقدة السابقين تعقبوا شعره ، وأخذوا عليه أنواعاً من الخطأ اللغوي ، والصروي ، والنحوي ، وغيرها . وقد تدبرت ما قالوه في النوعين الأولين ؛ فوجدتهم مبطلين ، ورأيت جَنَفَ الهوى بادياً فيما قالوا ، وحدتُ « للجرجاني » كثيراً مما أورده في كتابه (الوساطة^(٣)) ؛ تفنيداً لرأيهم ، ودفاعاً عن المتنبي . ورأيت كثيراً مما اعتدوه خطأ نحويًا ليس بالخطأ الصراح ؛ فقد صَوَّبَ ثقات العلم أمثاله ، أو عدَّوه من الضرورات الشعرية المباحة للشاعر ، أو : هو رأي كوفي جرى فيه المتنبي على عِرْقٍ من أصله الكوفي ، ونشأته فيها ، وإقامته سنوات بين العرب الفصحاء الضاربين حولها . وفي كل مثال من هذا النوع الأخير نرى العكبري شارح الديوان يدفع الخطأ ويقول : « هذا رأي

(١) أقوى عذراً . (٢) الخاطر ، من غير تمهل وإعداد .

(٣) س ٣٣٠ وما بعدها . بحث : ما أنكره العلماء من شعر أبي الطيب .

الكوفيين» أو : «رأى أصحابنا . . . » وليس بمستساغ ، بل ليس من جد القول — أن نزع الرأي الكوفي خطأ ؛ وهو عربى فصيح ، وأن نقول للكوفى : أخطأت ؛ لمطلقك بلسان قومك ، وعدم اتباعك لفئة البصريين . وكلتاها عربية صحيحة .

فإذا جاوزنا الأنواع الثلاثة السالفة وقفنا على نوع رابع يسير الخطار ؛ ولكن لا نستطيع الدفاع عنه ، إذ لم نهتد إلى تصويبه ، ولم نعرف له مستنداً من لغة فصيحة ، أو مذهب قوى ، أو ضرورة مباحة . فإن صح أنه خطأ ، وأنه يسير في عِلده وفي درجته — كما أزعج — فإن صدوره من المتنبي يجعله خطيئاً . ويزيد في شناعته ما يساور من أخذ ببعض اللهجات الضعيفة ، وإهمال لأصول البلاغة قوية سنحدث عنها قريباً .

نعم هو من المتنبي كبير ؛ لعل منزلته بين شعراء العربية ، ونشأته في مهاد الفصحى أعواماً ، وإقامته بين أهلها البدو سنوات ، وحفظه الكثير الأجود من كلامهم ، وحرصه على مراجعة شعره ، وإعادة النظر فيه بعد إتمامه ، ودفعه إياه لعالم اللغة والنحو : الإمام ابن جنى — كما أسلفنا — فهل له عذر لا نعرفه ، أو حجة لم نطلع عليها ؟ قد يكون . ولكن الثابت أن العذر والحجة لم يفتكشفا بعد ؛ فلسنا بالمتسرعين إن حكمنا بتخطئته ، وتقصيره . وإليك مُثلاً للأنواع الثلاثة الأولى^(١) ، ثم للرابع .

فَتَى بِكُذِّبُ مُدَّعٍ لَكَ فَوْقَ ذَا وَاللَّهُ يَشْهَدُ أَنَّ حَقًّا مَا ادَّعَى

عابوا عليه : وقوع اسم إن نكرة ؛ قائلين : إن الوجه كونه معرفة . وليس

(١) وهى التى وصفوها بالخطأ وليست كذلك ؛ لأن العلماء صوبوا أمثالها ، أو : لأنها رأى كوفى ، أو : لأنها ضرورة مباحة .

قولهم بصحيح إذا أخذنا برأى النحاة في باب المبتدأ والخبر ؛ حيث نضوا على جواز وقوع المبتدأ نكرة إن سبقها ناسخ^(١) . ولا أعرف خلافا في ذلك ، ولا تفرقة بين الشعر والنثر . ومن أمثلة الثاني :

مَضَى وَبَنُوهُ ، وانفردت بفضلهم وَأَلْفٌ إِذَا مَا جُمِعَتْ وَاحِدٌ فَرْدٌ
فقد أخذوا عليه أنه عطف من غير فاصل كلمة : (بنوه) على الفاعل المستتر في كلمة (مضى) وقالوا : هذا خطأ . فرد المكبري الشارح قائلا : ليس بخطأ ؛ لأنه مذهب أصحابنا أهل الكوفة . وحجتنا : مجيئه في الكتاب العزيز ، وفي أشعار العرب . وساق أدلة تأييده ، كما ساق أدلة المعارضين البصريين ومن أمثلة الثالث :

وَأَنْ يُكَذِّبَ الْإِرْجَافَ عَنْهُ بِضِدِّهِ وَيُمْسِي بِمَا تَنْوِي أَعَادِيهِ أَسْفَدَا
فقد أخذوا عليه تسكين الياء في آخر الفعل المنصوب : (يمسي) . وليس في الأمر ما يستحق مؤاخذه ؛ لأنها من الضرورات التي سوغها العلماء للشاعر . ومن أمثلة الرابع :

(١) وَلَوْ حُمِلَتْ صُمُّ الْجِبَالِ الَّذِي بَنَا غَدَاةً افْتَرَقْنَا أَوْ شَكَتْ تَتَصَدَّعُ
بِمَا بَيْنَ جَنبِيَّ الَّتِي خَاضَ طَيْفُهَا إِلَى الدِّيَا جِي وَالْخَلِيُونِ هُجَّعُ
يريد : أفدى بما بين جنبي . فحذف المتعلق بغير دليل . وهذا غير جائز في لغة قوية ، على ما أعرف .

(٢) وَمِنْ قَبْلِ النَّطَاحِ وَقَبْلَ يَأِي تَبِينُ لَكَ النِّعَاجُ مِنَ الْكِبَاشِ
أي : وقبل أن يأتي . فحذف « أن » في هذا غير جائز أيضاً في اللغة القوية .

(١) الصبان وغیره .

ومثلها في قوله :

وما جاست حتى انشئت توسع الخطا كفاطمة عن درها قبل ترضع
أى : قبل أن ترضع .

ومثاله :

يا حاديي غيرها ، وأحسبني أوجد ميتا قبيل أفقدها
أى : قبل أن أفقدها .

(٣) فلاكل منجوع سواكم شبهة وإكل مفقود سواه نظير
أيام قائم سيفه في كفه السيمى ، رباع الموت عنه قصير
فكلمة : الأيام ، معمول المحذوف تقديره : لم يكن له نظير أيام قائم
سيفه في كفه . وهذا حذف غير مقبول .

(٤) فأقبلها المروج^(١) مسومات^(٢) ضواير لاهزال^(٣) ولاشيار^(٤)
فأرجع الضمير في : (أقبلها) على الخيل ، وليس لها ذكر في الكلام
(كما قال العكبري) .

وكقوله :

خليلي ، ما هذا مناخا لمثلنا فشدا عليها ، وارحلا بنهار
أى : فشدا على الإبل . فكيف نعرف أنها الإبل ، أو الخيل ،
أو غيرها ؟ ولا دليل على المحذوف هنا ؟

(٥) قالت — وقد رأيت اصفرارى — : من به ؟ وتنهدت ، فأجبتها المتفهد

(١) موضع بين الفرات وحلب . (٢) جمع : هزيل .

(٣) الشيار : جميلات المنظر ، سميات .

أبى : من فعل هذا به ؟

وهناك أمثلة أخرى تشبه هذه أو تخالفها . ومن الإنصاف أن نعيد ما قلناه من أنها قليلة في مجموعها . إلا إن زدنا عليها ما يسميه النحويون : (الشاذ) وهو يقع كثيراً في شعره . ولأننا لا نعدّه عليه ، لأسباب ليس موضعها هنا ^(١) .

* * *

وإليك الرأي في أخطاء شوقي وضروراته :

فأما أخطاؤه فإنني تَقَصَّيت شعره في أجزاء ديوانه الأربعة ؛ فلم أقع على خطأ لغوي ، أو نحوي ، أو غيرها ^(٢) ؛ رغم ما بذلت من تتبع واستقصاء ، خرجت بعدها مؤمناً أن شوقي فصيح اللغة ، سليم اللسان . ومن التسرع تخطئته في شيء قبل البحث الأكمل ، والرجوع إلى المظان المختلفة الوافية . وطالما وقفت أمام مفردات بعينها ظننت في مادتها ، أو في وزنها ، أو ضبط حروفها — خطأ ؛ فإذا الخطأ بعيد منها . وطالما توقفت أمام تراكم توهمت خروجها على النسق الصحيح ، والتأليف العربي الأقوم — فإذا هي النسق العالي ، والتأليف الأشمى . وَرَدَّتْني إلى الصواب المراجعُ اللغوية حيناً ، والنحوية أو البلاغية ، أو الأدبية ، أو غيرها من المصادر الوثيقة — حيناً آخر . فليس من سداد الرأي أن يقصر الباحث همه — عند دراسة الصواب والخطأ — على مراجع بعينها ؛ فقد

(١) ذلك لأنه يقتضى بحثاً في معنى الشاذ ، وأحواله ، وأحكامه ، وما يترتب على كل حالة . وليس هنا مجال تحقيقه وتمحيصه .

(٢) إلا في بعض الزحافات والعلل العروضية ؛ وما أسرها .

يكون الرأي في سواها . ومن هنا تسرب الخطأ إلى أحكام كثير من الناقدين ؛ إذ تسميهم يقولون : هذا جمع تكسير لا يصح استعماله ؛ لأننا لم نعلم عليه في معاجم اللغة ؛ فهو غير مسموع من العرب ؛ وإذا لا يصح — عندهم — استعماله . وقد يكون بحسبهم مقصوراً على بعض المعاجم دون بعض ، أو : غير مقصور ولكن فاتهم أسر الحقيقة والمجاز عند البلاغيين ، أو أمر المطرد والقياسي وفهم المراد منهما عند علماء النحو واللغة ؛ وأن هؤلاء إذا نصوا على أن وزناً من المجموع مطرد أو قياسي^(١) — ساغ لنا أن نستعمل نظائره التي على زنته ، ولو لم ترد في المعاجم ، ولم تسمع عن العرب . وإغفال هذا الأصل السليم أوقع كثيرين من المثقفين في أحكام خاطئة .

تسميهم يقولون : (استلم محمد الكتاب) خطأ ؛ لأن كلمة : « استلم » لم ترد في المعاجم المعروفة ، ولا في استعمال العرب إلا مقصورة على استلام الحجر الأسود بالكعبة . فإن صح هذا فقد فاتهم أصل آخر سليم ، هو : المجاز المرسل الذي يبيح نقل المعنى المقصور على شيء وجعله عاماً يشمل غيره متى وجدت العلاقة والقرينة . وهما موجودتان هنا .

وتسميهم يقولون : (أضاعت الثريّات المكان ...) خطأ ؛ لأن « الثريات » جمع : « ثريا » . والقاعدة الصرفية في الألف الرابعة فأكثر أن تقلب ياء في جمع التانيث ؛ فتقول : « الثرييات » ...

وفاتهم أن القاعدة الصرفية تفرض حذف ياء عند تلاقي ثلاث ياءات

(١) أو : غالب ، أو : أغلب ، أو : أعم ، أو ما أشبه هذا ما يدل على الكثرة .

في كلمة واحدة ؛ كما هو الشأن في « ثريات » . ومن هنا يتضح أن الحكم على كلمة أو جملة بالخطأ لا بد أن يسبقه دراسة وافية شاملة من النواحي المختلفة اللغوية والنحوية والصرفية والبلاغية . . . وهذا مالا يتنبه له كثير ممن يتصدون للنقد .

على أن الكلمة قد تُبَحِّثُ مادتها في المعاجم كلها فلا نجد لها وجوداً فيها ، ثم نجدها بعد ذلك في كلام عربي يحتج به ، فليست المعاجم بالمراجع الوافية التي حَصَرَت المادة اللغوية ، ولم يندّ عنها شيء ؛ فما أكثر ما تَرَكَتْ ، وما أكثر ما غاب عن جامعياتها ؛ برغم دأبهم ، وكدهم ، وبذلهم من الجهد مالا يبذله إلا العلماء الأوفياء لعلمهم ، الفانون في مهمتهم .

تلك حقائق يجب ألا تغيب عن الأنظار . وإهمالها هو الذي دفع بعض الناقدين إلى التبعي على « شوقي » ، والحكم عليه بالخطأ فيما ليس فيه خطأ ؛ فتد أخذوا عليه ما يأتي :

(١) قال في وصف قطار يحمل بعض الزعماء :

لولا استسلامُ الخلقِ أَرْسَانَهُ شَبَّ ؛ فَنَالَ الشَّمْسُ مِنْ نُجْبِهِ

فقالوا : إن مادة (استلم واستلام) خاصة بالحجر الأسود في الكعبة . وقد وضعنا ما في هذا .

(٢) النَّسَاعَاتُ ، الْعَلِيمَاتُ تُ الْعَرُفِ ؛ أُمُثَالُ الزُّهُورِ

(٣) سلام (أبا ناهر) في الترابِ يُعِيدُ التُّرَابَ رَفِيفَ الْوَرْدِ

(٤) بُشْرِى إِلَى الْوَادِى تَهْزُ نَبَاتَهُ هَزَّ الرَّبِيعِ مَنَاكِبَ الْأَدْوَاكِ

قالوا : إن كلمة « الزهور » ، و « الورد » ، و « الأدواح » من المجموع

التي لم ترد في الكتب اللغوية . وفاتهم أن القياس الصحيح لا يمنحها^(١) . ومثلها : كلمة « البؤساء » التي أخذوها عليه أيضاً .

(٥) أنا من بدل بالكتب الصحابا لم أجذلى وافيا إلا الكتابا
قالوا : الصواب (أنا من بدل بالصحاب الكتب) ؛ لأن الباء تدخل على الشيء المتروك وحده . وليس صحيحاً ما يقولون ، ولا عيب فيما استعمله « شوقي » كما نص على هذا أئمة اللغة^(٢) (وإن كان الكثير إدخالها على المتروك) .

(٧) وقال عن الحماية الإنجليزية التي كانت مضروبة على مصر وهب المصريون جميعاً للشخص منها ، فنجحوا ، وساعدتهم (ألنبي) المندوب السامي الإنجليزي في مصر .

لو تسألون (ألنبي) يوم جندلها بأي سيف شلى يافوخها ضرباً
قالوا : إن الفعل : « جندل » ومشتقاته غير موجود في المراجع اللغوية فوق أن الأوزان الصرفية المملومة تأباه . وفاتهم أنه مسموع في كلام عربي^(٣) يحتاج به ؛ فلا مجال بعد النص المسموع لجِدال .

-
- (١) راجع المطولات النحوية ؛ كالأشموني ، باب : جمع التكسير ، الكلام على فحول وأفعال ، وفعلاء ، وما يطرد فيها .
(٢) راجع تاج العروس ، مادة : بدل .
(٣) قال الجراح الجاهلي من شعراء ربيعة : وجندات عمارا بضربة صارم . . . وقال المهلهل :

من مبلغ البنسين أن أباهم أمسى قتيلا في القلاة مجندلا
(راجع الجزء الثاني من شعراء النصرانية ص ١٤٧ و ١٧١) وكذلك في شعر زيد الخيل ج ٢ ص ٢٤٢ من روايات المثلث والمثنى :
(وبشر بن عمرو قد تركنا مجندلا) . . .

(٧) وقال عن اللغة العربية :

فَعَلَّمَهَا صَغِيرَكَ قَبْلَ كُلِّ وَدَعْ دَعْوَى (تَدْعِيهِمْ) وَخَلِّ

زعموا أن كلمة : (المدن) خطأ : وما هي بخطأ^(١) . والحق أني قرأت شعر شوقي ، وأطلت الوقوف أمام كثير منه ؛ إعجاباً ، واستمتاعاً ، أو دراسة وتشككاً — فلم أرَ فيه ما يحتاج إلى تصويب ؛ إلا :

(١) بعض كلمات قليلة لا أعرف لها مكاناً من اللغة الصحيحة . وبعض مخالفات للشائع من المذاهب النحوية ؛ كقوله :

(٢) أَلَنْطِقُ ، وَالْأَنْبَاءُ تَتَرَى بِطَيِّبٍ وَأُسْكُتُ ، وَالْأَنْبَاءُ تَتَرَى بِمُؤَلِّمٍ .
وقوله :

وَالْأَيُّ تَتَرَى ، وَالْخَوَارِقُ جَمَّةٌ جَبْرِيلُ رَوَّاحٌ رِيحاً ، عَمْدَاءُ .
فظهر الكلام يدل على أنه استعمل (تتري) فمضارعاً . وهي لا تكون إلا اسماً . (إلا إن جعلها حالاً مقدمة ، أو غير مقدمة ؛ فيكون في تصحيحها تصنف ظاهر وخلاف نحوي عنيف) .

(٣) وَتَهْدِيكَ الثَّنَاءَ الْحَرَّ تَاجَاً عَلَى تَاجِيكَ مُؤْتَلِقاً مُعْجَابَاً

فقد عدى الفعل (أهدى) لمفعولين . والمماجم اللغوية تهديه لمفعول واحد ؛ إلا على تحمل بعيد .

(٣) يصف جيشاً باغياً :

وَيَهْتُمُّ بِاسْمِ الْكِتَابِ أَقْسَةً نَشِطُوا لِمَا هُوَ فِي الْكِتَابِ حَرَامُ

ولم أرَ في المماجم الشائعة ، ولا أعرف في القواعد العامة — ما يدل على أن « أقسة » جمع : قَسَّ ، أو قَسَيْسَ .

(١) لأن مطاوع كعمل (شدد العين) هو : التفعّل ، فباسم مطاوع كما نص على ذلك الأئمة .

(٤) يخاطب القمر من سفينة :

وَكَاثِرُهَا وَالْمَوْجُ مُنْتَظِمٌ ، وَقَدْ أَوْفَيْتَ ، ثُمَّ دَنَوْتُ ؛ كَالْمُحْتَارِ^(١)

فليس « المحتار » ما يؤيد تصحيحها فيما أعرف .

(٥) يصف قصر المنتزه :

مُنْتَزَهُ الْعَبَّاسِ لِلْمُجْتَلَى أَمِنْتُ بِاللَّهِ وَجَنَّتْهُ

فكلمة : (المنتزه) لا يؤيدها سرجع معروف ، وإن كانت قد تردت

في كلام العباسيين بعد القرن الثالث .

(٦) فصفحةً في التراب إذا التَّيَمَّنَا وَلَوْ شِيتِ الْعِدَاوَةُ وَالتَّرَاتُ

فكلمة : (لوشيت : بمعنى : بادت وهلكت) من الكلمات التي لا أعرف لها تأييداً .

(٧) ... أُمُّ بَالْتَكَاثُفٍ حَوْلَ الْحَقِّ فِي بَلَدٍ مِنْ أَرْبَعِينَ بِنَادِي الْوَيْلِ وَالْحَرْبَا

فلمست أعرف تصحيحاً لكلمة « التكاثف » .

(٨) فَإِنْ أَسَاءَكَ قَوْلِي كَذِبُ أَبَاكَ بَوَعْدِ

ومثله : وَإِذَا صَلَّيْتَ خَفَ مِنْ تَقَبُّدٍ كَمْ مُهْصَلٍ ضَجَّ مِنْهُ الْمَسْجِدُ

« : إِنْ جَاءَ ذَنْبِي عَنِ الْفُجْرَانِ إِلَى أَمَلٍ فِي اللَّهِ يَجْعَلُنِي فِي خَيْرٍ مُنْتَصِمٍ

فمراجعة الأكثر تقتضي أن يقول : (فكذب ، نخف ، فلي أمل ؛

بإدخال الفاء على الجواب) .

(١) لم أجد للفعل احتار ومشتقاته سرجعاً صحيحاً مع أن للحنفية كتاباً باسمه : رد المحتار شرح الدر المختار .

(ب) كلمات عامية ، أو : أجنبية ، اشتهرت ، ولا يُعرَف في الاستعمال غيرها ؛
 فينطق بها نظرفا ، أو عجزاً عن كلمة عربية تحمل محلها . كالأبيات
 التالية (وفيها من الكلمات : « يانصيب » . « النمرة » بمعنى : الرقم .
 « التّرلى » . « جز بند » لنوع من الموسيقى . « السردار » لرئيس الجيش .
 « البوغاز » للمضيق المائى . « الأرخبيل » لمجموعة الجزائر . « اليوبيل »
 لعيد يُحتَمَل فيه بمناسبة انقضاء فترة زمنية على شىء نافع . « تنك » لسيارة
 حربية من نوع خاص) .

ويكثر هذا النوع في قصائده « المحجوريات ^(١) » يقول :

(١) فى قصيدة عنوانها : « يانصيب » :

وقالوا عنك لى أمس : ربحت « النمرة » الكبرى

(٢) صهار شوقى أبا على فى الزمان « التّرلى »

(٣) مصر فتالى لم تُوقّر جدّها دقت وراء بضجعى « جز بندها »

(٤) أخذت بذنبهم البلاد ، وأمة بالريف ما يدرون ما « السردار »

... ..

(٥ و٦) لتلقى منفذاً للعين حيناً ولما يمتس « البوغاز » ضراً

وبعد « الأرخبيل » وما يليه وتيه فى الميالم ^(٢) أى تيه

(٧) و « يوبيل » الملوك يلبث يوماً و « يوبيل » يدوم فى الناس عاماً

(١) عدد من القصائد فى الجزء الرابع يداعب بها صديقه الدكتور محبوب ثابت بك

رغمها الله . (٢) جمع : عيلم ، وهو : البحر .

(٨) بطل البداهة لم يكن يفز على «تلك» ولم يك يركب الأجواء^(١)

تلك أخطاء شوقي ؛ وهى محدودة ، محصورة . ونحن — مع قلتها
وشرها — لانفذه من تبعها ، ومن الحكم بأنه أساء إلى نفسه ، وشعره
بها . وقد نجا من أمثالها المتنبي وبرى .

أما ضروراته الشعرية قليلة ؛ إذ كان مقتضداً في استعمالها ، عزوفاً
عنها ؛ ما وجد له مندوحة . وهى — على قلتها — داخلية في حدود ما أباحه
العلماء للشعراء . (ومن هنا تسعت مسافة الخلاف بينه وبين المتنبي) وأكثر
ضروراته صرف المنوع ، واتسكين المنصوب . ومن الأمثلة :

- (١) يخطرُنَ بينَ أرباكِ ، وسنابرٍ في هيكلي من سُندسٍ فيّاحٍ
- (٢) في كلِّ صهراء ، وكلِّ تنوفةٍ أرضٌ عليك من السماء تظارُ
- (٣) لو أنتمُ هوكُ جنادٍ لا وصفاً جملوك بالذِّكر الحكيم مسوِّراً
- (٤) إذا مال صفت فاختلعه بأخرٍ وسول مساعٍ لا مكلول ولا آل^(٢)
- (٥) عسى الشعر أن يجزى جريشاً لفقدِه بكي الترك واليونان بالدمع والدمر
- (٦) لا نحن «جرمان» لنا حصّة ولا برؤمان فنعطى فتيمل

وإلى هنا ينتهى القول فى ناحية الأخطاء والضرورات ؛ فننتقل إلى
الناحية الأخرى ؛ ناحية الحسنات البلاغية .

* * *

(١) جمع : جوى ، وهذه الكلمة مما زعموا أن شوقي استعملها من غير وجود لها فى المراجع
اللغوية ، مع أنها فى تاج العروس ، والمجيب ما نشأهده فى هذه الأيام من الحكم على
بعض الكلمات بأنها ليست بالمأجىم مع وجودها . وسبب ذلك الاختصار على
بعض المعاجم . (٢) لا آل : أى : غير مقصر .

نريد بهذه المحرمات ما ارتضاه أئمة البلاغة من فروعها الثلاثة :
(المعاني ، والبيان ، والبديع) وامتدحوه ، ونصحوا باتباعه ، والبمد عما
يخالفه . وقد دونوا آراءهم في كتبهم الخاصة ، وضمّنوها ما شاءوا من تفصيل
وإيضاح . ولسنا بحاجة إلى إعادة ما أسلفنا ؛ من جلال القواعد البلاغية ،
وعظيم شأنها ، وأنها مستخرصة من صميم الأدب الأجود ، ونصوصه المنتقاة ؛
فهي الضوابط الصحيحة التي توضح نواحي الحسن والقبح فيه ، وترشد
إلى عيوبه ومحاسنه من أقرب طريق ، وأنجح وسيلة . وهي - لذلك - خير
معين على النقد ، وأقوى سلاح في يد الناقد ، وأحكامها الفيصل الحاسم ؛
فمن شهدت له فهي حسبه . ومن خاصمته باء بالخسران .

وليس في استطاعتنا أن نعرض لكل النواحي البلاغية في شعر المتنبي
وشوقي ؛ فذلك مالا يتسع له البحث . وقد سبق الكلام على ناحية ألفاظهما
المفردة والمركبة ، وما يتصل بها . وسنعرض الآن من النماذج المختلفة ما يكفي
ليبين بعض النواحي الأخرى ، والحكم عليها ؛ حسناً ، أو قبحاً . من غير
أن نقصدي لمكان الشاهد ومناقشته ؛ اعتماداً على فهم الأديب ، وحسن
إدراكه .

فمن أبيات المتنبي ما يرضى البلاغة ، ويضطرب الأدباء ؛ بإحكام تشبيهه ،
أو حسن مجازه ، أو واضح كنايةه ، أو بارع توريته ، أو لطيف جناسه ،
أو جميل إطنابه ، أو حلاوة وصله ، أو بديع تقسيمه ... أو ... إلى
غير ذلك من الفنون البلاغية التي نقع من أطايبها على زاد واخر في شعره .
وأمثلتها كثيرة لا نجد عناء في الوصول إليها .

فمنها قوله في حيرة الأحباب ساعة الرحيل :

(١) أَدْرَنَ عُيُونًا حَائِرَاتٍ ؛ كَانَهَا
مُرْكَبَةً أُحْدَقَهَا فَوْقَ زَيْبِقٍ
وَفِي خَيْلِ الْأَبْطَالِ :

(٢) فَكَانَهَا نَتَجَتْ قِيَامًا تَحْتَهُمْ
وَكَانَتْهُمْ خُلِقُوا عَلَى صَهَوَاتِهَا
وَقَوْلُهُ فِي الْحَمَى :

(٣) وَمَنَازِلُ الْحُمَى الْجُسُومُ ؛ فَقُلْنَا

أَعْجَبَتْهَا شَرَفًا ؛ فَطَالَ وَقُوفُهَا

(٤) قَدْ كُنْتَ أَشْفَقَ مَنْ دَمَعِي عَلَى بَصَرِي

(٥) وَيَوْمًا كَانَ الْحُسْنُ فِيهِ عِلَامَةٌ

(٦) لَا يُعْجِبِينَ مَضِيًّا^(١) حُسْنُ بَزَّتِهِ

(٧) مَا بِالْهَ ؟ لَا حَظَّتُهُ ؛ فَتَضَرَّجَتْ

وَقَوْلُهُ فِي الرِّثَاءِ :

(٨) كَفَلَ الثَّنَاءُ لَهُ بَرْدَ حَيَاتِهِ

(٩) وَالْغَنَى فِي يَدِ الْأَشِيمِ قَبِيحٌ

(١٠) وَحَيْدٌ مِنَ الْخُلَانِ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ

(١١) لِلَّهِ أَوْنَةٌ تَمُرُّ ؛ كَانَهَا

(١٢) تَعْلُ الْخُصُونُ الشَّمُّ طُولَ نِزَالِنَا

(١٣) لِمَنْ تَطْلُبُ الدُّنْيَا إِذَا لَمْ تُرِدْ بِهَا

(١٤) يَهُونُ عَلَيْنَا أَنْ تُصَابَ جُسُومُنَا

وَتَسْلَمَ أَعْرَاضُنَا ، وَعَقُولُ

(١٥) وقال يصف أعداء سيف الدولة حين انهزموا (وقد أحسن فيما يسميه « البلاغيون » الجمع والتقسيم) .

السَّيِّئُ مَا نَكَحَّوْا ، وَالْقَتْلُ مَا وَلَدُوا ، وَالنَّهْبُ مَا جَمَعُوا ، وَالنَّارُ مَا زَرَعُوا
(١٦) كَمْ مِنْ حُشَّاشَةٍ بَطْرِيْقٍ تَضْمَنَهَا لِلْبَاتِرَاتِ أَمِينُ مَالَهُ وَرَعُ
ويخاطبهم وقد فرحوا بأخذ بعض الأسرى من جيش سيف الدولة :

(١٧) لَا تَحْسَبُوا أَنَّ أَسْرَئِمُ كَانَ ذَارِمِي فليس يأكل إلا الميت الضَّعِيفُ
(١٨) ويخاطبهم :

أَغْرَكُمُ طَوْلُ الْجُمُوشِ وَعَرْضُهَا عَلَى شُرُوبٍ لِلْجُمُوشِ ، أَكُولُ
(١٩) حَشَايَ عَلَى جَمْرٍ ذِكِّي مِنَ الْهَوَى وَعَيْنَايَ فِي رَوْضٍ مِنَ الْحُسْنِ تَرْتَعُ
وفي وصف الأسد :

(٢٠) مُتَخَضَّبٌ بِدَمِ الْفَوَارِسِ ، لَا يَسُ فِ غِيلِهِ مِنْ رِبْدَتَيْهِ غِيْلًا
تَحْتَ الدُّجَى نَارَ الْفَرِيقِ حُلُولًا مَأْقُوبِلَتْ عَيْنَاهُ إِلَّا ظَنَنَّا
لَا يَعْرِفُ التَّجْرِيمَ وَالتَّحْلِيلًا فِي وَحْدَةِ الرُّهْبَانِ ؛ إِلَّا أَنَّهُ
(٢١) وَوَقَالَ نَبَتْ فِيهِ ، وَلَسِيكَ لَمْ يَزَلْ لِلْوَفَاءِ أَهْلًا
(٢٢) وَلَعَمْرِي لَقَدْ شَغَلَتْ الْمَنَآيَا بِالْأَعَادِي . فَكَيْفَ يَطْلُبُنْ شُغْلًا ؟

واستمع للأبيات الآتية في وصف الدنيا ، ومدح سيف الدولة . وتأمل مآخوته من فنون بلاغية مُحْكَمَة :

(٢٣) وَلَنِيذُ الْحَيَاةِ أَنْفَسُ فِي النَّفْسِ وَأَشْهَى مِنْ أَنْ يُمَلَّ ، وَأَحْلَى
وإذا الشيخ قال : أَيْ ؛ فَمَا مَلَّ حَيَاةً ، وَإِنَّمَا الضَّعْفُ مَلًا

آلَةُ الْعِيشِ عِجَّةٌ ، وَشَبَابٌ فَإِذَا وَلَّيَا عَنِ السَّرِّهِ وَلَى
أَبْدًا تَسْتَرِدُّ مَا تَهَبُّ الدُّنْيَا . فَيَا لَيْتَ جُودَهَا كَانَ بِخُلَا
فَكَمَتَ كَوْنٌ ^(١) فَرَحَةٍ تُورِثُ النِّمَّ وَخِلٍ يُغَادِرُ الْوَجْدَ خِلَا
وَهِيَ مَعْشُوقَةٌ عَلَى الْفَدْرِ ؛ لَا تَحْفَظُ عَوْدًا ، وَلَا تُتِمُّمُ وَصْلًا
كُلُّ دَمْعٍ يَسِيلُ مِنْهَا عَلَيْهَا وَبِفِكَ الْيَدَيْنِ عَنْهَا تَخْلَى
شَيْمُ الْغَانِيَاتِ فِيهَا ؛ فَلَا أَدْرِي لِمَا أَنْتَ امْتَمَّتِ النَّاسُ أَمْ لَا

* * *

يَا مَلِيكَ الْوَرَى الْمَفْرَقِ مَحْيَا ، وَمَمَاتَا غِيَمٌ ، وَعِزًّا ، وَذُلًا
قَلَدَ اللَّهُ دَوْلَةً سَيْفِهَا أَنْتَ حُسَامًا ، بِالْمَكْرُمَاتِ مُحَلَّلًا
فَبِهِ أَغْنَتْ الْمَوَالِي بَدَلًا وَبِهِ أَفْنَتْ الْأَعَادِي قَتْلًا
وَإِذَا اهْتَزَّ لِلنَّدَى كَانَ بَحْرًا وَإِذَا اهْتَزَّ لِلْوَغَى كَانَ نَصْلًا
وَإِذَا الْأَرْضُ أَظْلَمَتْ كَانَ شَمْسًا وَإِذَا الْأَرْضُ أَهْلَمَتْ كَانَ وَبْلًا
وَهُوَ الضَّارِبُ الْكَتِيبَةَ ، وَالطَّعْنَةُ تَغْلُو ، وَالضَّرْبُ أُغْلَى وَأُغْلَى
أَيْهَا الْبَاهِرُ الْمُتَوَلَّى ؛ فَمَا يَدُ رَكٍّ وَصَفَا ، أُنْعِمْتَ فِكْرِي ؛ فَهَلَا
مَنْ تَعَاطَى تَشَبُّهُ بِكَ أَعْيَا هُ ، وَمَنْ دَلَّ فِي طَرِيقِكَ ضَلَا
فَإِذَا مَا اشْتَهَى خُلُودَكَ دَاعٍ قَالَ : لَا زِلَّاتَ أَوْ تَرَى لَكَ مِثْلًا
وفى هذه الأبيات وسابقتها ما يوضح جانباً فنياً رائعاً فى شعر المتنبي
ويظهر براعته . ولولا عشرات أخرى لكان المجلى فى هذه الناحية .

ومن أكبر عثراته : خشونة اللفظ ، وجمود الطريقة . وأعنى بالأول اختياره اللفظ الضخم ، الجزل في المواطن كلها ؛ سواء أكان مناسباً في مكانه أم غير مناسب ، لا فرق عنده بين تهليل ، وإغراء ، وعتب ، وحرب ، ونسيب ، وحنيف — كما سبق — .

وأعنى بالثاني التزامه تلك الخشونة — في أغلب موضوعاته — وإبشاره البهيمور الشعرية المجلجلة ، ذات النغم الفخم ، والجرس القوي ؛ سواء أكانت ملائمة لموضوعها أم غير ملائمة . مع أن اللفظ الجزل إذا وضع في غير موضعه اللائق به استحال خشناً ، جافاً ، مردولاً . واستحالت الجزالة المستعسنة عيباً بغيضاً . والوزن الشعري إن لم يكن ملائماً لموضوعه فقد موسيقاه المؤثرة ، المترجمة عن الشعور العميق ، وانقلب صوتاً أصمّ مُنْكَراً . وكذلك الرقيق في غير موضعه ؛ متخادلاً ، واهن ، ركيك ، وسوسيقاه فائرة . فمظهر الخشونة في شعر المتنبي إنما هو في إحلال الجزل محل الرقيق . ومظهر الجمود إنما هو في التزام المخالفة في اللفظ وفي البحر ، أو ما يشبه الالتزام . وفي ذلك ما يعيب الشعر عند البلاغيين ، ويدخله عندهم في منطقة : (المخالف المقام) .

وهم على حق في هذا ؛ فالكلام أصوات تبرز ما في نفس المتكلم ، وتصور شعوره على الوجه الأكمل قدر الاستطاعة ؛ فإذا كانت النفس ثائرة هائجة وجب اختيار الألفاظ قوية عنيفة . وإن شئت فقل : نغمة جزلة ؛ كي تستطيع أن تُترجم عن أعماق المشاعر ، وتصورها أقرب ما تكون إلى الحقيقة . يسايرها الوزن الشعريُّ الأقوى ، ويؤيدها البحر المجلجل . وإن كانت النفس وادعة حاملة وجب تخير الألفاظ الرقيقة السمحة ، والوزن الشعري الهادي ؛ كي لا تُزعجها ، وتقطع صفوها وهدووها ، وجعل أحلامها .

وبديهة أننا لانعنى بالجزالة في الكلام : (أن يكون ^(١) وحشياً في غاية
 الغرابة في معانيه ، والوعورة في ألفاظه . ولا نريد بالركة أن يكون : ركيكاً ،
 نازل القدر ، سفسافاً ؛ ولكن المقصود من الجزالة أن يكون مستعملاً
 في قوارع الوعيد ، ومهولات الزجر ، وأنواع التهديد . وأما الركة : فإنما
 يراد بها ما كان مستعملاً في الملاحظات ، واستجلاب المودات ، والبشارة
 بالوعد . . .) فالأديب المقتدر من « يُقَسِّم ^(٢) الألفاظ على رُتب الممانى ؛
 فلا يجعل الغزل كالفتخر ، ولا المديح كالوعيد ، ولا الهجاء كالاستبطاء ،
 ولا الهزل بمنزلة الجلد ، ولا التعريض مثل التصريح ؛ بل يرتب كل ما رتبته ،
 ويوفيه حقه ؛ فيتلطف إذا تفرل ، ويفخم إذا افتخر ، ويتصرف المديح
 تصرف موافقه ؛ فإن المدح بالشجاعة والبأس يتميز عن المدح باللباقة
 والظرف . ووصف الحرب والسلاح ليس كوصف محافل الفناء ؛ فلكل
 واحد من الأمرين نهج ؛ هو أملك به ، وطريق لا يشاركه الآخر فيه .
 وليس الأمر بمقتصور على الشعر دون الكتابة ، ولا بمختص بالنظم دون
 النثر ، بل يجب أن يكون الكتاب في الفتح ، أو الوعيد خلاف الكتاب
 في النشوق والتهمة واقتضاء المواصلات ، وخطاب التحذير والزجر أنخم من
 خطاب الوعد والتمنى ^(٣) . »

وصائغ الكلام كصائغ الجواهر والحلى ، لا بد له قبل إعداد الحلية أن
 يتعرف مقام صاحبها ، والمكان الذي تلبس فيه : (أهو العنق ، أم الأذن ،

(١) ما يأتي منقول عن الطراز ج ١ ص ١١٥ البحث الثالث .

(٢ و٣) الوساطة ص ٣٩ ، فصل : « لكل مقام مقال » . باختصار وبعض تصرف
 في اللفظ .

أم المعصم . . . ؟) ليحملها قلادة ، أو قرطاً ، أو سواراً . . . وكذلك صائغ الكلام لا بد أن يعرف الموضوع الذي يطرقه قبل الشروع فيه : أمدح هو ، أم هجاء ، أم وعد ، أم وعيد ، أم حرب ، أم تشبيب . . . الخ ويختار لكل موضوع ما يناسبه « فيأتي »^(١) مرة بالجزل ، وأخرى بالسهل ، ويلين إذا شاء ، ويشتم إذا أراد . ومن هذا الوجه فضأوا جريراً على الفرزدق ، وأبا نواس على مسلم . . . ؛ لأن الفرزدق يجري على طريقة واحدة ، والتصرف في الوجوه أبلغ . ولأن أبا نواس يتصرف بين الشدة واللين ، ويضع كلاً منهما في موضعه ، ويستعمله في حينه . . . »

وليس المراد بالسهل الذي أوردناه الضعيف الركيك ؛ وإنما (هو : النمط الأوسط الذي ارتفع عن الساقط السوقي ، وانحط عن البدوى الوحشي^(٢)) .

ونصيب المتنبي من خشونة اللفظ كبير واضح ؛ أشرنا إليه فيما سبق ، وضمنا له الأمثال . وحسبك من خشونته أن ألقط أبياته الآتية من قصيدة واحدة في الأنين والشكوى من الزمان ، منصّدة بالفرز^(٣) .

كم قَتِيلٍ كما قَتِلْتُ شهيدٍ بِيَاضِ الطَّلَا ، وَوَرْدِ الخُدُودِ ؟
دَرْ دَرْ الصَّبَا أَيَّامَ تَجْرِيسِ ذِيُولِي ، بدارِ أَثَلَةِ غُودِي
عَمْرُكَ اللَّهُ ، هلْ رَأَيْتَ بُدُورًا طَلَعَتْ فِي بَرِاقِعٍ ، وَعَقُودِ
كُلِّ مُخَصَّنَةٍ أَرَقَّ مِنْ النِّخَمِ ، بقلبِ أَفْسَى مِنَ الْجُلُودِ

(١) الصناعتين ص ١٧ الفصل الثالث من الباب الأول .

(٢) الموضع السابق ص ١٩ .

(٣) . . . سبق شرح المفردات الصعبة في الأبيات التالية في مناسبات سابقة .

ذاتِ فَرْعٍ ؛ كَأَنَّمَا ضُرِبَ الْقَنْسَبُ فِيهِ بِمَاءٍ وَرَدٍ ، وَعُودٍ
حَالِكٍ كَالْمُتَأَفِّ ، جَثَلٍ ، دَجْوٍ جِيٍّ ، أَثْبَتٍ ، جَعْدٍ بِلَا تَجْعِيدٍ
أَهْلُ مَا بِي مِنَ الضَّنَا ، بَطْلٌ صِيٍّ لَمْ يَتَصَفَّيْهِ طَرَّةٌ ، وَبِحَبِيدٍ

.....

مَفْرَشِي هَهْوَةٍ الْحَمَانِ وَلَكِنَّ قَمِيصِي مَسْرُودَةٌ مِنْ حَلِيدٍ
لَأُمَّةٍ ، فَاضَةٌ ، أَضَاةٌ ، دِلَاصٌ ، أَخْكَتْ نَسْجَهَا يَدَا دَاوُدَ (١)
ضَاقَ صَدْرِي ، وَطَالَ فِي طَائِبِ الرَّزِّ قِيَامِي ، وَقَلَّ عَنْهُ قُعُودِي

.....

والآيات الغزلية الآتية :

حَاشَى الرَّقِيبَ ؛ نَفْخَاتُهُ ضَمَائِرُهُ وَغِيْضُ الدَّمْعِ ؛ فَانْهَلَتْ بِوَادِرِهِ
لَوْلَا ظَبَاءُ عَدِيٍّ مَا شَقِيتُ بِهِمْ وَلَا بِرَبِّهِمْ ، لَوْلَا جَاذِرُهُ
مِنْ كُلِّ أَحْوَرَ فِي أَنْيَابِهِ شَنْبٌ خَمْرٌ تَخَامِرُهَا ، مِسْكٌ تَخَامِرُهُ
نَسْجٌ تَحَاجِرُهُ ، دُعُجٌ نَوَاطِرُهُ حُمْرٌ غَفَائِرُهُ ، سُودٌ غَدَائِرُهُ

وأمثال هذا غالب على قصائده المختلفة . وقد مرت صورٌ منها كثيرة :

أما جهود طريقتيه في البحور فحسبك أن ديوانه يحوى من القصائد
والمتطوعات قرابة ثمانين ومائتين ؛ هي كل ما جادت بها قريحته ؛ منها : نحو
سبع وخمسين من البحر الطويل ، وست وأربعين من الوافر ، وثلاث وأربعين
من الكامل ؛ فمجموع هذه الثلاث : ستة وأربعون ومائة ؛ تضرب

في نواح شتى من الأغراض المختلفة ، بين غزل ، وحنين ، وأنين ،
وخريات ، ومدائح ... ومعنى هذا أن أكثر من نصف قصائده منظوم
من البحور القوية الجرس ، المدودة النغم ، التي تصلح لمواقف الشدة
والعنف ، ولا تكاد تصلح لغيرها . فقد آثرها من بين ستة عشر بحراً ،
وكان في هذا من القاسطين ؛ إذ لم يعط البحور الأخرى نصيبها من
الإبصار في المواضع التي هي أليق بها ، وأنسب ؛ ففي البحور الشعرية
ما هو قويٌّ شديد ؛ كالثلاثة التي آثرها . ومنها ما هو هادي الجرس ،
عذب النغم ، خفيف الوقع ؛ كالهزج ، والمتدارك . ومنها ما يتوسط الاثنين ؛
كالمتقارب ، والرمل . فلكل بحر مكانه ومزيته ، وإغمال هذا مسابة
لا يفتقرها النقاد البلاغيون . وقد وقع فيها المتنبي — عامداً أو غير عامد —
بدافع من طبيعته الثائرة ، المنيفة ، التي تجنح إلى كل ما فيه قوة ، وضخامة
وشدة — كما أسلفنا —

(ب) ومن عشرات^(١) المتنبي كثرة الحشو ، والتضمين ، وقبح
الاستعارة ، وخفاء السكناية ، والإيجاز المخل ... و ... وأوضح من
كل هذا وأكثر : سرقاته ، وسوء مطالبه .

وإليك صوراً من عثراته ، ثم تفصيلاً عن سرقاته ومطالبه :

(١) شرف ينطخ النجوم بقرنييه وعزّ يقلل الأجبالا

فقد سجل للشرف قرنا . وهذه استعارة قال عنها القسدي : إنها

استعارة جديدة^(٢) .

(١) بعض ما يأتي لفظي صريح وبعضه مختلف فيه ؛ الأفضل هو أم معنوي ؟ ولا قيمة

لهذا الخلاف في بحثنا . (٢) الصبيح المتنبي على هامش العكبري ص ١٦٣ ج ١ .

(٢) مَسْرَّةٌ فِي قُلُوبِ الطَّيِّبِ مَفْرَقُهَا وَحَسْرَةٌ فِي قُلُوبِ الْبَيْضِ وَالْيَلْبِ
 فجعل للبييض واليالب قلوبا تشع وتتحسر ؛ وهذا قبيح . ولا عذر
 يتوجه له في هذه الاستمارة ؛ كما يقول صاحب سر الفصاحة ^(١) . وما أكثر
 ما يلجأ هذا الأديب البلاغي إلى الاستشهاد بشعر المتنبي في العيوب ؛
 كاستشهاده بالبيت السابق ، وبقوله في مدح كافور :

تَرْغَرَعَ الْمَلِكُ الْأَسْتَاذُ مُكْتَهِلًا قَبْلَ الْكُنْهَالِ ، أَدِيبًا قَبْلَ تَأْدِيبِ
 فقال ^(٢) : إن كلمة : « الأستاذ » من الحشو الذي يؤثر في المعنى نقصاً ،
 وفي الغرض فساداً . وإن كلمة : « الأستاذ » بعد كلمة « الملك » نقص
 كبير . وبين تسميته بالملك ووصفه بالأستاذ فرق واضح .

(٣) وقوله متغزلاً في مطلع قصيدة يمدح بها :
 نَلَامُ النَّوَى فِي نُلْمِهَا غَايَةَ الظُّلْمِ لَهْلَلٍ بِهَا مِثْلَ الَّذِي بِي مِنَ الشُّقْمِ
 يدافع بهذا البيت عن النوى ، وأنها مظلومة في الاستئثار بالحبيب ،
 وربما كانت تحبه ، وتمسقه ، وتختاره لنفسها ، وتحول يده و بين غيرها ؛
 فهي معذورة في احتفاظها به ، وعدم تركه لغيرها . فصَوَّرَ النوى في صورة
 شخص يحب ، ويمشق ، وينار ، ويستأثر . والفساد في هذا واضح .
 (٤) وقوله في المدح :

أَسَدٌ ^(٣) ؛ دَمُ الْأَسَدِ الْهَزْبُ خِضَابُهُ مَوْتٌ ^(٤) ؛ فَرِيصٌ ^(٥) الْمَوْتِ مِنْهُ تَرَعَدُ

(١) سر الفصاحة للخفاجي ج ١ ص ١١٨ (٢) سر الفصاحة ص ١٤١ ج ١ .

(٣) أي : هو أسد . (٤) أي : هو موت .

(٥) جمع : فريضة ، وهي قطع من اللحم عند السكف ، تضطرب حين الخوف .

فقد جعل للموت فريصاً يهتز من الخوف كفريص الإنسان . وهذا من أفجع الاستعارات .

(٥) وماذا ترى في الأبيات الخمسة التالية وقد أرسلها لابن العميد رداً على رسالة تشويق :

بَكُتِبِ الْأَنَامُ كِتَابٌ وَرَدَّ فَدَتْ يَدَ كَاتِبِهِ كُلُّ يَدٍ
يُخَبِّرُ عَنْ حَالِهِ عِنْدَنَا وَيَذْكُرُ مِنْ شَوْقِهِ مَا نَجِدُ
وَأُخْرِقَ رَأْيُهُ مَا رَأَى وَأَبْرَقَ نَاقِدُهُ مَا انتَقَدَ
إِذَا سَمِعَ النَّاسُ الْفَاطَةَ خَلَقْنَ لَهُ فِي الْقُلُوبِ الْحَسَدَ
فَقُلْتُ : — وَقَدْ فَرَسَ الْفَاطِقِينَ كَذَا يَفْعَلُ الْأَسَدُ ابْنُ الْأَسَدِ

وفي البيت الأول حذف لانهتدى فيه إلى المحذوف إلا بتصعيد وتخمين ؛ فالجار والجرور (بكتب) ، تملكان بمحذوف ؛ هو : يُفْدَى . . .
وما فائدة كلمة : (الأنام) ؟ أليست حشواً لا داعي له ؟ — وفي البيت الثالث كلمتان هما : (أخرق) و (أبرق) . ومعنى الإخراق : التعبير من همٍّ ومعصيبة . ومعنى الإبراق : فتح العين من فزع ودهشة . والمراد من البيت (كما يقول شارحه السكبرى) : أن من رأى الكتاب حيره ما رآه من حسن الخط . وأن من نقد لفظه أبرقه ما انتقده من حسن ألفاظه ، ومعانيه ، وبلاغته . فأى ذوق يستسيغ الكلمتين ، أو إحداها في هذا الموضع ، ويرضى عن استمارة الإخراق للحسن الغالب ، والإبراق للجمال القاهر ؟
وفي البيت الرابع يقول : إن ألفاظ الكتاب — لحسنها — تخلق الحسد في القلوب لكاتبه ، وتجعل القارىء يحسده . يريد : أن الكتاب عظيم ،

وأنه من النعم الجليلة التي يحسد الناس أصحابها . وهذه كناية أساء الشاعر التعبير عنها ، واختار لها لفظة طوحت بهاؤها وهي : (الحسد) . وكان جديراً به أن يختار تعبيراً آخر يدل على أنها تخلو له الأكبار والتعجيد .

وفي البيت الخامس يقول : إن الكاتب فرس الناطقين بفصاحته . (أى : صرّعهم ، وقضى عليهم ؛ كما يصرع الأسد فريسته) ولا عجب في هذا ؛ فهو أسد من أسد . فما أقبح الفصاحة التي تفرس الناطقين ، وما أقبح التعبير عنها باستعارة مرذولة ؛ هي : القتل ، والفرس . وما أصدق من قال ^(١) : (لو خرس المتنبي ، ولم يصف كتاب ابن العميد بما وصف - لكان خيراً له ؛ فكأنه قط لم يسمع وصف كلام . وأى موضع للإخراق والإبراق والفرس في وصف الألفاظ والكاتب ؟)

(٦) سَرَى السَّيْفُ مِمَّا تَطْبَعُ الْهِنْدُ صَاحِبِي إِلَى السَّيْفِ مِمَّا يَطْبَعُ اللَّهُ لَا الْهِنْدُ
يقول : سرى معى السيف صاحبي ، وهو مطبوع بالهند . وأنا سيف طبعه الله ؛ لا الهند . فما قيمة غائمة البيت « لا الهند » ؟ أنست حشواً بغيضاً ؟

ومثله قوله :

قَلَوْ كَانَ يُنْجِي مِنْ عَلَيَّ تَرْهَبُ تَرْهَبَتِ الْأُمْلَاكُ مَشْنَى وَمَوْحَدًا

فما قيمة : (مشنى) و (موحد) بعد الأملاك ؟

ومثله قوله في وصف الدنيا :

وَلَا فَضْلَ فِيهَا لِلشَّجَاعَةِ وَالنَّدَى وَصَبْرَ الْفَقَى لَوْلَا إِقَامَةُ شُعُوبِ

(١) هو : الواحدى أحد شراح المتنبي . وقد نقله المكبري عند شرح البيت المذكور .

قال صاحب سر الفصاحة^(١) :

(إن « النَّدَى » هنا : حشو ؛ يفسد المعنى . وذلك أن مقصوده أن الدنيا لا فضل فيها للشجاعة والصبر لولا الموت ؛ لأن الشجاع إذا علم أنه يخلد فأى فضل لشجاعته ، وكذلك الصابر . فأما النَّدَى فمخالف لذلك ؛ لأن الإنسان إذا علم أنه يموت هان عليه بذل ماله . وكذلك يقول إذا هوتب في بذله : كيف لا أبذل مالا أبقى له ؟ ومن أين أتق بالتمتع بهذا المال ؟)

(٧) وقوله في الفزل :

أَعَارَنِي سَقَمٌ عَيْنِيهِ وَحَمَلَنِي
مِنْ الْهَوَى ثِقْلَ مَا تَحْوِي مَازِرُهُ

قال كناية آخر البيت بغيضة ؛ ليست مما يليق ذكره ، كما أشار لهذا شارح الديوان . ومثلها بل أبغض منها قوله في الفزل أيضاً :

خَفِ اللَّهَ ، وَاسْتَرِ ذَا الْجَمَالِ بِرُقْعٍ
فَإِنْ لَحْتَ حَاضَتْ فِي الْخُدُورِ الْقَوَاتِقُ

ومثله : إني على شغفي بما في خمرها
لَأَعِفُّ عَمَّا فِي سِرَاوِيلَاتِهَا

(٨) وانظر إلى التشبيه الضمني التافه ، بل السيء في الشطر الثاني :

يَفْدِي بَنِيكَ - عُبَيْدَ اللَّهِ - حَاسِدُهُمْ
بِحَبْمَةِ الْعَيْرِ يُفْدِي حَافِرُ الْفَرَسِ

(٩) و إلى إفساد المدح بالتوجيه^(٢) حين يخاطب كافورا بقوله :

فَإِنْ نِلْتُ مَا أُمِلْتُ مِنْكَ فَرُبَّمَا
شَرِبْتُ بِمَاءٍ يُعْجِزُ الطَّيْرَ وَرَدُّهُ

أريد : إن أدركت مطلوبي فلا عجب ؛ فكم أدركت بك الصعب

(١) ص ١٤٣ . (٢) أن يكون الكلام محتملا للمدح والذم معا .

الممتنع — فيكون الكلام مدحا عاليا ، أم يريد أن يقول : إن أخذت منك شيئا — على بخلك وامتناعك من العطاء — فكم وصلت إلى الصعب ، واستخرجت السير ، كما يقول شارح الديوان ؛ فيكون الكلام ذمّا قاتلا ؟

(١٠) وإلى سوء المطابقة بين مكسورة وصحيح في قوله :

ينشى الطمآن فلا يرُدُّ قناته مكسورة ومن الكمأة صحيح
فإن كلمة : « مكسورة » حشو — كما قال الشارح — أراد به مجرد المطابقة ؛
إذ لا أثر في رجوع القناة مكسورة .

(١١) ومن التورية المعيبة ، ومراعاة الفظير المستهجنة ؛ لاشتغالها على مدطلحات
نحوية — قوله مادحا :

إذا كان ما تنويه فعلاً مضارعاً مضي قبل أن تُلْفَى عليه الجوازِمُ

... ..

إلى غير هذا من الصور المعيبة التي تتكرر في النوع الواحد والأنواع المختلفة .

* * *

أما سرقاته : فقد طال الكلام فيها بين خصومه وأنصاره ؛ فأولئك يبالغون في تماددها ، ويسرفون في تعشيدِها . وهؤلاء يدفمونها ، ويسرفون في تبرئة صاحبهم . وبين الفريقين تختبئ الحقيقة بسحب الهوى والتشكيك .

إن السرقة الأدبية — فيما قال العلماء — أنواع كثيرة ؛ تُرَبِّي على خمسة عشر نوعا . وكلها يرجع إلى انفاق الكلامين في اللفظ والمعنى معا ؛ أو في المعنى فقط . وقد يزيد المسروق أو ينقص ، أو يتناوله بعض التصرف .. والمنصف حين يتردد على ديوان المتنبي يرى كثيرا مما عدّه الناقدون سرقات ليس منها في شيء ؛

إما لأن معناه معروف للناس ، ذائع بينهم ؛ فلا فضل لأحد فيه (فهو — كما يسمونه — قَدَرٌ مشتركٌ بينهم جميعاً ؛ لا ينسب لواحد منهم دون الآخر ؛ كتشبيهه الخلد بالورد ؛ والقوام الأهيف بالفضن اللدن ...) وإما لأنه قد يخطر على بال أحد الخاصة كما خطر على بال الآخر دون علم ولا قصد ؛ فهو من النوع الذي يسمونه : « توارد الخواطر » . وقد أحسن الجرجاني ^(١) الكلام في هذا وأطال إيضاحه . وكذلك صاحب الصبح ^(٢) المتنبي .

وشئٌ آخر ؛ فقد كان المتنبي راوية من رواة الشعر ، ومن أكبر حفاظ الدواوين ^(٣) . ومثل هذا قد ينطق في شعره بكلام غيره دون تدبير ، ولا ترتيب سابق . وقد يجرى على لسانه ما ليس له دون أن يشعر . ومكانة المتنبي الأدبية ، وثقته بنفسه ، بل غروره وكبرياؤه ، وكثرة حساده وأعدائه الذين يتربصون به الدوائر — كل أولئك يمنعه أن يسرق كلام غيره ، وأن ينتهب ما ليس له .

على أنى — بالرغم من ذلك كله — وقعت على أبيات كثيرات لا أستطيع الدفاع عنها ، ولا إخراجها من السرقات . ولا سيما بعد أن روى بعض الثقات : (أن المتنبي حين قُتِل كان معه ديوان أبي تمام والبحتري بخطه ، وعلى حواشي الأوراق علامة كل بيت أخذ معناه وسأخه ^(٤)) .

فإن كانت هذه الرواية صحيحة — والقرائن تدل على صحتها — فالمتنبي مختلس ، زائف ، المظلمة ؛ لأصلته بين حقيقة نفسه وظاهر غروره وادعائه . ومن استباح أن

(١) كتاب الوساطة ص ١٥٥ وما بعدها ، سرقة الشعر .

(٢) ص ٢٦٩ وما بعدها على هامش المكبرى ج ١ .

(٣) ج ١ ص ١٧٥ من الصبح على هامش المكبرى .

(٤) الصبح المتنبي ج ١ ص ٢٧٣ هامش المكبرى . و ص ١١ من كتاب الكشف

عن مساوي المتنبي لأصحاب .

يسرق أبا تمام والبحري استباح أن يسرق غيرها ، وأن يعرض تلك النفاس
المسروقة مموّهة مصقولة ، على أنها ملك يمينه ؛ وهي تبرأ من فماته وجراته .
وندمع البيان الأمثلة (١) .

(١) قال ضمضم السكناي :

إذا لم يكن عن قبضة الموتِ مخاضٌ فمَجَزٌ وجَبُنٌ أنْ تخافَ المَهالكَا
فقال المتنبي :

وإذا لم يكن من الموتِ بُدٌّ فإنَّ المعجزِ أنْ تكونَ جَبَّانَا
(٢) قال أحد الأقدمين :

ترى خيلهم مربوطةً بقيادتهم وفي كلِّ قلبٍ من سنايكها وقعُ
فقال المتنبي :

صيامٌ (٢) بأبوابِ القبابِ جياذهم وأشخاصها في قلبِ خائفهم تعدو
(٣) وقال الرقي مخاطب الطول :

يا مَحَلَّ الآرامِ والعينِ أهلاً لك في القلبِ منزلٌ ، ومَحَلُّ
فقال المتنبي :

لك يا منازل في القلوبِ منازلُ أققرتِ أنتِ وهنٌ منكِ أو اهلُ
(٤) قال أبو العتاهية :

وإذا الجبانُ رأى الأسنَّةَ شرَّعاً عافَ الثَّباتَ فإنْ تَرَدَّدَ أقدمَا

(١) كثير من الأمثلة التالية منقول من العكبري ، والصحيح المتنبي من أما كن متفرقة .

(٢) أي : قيام .

وقال المتنبي :

وَإِذَا مَا خَالَ الْجَبَانَ بِأَرْضٍ طَلَبَ الطَّمَنَ وَحَدَهُ ، وَالتَّزَالَ

(٥) وقال أبو القوافي :

رَدَّتْ صَمَائِهِ عَلَيْهِ حَيَاتُهُ فَكَأَنَّهُ مِنْ نَشْرِهَا مَنَشُورُ

فقال المتنبي :

كَفَلَ التَّنْكَ لَهُ بَرْدُ حَيَاتِهِ لَمَّا انطوى ؛ فَكَأَنَّهُ مَنَشُورُ

(٦) وقال زُرَيْقُ البصري :

رَأَيْتُ الْغَنَى عِنْدَ الْأَرَاذِلِ مَحْنَةً عَلَى النَّاسِ مِثْلَ الْفَقْرِ عِنْدَ الْأَفَاضِلِ

فقال المتنبي :

وَالْغَنَى فِي يَدِ اللَّئِيمِ قَبِيحٌ قَدَرُ قَبِيحِ الْكَرِيمِ فِي الْإِمْلَاقِ

(٧) وقال الرقي :

كَأَنَّ بَنَاتَ نَعَشٍ حِينَ لَاحَتْ نَوَاحُ وَأَقْفَاتٍ فِي حِدَادِ

فقال المتنبي :

كَأَنَّ بَنَاتَ نَعَشٍ فِي دُجَاهَا خَرَّائِدُ سَافِرَاتٍ فِي حِدَادِ

(٨) وقال بشار :

وَوَظَنَ وَهُوَ مُجِدٌّ فِي هَزِيمَتِهِ مَا لَاحَ قُدَّامَهُ شَخْصًا يُسَابِقُهُ

فقال المتنبي :

وَضَاقَتِ الْأَرْضُ ؛ حَتَّى كَادَ هَارِبُهُمْ إِذَا رَأَى غَيْرَ شَيْءٍ ظَنَّهُ رَجُلاً

(٩) وقال أبو راسب :

وَلَوْ كُنْتَ تَحْوِي عَمْرَ مَنْ قَدَّهَبْتَهُ بِسَيْفِكَ فِي الدُّنْيَا لَكُنْتَ مُجْلَدًا

وقال المتنبي :

نَهَبْتُ مِنَ الْأَعْمَارِ مَا لَوْ حَوَّيْتَهُ
لَهَنَّتْ الدُّنْيَا بِأَنْكَ خَالِدُ
(١٠) وقال ابن هفان :

وَأَنْتَ لِأَرْبَابِ الْمَكَارِمِ كُلِّهِمْ
إِمَامٌ . وَإِنْ غَابُوا فَإِنَّكَ حَاضِرُ
فقال المتنبي :

وَكُلُّ أَنْاسٍ يَتَّبِعُونَ إِمَامَهُمْ
وَأَنْتَ لِأَهْلِ الْمَكْرُمَاتِ إِمَامُ
(١١) قال المستهل بن السكيت :

وَمَا أَرَى فِي الْعَيْشِ لَوْلَا مُحِبِّي
لِنَفْعٍ مُحِبٍّ ، أَوْ مَضَرَّةٍ كَاشِحِ
فقال المتنبي :

لِمَنْ تَطْلُبُ الدُّنْيَا إِذَا لَمْ تُرِدْ بِهَا
سُرُورَ مُحِبٍّ أَوْ إِسَاءَةَ مُجْرِمِ
(١٢) وقال أبو تمام :

وَكَاذِبٌ ، وَلَيْسَ الصَّبْحُ فِيهَا بِأَبْيَضٍ
وَأَضْحَتْ ، وَلَيْسَ اللَّيْلُ فِيهَا بِأَسْوَدٍ
وقال هرون المنجهم :

أَرَى الصَّبْحَ فِيهَا مِنْذُ فَارَقْتُ مُظْلِمًا
فَإِنْ أَتَيْتَ صَارَ اللَّيْلُ أَبْيَضَ نَاصِعًا
فقال المتنبي :

فَاللَّيْلُ حِينَ قَدِمْتُ فِيهَا أَبْيَضٌ
وَالصَّبْحُ مِنْذُ رَحَلْتُ عَنْهَا أَسْوَدُ
(١٣) وقال أبو نواس :

وَإِنْ جَرَّتِ الْأَلْفَاظُ يَوْمًا بِمِدْحَةٍ
لَغَيْرِكَ إِنْسَانًا فَأَنْتَ الَّذِي نَعْنِي
فقال المتنبي :

وَضَنُّونِي مَدَحَهُمْ قَدِيمًا
وَأَنْتَ - بِمَا مَدَحْتَهُمْ - مُرَادِي

(١٤) وقال البحتري :

وَهَلْ كُنْتُ إِلَّا مُذْنِبًا يَوْمَ أَنْتَهَى سِوَاكَ بِأَمَالِي ؛ فَجَنَّتْكَ تَائِبًا

فقال المتنبي :

وَتَعَذُّنِي فِيكَ الْقَوَافِي، وَهَمَّتِي كَأَنِّي بِمَدْحٍ قَبْلَ مَدْحِكَ مُذْنِبٌ

(١٥) وقال أبو نواس :

لَا أَذُودُ الطَّيْرَ عَنْ شَجَرٍ قَدْ جَنَيْتُ الْمُسَرَّ مِنْ ثَمَرِهِ

فقال المتنبي في وصف الإبل المرتحلة :

فكَانَهَا شَجَرٌ بَدَتْ لَهَا شَجَرٌ جَنَيْتُ الْمَرْءَ مِنْ ثَمَرَاتِهَا

(١٦) وقال كثير :

رَمَتْنِي بِسَهْمٍ رِيشُهُ الْهَدْبُ، لَمْ يَضِرْ ظَوَاهِرَ جِلْدِي، وَهُوَ فِي الْقَلْبِ جَارِحِي

فقال المتنبي :

رَامِيَاتٍ بِأَسْهَمٍ رِيشُهَا الْهَدْبُ بٌ ؛ تَشَقُّ الْقُلُوبَ قَبْلَ الْجُلُودِ

(١٧) وقال أبو تمام :

طَلَعْتُ عَلَى الْأَمْوَالِ أَنْحَسَ مَطْلَعٍ وَغَدْتُ عَلَى الْأَمَالِ وَهِيَ سَمُودُ

فقال المتنبي :

فَأَنْجَمُ أَمْوَالِهِ فِي النَّحُوسِ وَأَنْجَمُ سُوءَالِهِ فِي السُّعُودِ

(١٨) وقال البحتري :

مَضَوْا وَكَأَنَّ الْمَسْكُورَاتِ لَدِيهِمْ لِكَثْرَةِ مَا وَصَّوْا بِهِنَّ شَرَائِعُ

فقال المتنبي :

كَأَنَّ سَخَاءَكَ الْإِسْلَامُ ؛ تَخْشَى إِذَا مَا حُلَّتْ عَاقِبَةُ ارْتِدَادِ

(١٩) وقال البهتري :

جَلَّ عَنْ مَذْهَبِ الْمَدِيحِ ؛ فَقَدْ كَا
ذَ يَكُونُ الْمَدِيحُ فَيَاكُ هَجَاءُ
فَقَالَ الْمُتَنَبِّي :

وَعُظْمُ قَدْرِكَ فِي الْآفَاقِ أَوْ هَمِّي
أَنْ لِقَلَّةٍ مَا أَثْنَيْتُ أَهْجُوكَا
(٢٠) وقال تميم بن خزيمة :

فَلَا تَسْتَحْقِرُونِي لِأَنْفَرَادِي
فَإِنَّ التَّيْبَرَ مَعْدِنُهُ التُّرَابُ
فَقَالَ الْمُتَنَبِّي :

وَمَا أَنَا مِنْهُمْ بِالْعِيشِ فِيهِمْ
وَلَكِنْ مَعْدِنُ الذَّهَبِ الرَّغَامُ
... و ... و ...

وفي الأمثلة السابقة وأشباهاها ما يكفي للفصل في سرقات المتنبي ،
والحكم عليها .

* * *

مطالعه واستهلاله^(١) :

حُسْنُ الْمَطْلَعِ ، أَوْ : بَرَاةُ الِاسْتِهْلَالِ ، وَصِفٌ جَمِيلٌ يَرِيدُ مِنْهُ
الْبَلَاغِيُونَ : أَنْ يَكُونَ بَدْءُ الْكَلَامِ قَوِيًّا يَسْتَرْعِي الْأَسْمَاعَ ، بِالْفِجْوَةِ
وَالِإِتْقَانِ ؛ بِحَيْثُ يَسْتَهْوِي الْأَلْبَابَ لِمَتَابَعَةِ مَوْضُوعِهِ ، وَيَجْتَذِبُ النُّفُوسَ
لِلْإِقْبَالِ عَلَيْهِ .

وقد جعلوا من شرائطه المبالغة في انتقاء كلماته وجماله ، وبعدها عما يشينها

(١) ويشبهها في أهميتها حسن التخلص والختام . ولكني سأكتفي بالمطلع .

من الوجهة البلاغية ، وسلامتها مما تنفر منه النفس ، أو تنطير به ؛ (كالقتل والموت ، والدم ، والعاهات ...) وإشارتها إلى موضوع الكلام في خفة وحي ، وراعاة إيماء . وظهور الفائدة المعنوية كاملة مستقلة في كل جملة من جمل البدء إن كان الكلام نثرا ، أو في كل شطر من البيت الأول ، إن كان الكلام شعرا ، مع قوة الربط ، وإحكام المناسبة بين السابق واللاحق . تلك شرائطه . وهي شرائط لكل كلام بليغ ؛ ولكن حرصهم عليها في المطالع أشد ، وتمسكهم بها أقوى . حتى لقد قالوا^(١) : « إن أول ما يحتاج إليه في الشعر حسن المطالع والمقاطع » « لأن حسن الافتتاح داعية الانشراح ، ومطية النجاح .. والشمر قفل ؛ أوله مفتاح ؛ فينبغي للشاعر أن يجوّد ابتداء شعره ؛ لأنه أول ما يقرع السمع ، وبه يستدل على ما عنده من أول وهلة . وليجعل حلوا ، سهلا ، ونحما ، بجزلا^(٢) » . « والشاعر الحاذق يجتهد في تحسين الاستهلال والتخلص ، وبعدها الخاتمة ؛ إذ هي المواقف التي تستمطف أسماع الحضور ، وتستميلهم إلى الإصغاء^(٣) » . « فمن حق المطالع الحسن والمذوبة لفظا ، والبراعة والجلودة معنى ؛ لأنها أول ما يقرع الأذن . ويصافح الذهن ؛ فإن كانت على الضد كجحة السمع ، وزجة^(٤) القلب ، ونبت عنه النفس ، وجرى أمره على ما تقول العامة : « أول الدن^(٥) دُرْدِي^(٦) »^(٧) .

-
- (١) ص ١٥٠ من رسالة الكشف عن مساوي المتنبي للمصاحب بن عباد .
 (٢) العمدة ص ١٤٥ ج ١ باب المبدأ .
 (٣) الوساطة للجرجاني التفسير ص ٤٩ . (٤) رماء .
 (٥) وعاء كبير كالبرميل ؛ يخزن فيه الخمر ، والزيت . . .
 (٦) الرواسب الرديئة التي تتجمع أسفل الدن . (٧) الصبح المنى ج ٢ ص ١٤ .

وهذا صحيح ؛ فكم مطالع اختلبت أفئدة السامعين والقارئین ، وحمّلتهم على متابعة صاحبها قسراً ، وأشاعت الثقة بكلامه ، والاطمئنان إليه . وكم مطالع أخرى نفّرتهم منه ، وصرّفتهم عنه ؛ فعز عليه أن يردّهم إليه ، وأن يستميلهم إلى ما يقول . هذا إلى أنها تكون بدء الكلام والشاعر متحفز ، متهيّئ ؛ لم يذهب نفسه بصد ، ولم يستنفد الكثير من الجهد ؛ فإذا جاءت ضئيفة أساء السامع الظن بالشاعر ، واتهمه في قدرته ، وانصرف عنه وعن بقية كلامه .

عرفنا هذا في أنفسنا ، وشاهدناه في غيرنا ، ونقلناه عن السابقين . بل رأينا كثيراً من الشعراء والخطباء من أهل زماننا يتخذونه في الجامع ، والمحافل ، وميادين الكلام الحاشدة — وسيلة ناجحة في جذب الحاضرين ، ومفاجأتهم بما يستهويهم ، ويقسّرهم على الصمت ، والإقبال ، وجميل الإصغاء . وبفضله تم لهم ما أرادوا . ولعل هذا هو السبب فيما ابتكره القدماء من استهلال شعرهم بالغزل المحبب ، وبكاء الديار ، وذكر الأحباب ، ومواقف الوداع ، وأشباهاها مما يسترعى الانتباه ، ويقتراد حرائر النفوس . وإذا كان الأمر على ما وصفنا فما مبلغ عناية المتنبي وشوقه به ؟

فأما المتنبي فله مطالع تُرضى أدباء البلاغة ، وتشرح صدورهم . وله أخرى تسوءهم ، وتوغر نفوسهم . وهذا وذاك كثير في شعره . وقد تجدد في المطالع الواحد عدة عيوب . وهو يسلك في مطالعته من حيث موضوعاتها مسلك السابقين ، يجعلها غزلاً ، ونسيباً ، أو وقفاً على الديار والأطلال ، أو حديثاً مباشراً عن الموضوع الذي أنشأ القصيدة من أجله .

وأما شوقي فمطالعها منها الجيد ، ومنها الرديء ؛ والأول هو الأوفر .
والثاني — على قلته — لم يبلغ من الوهن والقيح ما بلغه عند المتنبي ،
ولا يكاد يداخل المطالع الواحد أكثر من عيب . وتلك مزايا ثلاث^(١) أتاحت
لشوقي دون قريبه . ثم هو يبدأ قصائده بالفزل حينما ، وبالوقوف على الديار
والأطلال حينما آخر . وقد يطرُق الموضوع من غير تمهيد . وطرائقه هذه
هي طرائق المتنبي والسابقين . ولكنه يفرد بنوع آخر لا يمتُّ بصلة إلى تلك
الأنواع ؛ تراه يستهل قصيدته استهلالاً بارعاً قوياً يشير فيه إلى حادث هام
يشغله ويشغل شواطر الناس وقت إنشاء القصيدة ؛ فلا يترك الحادث الهامَّ
يمرُّ من غير أن ينتهزه ، ويستغله في مطالعه ؛ ليشارك الناس معه في حسنه ،
ويشاركهم فيما يملأ خواطرهم . وما دام الغرض من جودة المطالع هو : استهواء
السامع والقارىء ، واستمالتهم — فكل ما يوصل لذلك محبوب ، بل مطلوب
سواء أكان بالفزل ، أم بغيره من الطرائق المعروفة أو المبتكرة التي هي
أنسب للمقام من غيرها ؛ فلا مناص للأديب أن يدرك الموقف على حقيقته ،
ويتخير له ما يلائمه ؛ وهو بعد ذلك حرٌّ فيما يدعُّ أو يختار .

وشئ آخر نلاحظه في كثير من مطالع شوقي ؛ هي : أنها على جودتها ،
وبراعة رمزها ، وإشارتها إلى الغرض من القصيدة — لا تقتصر على الرمز
والإشارة ، بل تحوى في ثناياها كثيراً من المعاني الضمنية المناسبة لذلك الغرض ؛
وكان ما تفرق من تلك المعاني في القصيدة قد تجمَّع في المطالع ، وتركز فيه

(١) وهي : كثرة الحسن بالنسبة للرديء . وعدم تعدد العيوب في المطالع الواحد ،

وتفضيل رديئه على رديء المتنبي .

إجمالاً وإيجاء ؛ حتى لتستطيع أن تقنع به إن شئت . وإليك من الأمثلة ما يوضح الرأي . فمن مطالع المتنبي الجميدة :

(١) قوله في مدح سيف الدولة :

لكلِّ امرئٍ من دهره ما تعودا وعاداتُ سيفِ الدولة الطَّمنُ في العدا

(٢) وقوله يصف انتصاره على الخارجين عليه :

طِوَالُ قَنَا تَطَاعِنَهَا قِصَارُ وَقَطْرُكَ فِي نَدَى وَوَعَى بِحَارُ

(٣) وقوله في الرثاء :

إلى لأعلمُ واللبيبُ خبيرُ أنَّ الحياةَ - وإنْ حرَّصتْ - غرورُ

(٤) وقوله :

الحزنُ يُقلقُ ، والتَّجملُ يردِّعُ والدَّمْعُ بينهما عَصِيٌّ طَيِّبٌ

يتنازعانِ دموعَ عَيْنٍ مُسْتَهْدٍ هذا يجيءُ بها ، وهذا يَرْجِعُ

(٥) وقال في التشوق :

شوقِي إليك نَفَى لذيذٍ هُجُوعِي فارقَتَنِي ؛ فَأَقَامَ بَيْنَ ضَلُوعِي

أَوْ مَا وَجَدْتُمُ فِي الصَّراةِ ^(١) بِلُوحَةٍ مِمَّا أَرْقَرُ فِي الْفَرَاتِ دُمُوعِي ؟

(٦) وفي الصلح بين كافور وسيده ابن الإنخشيدي :

حَسَمَ الصُّلْحُ مَا اشْتَهَتْهُ الْأَعَادِي وَأَذَاعَتْهُ أَلْسِنُ الْمُسَادِرِ

(٧) وفي الغزل قبل المدح :

حُشَاشَةُ نَفْسٍ وَدَعَتْ يَوْمَ وَدَّعُوا فَلَمْ أَذِرْ أَيْ الظَّالِمَيْنِ أَشْيَعُ

أشاروا بتسليمهم ؛ فُجِدْنَا بِأَنْفُسِ تَسِيلُ مِنَ الْأَمَاقِ وَالسَّمُ أَدْمَعُ

(١) نهر يتفرع من الفرات .

وقد أفسدت كلمة : « السم » بمعنى : الاسم — جمال المطلع — كما
أشرنا من قبل :

(٨) ومثله :

أَرَاهَا لِكثْرَةِ الْمُشْسَاقِ تَحْسَبُ الدَّمْعَ خِائِقَةً فِي الْمَاقِ

(٩) في عدوّ له انتسب إلى من يحبه الشاعر (١) :

وَمُنْتَسِبٌ عِنْدِي إِلَى مَنْ أَحْبَبُهُ وَلِلنَّبْلِ حَوْلِي مِنْ يَدَيْهِ خَفِيفُ
فَهَيَّجَ مِنْ شَوْقِي، وَمَا مِنْ مَذَلَّةٍ حَنَنْتُ ؛ وَلَكِنَّ الْكَرِيمَ أَلُوفُ

(١٠) وفي الغزل :

فَدَيْنَاكَ أَهْدَى النَّاسِ سَهْمًا إِلَى قَلْبِي وَأَقْتَلَهُمُ لِلدَّارِعِينَ بِلَا حَرْبِ

(١١) وفي صدر قصيدة المدح :

أَوْدُ مِنْ الْأَيَّامِ مَا لَا تَوَدُّهُ وَأَشْكُو إِلَيْهَا بَيْنَنَا (٢) ؛ وَهِيَ جُنْدُهُ

تلك أمثلة جيدة من مطالع المتنبي ؛ نعدّها له ، ونغض النظر عما قد يلي بعضها
— مباشرة — من أبيات فيها مقابح تشوّه جمالها ، وتذهب بروعتها (٣) .

وإليك طائفة أخرى من ردىء مطالعه ، وهى قاطمة الدلالة على جناء
طبعه ، وفساد ذوقه . (ولسنا بحاجة إلى بيان مكان العيب فيها بعد
أن مرّ بنا — منذ قريب — شرائط الحسن وطرائقه) .

(١) أراد هذا العدو قتل المتنبي ، وهمّ به ولم ينجح . فلما سأله المتنبي عن اسمه قال :

لأنه يتصل بأبي المشائر وإلى أنطاكية ، وابن عم سيف الدولة .

(٢) فراقنا .

(٣) كالتمثال السادس السابق ، حيث وردت كلمة : « السم » في بيته الثانى . وكغيره

من الأمثلة . فلو رجعت إلى الديوان لرأيت المطلع الجميل يعقبه البيت المعيب

(١) قال ينفزل : (من قصيدة يمدح بها بدر بن عمار)

بقائى شاء ليس هم ارنحالا وحسن الصبر زمو لا الجمالا

وقد سمع هذا البيت شاعر معاصر المتنبي : فمجب وقال للحاضرين :
(هل رأيتم أشد تنقيداً ، وأظهر تكلفاً ، وأسوأ ترتيباً — من هذا
الكلام ؟ فقيـل له : هب الأمر على ما ادعيتـه ، وأنا سلمنا لك
ما زعمته — أين أنت من قوله فى البيت الذى يليه :

كان العيس كانت فوق جفني مناحات ، فلما ثرن سالا ؟

فاستشاط غيظاً ، وقال : هذا البيت يسقط دواوين عدة شعراء (١)

(٢) وفأو كما كالربع أشبهاه طاسمه... بأن تسعدا . والدمع أشفاه ساجه

وفى هذا البيت قال صاحب العمدة : إنه يحتاج إلى الأصمى ليفسر
معناه . وساقه شاهداً على أن المتنبي قد يُعقّد أوائل الأشعار ؛ ثقة
بنفسه ، وإغراباً على الناس (٢) .

(٣) وفى النسيب قبل المدح :

مليت القطر ، أعطشها ربوعاً وإلا فأسقها السم النقيدا

(٤) ومثله :

كنى أرانى ويك لؤمك ألوما هم أقام على فؤاد أنجما

وقد ذهب الشراح فى فهم هذا البيت مذاهب شتى

(١) الوساطة ، قسم الاعتذار عن أبى الطيب ص ٣١٤ .

(٢) العمدة ج ١ ص ١٦٠ .

(٥) ومثله :

أَنَا لَا نَمِي إِنْ كُنْتُ وَقْتُ اللَّوْائِمِ عَلِمْتُ بِمَا بِي بَيْنَ تِلْكَ الْمَعَالِمِ

(٦) وفي مدح سيف الدولة :

أَرَاعَ كَذَا كُلَّ الْمُلُوكِ هَمَامُ وَسَحَّ لَهُ رُسُلَ الْمُلُوكِ غَمَامُ
ولقد قيل في هذا المطلع : (إنه يفتح طُرُق الكَرَب ، ويناق أبواب القلب ^(١)) .

(٧) وفي النسب قبل المدح :

اليومَ عهدُكُمْ ؛ فأين الموعدُ ؟ هِيَمَاتٌ ؛ ليسَ ليومٍ عهدُكُمْ غَدُ
الموتُ أَقْرَبُ فِجْلَبًا مِنْ بَيْنِكُمْ وَالْعَيْشُ أَقْرَبُ مِنْكُمْ ؛ لَا تَبْعَدُوا

(٨) وفي النسب قبل الاستعطاف :

أَيَا خَدَدَ اللَّهِ وَرَدَ الْخَسَدُ وَقَدَّ قُدُودَ الْحِسَانِ الْقُدُودُ

(٩) ومثله في النسب قبل مدح عضيد الدولة :

أَوْهٍ بَدِيلٌ مِنْ قَوْلَتِي وَهَاءُ لِمَنْ نَأَتْ وَالْبَدِيلُ ذِكْرَاهَا
فتطير منه ، وأهانته . وقد أراد صاحب كتاب : سر الفصاحة أن يذكر
مثلاً للمطالع المستقبحة فاختار هذا البيت ^(٢) .

(١٠) وفي المدح :

جَلَاءَ كَمَا بِي فَلَيْكُ التَّبْرِيحُ أَغْذَاهُ ذَا الرِّشَاءِ الْأَغْنُ الشَّيْخُ ؟
لَسِمَتْ بِمَشْيَتِهِ الشُّمُولُ ، وَجَرَدَتْ صَمًا مِنَ الْأَصْنَامِ لَوْلَا الرُّوحُ

(١) الكشف عن مساوى المتنبي ص ١٨ .

(٢) كتاب سر الفصاحة ص ١٧٥ .

(١١) هَذِي بَرَزْتِ لَنَا ؛ فَهَجَّتِ رَسِيمًا ثُمَّ انْتَنَيْتِ ، وَما شَفَيْتِ نَسِيمًا
(١٢) ذِي الْمَالِ ؛ فَلْيَعْلُوَنَّ مَنْ تَعَالَى هَكَذَا ، هَكَذَا ؛ وَإِلَّا فَلَا ، لَا

(١٣) وفي الغزل قبل مدح سيف الدولة :

نَزُورُ دِيَارًا ما نُحِبُّ لَهَا مَعْنَى وَنَسْأَلُ فِيهَا غَيْرَ سُكَّانِهَا الْإِذْنَ
(١٤) أَهْلًا بِدَارِ سَبَّاحِ أَغْيَدُهَا أَبْعَدَ ما بَانَ عَنْكَ خُرْدُهَا
(١٥) مَبِيتِي مِنْ دِمَشْقَ عَلَى فِرَاشِ حَشَاهُ لِي بِحَرِّ حَشَايَ حَاشِ
(١٦) ضُرُوبِ النَّاسِ عُشَّاقُ ضُرُوبَا فَأَعْذِرُهُمْ أَشْفَهُمْ^(١) حَبِيبَا
وَمَا سَكَنِي سِوَى قَتْلِ الْأَعَادِي فَهَلْ مِنْ زُورَةٍ تَشْفِي الْقُلُوبَا^(٢)
(١٧) مَنِّي كُنَّ لِي أَنْ التَّبْيَاضَ خِضَابُ فَيَخْفَى بِتَبْيِضِ الْقُرُونِ شَبَابُ
(١٨) أَيْدِي الرِّبْعِ أَيْ دَمٍ أَرَقَا ؟ وَأَيَّ قُلُوبِ هَذَا الرِّكْبِ شَاقَا ؟
(١٩) لَقَدْ حَازَنِي وَجْدُ بَنٍ حَازَهُ بَعْدُ فَيَا لَيْتَنِي بَعْدُ ، وَيَا لَيْتَهُ وَجْدُ
(٢٠) كَفَرٍ نَدَى فَرِيدُ سَمِينِي الْجُرَازِ لَدَّةُ الْعَيْنِ عُدَّةُ الْبِرَارِ

(وفي هذه القصيدة كثير من العيوب المختلفة ، وفيها يمدح المتنبي نفسه قبل ممدوحه) :

(١) أفضلهم . (٢) معنى البيت الثاني : لراحة لي إلا في قتل الأعداء ؛ فما أشد اشتياقي لرؤيتهم ؛ كي أمتع بقتلهم كما يتمتع الحبيب بزيارة حبيبه . وبعد هذا البيت أبيات أخرى يمدح المتنبي فيها نفسه قبل أن يصل إلى مدح ممدوحه . وهذا من عيوب المتنبي التي أخذها عليها المكبري شارح ديوانه ؛ فقد قال بعد البيت ١٩ من هذه القصيدة :

ولما قلت الإبل امتطينا إلى ابن أبي سليمان الخطوبا
إنه مدح نفسه أولا ثم رجع إلى مدح الممدوح آخرأ .

(٢١) أَرَكَاثِبَ الْأَحْبَابِ . إِنْ الْأَدْمَعَا تَغَاسُ^(١) الْخُدُودَ كَمَا تَغَاسِنُ الْيَرَمَمَا^(٢)

(٢٢) وَاسْتَمِعْ إِلَى غُرُورِهِ فِي اسْتِهْلَالِهِ وَهُوَ يَهْنِي^(٣) كَافُورًا بِدَارِ جَدِيدَةٍ :

إِنَّمَا التَّهْنِئَاتُ إِلَّا كُفَاءُ وَلِمَنْ يَدَّ^(٤) مِنْ الْبُعْدَاءِ

وَأَنَا مِنْكَ ؛ لَا يُهْنِي عُضْوُ^(٥) بِالْمَسَرَّاتِ سَائِرُ الْأَعْضَاءِ

(٢٣) أَلَا كُلُّ مَا شِئَ الْخَلِيزَلِ^(٦) فِدَا كُلِّ مَا شِئَ الْهَيْدَلِ^(٧)

وَكُلُّ نَجَاةٍ^(٨) بُجَاوِيَةٍ^(٩) خَفُوفٍ^(١٠) وَمَا نِي حُسْنُ الْمَشَى^(١١)

(٢٤) دَمَعٌ تَجَرَّى ؛ فَقَضَى فِي الرَّبْعِ مَا وَجَبَا لِأَهْلِهِ ، وَشَفَى^(١٢) ، أَنَّى^(١٣) وَلَا كَرَبَا^(١٤)

(٢٥) وَقَالَ يَمْسَحُ كَافُورًا :

كَفَى بِكَ دَاءٌ أَنْ تَرَى الْمَوْتَ شَافِيَا وَحَسِبُ الْمَنِيَا أَنْ يَكُنَّ أُمَانِيَا

(٢٦) وَذَمَّهُ قَوْمٌ مَخَاطِبُ وَاحِدًا مِنْهُمْ :

أَنَا عَيْنُ الْمُسَوِّدِ^(١٥) الْجَحْجَحَاحِ^(١٦) هَيْجَجْتَنِي كَلَابُكُمْ بِالْمُنْبَاحِ

وَأَكْتَفَى بِهَذَا الْقَدَرِ ؛ وَفِي الدِّيْوَانِ غَنِيَّةٌ الْمُسْتَزِيدِ .

* * *

أما نصيب شوقي من إرضاء البلاغة الأدبية والبلاغيين فأوفى من نصيب

قرينه ، وبخاصة شعره بمسد المنفى . استمع للأبيات التالية من

قصيدة الغلاء :

(١) تدق . (٢) حجارة بيض صغار رخوة . (٣) يتقرب .

(٤) مشية نسائية فيها استرخاء . (٥) مشية سريعة للابل . (٦) ناقة سريعة .

(٧) منسوبة لقبيلة : بجاورة ، البربرية ، الشهيرة بهذا النوع من النوق .

(٨) تميل حيث يريد راكمها . (٩) جمع : مشية . (١٠) كيف .

(١١) اقترب . (١٢) السيد . (١٣) السيد العظيم في قومه .

(١٤)

(١) أَنَادَى الرَّسْمَ ؛ لَوْ مَلِكٌ أَجْلُوا بَا ؛ وَأَجْزِيَهُ بِدَمْعِي ؛ لَوْ أَنَا بَا ؛
وَقَلَّ لِحَقِّهِ الْقَسَبَاتُ تَجْرِي وَإِنْ كَانَتْ سَوَادَ الْقَلْبِ ذَابَا
سَبَقْنَ مُقْبِلَاتِ التُّرْبِ عَنِّي وَأَدَيْنَ الْحَيَّةَ ، وَالْخُطَابَا
.....

وَبَيْنَ جَوَانِحِي وَافٍ أُلُوفُ إِذَا نَمَحَ الدَّيَّارَ مَضَى وَثَابَا
رَأَى مَيْلَ الزَّمَانِ بِهَا ؛ فَكَانَتْ عَلَى الْأَيَّامِ صُحْبَتُهُ عِتَابَا
تأمل في البيت الثاني جمال الإطناب (الاحتراس والتذييل) . وفي الثالث
والرابع حسن السكناية والاستعارة

(٢) وحسن السكناية والاستعارة والتشبيه في قوله :
وَلِي بَيْنَ الضُّلُوعِ دَمٌ ، وَلَحْمٌ نَمَسَ رَبِّ فِي الدُّمُوعِ ، فَقُلْتُ : وَلِي
وَصَدَّقَ فِي الضُّلُوعِ ؛ فَقُلْتُ : ثَابَا لَمَّا حَمَلَتْ كَمَا حَمَلَ الْعَذَابَا
وَأَحْبَابٍ سَقَيْتُ بِهِمْ سُلَافَا وَكَانَ الْوَصْلُ مِنْ قِصَرِ حَبَابَا

وأنهز فرصة الكلام على « التشبيه » لأنَّه ببراءة شوقي فيه ،
ومقدرته عليه في سهولة ويسر بغير تكلف ولا عناء . هذا إلى مزية أخرى
يجاريه فيها المثاني حيناً ، ويقصر أحياناً كثيرة ؛ هي : مزية التشبيهات
المقوالية ، المُحْكَمَةُ القوية ، التي تعرض على الأنظار صُورًا ؛ كأنها الصور
الشمسية المتقنة ؛ تنطق بأصلها ، وتجلوه في صدق وأمانة . أو كأنها الصُّور

الزيتية الباهرة ؛ أشرف عليها فنان ماهر ، وتناولها بريشته وألوانه ؛ فأخرجها
فتنة للناظرين . وأى صورة شمسية أو زيتية تَهَرُّ عشاق الفن الجميل كما ينهر
عشاق الأدب بصورة النخلة التي رسمها شوقي حين يقول :

وباسقةٍ من نبات الرِّمالِ نمتُ ، ورَبَّتْ في ظلالِ الكُثْبِ
كساريةِ الفلكِ ، أو كالْمِسْلَةِ ، أو كالمَنارِ وراءِ العُبابِ
تُخَالُ إِذَا اتَّقَدَتْ في الضُّحَا وجَرَ الأصيلُ عليها اللَّهَبُ
وطافَ عليها شمعُ النهارِ من الصَّحْوِ ، أو من حواشي السُّحُبِ :
وصيفةٌ فرعونَ في ساحةٍ من القصرِ ، واقفةً ترْتَقِبُ
قد اعتَصَبَتْ بِفُصُوصِ العِيقِ مُفَصَّلَةً بِشُؤْرِ الذهبِ
وناطتْ قلائدَ مرْجَانِها على الصَّدرِ ، واتَّشَحَتْ بالقَصَبِ
وشَلَّتْ عَلَى ساقِها مِئْزَرًا تَعْقِدُ من رأسِها للذَّنَبِ
أهذا هو النخلُ ؟ مَلِكُ الرِّياضِ أميرُ الحقولِ ، عروسُ العزبِ
طعامُ الفقيرِ ، وخالٍ الغنيِّ ، وزادُ المسافرِ ، والمُنْتَرِبِ

وحين يقول بلسان الأتراك في وصف الحرب بينهم وبين اليونان :

كأنَّ أسودَّ رابضاتٍ ، كأنَّهم قطعُ بأقصى السهلِ حيرانُ ، مُذْئِبٌ (١)
كأنَّ الدُّجَى بجرَّه إلى النجمِ صاعدٌ كأنَّ السرايا موجُّهُ المتضربُ

(١) فَرِيعٌ ، مرتجف من الذئب .

كَانَ الْمَنَايَا فِي ضَمِيرِ ظَلَامِهِ
كَأَنَّ صَهِيلَ الْخَلِيلِ نَاعٍ مَبَشِّرٍ
كَأَنَّ وَجْهَ الْخَلِيلِ غُرًّا وَسِيمَةً
كَأَنَّ أَنْوْفَ الْخَلِيلِ جَهْرًا مِنَ الْوَعْيِ
كَأَنَّ الْوَعْيِ نَارٌ ، كَأَنَّ جَنُودَنَا
كَأَنَّ الْوَعْيِ نَارٌ ، كَأَنَّ الرَّدَى قِرَى
كَأَنَّ الْوَعْيِ نَارٌ ، كَأَنَّ بَنَى الْوَعْيِ

.....

وَحِينَ يَقُولُ فِي وَصْفِ النَّارِ :

سَمَا يُفَاغِي الشُّهُبَا
كَالدَّيْدَبَانِ الزُّمُو
شَيْعَ مِنْهُ مَرَكَبًا
بَشَرًا بِالْهَارِ وَبَالًا
وَحِطَّ بِالْأَنْوَارِ عَلَى
كَالْبَارِقِ الْمُلْحِ كَلَمْ
يَرْمِي إِلَى الظَّلَامِ طَرًا
كَضَمِيرٍ أَدَارَ عَيْنًا فِي الدُّجَى ، وَقَلْبًا
وَكَالسَّرَاجِ فِي يَدِ الرَّ
وَلْحَةِ مِنْ خَاطِرٍ
هَلْ سَمَّهَا فَالْتَهَبَا ؟
هُ فِي الْبَحَارِ مَرَقَبَا
وَقَامَ يَلْقَى مَرَكَبَا
أَهْلُ السَّرَاةِ الْغُيْبَا
لَوْحِ الظَّلَامِ : مَرَحَبَا
يُؤَلِّ إِلَّا عَقَبَا
فَمَا حَائِرًا ، مُذْبَذَبَا
عَيْنًا فِي الدُّجَى ، وَقَلْبًا
يَحِ أَضَاءَ ، وَخَبَا
مَا جَاءَ حَتَّى ذَهَبَا

... ..

على أن هذه القصائد وأشباهاها قد كشفت عن موهبة أخرى في شوقي ؛
هي براعته في الجمع بين الوصف وسرد مزايا الموصوف سرداً شائناً يأتلف مع الفن
ويساوقه ، ولا يخافه . وهو بهذا يضم مزية جليمة إلى أخرى ؛ وقل من
يوفق لتأليفهما ، والجمع بينهما على هذه الصورة المتقنة الطريفة ...

وقف عند المحسنات المنبثقة في الأبيات الآتية : —

(٣) قُم في فَم الدنيا ، وَحَيَّ الأزهرَا وانثُر على سَمْعِ الزمانِ الجواهرَا

(٤) في رثاء الوطني العظيم محمد فريد بك :

فريدُ ، ضحايانا كثير ، وإِنما كجَالِ الضحايا أنت فيه فريدُ

(٥) في غواصة غرقت بقذيفة أصابتها :

لَمَسَتْهَا المَقَادِيرُ يَسْدُ تَلَمَسُ المَاءُ ؛ فَيَرْمِي بالشَّرَرُ

ضَرَبَتْهَا وَهِيَ سِرٌّ في الدُّجَى ليس دونَ الله تحت الليلِ سرُّ

وَجِفَّتْ قلباً ، وخارت جُؤْجُؤَا وزت جَنُباً ، وناءت من آخرُ

طُوعِنَتْ ، فانبجست ، فاستسرخت فأناها حينها ، فهُيَ خَبِرُ

(٦) في رثاء إسماعيل صبرى باشا :

جَهِلُوا هَلَى الأكتاف نور جلاله يَذُرُ الميُون حَوائِدَ الأكتافِ

(٧) يصف خيل الترك :

والصبرُ فيها ، وفي فُرساتها خلقُ توارنوه أبا في الرُّوعِ ، بعد أبِ

كما ولدتهم على أعرافها وُلِيتُ في ساحة الحرب ؛ لافي باحة الرِّحَبِ

(٨) وفي القمر ولياليه :

ويُصَانُ من سِرِّ الصَّبَابَةِ عندهُ مابات عندَ الأكثرين مُذَالاً^(١)

(٩) ويخاطب رئيس الوزراء : « رياض باشا » حين تملّق المعتمد البريطاني بخطبة يمدحه فيها ويذم المصريين^(٢) .

خَطَبْتُ ؛ فَكُنْتُ خُطْبًا ، لا خُطْبِيًّا أَضِيفَ إِلَى مَصَائِبِنَا الْعِظَامِ
لَهِجَتَ بِالِاحْتِلَالِ ، وَمَا أَتَاهُ وَجُرْحُكَ مِنْهُ - لَوْ أَحْسَسْتُ - دَامَ

(١٠) وفي مدح أحد الزعماء : (عدلى يكن باشا من رؤساء الوزارات المصرية) .

سَأَوُ السَّجِيَّةَ ، فِي قَنَاقَةٍ مُرَّةٍ ثَمَلُ الشَّائِلِ ، فِي وَقَارٍ صَاحِ

(١١) وقف عند الأبيات الآتية في وصف شهر شكسبير :

شَعْرَةٌ مِنَ النَّسَقِ الْأَعْلَى ، يُؤَيِّدُهُ مِنْ جَانِبِ اللَّهِ الْهَامُ ، وَإِيحَاءُهُ
مِنْ كُلِّ بَيْتٍ كَأَيِّ اللَّهِ ، تَسْكُنُهُ حَقِيقَةٌ مِنْ خِيَالِ الشَّهْرِ ، غَرَّاهُ
وَكُلُّ مَعْنَى كَهَيْسَى فِي مَحَاسِنِهِ جَاءَتْ بِهِ مِنْ بَنَاتِ الشَّهْرِ عَذْرَاهُ
أَوْ قِصَّةِ كِتَابِ الدَّهْرِ جَامِعَةٍ كَلَاهُمَا فِيهِ إِضْحَاكُ ، وَإِبْكَاءُ
مَهْمَا تُمَثِّلُ تَرِ الدُّنْيَا تُمَثِّلَةً أَوْ تُتَلِّ فَهِيَ مِنَ الْإِنْجِيلِ أَجْزَاءُ

(١٢) وعند وصف الربيع (من قصيدة سَلَفَ بعض أبياتها) :

مَلِكُ النِّبَاتِ ؛ فَكُلُّ أَرْضٍ دَارُهُ تَلْقَاهُ بِالْأَعْرَاسِ ، وَالْأَفْرَاحِ
مَنْشُورَةٌ أَعْلَامُهُ ؛ مِنْ أَحْمَرٍ قَانٍ ، وَأَبْيَضَ فِي الرُّبَا لَمَّاحِ

(١) شائما غير مكتوم . (٢) قيلت هذه الخطبة عند افتتاح مدرسة محمد علي

الصناعية بالإسكندرية في يونيه سنة ١٩٠٤ ، وكان « كرومر » حاضرا .

لَبِستُ لِمَقْدَمِهِ الخِصْلُ وَشَيْهًا وَهَرَحْنُ فِي كَنَفِ لَهْ ، وَجَنَاحِ
يَفْشَى الْمَنَازِلَ مِنْ لَوَاحِظٍ (نَرْجِسِ) أَنَا ، وَأَنَا مِنْ ثُغُورِ (أَقَاحِ)
وَرَدْسِ (مَنْشُورِ) خَفَضُنَ لِعِزِّهِ تَيْجَانَهُنَّ ، عَوَاطِرَ الْأَرْوَاحِ
(الْوَرْدُ) فِي سُرُرِ الْغُصُونِ مُفْتَحِ مُتَقَابِلِ ، يُثْنِي عَلَى الْفَتَّاحِ
ضَاحِي الْمَوَاقِبِ فِي الرِّيَاضِ ، مُمَيِّزِ دُونَ الزُّهُورِ بِشُوكَةِ ، وَسِلَاحِ
مَرَّ النَّسِيمُ بِصَفْحَتَيْهِ مُقَبَّلًا مَرَّ الشُّفَاهِ عَلَى خُدُودِ مِلَاحِ

.....

فَمَا أَقْدَرَهُ عَلَى إِرْضَاءِ الْبَلَغَةِ وَالْبَلَغِيينَ ، وَأَصْحَابِ الذُّوقِ الْأَدْبِيِّ
الْمُصَنِّفِ !! وَأَيْنَ مِنْهُ الْمُتَنَبِّي فِي هَذَا ؟
قَدْ يَكُونُ الْمُتَنَبِّي مَا يُشَبِّهُ الْعَذْرَ الْمُقْبُولَ ؛ فَتَقَافَتُهُ ، وَوَسَائِلُ عَيْشِهِ ،
وَحَضَارَةُ عَصْرِهِ — لَا تَفْسَحُ لَهُ فِي هَذَا الْمِيدَانِ بِمِثْلِ مَا فَسَحَتْ لَشَوْقِ
الَّذِي أَدْرَكَ مِنْ وَاسِعِ الثَّقَافَةِ ، وَنَاضِرِ الْعَيْشِ ، وَزَاهِيِ الْحَضَارَةِ — مَا لَا
يُقَاسُ إِلَيْهِ نَصِيبُ الْمُتَنَبِّي . بَلْ إِنْ النِّصِيبُ الْأَوْفَى الَّذِي نَالَهُ شَوْقِي قَدْ طَفَى ؛
فَأَفْسَدَ عَلَيْهِ الْأَمْرَ مِنْ بَعْضِ نَوَاحِيهِ ؛ إِذْ غَلَبَتْ الرِّقَّةُ عَلَى شَعْرِهِ فِي الْمَوَاطِنِ
كُلِّهَا ؛ حَتَّى الَّتِي تُسْتَفْبِحُ فِيهَا . وَاخْتَفَتِ الْجِزَالَةُ أَوْكَادَتْ ؛ حَتَّى فِي الْمَوَاقِفِ
الَّتِي تُسَمِّحُن فِيهَا . وَتِلْكَ نَقِصَةُ بَلَغِيَّةٍ كَبِيرَةٍ كَمَا أَوْضَحْنَا مِنْ قَبْلِ . فَإِذَا
كَانَ الْمُتَنَبِّي قَدْ لَازَمَ الْجِزَالَةَ فِي أَغْرَاضِهِ عَامَةً ؛ حَتَّى النِّصِيبِ ، وَالْعَتَابِ ،
وَالْتَلَاطِفِ ... فَشَوْقِي لَازَمَ الرِّقَّةَ فِي الْمَوَاطِنِ كُلِّهَا ، حَتَّى الْحَرْبِ ، وَالتَّهْدِيدِ ...
وَقَدْ مَرَّتِ الْأَمْثَلَةُ الْكَاشِفَةُ .

وقد أخذنا على المتنبي جمود طريقته ، وبيننا المراد من الجمود
ونأخذ على شوقي التزامه الرقة ، ونحمد له عدم إثاره بحورا معينة . ففي أجزاء
ديوانه الأربعة من القصائد والمقطوعات والتشظيرات ما يناهز الستين
بعد الثلاثمائة ؛ ليس ثلثها من بحر شعري واحد كما فعل المتنبي . بل
ليس ثلثها ، ولا ربعها ، ولا خمسها — من بحر شعري بعينه . وإنما قسمها
بين البحور المختلفة قسمة تكاد تكون عادلة . بل قسمها بين البحور
والقوافي قسمة ليست عديدة ؛ وإنما هي فنية موسيقية ؛ ربط فيها بين
الموضوع والرنات ؛ فجمع بين قوة الموضوع أو ليمه ، وقوة الوزن أو هده .
وعقد الصلة بين هذه وتلك ، فأعانت إحداها الأخرى ، واثقلت معها ،
واشتركا في تصوير المعنى ، وترجمة الشعور . ولقد برع شوقي في ذلك (ولا سيما
أغانيه) حتى ذهب حاسدوه إلى القول بأن شعره ليس إلا الموسيقى
المُحْكَمَة الساحرة . واست في حاجة إلى أن أسوق الأمثلة ؛ فجميع ما صرّ
وما لم يمرّ مما نراه في الديوان عَرَضاً أو قَصْداً — خيرُ مؤيد لما أقول .

* * *

وشوقي — مع هذا كله — قد وقع في عيوب بلاغية . اكنها في عددها
ونوعها ليست شديداً إذا قيست إلى شعره الخالي منها ، وإلى شعر المتنبي
الذي ماج بالكثير من أشباهها . وإليك الأمثلة :

(١) قوله في خيل الترك بعد انتصارها :

خيلُ الرسولِ من الفولاذِ معدنها وسائرُ الخيلِ من لحمٍ ، ومن عَصَبِ

نَشَوَى مِنَ الظَّافِرِ الْعَالِي ، مُرْتَجَّةً مِنْ سَكْرَةِ النَّصْرِ : لَامِنْ سَكْرَةِ النَّصَبِ
فَمَا أَقْبَحَ الْحُشْوِ فِي آخِرِ كُلِّ بَيْت :

(٢) وَيَخَاطِبُ الْقَمَرَ مِنْ سَفِينَةٍ تَقْتَحِمُ الْبَحْرَ ، وَنُورُ الْقَمَرِ يَغْمُرُهُ :

وَكَأَنَّهَا وَالْمَوْجُ مُنْتَظِمٌ ، وَقَدْ أَوْفَيْتَ ، ثُمَّ دَنَوْتَ كَالْمُحْتَارِ^(١)
غِيْدَاهُ لَاهِيَةً ، تَحُطُّ لِأَغْيَدٍ شِعْرًا لِيَقْرَأَهُ ، وَأَنْتَ الْقَارِي
فَلَيْسَ فِي التَّشْبِيهِ حُسْنٌ ، فَوْقَ مَا فِي الْكَلَامِ مِنْ تَضْمِينِ .

(٣) وَالطَّيْرُ أَقْعَدَنَا الْكَرَى وَالنَّاسُ نَامَتْ ، وَالْوُجُودُ

(٤) يَخَاطِبُ الْبَدْرَ :

وَالْبَدْرُ مِنْكَ عَلَى الْمَوَالِمِ يَجْتَلِي بِشَرِّ الْوُجُوهِ ، وَزُجْجَةُ الْأَبْصَارِ
يَا ذُرَّةَ الْغَوَاصِ أَخْرَجَ ظَافِرًا يَمْنَاهُ يَجْلُوهُمَا عَلَى النَّظَارِ
(٥) لَقَدْ اخْتَلَفْنَا وَالْمَعَا شِرُّ قَدْ يَخَالِفُهُ الْعَشِيرُ
فِي الرَّأْيِ ، ثُمَّ أَهَابَ بِي وَبَكَ الْمُنَادِمُ ، وَالسَّمِيرُ

(٦) وَفِي ذِكْرِي كَارْتَرِفُونِ (كَاشِفُ قَبْرِ تَوْتِ عَنخْ آمُونِ) :

« وَادِي الْمُلُوكِ » بَكَتْ عَلَيْكَ عِيُونُهُ بِمُرْقَرٍ : كَالْمُزْنِ فِي تَسْكَابِهِ
أَلْقَى بِيَاضَ الْغَيْمِ عَنْ أَعْطَافِهِ حُزْنًا ، وَأَقْبَلَ فِي سَوَادِ سَحَابِهِ
(٧) إِنْ الْجَمَالَ كَسَاكَ مِنْ وَرَقِ الْحَاسَنِ مَا كَسَاكَ

(٨) سَلُّوا غَزَالًا غَزَا قَلْبِي بِحَاجِبِهِ : أَمَا كَفَى السَّيْفُ حَتَّى جَرَّدَ الْقَلَمَ ؟

(١) قَالْنَا إِنْ كَلِمَةً (الْمُخْتَارُ) لِأَسْنَدِ لِحَصْحَتِهَا مِنَ الْكُتُبِ الَّتِي بَأْيَدِنَا .

(٩) كَانَ الْمَنَايَا فِي ضَمِيرِ ظَلَامِهِ هُمُومٌ بِهَا فَاضَ الضَّمِيرُ الْحَجَبُ

(١٠) فِي الْفُزْلِ :

وَأَرْهَنْتُ أُعَيْنًا ضَعْفَى تَحَايَلُهَا نَشْوَى مَنَاصِلُهَا ، كَحَلَى مَوَاضِيهَا

* * *

وننتقل بعد هذا إلى سرقاته ومطالعه :

فأما سرقاته فأقول فيها ما قلته في سرفات المتنبي ، من أني لا أرتاح إلى اتهم شاعر كبير بالسرقة إلا عند قيام الحجة القاطعة أو ما يشبهها ؛ لأسباب أوضحتها هناك^(١) ، وقد قامت الحجة على المتنبي دون شوقي . إلا أبيتا يصح اتهمه فيها ؛ كقوله :

(١) يَمْشِينَ أَسْرَابًا عَلَى هَيْئَةٍ مَشَى الْقَطَا الْأَمْنُ فِي سِرِّيهِ

مأخوذ من قول المنخل اليشكري في فتاة :

فَدَفَعَتْهَا ؛ فَتَدَفَعَتْ مَشَى الْقَطَا إِلَى الْغَدِيرِ

(٢) شَابَ وَفِي أَضْلَعِهِ صَاحِبٌ خِلَوْ مِنْ الشَّيْبِ ، وَمِنْ خَطْبِهِ

مأخوذ من قول المتنبي السابق :

(٣) وَاهٍ بِجَنَبِي ، خَافَقٌ . كَلَّمَا قُلْتُ : تَنَاهَى ؛ لَجَّ فِي وَثْبِهِ

من قول السابق :

هَبَيْتُ أَلُومَ الْقَلْبِ فِي طَاعَةِ الْهَوَى فَلَجَّ ؛ كَأَنِّي كُنْتُ بِاللُّومِ مُفْرِيًا

(٤) إِذَا سَارَ فِيهِ سَارَتِ النَّاسُ خَلْفَهُ وَشَدَّتْ مَخَاوِيرُ الْمُلُوكِ رِكَابَهُ

مأخوذ من قول الفرزدق :

تَرَى النَّاسَ مَاسِرُنَا يَسِيرُونَ خَلْفَنَا وَإِنْ نَحْنُ أَوْمَانَا إِلَى النَّاسِ وَقَفُوا
(٥) حَيَاتُكَ كَانَتْ عِظَاتٍ لَهُمْ وَمَوْتُكَ بِالْأَمْسِ إِحْدَى الْعِزِّ
مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِ أَبِي الْعَتَاهِيَةِ :

وَكَانَتْ فِي حَيَاتِكَ لِي عِظَاتٌ وَأَنْتَ الْيَوْمَ أَوْعَظُ مِنْكَ حَيًّا
(٦) يَصِفُ فَرَسَانَ التُّرْكِ :

كَمَا وَلِدْتُمْ عَلَى أَعْرَافِهَا وَلِدَتْ فِي سَاحَةِ الْحَرْبِ، لَا فِي بَاحَةِ الرَّحَبِ
مِنْ قَوْلِ الْمُتَنَبِّيِّ فِي خَيْلِ الْأَبْطَالِ :
فَكَأَنَّهَا نَتِجَتْ قِيَامًا تَحْتَهُمْ وَكَأَنَّهُمْ وَلِدُوا عَلَى صَهْوَانِهَا
(٧) وَقَوْلُهُ فِي الرَّبِيعِ :

صَفَوْهُ أَتَمَّحَ ؛ فَخِذْ لِنَفْسِكَ قِسْطَهَا فَالْصَفْوُ لَيْسَ عَلَى الْمَدَى بِمُتَمَّحٍ
مِنْ قَوْلِ عَمْرِو الْخَلِيَامِ :

أَغْنَمَ مِنَ الْحَاضِرِ لَذَّاتِهِ فَلَيْسَ فِي طَبَعِ اللَّيَالِي الْأَمَانُ
وَفِي هَذَا الْقَدْرِ مَا يَكْفِي^(١)

* * *

(١) اكتفيت بهذا القدر من السرقات إذ لم أجد السبيل إلى السكثرة ميسراً ؛
لما تقتضي من تذكر شعره كله ، والإلمام بدواوين الشعراء جميعاً ،
أتنحصر شعرهم واحداً واحداً ، وأتلبث أمام كل قصيدة — بل كل بيت —
لأتبين أشباهه في شعر شوقي ، ونظائره إن وجدت . وليس هذا في استطاعة
أحد اليوم ، ولو تجرد له ، وعكف عليه . إلا أن ينبغي للشعراء جماعة
من الخذاق ؛ تلمس القصيدة الشعر ، وتصنفه أبواباً وأغراضاً . يفعلون ذلك في القصيدة
الواحدة ، والقصائد المختلفة ؛ كما فعل أبو تمام ، والبحتري ، في حماستهما .
وكما فعل غيرها قريباً من ذلك . ثم اختلف هؤلاء المصنفون النافعون من الميدان
حتى اليوم ؛ فلم أجد بداً من الاختصار في هذه الناحية آسفاً ، مضطراً .

أما مطالع شوقي الجميدة التي تتمثل فيها الطرائق المختلفة التي أشرنا إليها -
فحسبنا منها الأمثلة الآتية . (وقد مرّ بعضها لمناسبات أخرى) :

(١) قال يخاطب الفلك^(١) (السفينة) حين أوصله إلى البسفور ، ومفاتيح الطبيعة
الساحرة فيه :

على أيّ الجنان بنا تمرّ ؟ وفي أيّ الحدايق تستقرّ ؟
رؤيدا أيها الفلك الأبرّ بلفت بنا الربوع ؛ فأنت حرّ

(٢) وقال حين نجا الزعيم الأكبر : سعد زغلول باشا من رصاصه استقرت
في صدره ، ولسكنها لم تحقق ما أراده العتدى الأثيم :

نجّا ، ومائل ربّانها^(٢) ودقّ البشائر ركبانها

(٣) وقال في رثائه :

شيّعوا الشمس ، ومألوا بضحاها وانحنى الشرق عليها ؛ فبكاهها
فتأمل : الشمس ، وضحاها ، وجميل التورية في كلمة : الشرق ... ألمت
تستطيع أن تقنع بهذا البيت وحده في الرثاء إذا أدركت قيم تلك
الكلمات ، والحكمة في اختيارها ؟

(٤) وقوله في رثاء أبر أصدقائه إسماعيل صبرى باشا :

أجلّ - وإن طال الزمان - موافى أخلى يدك من الخليل الوافى

(٥) وقوله في تكريم أول رحلة مصريّ جاب الصحراء الغربية (أحمد محمد
حسنين باشا) .

(١) الفلك (تذكرة وتوث) السفينة .

(٢) أي : ربان السفينة المصرية ؛ فصر سفينة في يَمِّ الحوادث ، وسعد ربانها .

أَقْدِمُ ، فليس على الإقدام مُتَمَنِّعٌ واصْنَعْ به المجد ؛ فهو البارِع الصَّنْعُ^(١)

للناسِ في كلِّ يومٍ من عجائبهِ ما لم يكنْ لآخرى في خاطرٍ يَقَعُ

(٦) وقال حين انتصر الترك أعظم انتصار تاريخي سنة ١٩٢٣ م على اليونان

ومن شايعتها من الدول الأوربية ، التي اُثْمِرَتْ على إزالة الدولة العثمانية ،

والقضاء على استقلالها : نجيب « مصطفى كمال » وأنصاره تديرهم ،

وأعاد لبلاده سيطرتها ، ونفوذها ، وأشاع في العالم كله هيبتها ، واهتز

المسلمون في بقاع الأرض طرباً وفرحاً بهذا النصر ، وفاضت جوارحهم

سروراً به ، وأقاموا الأعياد في كل مكان . وقد تولى بعده مصطفى

كمال رئاسة البلاد التركية ، وجعل الحكم فيها جمهورياً ؛ فزاد طرب

المسلمين ، وفرحهم . وبينما هم في أفراحهم إذ عاد فالفى منصب الخلافة

الإسلامية ؛ لدواعٍ رآها : فحزن لذلك فريق كبير من المسلمين ، ومنهم

شوقي . فقال يخاطب الخلافة في استهلال عجيب ، ورمز بارع ، ومعنى

سابع حزين :

عادت أغاني العُرْسِ رَجْعَ نَوَاحٍ وَنُفِيتَ بَيْنَ مَعَالِمِ الْأَفْرَاحِ

كُنُفْتُ فِي لَيْلِ الزَّفَافِ بِثَوْبِهِ وَذَفِنْتَ عِنْدَ تَبَلُّجِ الْإِصْبَاحِ

(٧) وقال في رثاء عمر المختار (أ كبر زعيم طرابلسي دَوَّخ الإيطاليين

المحتلين بلاده . فحين تمكنوا منه أصعدوه في طيارة ، ثم رموه من

أعلى طبقات الجو ؛ فَهَوَى مُحَطَّماً . ولم يكتفوا بذلك بل صلبوه ،

وتركوه معلقاً أياماً) .

رَكَزُوا رُفَاتِكَ فِي الرَّمَالِ لَوَاءَ يَسْتَنْهَضُ الْوَادِي صَبَاحَ مَسَاءِ
يَا وَيْحَهُمْ !! نَصَبُوا مَنَارًا مِنْ دَمٍ يُوحِي إِلَى جَبَلِ الْغَدِ الْبَغْضَاءِ
ألا يصلح هذا المطلع أن يكون رثاء موجزاً ، فيه للقانع غناء ؟
(٨) وقال في الاحتفال السابع عشر لوفاة الزعيم الوطني : « مصطفى كامل باشا »
وكانت البلاد إذ ذاك سنة ١٩٢٤ تضحج من تنازع قادتها ، واختلاف
زعمائها وأحزابها ، واشتغالهم بأنفسهم عن عدوهم ، الجاثم باحتلاله على
صدر البلاد . (ومطلع هذه القصيدة يمثل المطالع الشوقية التي يحى
بها مناسبة لأمر هام يشغل الأذهان وقت إنشائها) :

إِلَامَ الْخَلْفِ بَيْنَكُمْ إِلَامًا وَهَذِي الضَّجَّةُ السَّكْرَى عِلَامًا ؟
وَفِيمَ يَكِيدُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ ؟ وَتَبْدُونَ الْقِدَاوَةَ وَالْخِصَامَا ؟
(٩) أَنْادِي الرِّسْمَ ؛ لَوْ مَلَكَ الْجَوَابَا !! وَأَجْزِيهِ بَدْمِي ؛ لَوْ أَنَا بَا !!
وَقَلَّ لِحَقِّهِ الْعِبْرَاتُ تَجْرِي وَإِنْ كَانَتْ سَوَادَ الْقَلْبِ ذَابَا
(١٠) وَفِي انْتِصَارِ التُّرْكِ فِي حَرْبِهَا الَّتِي أَشْرْنَا إِلَيْهَا مُخَاطِبًا مُصْطَفَى كَمَالٍ :
اللَّهُ أَكْبَرُ !! كَمْ فِي الْفَتْحِ مِنْ عَجَبٍ !! يَا خَالِدَ التُّرْكِ جَدِّدْ خَالِدَ الْعَرَبِ .
(١١) وَفِي تَحْيَةِ الْأَزْهَرِ بَعْدَ إِصْلَاحِهِ الْحَدِيثِ :

قُمْ فِي فَمِ الدُّنْيَا ، وَحَى الْأَزْهَرَا وَانْثَرِ عَلَى سَمْعِ الزَّمَانِ الْجَوْهَرَا

وَأُرِيدُ أَنْ أَقِفَ عِنْدَ الْبَيْتَيْنِ الْأَخِيرَيْنِ لِنَقْدِ أَثَرِ حَوْلِهِمَا ؛ فَعَشَى عَلَى
الْجَمَالِ وَالْحُسْنِ فِيهِمَا . وَسَأُطِيلُ الْوُقُوفَ نَوْعًا مَا — كَمَا أَطَالَ النَّاقِدُونَ —
لَأُظْهِرَ الْحَقَّ ، وَأُسْتَعِينُ بِهِ فِي كَشْفِ الشَّبْهِةِ بَيْنَهُمَا ، وَعَمَّا يَشْبَهُهُمَا
مِمَّا تَفَرَّقَ فِي مَطَالَعِ وَمَوَاضِعٍ أُخْرَى كَثِيرَةٍ .

(١) يرى بعض الناقدين أن البيت الأول منهما : (الله أكبر) بيت فائر ، ركيك ، هو بصوفي مُتَبَتِّلٌ أليق منه بشاعر يصف انتصاراً باهراً ، هز أركان الدنيا ، وكان من الأحداث العالمية الخطيرة ، التي قل أن شهدت الأرض لها مثيلاً . ويقول : أين خالد العرب : (خالد ابن الوليد) في بداوته ، وأولية وسائله ، ونقص معارفه — من خالد الترك : مصطفى كمال ؛ في براعته ، وجدة وسائله ، وعظيم فنه ، وجليل آثاره الحربية ؟ إن في الموازنة بينهما استهانة بالفن ، وإهانة لخالد الترك . ذلك مجمل ما يقولون .

فأما أن الانتصار باهر فصحيح . وأما أن البيت ركيك ، وأن الموازنة بين البطلين غير سائغة — فلا ، أو على الأقل : « فيها نظر » كما يقول المتحفظون . لما نعرض له الآن . فقد غاب عن الناقدين أن شوق يكثر من الإشارات التاريخية في المطالع وغيرها ، ويستعيد الماضي ؛ ليستعين به في تصوير الحاضر ؛ فيخفي على الشادين في الأدب ، غير الضالعين في أشات الثقافة — كثير من المعاني السامية ، وألوان الجمال في شعره . أما من لهم حظ من التاريخ ، وألوان الثقافة . فإنهم يجدون في شعره ، وإشاراته ، ورموزه — متعة ولذة لا يجدونها في شعر آخر .

لقد استهل قصيدة الفتح التركي ببيتة : الله أكبر . . . وقُبِّلَ استهلالها استعداد أمامه حادث الفتح بما صحبه من الحرب المروعة التي مهد لها الإنجليز وحلفاؤهم باحتلال (القسطنطينية) حاضرة البلاد التركية ، واتخاذهم من الخليفة المسلم الجالس على عرشه ألعوبة يحركونها بأيديهم كما يشاءون ،

واستفتائهم مفتى الأتراك الشرعى فى أمر « مصطفى كمال » وشيعته ، الخارجين على الخلافة المناوئين للحكام ؛ فأفتى بجواز قتلهم ، وإهدار دمهم . ثم دفعوا اليونان للسواحل التركية القريبة منهم ليستولوا عليها ، ويضموها إلى بلادهم . وزوّدوهم بالمال ، والعتاد ، وسائر معدات القتال ؛ فاندفع اليونانيون إلى تحقيق المؤامرة آمنين . فالإنجليز وحلفاؤهم يقدمون لهم العون ، والخليفة معهم ، والجيش التركى خائر ، ضعيف ، مستسلم ، وهو إلى ذلك خاضع للخليفة ، وطوع أمره . والبلاد التركية — كالجيش — منهوكة القوى من أثر الحروب المتوالية ، والمصائب المتتابعة . وآخرها الحرب العالمية الأولى التى انتهت بتلك المأساة ؛ مأساة هزيمة الترك ، واحتلال حاضرتها ، وتحكم الأعداء فيها .

اندفع اليونان كما قلنا ، والترك جميعا — بل المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها — فزعون ، جزعون ، مكبوتون ؛ يتلفتون يئمة ويسرة ؛ عسى أن يجدوا بابا للأمل ، أو منفذا للرجاء ؛ فلا يجحدوا إلا ما يسمونه عن شريعة مشرّدة ، وفلول من الجيش قد تراصّت أمام الوطن ، وبايعوه على أن ينقذوه أو يموتوا . تلك شريعة « مصطفى كمال » وشيعته الطريفة من رضا الخليفة ، وإيمان المفتى . سمع الناس به وبأعماله ؛ فلم يخففوا — بادئ الأمر — من همهم ، ولم يفتتح فى حائط اليأس منفذ أمام عيونهم ، ولكنهم زودوه بدعواتهم ، وسايروه بأفئدتهم وقلوبهم ، وتنسموا أخباره تنسم الليل ساعات البرء ، أو الغريق لحظات النجاة . وأين الليل والغريق مما هم فيه ؟

وإنهم لذلك فى خطبهم وقلقهم وكرهم ؛ بين يأس قتال ، وأمل واه ، وإذا البشير ينادى : قد انتصرت الشريعة المشرّدة ، وقذفت بأعدائها

المحصنة المدججة إلى بحر بعيد الأعماق ، قد استضافهم أبد الدهر ، وضمهم
في قراره إلى يوم الدين . ونجت البلاد التركية من أكبر كارثة صادتها ،
وأفسي رحنة سرت بها . وكان يوم النصر حداً فاصلاً بين عهدين متباينين ؛
عهد الخوف ، والضعف ، واليأس القتال ، وعهد الأمن ، والقوة ، والأمل البسام .
بشق الترك سبيلهم في الحياة قُدماً بين كبريات الدول ، وعظيماها .

لقد كانت البشرية مفاجأة سارة ، ولسكنها عنيفة ، شديدة الروع ؛
لماها المسلمون مشدوهين ، قد عقد الفرح ألسنتهم ، وغطى السرور على
أسماعهم وأبصارهم ، وتركهم من وقع المفاجأة بغير حراك . ومن استخلص
نفسه من تلك المباغاة العنيفة لم يجد ما يقوله إلا أن يرفع صوته بالتحميد ،
والتكبير ، وشكر الله .

وتلك عادة المسلمين قديماً وحديثاً ؛ إذا غرهم فيض السرور والإعجاب ،
وملك عليهم حواسهم — لم يملك ألسنتهم ؛ بل تنطلق هاتفة بما يترجم
عن شعورهم . وما هتافهم إلا التهليل ، والدعاء ، والتكبير . فعله المسلمون اليوم ،
وفعلوه أمس ، ومن قبل فعله رسولهم صلى الله عليه وسلم وجنوده وقواده حين
تم لهم فتح مكة ، فدخلوها والرسول يقرأ قوله تعالى : (إنا فتحنا لك فتحاً
مبيناً) ولم يلق الجنود مقاومة إلا فرقة خالد بن الوليد التي تصدى
لها المشركون ؛ ففضى عليهم ، ولم يمت من رجاله غير اثنين . وكان موقفه
في هذا الفتح باهراً كمواقفه كلها (ولا سيما في غزوة « مؤتة » حيث كان
عدد المسلمين زهاء ثلاثة آلاف مقاتل أمام مائتي ألف أوزيدون من الروم .
ومات قائد المسلمين ، فالذى يليه ، فالثالث ؛ فتقدم خالد للقيادة ، ونجح

في تخليص الجيش من الخطر ، ورجع به إلى المدينة ؛ فسماه الرسول :
« سيف الله المسلول » . ولما استولوا على السكبة المقدسة أمر الرسول
بالأذان ؛ فانطلقت الأصوات بالتكبير فيها ، وفي سائر أنحاء البلاد الأمين .
ولم يجد المسلمون ما يسيرون به عن فيض سرورهم ، ويتجمعون به عن شعورهم —
إلا هذا الأذان الذي يشتمل على التكبير مضاعفا مكررا ؛ وكأنه نشيد الانتصار .
وسميت هذه الغزوة : « غزوة الفتح » . وكان النصر فيها حاسما للمسلمين ،
فاصلا بين عهدين كذلك ؛ عهد ضعفهم ، وقيلتهم ، وخوفهم من أعدائهم
المؤتمرين بهم ، المتألبين عليهم ، المخرجين لهم من ديارهم وأموالهم — وعهد
القوة ، والعزة ، والأمن ، والرجوع إلى الأهل والوطن ، وذئوع الدين ،
واستقرار دعائمهم ، وكثرة أنصاره ، والداخلين فيه . فما أقوى المشابهة بين الحالتين
حالة المسلمين الأولين ، وحالة الكاليين .

هذه قصة الإشارة التاريخية التي رمز إليها شوقي في مطالعه — كعادته —
واستعداد فيها الوقائع ، والأسماء ، والمناسبات . ففي كلتا الحادثتين استيلاء
على أكبر بلد تتجه إليه الأنظار ، (مكة ، والقسطنطينية) واسترداده من
مخالب الأعداء . وفي كلتا الحادثتين فتح عظيم ، وقهر لأعداء متآمرين
متألبين . ولو لم يتم الفتح لكان الفناء الأبدى . وفي كلتا قلعة قليلة ؛
إلا من إيمانها وإخلاصها — تحارب كثرة كثرة ، مزهوة بما لها ، وعديدها ،
ويقود المنتصرين من هؤلاء وهؤلاء جماعة سجل التاريخ أسماءهم
في الخالدين ، وسمى واحدا من أظهرهم بطولة ، وأشهرهم إقداما — باسم :
« خالد بن الوليد » .

فهل تمثل الناقدون تلك الحوادث ، وعقدوا المشابهة بينها ، وأدركوها ؟ وهل استلهموا التاريخ قبل أن يُطلقوا ألسنتهم بالنقد ؟ إنهم لو فعلوا ما وجدوا في بيت شوقي عيماً ، ولا رأوا غضاضة في تشبيهه : « مصطفى كمال » خالد الترك بخالد العرب ؛ فكلاهما البطل المند في عصره ، وفي ميدانه . وكلاهما المنافع المدافع عن دينه وبلاده ، والمناصر الأول بحياته من أجماعهما . وهل أراد شوقي بالتشبيه غير هذا ؟ وهل أراد به أن يكون بطل اليوم كبطل الأمس في دقائق الشؤون الحربية ؟ ألم يكن يعلم أن أساليبها وفنونها تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة ؟ فاليوم مدافع ، وطيارات ، وقذائف ، وغواصات ، وأداة حرب مبيدة ، لم يعرفها أحد من القدامى وأهل العصور السالفة ؛ حيث القوس ، والسهم ، والرمح ، والمصا ، وأشباهها مما لا قيمة له الآن ؟ . ما أظن أحدا يقول إن شاعرنا يجهل هذا .

إننا حتى اليوم نشبه الجواد السباح بحاتم الجاهلي ؛ على بعد المدى بين عصرنا وعصره ، وتباين وسائل الكرم وضروبه في أيامنا وأيامه . وليس في هذا التشبيه ما يعيبه إلا تبذله وامتهانه . أما غايته ، والفرض منه — فخليلة جميلة . وسيظل اسم حاتم رمزا للجود إلى أن ينتزع منه الشهرة كريم آخر ، أو نعدل عن الأسماء في التشبيه . ولم يغيب عن بالنا — حين نعقد هذا التشبيه — أن حاتما الذي سجل التاريخ اسمه في أول صحف الأجياد لم يكن يعرف من الجود إلا السباح بما يصادفه ، أو يملكه من غنم ، أو إبل ، أو نحوها مما نعدّه زهيدا في عصرنا ، ولكنه نفيس في عصره . ولم يكن يبالى — حين يجود به — أن يكون هو وأهله في أشد الحاجة إليه ،

لا يجدون عنه بديلاً ؛ فيقيموا على الطَّوَرِ ، ويطول بهم الجوع . وهذا أقصى غاية الجود المالى الذى يضرب به المثل بحق . ولما أنك قوّمت ما جاد به وقدرت له ثمناً — لم تجده يقوم بخير عشرات أو مئات من الدنانير . فأين هذه عشرات أو المئات القليلة من الآلاف الكثيرة وأضماؤها التى يجود بها كرماء اليوم ممن تشبههم بحاتم ؟ وكيف ساع لنا أن نشبه الذى يهب الآلاف بالذى يجود بالعشرات والمئات ؟ إن ظاهر الأمر يقتضينا العكس . لكن الأمر ليس على ظاهره — كما يقولون — فَمَرَدُّ الحُكْمِ على شخص بأنه أكرم من آخر إنما يرجع إلى مقدار ما يجود به كل منهما ، منسوباً إلى ثروته ، ومقدرته المالية ؛ لا إلى مجرد ما يتبرع به ، من غير موازنته بما يملك ؛ فقد يجود شخص بدينار واحد ، لا يملك غيره ، وهو فى أشد الحاجة إليه . ويجود آخر بألف من بين آلاف يمتلكها ؛ فيكون الأول أجود وأسخى . وكذلك الشأن فى هذا النوع من التشبيه ؛ ينظر فيه إلى وجه الشبه ، وقوّته ، وتمكنه فى أحد طرفيه ، دون الاعتماد على التجزئة ، والأعداد المجردة وحدها . وهذا هو ما قصد إليه شوقي فى تشبيهه ، وهو الذى ينبغى أن نفهمه منه . وشئ آخر أراد شاعرنا على عادته الكريمة ، هو إحياء مجدنا السالف ، وتذكيرنا به ، وبأبطالنا السابقين . وليس من شك أن « خالد بن الوليد » من أعظمهم ، وأشهرهم ، وصيته ذائع فى التاريخ الإسلامى ، وبين جمهرة المسلمين . فحين يُشَبَّه به « مصطفى كمال » إنما يُشَبَّه بطلا عظيماً ببطل عظيم ، معروف المكانة ، مرموق المنزلة لدى الكثرة العربية الإسلامية . وفى هذا زيادة تعريف بل تشريف لمصطفى كمال ، فوق ما فيه من إحياء لمجدنا وأبطالنا ، وحفز لهمّهم ، وتجديد تاريخنا الذى نفخر بصحائفه ، ونستمد

القوة من مثله العليا . وتلك مزايا جليسة لانتهميا باختيار بطل من أبطال اليوم ؛ فليس في صنيع شوقي مأخذ ؛ بل فيه حسن وتوفيق ، يوجبان له المديح والإطراء ، ويوجبان علينا أن نتقبل قبل ملامته ، وننقذ لما يرد في مطالعته ، وسائر شعره — من الرموز ، والإشارات التاريخية التي يرمي بها إلى أغراض بعيدة المدى ، عظيمة الدلالة . وهو لا يلام على أنه أخفى في ثنايا البيت ما لا يدركه إلا القليل من الخواص ؛ فالحق أن شوقي ينظم للخاصة والعامة معاً ، فالخاصة يدركون مراميهِ العميقة ، ويهتمون إلى إشارته ، أو للكثير منها . والعامة يدركون ظواهر كلامه ، ويكتفون بها ، ولا يعنيتهم ما وراءها . وتلك إحدى خصائص شوقي العظيمة — كما قلنا — يُرضي الطائفتين جميعاً ، وينزع إعجابهم . فأما من يضع نفسه في منزلة بين هؤلاء وهؤلاء فحسبه ما ارتضى ، وليس له أن يتصدى للنقد الأدبي النزيه .

(ب) وأما البيت الثاني منهما : « قم في فم الدنيا . . . » .

فقد أخذوا على ناظمه استهلاله بكلمة : « قم » التي يرددها هي وكلمة : « قف » ، ويكثر منهما في مطالعته ، وغير مطالعته ؛ حتى نزل بهما إلى حد التبذل والامتيان . هذا إلى ما فيها من إيجاء جاف ؛ يظهر التكلم بظهور المسيطر العنيف في موقف يتطلب الرقة والعدوية ، وفي عصر ذهب فيه تلك الأواصر بمظاهرها البغيضة العتيقة . فعيب الكلمتين عند هؤلاء الناقدين : التبذل والجفوة . هكذا يقولون . فأما التبذل فقد صح فيه بعض ما يدعون ؛ فأني رجعت إلى الديوان ؛ فوجدت المطالم الآنية مبدوءة بإحدى الكلمتين :

- (١) قف بهذا البحر ، وانظر ما غمره مظهر الشمس ، وإقبال القمر
 (٢) قف ، ناج أعرام الجلال ، وناد : هل من بناتك مجلس أو ناد ؟
 (٣) قف « بطوكيو » ، وطئت على « يوكهامه » وصل القر يمين : كيف القيامة ؟
 (٤) قم للمسلم : وقه التبجيلا كاد المسلم أن يكون رسولا .
 (٥) قم نادِ جليق ، وانشدرهم من بانوا مشت على الرسم أحداث ، وأزمان
 (٦) قم في فم الدنيا ، وسحى الأزهر واشر على سمع الزمان الجوهرا
 (٧) قم : ناد أنقرة ، وقل : يهنئك ملك بنيت على سيموف بنيك
 (٨) قم : صف الخلد لنا في ملك من جلال الخلق والصنع العجب
 (٩) قم : تأمل هذه الدار وفي لك من طالبا الجمع الأرب
 (١٠) قف بروما ، وشاهد الأمر ، واشهد أن للملك مالكا ، سبحانه !
 (١١) قف على كنز بباريس دفين من فريد في المال ، وثمين
 ووجدت الأبيات الآتية تتخلل قصائد مختلفة ، كل بيت مصدر

ياحدى الكلمتين :

- (١) عثمان ، قم : تر آية الله أحياء المؤمنين
 (٢) قم : فحدث عن السنين الخوالي وفتوح الملوك الصياد
 (٣) قم انظر وأنت للمالي الأرض حكمة أجدى نظيم أم أفاد نشير ؟
 (٤) قفوا بالقبور : نسائل عمر متى كانت الأرض مشوى القمر ؟
 (٥) قم : تر القوم كثرلة مثل ممتوسة الصخر
 (٦) قم : ابن الأمهات على أساس ولا تبني الحصون ولا القلاع

- (٧) قُمْ لِلْهَلَالِ قِيَامَ نُحْتَفِلِ بِهِ أَثْنَى وَبَالِغَ فِي الثَّنَاءِ وَغَالِي
 (٨) خَلِيلِي، قَوْمَانِي رُبَا الْغَرْبِ، وَاسْقِيَا رِيَّاحِينَ هَامٍ فِي التَّرَابِ وَأَوْصَالِ
 (٩) قُمْ إِلَى الْأَهْرَامِ، وَاخْشَعْ، وَاطْرَحْ خِيَلَةَ الصَّيْدِ، وَزَهْوِ الْفَاتِحِينَ
 (١٠) قُمْ ؛ تَرِ الدُّنْيَا كَمَا غَادَرَتْهَا ؛ مَنْزِلَ الْغَدْرِ ، وَمَاءَ الْخَادِعِينَ
 (١١) قُمْ ؛ فَشَاهِدْ - لَوَاسِطَ طَلْعَتِ قِيَامًا - حَمْرَةَ الشَّوْرِ ، وَالتَّبَاعَ خِيَالَهُ
 (١٢) قُمْ تَحَدَّثْ (أَبَا عَلِيٍّ) إِلَيْنَا : كَيْفَ غَامَرْتَ فِي جَوَارِ الْأَرَاقِمِ ؟
 (١٣) وَقِفُوا سَاعَةً بِهِ فِي ثَرَى الْأَقْسَامِ مِنْ قَوْمِهِ ، وَتُرْبِ الْغَمَامِ
 (١٤) وَقِفِي الْهُودَجَ فِينَا سَاعَةً نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِ أُمَّ الْحُسَيْنِ

تلك هي الأبيات التي عثرت عليها مُصَدِّرة بإحدى الكلمتين في مطالع القصائد ، وغير المطالع . وهي — ولا شك — كثيرة . فإذا ساغ « لابن جني » أن يأخذ على شاعره : « المتنبى » تكراره كلمتي : « ذا » و « ذى » في شعره ولم يقبل دفاعه عنهما ^(١) ساغ لنا ، بل وجب علينا أن نؤخذ شوقي بتكراره : « قف » و « قم » ولا نقبل دفاعا فيهما . هذا من ناحية تبذلهما وامتناعهما بالكثرة . وأما من ناحية جفوتهم ، وعدم ملائمتهم — فلا أرى هذا الرأي ؛ فإن شوقي لا يجيئ بواحدة منهما إلا حين يتكلم عن أمر له حظ من القداسة والإكبار ؛ كالأهرام ، والأزهر ، والمعلم ، وأنقرة . أو : حين يطلب الوقوف ، ولاكن بمعنى التهل ، والتأمل في شيء ؛ لنتبصر أمره ، ونستمد منه الخبرة ، والمعرفة . أو حين يرثي الموتى . وهو في الحالة الأولى يطالبنا بالوقوف الحقيقي ؛ على عادتنا (معشر الشرقيين) من الوقوف أمام

الجميل العظيم ؛ إكباراً له ، وتكريماً . وقد أشار إلى هذا في بيته السابق
في قصيدة الهلال ؛ حيث يقول : —

قُمْ للهلال قيامَ محفلٍ به أثنى ، وبالغ في الثناء ، وغالى

وبيته في قصيدة نابليون : —

قُمْ إلى الأهرام ، واخشع ، واطرحْ خيلةَ العسِّيدِ ، وزهوَ الفاتحين
وهو في الحالة الثانية لا يطلب الوقوف الحقيقي ؛ لما قلناه . وكذلك
في الثالثة ؛ لاستحالاته ؛ وإنما يطلبه تمنيياً ؛ ليكون أثرُ الشعر أقوى ،
وأبلغ ، ووقعُ الكلام أشدَّ . وهذا نهجٌ شعريٌّ سبقه إليه نظراؤه
من الشعراء ، كالوأواء الدمشقي ؛ فقد وقعت في ديوانه على الأبيات
الآتية : —

(١) قُمْ يا غلامُ إلى الشُّمولِ ؛ فهايتها	قبل انتشارِ الصبحِ في الآفاقِ
(٢) قُمْ ، فاسقني بالكأسِ لا بالنقلِ ^(١)	واشرب على وجه الزمانِ المُقبلِ
(٣) قُمْ يا غلامُ إلى المُدامِ	قُمْ ؛ دأوني منها بِحَمامِ
(٤) قُمْ ، فاسقني برقي الشُّفو	رِ فَقَدْ مَضَى برقُ الغمامِ
(٥) قُمْ يا غلامُ ؛ اسقني سُعْشَعَةً	تَسِيرُ في الكأسِ بالتَّبَاشِيرِ
(٦) قُمْ ؛ فاجلُ هَمِّي — يا غلامُ —	بالرَّاحِ ، إذ ضحك الظلامُ
(٧) قفوا ما عليكم من وقوفِ الركائبِ	لنُبذَلْ مذخورَ الدموعِ السواكبِ

... ..

(١) نأهتد في المراجع للمراد من هذه الكلمة ، ولعلها من آنية الشراب .

وبالرغم من هذا كله لا أعنى شوقى من تيمة التكرار في الكلمتين ؛
وإنما أخفف عنه وقع المؤاخذاة .

* * *

ولشوقى مطالع واهية متخاذلة ، وهى أنواع مختلفة . ولكنها لم تبلغ
في كثرتها ، ولا فى درجة قبُحها — ما بلغتَه نظائرها عند المتنبي . فما أقلها
عند شوقى !! وما أوفرها عند المتنبي !!

(١) فمن تلك الأنواع ما يقتحم فيه الموضوع اقتحاماً بايئ سيئ اللفظ ،
فاتر الروعة . قد اشترك شطراهما معاً فى أداء معنى واحد مبتذل ؛
كقوله يخاطب كاتباً إنجليزياً مشهوراً :

أيها الكاتب المصورُ صَوِّرْ مصرَ بالمنظرِ الأنيقِ الخليقِ
وقوله فى البحر الأبيض المتوسط :

أَيُّ الْمَمَالِكِ أَيْهَى فى الدهرِ مارَقَمَتْ شِرَاعَكَ
وقوله يخاطب الخليفة العثماني (وقد أنزله ضيفاً عنده حين زار
القسطنطينية) : —

رَضَى الْمَسْلُومُونَ وَالْإِسْلَامُ فَرَعَ عُمَانُ دُمَ ، فِذَاكَ الدَّوَامُ
وقوله فى اجتماع مصرى لإطاعة المقاتلين فى طرابلس من الجيش العثماني :

يَا قَوْمَ عُمَانَ — وَالْدُّنْيَا مُدَاوِلَةٌ — تَمَآوَنُوا بَيْنَكُمْ ، يَا قَوْمَ عُثْمَانَ

وقوله فى رثاء وزير :

مَنْ ظَنَّ بِعَدَاكَ أَنْ يَقُولَ رِثَاءَ فَلَا يَرْثُ مِنْ هَذَا الْوَرَى مَنْ شَاءَ

(ب) ومنها ما يبتدى فيه القصيدة بكلام مُتَقَي ، واضح المعنى ، اسكنه غير مفهوم الغرض ، كاستهلاله قصيدة المؤتمر^(١) :

صَرَخَ عَلَى الْوَادِي الْمُبَارَكِ ضَاحِي
مُتَظَاهِرُ الْأَعْلَاسِ وَالْأَوْضَاحِ
ضَافِي الْجَلَالَةِ ؛ كَالْعَمِيقِ مُفَصَّلُ
سَاحَاتِ فَضْلِ فِي رِحَابِ سَمَاحِ

... ..

فها الصرح الذي يشير إليه في البيت الأول وما بعده من أبيات ؟
إنك لتحاول الوصول إلى مراده فلا تقع عليه إلا وهماً وتخميناً . وإذا
جاز أن يدركه من عاصروا تلك الحوادث فهل يدركه من لم يشهدوها ؟
ومن تأخر بهم الزمان ؟ تلك شئشنة أعرفها من شوقي ؛ تهزّه حادثة
عامة أو خاصة ، وتثير وجدانه مناسبة طارئة ؛ فيندفع في الحديث عما
يحسه ، ويشعر به ؛ لا يبالي : أَفَهِمَ النَّاسَ كُلَّ مَرَامِيهِ أَمْ فَهِمُوا
بعضها ؟ ولا يبالي : أَخَفَى غَرَضَهُ عَلَى الْأَجْيَالِ الْمُتَعَاقِبَةِ أَمْ وَضَحَ لَهُمْ ؟
وليس بقدر أن يكون لديه من الدواعي السياسية أو غير السياسية ما يحمله
على هذا الغموض ، وهذا الإيهام . ومثال آخر قصيدته المعصم في زحامة :

شِيعَتُ أَحِبَّ الْأَمَى بِقَلْبِ بَاكِ
وَأَمَمْتُ مِنْ طُرُقِ الْمَلِاحِ شِبَاكِ
وَرَجَمْتُ أَدْرَاجَ الشَّبَابِ وَوَرْدَهُ
أَمَشِي مَكَانَهُمَا عَلَى الْأَشْوَكَ

... ..

فإنك لاتدري حقيقة ما يريد ؛ أغزل ، أم أسف ، أم ماذا ؟ لأن

(١) اشتد الخلاف بين الأحزاب المصرية ؛ حتى كاد يعصف بالبلاد ، وينزل بها
أفدح السكوارث السياسية وغير السياسية ، ثم انتهى الأمر إلى التوفيق بينها
وإعلان ذلك في مؤتمر سنة ١٩٢٦ بمقر محمود سامي باشا .

الأبيات توقعت في هذه الحيرة ، ولا تستطيع تفسير ما فيها من الإيهام إلا باستجابة شوقي لدافع نفسه ، وخفقة وجدانية استتوت عليه وقت نظم الشعر ، فلماها ، واستراح . ولا عليه بعد ذلك أن يدرك الناس حقيقة الدافع أو لا يدركوه ، ومثال آخر :

برأ القضاء أسد الحامين من تهمة نسبت إليه ؛ فقال شوقي في حفل تكريمه بالبراءة : —

الناسُ للدنيا تبعٌ ولعنُ ثمَّ ألفهُ شيعٌ
لا تهجَّعنَ إلى الزما نٍ فقد يذبُّه من هجج

فمن أى نوع هذا المطلع ؟ وما مناسبته ؟ أو ما ذا يريد به ، إلا ما وصفناه من أن خفقة خاصة لا نعرف دوافعها واتجاهها حلت بصدره ؛ فترجها وخفف عن نفسه ، ولم يوضح أمرها ؛ لحكمة سياسية أو غير سياسية لا يود الكشف عنها ؟ « فشوقي » حريص على تسجيل ما يحسه إزاء المناسبات الطارئة ، والحوادث العامة أو الخاصة المفاجئة ، ولو لم يدركها الناس ، ولم تكن وثيقة الصلة بالموضوع الذى يطره . وحرصه على هذا حرصه على الإشارات والرموز التاريخية التى أشرنا إليها من قبل . بيد أن الإشارات والرموز تجد كثيرا من المتقنين يفهمها ، ويدرك مراميها . أما هذه فلا يعرفها إلا « شوقي » ، وخاصة مجلسه . وسيجيء اليوم الذى لا يعرفها فيه أحد .

ولقد سأل أديب عراقى كبير : ما بال « شوقي » يستهل قصيدته فى مؤتمر

تكريمه ومبايعته بإمارة الشعر بقوله : —

مرحباً بالربيع في ريمانه وبأنواره ، وطيب زمانه
زُفَّت الأرض في مواكب «آذا»^(١) : وشب الزمان في مهر جانه

فقال ما صلة الربيع بالتركريم ؟ وما علاقة آذار بالإمارة والوفود ؟
ف قيل له : إن التركريم كان في آذار ؛ مستهل الربيع . فقال : ما كان
أجدر شوقي في حياته أن يشرح ديوانه ؛ ويوضح ما فيه من إشارات ،
ورمز تاريخية ، وخفقات نفسية غامضة ، قبل أن يطول عليها الأمد ،
وتصير لغزاً . ولا سيما إذا طوت الأيام من عاصروا حوادثها ، وعلموا
حقائقها . وقد صح ما توقعته ذلك الأديب ، فها نحن أولاء نرى
ظلمات الشك ، وسحب الغموض — تزحف سراعاً إلى نواحي كثيرة
من الديوان ؛ فإن لم يبددها أصدقاء «شوقي» ، وأنصار الأدب ، بشرح
ديوانه ، وتجانية غوامضه — فسوف تتراكم وتتكاثر حتى تنشئ ذلك
الأدب الرائع ، وتذهب بروعته وبهائه .

(ح) ونوع كالسابق ، لأصلة بين مطالعه وموضوعه ، ولكنه مبدوءة بالنصيحة

والموعظة ، فلا تجد فيه النفس ما يستهويها ؛ لنفورها من النصيح في
المطالع الشعرية ، كطالع في ذكرى استقلال سورية وعشرة أبيات بعده :

حياة ما نريد لها زياً لا ودنيا ، لا نود لها انتقالاتاً
وعيش في أصول الموت ، سم غصارتها ، وإن بسط الظلال

(ويلاحظ أنه أساء الاختيار بكلمة : « السم » في البيت الثاني ،

كما أساء المتنبي بوضعها في البيت الثاني حيناً ، والأول حيناً آخر) .

(١) شهر مارس وفيه يبدأ الربيع .

(و) وقد يكون المطلع نصيحاً وإرشاداً (كالسابق) ولكن بينهما وبين موضوع القصيدة صلة ما ؛ فمن شأن هذه الصلة أن تخفف من نفور النفس ، وانحرافها عن سماعها ، والإصغاء لهما . كقوله في رثاء صاحب المقتطف : —

سماؤك — يا دنيا — خداعُ سرابٍ وأرضك سُحرانٌ وشيكُ خرابٍ
وما أنت إلا جيفةٌ طالَ عولها قيامُ ضباغٍ ، أو قعودُ ذئابٍ
وقد أساء الاختيار بكلمة (جيفة) .

وكمطالع في تكريم الدكتور علي إبراهيم باشا : —
ابتغوا ناصيةَ الشمسِ مكانا وخُذُوا القِمةَ علماً وبَيَاناً
واظلمبوا بالعَبَقْرِيَّاتِ المَسْدَى ليس كلُّ الخيلِ يشهدنَ الرّهاناً
.....

تلك أمثلة من مطالع شوقي المعيبة . وهي : — إذا اجتمعت وتركزت —
لا تميل في ميزان النخفةِ والحق قليلا من معائب المتنبي في استهلاله .

(٣) المعاني وما يتصل بها

الفرض من الكلام : ترجمة الخواطر ، والإيانة عما في النفس ؛ ليتم التفاهم والتعاون بين الناس على ما فيه صلاح معاشهم ومعادهم . ولا يتحقق هذا إلا بفهم معناه ، ووضوح دلالاته ، وإلا كان أصواتا مُبْهَمَةً ، غامضة ، كأصوات العجماوات . فلا كلام بغير معنى مفهوم .

على أن تَحَقُّقُ هذا الشرط وحده لا يكفي في الكلام الأدبي ؛ بل لابد معه من صفات أخرى تكسبه تمكيناً في النفوس ، وتغفللاً في أعماقها ، وقوة في التأثير . ومن تلك الصفات : طرافة المعنى ، واستقامته ، ووفاءه بما يراد منه ، ومناسبته للقرض والعصر الذي قيل فيه ، وترك التصنع والإفاضة . هذا إلى براعة الخيال ، وشيوع العاطفة ، وتدفقها فيه تدفقاً يسرى إلى السامع والشارع ؛ فيشارك صاحبها فيما يحس ويدرك مشاركة فليمة ، لا اختيار فيها ولا طواعية .

فإذا كان وضوح المعنى هو الدعامة الكبرى ، بل الأساس الفرد الذي يقوم عليه كل كلام فني أو غير فني — فإن الأوصاف التي ذكرناها هي التي تجعل الكلام العام فناً صَفُوحاً ، وتميله أدباً خالصاً . وإن شئت فقل : هي الخصائص التي يمتاز بها الكلام الفني من غيره ، ويسمى بها الأدب على سائر أنواع الكلام . وقد أفاضوا القول في إيضاها ، وبيان المراد منها في مكانها الخاص من كتب البلاغة والنقد . ولا يتسع المجال هنا لبسط آرائهم . ولكن حسبنا الإشارة للمآخ إليها .

فقد أرادوا من المعاني الطريفة ما كان من استعمال الخاصة وأشباههم ، ولم يذع بين العامة ومن إليهم ، فنزول بهجته ، ولا تقبل النفس عليه ،

ولا تنشط لتحقيق غايته . وأرادوا من براعة الخيال قدرته على أن يخلق من الصور الحسية المفردة ، والمناظر البعثرة صوراً مركبة لا تقع صورة منها تحت الحس ، فلا وجود لها إلا في العقل وحده .

ومهارته تظير في خلقها^(١) وتكوينها ، فيزداد المعنى بها جمالا ، ويكتسب

(١) إليك مثالا يوضح : شباك زرت صديقا في بيته ؛ فرأيت في حديقته وردا ، وعناوبا ونرجس ، وشاهدت عنده بعض الدرر والآلئ . ثم عدت إلى بيتك فمددت ما رأيت ، ووصفت ما شاهدت على صورته الحقيقية ، فهذا المد والوصف إنما تم بقوة فطرية ؛ تسمى : الخيال المستعصر ، أو : المستعيد . وقد تسمى تلك القوة : (الذاكرة) . ووظيفتها : استرجاع الصور الذهنية على حقيقة الأولى التي وقعت في الحس المبائر . فاذا ركبت من تلك الصور المتفرقة البعثرة صورة واحدة متماسكة غير حقيقية لا وجود لها إلا في العقل ، ولا تقع تحت الحس - سميت القوة التي أنشأت هذه الصورة : (الخيال المبتكر) كقول الشاعر يصف حبيبته حين نالت غرانه :

فأمطرت لؤلؤا من نرجس ، وسقت وردا . وعضت على العناب بالبرد .

أراد بالؤلؤ : الدموع . وبالنرجس : العيون . وبالورد : الحدود . وبالعناب : الشفتين . وبالبرد : الأسنان . فالؤلؤ وحده معروف محسوس ، وكذا النرجس ، والورد ، والعناب ، والبرد . ولكن الصورة المتماسكة التي تتكون من لؤلؤ يتساقط من نرجس ؛ فيشرب منه الورد - لا وجود لها . كالأوجود لصورة تعض بالبرد على العناب . وإنما هذه وتلك من صنع الخيال المبتكر ؛ استغل أشياء متفرقة ، متناثرة ، مدركة بالحس فجعلها ، وركبها ، وأنشأ من هذا المجموع المركب صورة متماسكة ، لا وجود لها إلا في النفس . فهي صورة عقلية خالصة ، أو : محض خيال ، لا حقيقة لها بعد تركيبها . ومثل هذا وصف زهر (الشقيق) بأنه :

أعلامُ ياقوتٍ أنسرُ ن على رماح من زبرجد

فالأعلام . وحدها . معروفة . وكذا الياقوت ، والرماح ، والزبرجد . لكن الصورة المركبة التي تجمع هذه الأشياء كلها جميعا حقيقيا لا وجود لها إلا في الخيال ؛ إذ لا يعرف الحس صورة أعلام من ياقوت ، منشورة على رماح مصنوعة من زبرجد .

قوة ، وروعة تأثير . وقصدوا من استقامة المعنى تماسك أجزائه ، فلا يقع بينهما تضارب ، أو تناقض ، أو تفكك^(١) . وقصدوا من وفائه أن يكون شاملا لموضوعه ، مستوعبا — إلى حد محمود — عناصره وأدلة العقلية والشعرية التي ترضى الفكر والعاطفة معا ، من غير استقصاء دقيق يُحيل الشعر فلسفة جافة ، أو يحشا عقليا جامدا . ومن غير إلحاح في الاستدلال يُبعده عن ميدان الشعر إلى مجال المنطق البحت ، والبرهان العلمي الخالص ؛ فلا إفراط يدفع الشاعر إلى العناية بالأدلة الفكرية ، أو العاطفية ، وما يؤديان إليه من الجفاف والتركيز المعقد ، أو الاستحالة والمبالغة الفاسدة ، وجحوش العاطفة . ولا تفريط يهوى به إلى التفاهة ، والضلالة ، وإهمال إحدى الناحيتين السابقتين .

وعنوا من مناسبته لغرضه ولعصره أن تكون معاني المدح ، والثناء ، والعتاب ، وغيرها مستعملة فيما وضعت له ، وكثرت فيه بين خاصة أهل ذلك العصر ، فلا يستعمل معنى في غير غرضه ، أو عند أهل عصر أو قبيل آخر لا يناسبهم^(٢) . وأما ترك التصنع والإفاضة فيراد بها أن يكون

(١) يريدون بالتفكك : أن تكون المناسبة بين المعاني المتصلة بالموضوع الواحد أو أجزائها واهية ضعيفة ، أو : مفقودة .

(٢) فن وضع المعاني في غير مواضعها استخدام المعاني الغزلية في المدائح ، كمدح الملوك بخلاوة عيونهم ، وتورد خدودهم ، وحسن ثغورهم . . . ومن استعمال المعاني في غرض يناسب عصرًا أو قبيلة دون آخر ما برد في كلام بعض أدبائنا اليوم من : « ألقى عصا النسيان » . « ضرب آباط الإبل » . . .

ونحو هذا مما لا يقع الآن عندنا . وأقبح منه أن نقول ما كان يقوله السابقون : « فلان كثير الرماد » ؛ كناية عن كرمه . أو : « فلان يشكو إليك قلة الجرذان » ؛ كناية عن فقره . أو : « نظيف آنية المطبخ » كناية عن أنه لا يجد شيئا يأكله . . . فتلك كنايةات لا تناسب عصرنا ، والمراد منها قديما غير ما يفهم منها اليوم .

في البيت الواحد . كما كانوا يعيرون شعر المتنبي والمعري بعدم النسيج على الأساليب السرية ؛ فكان شعرهما كلاما مغلوما ، نازلا عن طبقة الشعر . والحكم بذلك هو الذوق ...) بل رأينا الواحدى^(١) ، وهو من الأئمة الذين شرحوا ديوانه ، وأعجبوا بشعره — يصفه بأنه صاحب «مان مخترعة ، دقيقة ، مبتكرة . ثم يعترف « بأنه خفيت معانيه على أكثر من رأى شعره من أكابر الفضلاء ، والأئمة العلماء ، حتى الفحول منهم والنجباء ، كالقاضي الجرجاني صاحب كتاب الوساطة ، وابن جني النحوي ، وأبي الملاء المعري ، وابن فورجة — رحمه الله تعالى . وهؤلاء كانوا من فحول العلماء ، وتكلموا في معاني شعره بما اخترعوه ، وانفردوا بالإغراب فيه ، وأبدعه . وأصابوا في كثير من ذلك ، ونفى عليهم بعضه ، ولم يبن لهم غرضه المقصود ، لبعده مرميا ، وامتداد مدام ... » .

فأى شعر هذا الذي يخفى على الأئمة الأعلام ورجال اللغة والأدب ، ويقفون أمام معناه حيارى ، يضربون في بيداء الخلدس والتخمين . يستمين بعضهم ببعض ، أو يخطئ بعضهم بعضا على نحو ما نراه في أبيات كثيرة من شرح المكبري تتجاوز العشرات إلى المئات ؟ وكيف نسميه شعرا وهو على ما وصفنا ؟ ولقد أحسن بعض أدبائنا^(٢) وأصاب حين نقل رأى الواحدى وأردفه بقوله : —

(إن المعاني الشعرية ليست من قبيل الأسرار الصوفية ، أو القضايا

(١) هو الإمام النحوي الأديب : الواحدى المتوفى سنة ٤٦٨ هـ (كما سبق) .

(٢) هو مقدمة شرحه .

(٣) هو اليازجي في كتابه : العرف الطيب ص ٦٥٤ .

التعليمية التي تقتضى دقة نظر ، وجهد ذهن في فهمها ؛ وإنما هي معان طبيعية تدركها البداهة بأدنى رمز . والاستتراع من حيث هو لا يقتضى الخفاء ، وإلا لخرى أكثر شعر المتقدمين بمن سبقوا إلى ابتكار المعاني ، مع أنك لا تكاد ترى في كلامهم ما غاص في الإيهام ، وحسرت من دونه الأفهام إلى الحد الذي تراه في بعض شعر المتنبي . . .)

سألنا ولهذا كله وعندنا الأمثلة الفائرة السكينة بالرأى الفاضل السيد ، والتي تشهد بأوضح بيان بغموض معاني المتنبي ، وتحقيقها ، وحرمانها العاطفة ، وفقرها من الخيال والتوفيق ، وما إلى ذلك من باقى العيوب .

(١) يصف ليلة طويلة :

أَحَادٌ أَمْ سُدَّاسٌ فِي أَحَادٍ لَيْلَتُنَا الْمَوْطَةُ بِالتَّنَادِ^(١)

(٢) وقوله يمدح :

نَحْنُ مِنْ ضَائِقِ الزَّمَانِ لَهُ فَيَسَّكَ وَخَانَتُهُ قَرَبَكَ الْيَامِ

قال السكبرى معناه : (نحن الذين ضائقهم الزمان فيك ، فيدخل عليهم بك ، فيحرمهم لقاءك ، ويباعد بينك وبينهم ، وتخونهم الأيام في القرب منك ، يشير إلى أن الزمان يشقه ويغار على قربه . فهو يريد أن يفرد به دون الناس . . .)

(١) قال الواحدى فى كتابه : قد أكثروا فى معنى هذا البيت ، ولم يأتوا ببيان مفيد . ولوحكى ماقلوا فيه لطال الكلام ، ولكن أذكر ماوافق اللفظ من المعنى . وهو أنه أراد : أواحدة أم ست فى واحدة جعلتها فيها كالشيء فى الظرف ؟ ولم يرد الضرب الحاسى . وخص هذا العدد لأنه أراد ليلالى الأسبوع ، وجعلها كناية عن ليلالى الدهر كله .

فهل هذا شعر مفهوم ؟ وهل فيه شئ من صفات الجودة المعنوية ؟
ولقد كان الصاحب بن عباد صادقا حين قال في البيت السابق : إن رُقية
العقرب أقرب إلى الأفهام منه ، وأن قوله : (له فيك . . .) لو وقع
في عبارات الجُنَيْدِ والشَّيْلِيِّ (وهما من علماء القرن الرابع في التصوف ،
وأئمتهم التي تتكلم بلغة رمزية لا يدركها غيرهم) لانتابت عنه المتصوفة
دهراً بعيداً^(١) .

(٣) وفي فراق أحبابه :

لَا تَجْزِيَنِي بِضَنِّي بِي بَعْدَهَا بَقَرٌ تَجْزِي دُمُوعِي مَسْكُوبًا بِمَسْكُوبٍ
يدعو لمن ، قائلاً : (لا ضنيت هذه البقر (يريد النساء) كما ضنيت ،
ولا جرت دموعهن كما جرت دموعي ؛ لأنه بكى عند الفراق فبكين ؛ فجزين
دمعة بدمع ؛ فدعا لمن ألا يجزين ضناه بضنا ؛ كما جزينه بالدمع دمعاً^(٢))
فهل في البيت حسنة من حسنات المعاني ؟
(٤) وقال في المدح :

وَتَنَسَّبُ أَفْعَالُ السُّيُوفِ نَفُوسَهَا إِلَيْهِ ، وَيَنْسُبْنَ السُّيُوفَ إِلَى الْهِنْدِ
شرحه ابن جنى : (بأن أفعال السيوف أشرف من السيوف . وأفعالها
تنسبه بأفعاله في مضائه وحدته ، وتنسب السيوف إلى الهند ؛ ألا ترى أنه
يقال : سيف هندي ، وسيف يمان . وفعل السيف أشرف منه ؛ كذلك
أنت أشرف من الهند . قال « ابن فورجة » . قد خلط « ابن جنى » حتى

(١) الكشف عن مساوي المتنبي للصاحب ص ١٢ .

(٢) العكبري في شرح البيت .

لأدري أى أطراف كلامه أقرب إلى المحال . ولم يجر ذكر التشبيه ؛ وإنما يقول : إنها تنسب أفعالها إليه ، أى : تقول هذه الضربة من فعله ، لا من فعلنا . . . لأنها حصلت بقوة ؛ أى : الضارب ، ودلت على جودة السيف . وليس فى هذا البيت أنه أشرف من الهند^(١) . . .

فما ظنك بشعر لا يفهمه الإمام الكبير : « ابن جنى » ، ويشرحه شرحا يستحق من أجله هذه القوارع ؟

وسنكتفى فيما يلى بالأبيات من غير شرح ولا تعليق ؛ إذ ليس مكانهما هنا . وليرجع إليها من شاء فى شرح المكبرى ؛ ليرى ما يسميه على صواب الرأى :

(٥) ذَمَّ الزمانُ إليه من أحبَّته ما ذَمَّ من بدَّره فى حمدٍ أُحمِّده

(٦) وقال واقفاً على دار الأحاباب ؛ يصفها ، ويصف نحول جسمه : (وهو مما اختلف فيه أئمة الشراح) .

ولا وقفتُ بجِسمٍ مُنى ثالثة ذى أُرْسَمٍ دُرْسٍ فى الأُرْسَمِ الثُّرسِ
(٧) وقوله فى وصف ناقته . (وقد طمنوه من أجله طمئة دامية^(٢)) :

شيمُ اللإلى أن تشكك ناقتى صدرى بها أفضى أم البیداء ؟

فتبیتُ تُسَدُّ مُسَدًّا فى زِيَّها إسدأدها فى المهمة الأنضاه

(٨) وقوله فى وصف سرعته (وهو مما اضطررب فيه الشراح وماجوا) :

فلو سِرْنَا فى « تشرين » خمسَ رأوني قبل أن يروا السَّباكا

(١) المكبرى فى شرح البيت .

(٢) راجع الصبح المنبى ص ١٥١ : ٢ .

(٩) وقوله في مدح ابن العميد : —

يا ليت باكية شجاني دُمُّها نظرت إليك كما نظرت فتقدرا
فأرى الفضيلة لا تُردُّ فضيلة الشمس تشرق والسحاب كمنهورا^(١)
(١٠) وقال يمدح نفسه بأنه لا شبيه له : (وقد ضل العلماء في فهم المراد
من كلمة : « ما ») :

أعطت عنك شيعتي بماء وكأنه فما أحد فوق ، ولا أحد سفل
(١١) وقوله في مدح سيف الدولة :

إذا ذاك هفأ بقراط عنه فلم يُعرف لصاحبه ضرب
(وفي كلمة : « إذا » من الآراء والظنون ما يدعو للعجب . وقد شرح البيت
ابن جني وابن فورجة ، فقالا فيها الواحدى : إنهما لم يعرفا معناه ، بل
خبطا فيه . . .)

(١٢) وقوله في كافور الأسود (وكان يكنى بأبي السمك لتشابه اللونين) :
وبنيتك يُكنى به ؛ ليس بالسمك ، ولكنه أريج الشفاء

(١٣) واستمع إلى أبيات من قصيدة يمدح بها طاهر بن الحسين العلوي ...
وأبهر آيات التهاني أنه أبوك ، وأجدى مالم من مناقب
إذا لم تكن نفس النسيب كأصله فما الذي يُفنى كرام المناصب ؟
وما قرأت أشباه قوم أباعد ولا بعدت أشباه قوم أقارب

... ..

(١) غزيرا متكاثرا . وقد جاء في الصبح المنبى ج ١ ص ١٩٢ (أن ندماء ابن العميد
تنازعوا في فهم هذا البيت ؛ فقال : أثبتوه حتى أتأمله . فأثبت البيت ، ووضع
بين يديه ؛ فأطرق مليا ، ثم قال : هذا يعطنا عن الهم . وما كان الرجل يدرى
ما يقول . . .)

فقد نقل شارح الديوان في البيت الأول مانصه :

(قال أبو الفتح : قد أكثر الناس القول في هذا البيت ، وهو في الجملة شنيع الظاهر ؛ فأضربت عن ذكره . وقد كان يتعسف في الاحتجاج له ، والاعتذار بما نستأراه مُثَمِّناً . . .) ثم نقل شرحاً آخر للبيت ملخصه : إنكم أوضح المعجزات على صدق نبوة أبيكم محمد التهاجي عليه السلام ؛ فقد كان أعداؤه القرشيون يرمونه بأنه أبتري ؛ لأنسل له ، فإذا مات استراعوا منه . فأنزل الله عليه (إنا أعطيناك السكوت) أي : العدد الكثير ؛ فاست بالأبتري . . . (إن شأنك هو الأبتري . . .)

وهذا المعنى حسن . ولكنه لا يدفع الغموض والتعقيد عن البيت ، ولا يُبَيِّنُه من إشارات تاريخية يتوقف فهمه على فهم غراميتها ، وقل من يدركها . وقد سبق أن مدخنا شرق بكثرة الإشارات التاريخية ، وكدنا نجعلها مزية جالية له ؛ ذلك لأن إشارات من نوع آخر ، نوع يزيد المعنى كلاً ، وقوة ، وروعة . من غير أن يتوقف فهم البيت عليه ، أو يختفي الفرض الأصيل بسببه ، فكل يدرك معنى البيت ؛ ولكن إدراك الخاصة له أوفى وأبلغ ، وسرورهم به أقوى وأكمل ؛ لإحاطتهم بإشاراته ، وما يراد منها . وليس كذلك الشأن في أبيات القنبي .

وفي البيت الثالث (وما قربت أشباه قوم أباعد . . . الخ) نقل الشارح أن الواحدى قال : « لم أجده في هذا البيت بياناً شافياً ، ولا تفسيراً مُثَمِّناً . وكل تفسير لا يساعده لفظ البيت لم يكن تفسيراً للبيت . والذي يصح في تفسيره أنه يقول : الأشباه من الأبعاد لا يقرب بعضهم من بعض ؛ لأن

الشبه لا يحصل القرب في النسب ، والأشياء من الأقارب لا يبعد بعضهم من بعض ؛ لأن الشبه يؤكد قرب النسب . هذا إذا جعلنا الأشياء هم الذين يشبه بعضهم بعضاً ؛ كقولنا (الناس عالم يروك أشباه) فإن جعلنا الأشياء جمع الشبه ، من قولهم : بينهما شبيهة — فعنى البيت لم يقرب شبه قوم أبعد . أى : لا يتقاربون في الشبه ، ولا يشبه بعضهم بعضاً ، ولا يبعد شبه قوم أقارب . يريد : أنهم إذا تقاربوا في النسب تقاربوا في الشبه . . . »

فأى شعر هذا الذى ينجير أئمة اللغة والأدب فى فهم معانيه ، وإشاراته ، ويجعلهم يقولون فيه ما قالوا ؟

(١٤) ويصف أعداء كافور ممن يمتنون له السوء والموت بأنهم يموتون قبل أن يروا فيه ما يطلبونه . ولو لم يموتوا لماش وشاب طفلهم ؛ لشدة ما يروونه ، وصعوبة ما يلحقهم ، وما يقاسونه منه . فيقول : —
ودون الذى يَبْقُونَ مَالُو تَخَلَّصُوا إِلَى الشَّيْبِ مِنْهُ عَشْتِ وَالْطُّفْلُ أَشْيَبُ
وقد اضطرب الشراح فى فهم البيت ، وتشعبت آراؤهم . وما أولانا بأن نعذرهم !! .

(١٥) وهل يليق فى موضع المدح أن يقول لكافور ما كم مصر (وقد كان عبدا حبشيا ؛ لافخر له بنسب أوقبيل)

ويُغْنِيكَ عما ينسبُ الناسُ أنه إليك تناهى التكرمات وتُنسَبُ ؟

(١٦) وعوارٍ لوامعٍ دينها الحِلُّ ولسكن زيتها الإحرامُ

قال ابن جنى : « سألت المتنبي وقت القراءة عليه عن : (عوار) فقال : أردت السيوف . ودينها الحل : حتى لا تخرج عن شئ ،

وإحرامها : تجريدتها من الأعماد . . . « فقد توقفت » ابن جني «
في ناحية من البيت ؛ فكشف غموضها المتنبى ، وأحسن أن هناك
غموضاً آخر فكشفه .

(١٧) وزار مريضاً فقال يمدحه . . .

لا تمذل المريض الذي بك شائق أنت الرجال ، وشائق علاتها^(١)
يريد : « أنت شائق إلى كل أحد ؛ فلمرض — إذا أصابك — غير
ملوم في إصابتك ؛ لأن كل الناس يشترقون إلى زيارتك ؛ لما يسمعون
من أعاجيب أخبارك . فتشوق الرجال إلى قصدك ، وتشوق أمراضها
منها ؛ فقد شئت المرض حتى زارك ؛ فلا ينبغي لنا أن نشكوه
ونزدله ؛ لأنه اشتاق إلى زيارتك^(٢) » .

فما أقبح هذا التعميد اللفظي والمعنوي !! وما أقبح المعنى في هذا المقام !!
فمن يستسيغ مدح المريض بأنه يشوق الرجال ، ويشوق علاتها ؟

(١٨) ويقول فيها : —

مُسْتَرْخَصٌ نَظَرُ إِلَيْهِ بِمَا بِهِ نَظَرْتُ ، وَعَثْرَةُ رِجْلِهِ بِدِيَاتِهَا
يريد : لو اشترت البرية نظرتها إليه بأعينها لكان الثمن رخيصاً .
ولو قُدِّيتْ عَثْرَةُ رِجْلِهِ بِدِيَاتِ الْخَلَائِقِ كُلِّهَا لَكَانَتِ الدِّيةُ أَرْخَصَ ، وَالْعَثْرَةُ
أغلى . وفي هذا البيت من القبح ما في سالفه ، فوق المبالغة البغيضة .

(١٩) وقوله في الدنيا : —

وَأَوْفَى حَيَاةِ الْغَابِرِينَ لِصَاحِبِ حَيَاةِ أَمْرِ خَانَتَهُ بَعْدَ مَشِيبِ

(١) تقدير البيت : أنت شائق الرجال ، وشائق علاتها .

(٢) راجع شرح العكبري للبيت .

يريد : إذا عاش المرء إلى بلوغ المشيب ، وخاتمة حياته في الهرم —
فقد تنافست في الوفاء له ، ولا غاية في الوفاء لها بعد ذلك . وهذا أحد
المعاني التي استعملها الشارح من آراء كثيرة مضطربة في فهم
البيت (١) .

(٢٠) وقال يمدح سيف الدولة بالشجاعة :

إذا ما سرت في آثارِ قسومٍ تخاذلتِ الجماجمُ والرقابُ
اختلف الشراح في فهم البيت : وفي المراد من التخاذل ؟ فلو احدى رأى ،
ولابن جني رأى ، ولله خوارزمي رأى ، وللمصري ، والخطيب غير ذلك (٢)

(٢١) وقال يمدح بدر بن عمار : —

بهمجٍ سرٍ سيفوك أغداً ما تَمَنَّى الطلَى (٣) أن تكون الفمودا (٤)
وسمعنا : سيفوك تركت أغداً ما من غير أن تعود إليها ، وتستقر فيها ؛ لأنها
مشغولة بضرب الأعداء دائماً . فتمنت الأعناق أن تكون هي الأغداد ،
لتفارقها السيوف ، ولا تعود إليها ولا تضربها !!
وقد تمب الشراح في مراده . وشرحه أديب كبير منهم فغلط وأخطأ ،
فقال الواحدى : « كنت أربأ به عن مثل هذا الغلط ، لتصدره في هذا
الشأن . ونعوذ بالله من الفضيحة ... » .

فإذا كان الأديب المتصدر لهذا الشأن يضل في الفهم ، ويفضح نفسه —
فكيف حال من دونه ؟

(١) راجع المكبرى في شرحه . (٢) انظر المكبرى .

(٣) جمع مطلية ، وطلاة (بضم الطاء فيهما) بمعنى العنق .

(٤) جمع غمد : وهو جراب السيف .

(٢٢) وقال يمدح مساور بن محمد الرومي : —

وَفَشْتُ سِرَانَا إِلَيْكَ ، وَشَفْنَا تَعْرِيفُنَا ؛ فَبِذَا لَكَ التَّصْرِيحُ
شرحه ابن جنى ، فقال الواحدى : « إنه لم يقف على حقيقة المعنى ،
وقد ذكر في هذا أوجها فاسدة . وإنما حقيقة المعنى : كَتَمْنَا نَفْسَنَا
وهزلنا ، فصار التحول تصريح القال . يريد أنه استدل بالتحول على
ما في القلب من الحب : فقام ذلك مقام التصريح لو صرحنا ^(١) » .

(٢٣) وقال يمدح سيف الدولة :

إِذَا كَانَ شَمِ الرُّوحِ أَذَى إِلَيْكُمْ فَلَا بَرَحَتِي رَوْضَةً وَقَبُولِ
شرحه ابن جنى . فقال عنه الواحدى : « من فسر هذا التفسير فقد فضح
نفسه ، وغرَّ غيره ^(٢) » .

(٢٤) وقال يمدح كافورا :

قَدْ اخْتَرْتُكَ الْأَمْلَاكَ ^(٣) ، فَاخْتَرْتُهُمْ بِنَا حَدِيثًا . وَقَدْ حَكَمْتُ رَأْيَكَ ، فَاحْكِمِ
والمعنى : قد اخترتك من ملوك الأرض بالقصد إليك ، فاخترتهم بنا حديثا
من مدح ، أو هجاء ، أو منفع ، أو عطاء . يريد أنهم يتحدثون بنا ،
فاختر ما تريد من ثناء ، وإطراء بالإحسان ، أو ذم أو هجاء بالبخل
والحرمان ^(٤) .

وهذا معنى غامض ، حاوله ابن جنى فلم يصل إليه ، ووقع على غيره

(١) العكبرى في شرح البيت . (٢) العكبرى في شرح البيت .

(٣) أى : من الأملاك ؛ بمعنى : الملوك . والكلمة منصوبة على نزع الخافض من غير

مسوغ . (٤) شرح العكبرى .

كما قال الواحدي . وفوق هذا فالمعنى غير ملائم لموقف المدائح ، والثناء على الملوك والأمراء .

(٢٥) ومثله في عدم الملاءمة . قوله في الغزل :

حاشا لملك أن تكون بخيلة ولمثل وجهك أن يكون عبوسا
فليس مما تمدح به المرأة أن تكون كريهة ، مشرقة ، متهلة مع الأجانب .

(٢٦) وقال وهو مصر مادحا سيف الدولة : —

فارقتمكم ، فإذا ما كان عندكم قبل الفراق أذى بعد الفراق يد
إذا تذكرت ما بيني وبينكم أعان قلبي على الشوق الذي أجده
وقد تنازع الشراح في فهم البيتين وخطأ بعضهم بعضا .

(٢٧) وقوله يمدح شجاع بن محمد الطائي : —

بقيت جموعهم ، كأنك كلها وبقيت بينهم ، كأنك مفرد
يريد أن يقول : وقعت بين الجموع وكأنها غير موجودة ، إذ لا قيمة لها معك ؛ فأنت مفرد بالرغم من وجودها حولك . فأين هذا المعنى من نظائره الواضح في قول أبي نواس :

ليس على الله يستنكر أن يجمع العالم في واحد
(٢٨) وقوله فيه : —

صبح يا جلاله^(١)!! تذرك وإنما أشقار عينيكَ ذابل ومهتد
... أتى يكون أبا البرية آدم وأبوك والثقلان أنت محمد
أي : (أنهم يسرعون إليك ؛ لطاعتهم لك ، ويحنون بك ، فمسير

(١) اسم عليّ أيرانيّين يريد فيناهم .

مهييا ، تقوم أشجار عيانيك مقام الرمح الذابل والمهند . وكيف يكون آدم
أبو البرية وأبرك محمد وأنت الثقلان — وهذا الجن والإنس — تقوم
مقامهما بفضلك وكرمك^(١) (٤) . وفي البيت من التعقيد والتعسف
— كما قال الشراح — ما فيها .

(٢٩) وقال يمدح : —

وأنت لا تجود على جسمي إني ألقب بالجنون
أى : لا تجود بهبائك على كريم وأن يلقب بصفة الكريم : لأن هذا
الوصف خاص بك ، وفقرت عليك . وفي البيت من التعقيد اللفظي
والمعنوي ما لا يخفى .

(٣٠) فبعض الذي يبدو الذي أنا ذا كـ وبعض الذي يلقى على الذي يبدو

أى : ما أذكره بعض ما يبدو من فضائلك ، وما يبدو هو بعض
ما يخفى على .

(٣١) وسبني لأنك السيف ، لا بأسله لفريق ، ومما السيف من ذلك الغمد

أى : أقسم بسيفي إنك السيف الحق ، لأنك أمضى منه . وإن غمدك

(أى : الدرع الذي تلبسهما وتدخل فيها كأيام الصدا) — وسفوح من

الحديد الذي يجمع منه السيف .

(٣٢) وقوله يمدح سيف الدولة حين هزم الخارجين عنه من بعض القبائل

العربية : —

وكنت السيف : قائمه إليهم وفي الأعداء خذك والفرار^(٢)

(١) شرح العكبري : (٢) قال الشراح معناه : كنت لهم سيفاً يدمع عنهم ،
ويحرقهم . قائمه في أيديهم ، وحده في أعينهم ، إلى أن طافوا في بلاد حدهم .

قال الواحدى : « تخطيط ابن جنى وابن فريجة فى تفسيره ولم يعرفاه » .
ومن الأمثلة الأخرى قوله فى مدح ابن العميد : —

(٣٣) كيف يرتدُّ شكي عن سماء والنجاد الذى عليه نجادة

وتنزلت شائسة فى نداه

(٣٤) جوابُ مسائلٍ أمةً نظير؟ ولا لك فى سؤالك لآء آلاء

(٣٥) فى مدح الأورابى الكاتب :

من يمتدّى فى القول على اليتيمى فى القول حتى ينهل الثمراء

(٣٦) وفيها يقول : —

لا تكثُرُ الأصواتُ كثرةً قطيِّ إلا إذا شقيت بك الأحياء

والقلب لا ينشقُّ عبثاً نكتة حتى نحلَّ به لك الشجواء

... ..

ولجذت حتى أدت تبخل حائلاً المنتهى؛ ومن السرور بكا

(٣٧) وفيها :

فبأعما أدم سعت إلى العلا أدم الهالك لأخصيك حذاء

لو لم تسكن من ذا الورى اللذمنك هو عقتت بمولى نسائها حواء

... ..

(٣٨) وإذا كانت العاطفة تظهر أقوى ما تكون تدققا ، وأبرز ما تبدو أثرا

فى الرثاء والغزل فأين هى فى شعر المتنبي ؟ وأين حسن المناسبة حين

يقول فى رثاء والده سيف الدولة :

صَلَاةُ اللَّهِ خَالِقِنَا حَنُوطٌ عَلَى الْوَجْهِ السَّكَنِيِّ بِالْجَمَالِ
عَلَى الْمَدْفُونِ قَبْلَ التُّرْبِ صَوْنًا وَقَبْلَ الْأَحَدِ فِي كَرَمِ انْجِلَالِ
فَإِنَّ لَهُ بَيْطَانَ الْأَرْضِ شَخْصًا جَدِيدًا ذِكْرُنَاهُ وَهُوَ بَالِي
وَمَا أَحَدٌ يُخْلِدُ فِي الْبَرَايَا بَلِ الشَّيْءُ تَمُوتُ إِلَى زَوَالِ
أَطْلَابِ النَّفْسِ أَنْكِ مِتَّ مَوْتًا تَمُوتُهُ الْهَوَايُ وَالنَّفْسُ إِلَى

.....

وهل يسوغ في مواقف الرثاء أن يقال : طابت النفس بموت الميت ؛ لأنه أدرك كذا وكذا ؟

(٣٩) وقوله في رثاء تغلب عم سيف الدولة : — (وتأمل البيت الأخير ، وقبيح مناسبتة لموقف العزاء) :

مَسِدِ كَتْ^(١) عِلَّةٌ بِمَوْرُودِ أَكْرَمَ مِنْ تَغْلِبَ بْنِ دَاوُودِ
يَأْنَفُ مِنْ مِيتَةِ الْفِرَاشِ . وَقَدْ حَلَّ بِهِ أَصْلِدُ الْمَوَاعِيدِ
وَمَثَلُهُ أَنْكَرَ الْمَمَاتِ عَلَى غَيْرِ سُرُوجِ السَّوَابِحِ الْقُودِ^(٢)
بَعْدَ عِثَارِ الْقَنَا بِلَبَّتِيهِ وَضَرْبِهِ أَرْوَسَ الصَّنَادِيدِ
وَحَوْضِهِ غَمَرٌ كُلُّ مَهْلَكَةٍ لِدَمْرِ^(٣) فِيهَا فَوَادُ رِعْدِيدِ
فَإِنْ صَبَرْنَا فَإِنَّا صُـبْرُ وَإِنْ بَكَيْنَا فَمَسِيرُ مَرْدُودِ^(٤)

(٤٠) وقوله في الغزل :

خَوْدُ جَمَتْ بَيْنِي وَبَيْنَ عَوَاذِلِي حَرًّا ، وَغَادِرَتِ الْفَوَادِ وَطَيْسَا

(١) ما لازمت . (٢) الطوال (المفرد : قيدود) . (٣) للشجاع .

(٤) أى : فان البكاء غير راجع علينا باللوم .

بِمِصْنَاءٍ يَمْنَعُهَا تَكَلُّمٌ ^(١) دَلَّهَا تَيْبَهَا ، وَيَمْنَعُهَا الْحَيَاءُ كَرِيمًا ^(٢)
لَمَّا وَجَدْتُ دَوَاءَ دَائِي عِنْدَهَا هَانَتْ عَلَيَّ صِفَاتُ جَالِينُوسَا
مَنْعَةً ، مَنْعَةً ، رَدَّاحٌ ^(٣) يُكَافُّ لَفْظَهَا الطَّيْرَ الْوَقُوعَا
تُرْفَعُ ثَوْبَهَا الْأَرْدَافُ عَنْهَا فَيُبْقَى مِنْ وَشَاحِيهَا شَسُوعَا ^(٤)
إِذَا مَسَتْ رَأَيْتَ لَهَا ارْتِجَاجًا لَهُ ^(٥) لَوْلَا سَوَاعِدُهَا - زُوعَا ^(٦)
تَأْلُمُ دَرَزَةٍ ^(٧) ، وَالْمَرَزُ كَيْنٌ كَمَا تَتَأْلَمُ الْمَضْبُ الْحَنِيمَا ^(٨)
فِرَاعَاهَا عَدُوًّا دُمْلَجِيهَا يَطْلُنُ ضَجِيجُهَا الزُّنْدَ الضَّجِيجَا
كَأَنَّ نِقَابَهَا غَيْمٌ رَقِيقٌ يُضِيئُ بِمَنْعِهِ الْبَدْرَ الطَّلُوعَا

وإذا كان هذا نصيب الغزل والرثاء من عاطفته فتصيب غيرها أضعف وأقل . فلا عجب أن سمعناه يمدح عبد الواحد بن العباس الكاتب بشعر لا يوصف إلا بأنه مجرد ألفاظ مرصوفة مimte يقول :

.....

الْحَازِمَ الْيَقْظَ الْأَغْرَ الْعَالِمَ الْفَطِنَ الْأَلَدَّ الْأُرْيَحِيَّ الْأَرُوعَا
الْكَاتِبَ اللَّبِقَ الْخَطِيبَ الْوَهِبَ النَّدُسَ ^(٩) اللَّيْلِيَّ الْهَبْزَرِيَّ ^(١٠) الْمِصْقَعَا ^(١١)

(٢٠١) المراد : أن تتكلم ، وأن تمس لحذفت « أن » وبقي عملها في الفعلين على مذهب الكوفيين ، ومنهم المتنبي .

(٣) ضخمة العجيزة . (٤) بعيدا . (٥) لونها .

(٦) صفة لارتجاج ؛ أى : ارتجاج يزرع الثوب .

(٧) الدرز : موضع الحياطة المكفوفة ، والمراد : تألم من مكان الحياطة إذا لمس جسمها . (٨) المحكم المتقن . (٩) الفهامة .

(١٠) السيد الكريم . (١١) الفصيح .

وبمثلته يمدح سيف الدولة :

أُحِبُّكَ يَا شَمْسَ الزَّمَانِ ، وَبَدْرَهُ وَإِنْ لَامَنِي فِيكَ الشَّهَاءُ ، وَالْفَرَاقِدُ
وَذَلِكَ لِأَنَّ الْفَضْلَ عِنْدَكَ بَاهِرٌ وَلَيْسَ لِأَنَّ الْعَيْشَ عِنْدَكَ بَارِدٌ
فَإِنْ قَلِيلَ الْحُبِّ بِالْعَمَلِ صَالِحٌ وَإِنْ كَثِيرَ الْحُبِّ بِالْجَهْلِ فَاسِدٌ
وغير هذا كثير في موضوعاته الشعرية المختلفة . إلا ما لاهم طبيعته ،
وَأَمْسَ شَغَافَ قَلْبِهِ ، وَحُبَّ فُؤَادِهِ ؛ كَالطَّمَعِ فِي وَلَايَةٍ ، أَوِ التَّطَلُّعِ لِنُصِيْبَةٍ ،
أَوْ تَرْقُبِ هَبَّةٍ جَزِيلَةٍ ، أَوْ وَصْفِ حَرْبٍ طَاحِنَةٍ ، أَوْ إِظْهَارِ نَقْمَةٍ عَلَى حَاسِدٍ ،
أَوِ التَّغَضُّبِ عَلَى الدُّنْيَا الَّتِي لَا تَحَقِّقُ كِبَارَ مَطَامِعِهِ ، أَوْ مَا يَشْبَهُ هَذَا ؛ مِنْ كُلِّ
مَا هُوَ إِلَى الْمُتَغَنِّمِ أَذْنَى ، أَوْ إِلَى الْقُوَّةِ وَالْعَنْفِ أَقْرَبَ .

أما في غير هذه الموضوعات فلا ترى العاطفة الرقيقة المزهفة التي تشارك
— بحق — في السراء والضراء ، وتستجيب للأحداث ؛ خيرها ، وشرها ،
وتتَّظَرُّ عَلَى صَفْحَتِهَا صُورَ الْأَنْفِعَالَاتِ وَاضِحَةً صَادِقَةً . نَحْمُ لَا نَرَاهَا فِي كَثِيرٍ
مِنْ شِعْرِ الْمُتَنَبِّي « وَإِنْ وَجَدْتُ »^(١) زَاحَتَهَا الصَّنِيعَةَ ، وَكَانَ لِلتَّفَكُّيرِ الْعَقْلِيِّ
نُصَيْبٌ وَافِرٌ بِجَانِبِهَا ؛ فَلَا تَظْهَرُ فِي الشَّعْرِ تِلْكَ الرُّوعَةُ الَّتِي تَوْثِّرُ دَفْعَةً وَاحِدَةً
فِي الْمَوَاطِفِ قَبْلَ أَنْ يَسْتَيْقِظَ الْعَقْلُ ، وَيَفْكُرَ ، وَتَفْعَلَ فِي الْقَلْبِ فَعْلَهَا قَبْضًا
وَبَسْطًا ؛ حَتَّى تَدْعَاهُ وَهُوَ كَالْمُهَيَّوَسِّ ؛ يَثْبُثُ فِي قَفْصِهِ حَيْرَانٌ مُضْطَرِبًا .

أَجَادَ أَبُو الطَّيِّبِ فِي أَبْوَابِ شَتَّى مِنَ الشَّعْرِ ، وَانْفَرَدَ بِغَنُونِ قَلْبٍ أَنْ
يَزَاحِمَ فِيهَا مَزَاحِمَ . وَاسْكَنَهُ فِي بَابِ الْحَسَّاسِيَةِ النَّفْسِيَةِ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُعْطِيَنَا
مِثْلَ مَا أَعْطَانَا فِي الْأَبْوَابِ الْأُخْرَى . وَالسَّبَبُ فِي احْتِجَابِ الْحَسَّاسِيَةِ عَنْ

(١) مَا يَأْتِي مِنْ كِتَابِ الْمُتَنَبِّي : لِكَمَالِ حُلِيِّ بَيْتِهِ ١٨٥ باختصار .

شاعرنا ، ونفورها منه — أن المصادفات لم ترم به في المواقف التي تبحث على إيقاظ هذه الروح ؛ حتى كاد طعمه يتعجبر ، ولا يتقبل التأثير ؛ لكي يستطيع أن يؤديها في شعره بنفس القوة التي اندفعت بها إلى قلبه . ويظهر أنه اعترف بهذا الجود حين قال : —

أصخرة أنا ؟ مَالِي لَا تَفَيِّرُنِي هَذِي الْمُدَامُ ، وَلَا هَذِي الْأَغَارِيدُ ؟
هذه أشعاره في الفزل والرثاء مثلا — والحساسية في هذين البابين أظهر فيهما من غيرها — لا نجد روحه الشعرية أو عواطفه فيهما إلا ضعيفة ، متكلفة ، نافرة ، مستعصية . ولولا قوة تفكير الشاعر ، وإتقان صنعه ومهارته في التأليف ما بقي لكثير من أشعاره في هذين الفنون رونق ، ولا ديباجة ؛ إذ نراه في الموضع العاطفي يخاطب العقل المفكر ؛ فيغيب عنه الشعر الوجداني .

قدّمنا أن وجدانه لا يهيج إلا في مواضع معلومة . ولكل شاعر ما يهيج وجدانه . قال عبد الملك بن مروان لأحد الشعراء : هل تقول الآن شعرا ؟ قال : ما أشرب ولا أطرب ولا أغضب ؛ ولست أقول الشعر إلا بوحدة من هذه . وشاعرنا لا يتحرك للشرب ، ولا للنساء ، ولا يكاد يعرف الحب ، ولا يحن إلى الأوطان النائية ، ولا يبكي على عزيز مغي . ولكنه يعرف فنونا أخرى ؛ إنه كالوحش الضاري إذا أغضبه . أغضبه إن شئت ؛ ثم انظر إليه كيف يجيد القول ؟ أخبرته بالحرمين ؛ ثم دعه يشعر : أخبر عنه المطاء ؛ ثم استمع لشكواه ، عذبه الولاية ، وتفاقل عنه قليلا ؛ ثم اتركه يتلهب غيظا على الزمن ، وانظر إليه وقد تولته الكتابة ، وأخذت عليه مسالكه ؛ فيزهد

في الدنيا ، ثم لا يلبث أن يبرق له بارق أمل ، فيفيض في الاستعطاف ،
ثم يستريِب في الوعد ؛ فيصحب النقم صبًّا . . . » .

* * *

إلى هنا ينتهى القول في بعض عيوب المتنبي المعنوية . ومن الخُف أن ننكر
طرافة معانيه ، وغزارتها في أكثر شعره ، ولعب الخيال بها . بل إنه بالغ
في هذه الأوصاف ؛ فوقع فيما يقع فيه المترفون المتكلفون ؛ خفاء في المعنى
وغموض في الفكرة ، ومعاظلة في الألفاظ ومدلولاتها . وكثير من الأمثلة
المُعتمة التي سردها إمامنا داخلها الفساد من هذه الفاحشية ، ومن الإفراط
في تدقيق المعاني ، واستقصائها أحياناً . متناسياً (أن الغاية في تدقيق المعاني
سبيل إلى تسميتها ، والتعمية لُكنة . ومن أراد الإبانة في مدح ، أو غزل ،
أرصفة شيء ... فأتى بأغلاق — فقد دل على عجزه عن الإبانة ، وقصوره
عن الإفصاح^(١) .

ويظهر أن المتنبي نفسه كان يدرك عيبه ، ويحس ما يدور حول معانيه
من تشعب الآراء ، وتضارب المذاهب ، وتنازع الأئمة في كشف خباياها
إذ يقول :

أَنَامُ مِلَّ جُفُونِي عَنْ سُورِدِهَا وَيَسْهَرُ الْخَلْقُ جَرَّأَهَا ، وَيَخْتَصِمُ
وليس بشهر ما يسهر الخلق في تفهمه ، ويختصم الأئمة في إدراك مراميه .
ومما يتصل بعيوبه المعنوية مبالغاته المرفية التي تتجاوز حد الاعتدال
إلى حيز المحال ؛ فتصير إلى الهدر واللفو أقرب ، وتنفر النفس منها ومن الشعر

الذى تَضَمَّنَهَا . وتتشكك في حقائقه الأخرى ، وتستقبل مسوده الخيالية وجماله
الفنى بالبرود ؛ بل الجود . وعسى ألا يختلط الأمر علينا بين هذه المبالغات
البعيضة وقول الأدباء : (خير الشعر أ كذبه) ؛ فإنهم لم يقولوا هذا ^(١) وهم
يريدون كلاماً غفلاً ساذجاً ؛ يكذب فيه صاحبه ، ويُفَرِّط ؛ كأن يصف
الحارس بأوصاف الخليفة ، ويقول للبائس المسكين : إنك أمير المراقين .
ولكن مافيه صنعة يتعمَّل لها ، وتدقيق فى المعانى يحتاج إلى فطنة لطيفة ، وفهم
ثاقب... فلا تجرى مقاييس الشعر على حدود المنطق ، وتأخذ نفوسنا فيه بالقول
الحقيق ، حتى لا ندعى إلا ما يقوم عليه من العقل برهان يقطع به ، ويُأجِبُ
إلى موجبهِ ؛ مع أن الشعر يكفى فيه التخيل ، والذهاب بالنفس إلى ما ترتاح
إليه من التعليل . ولا شك أن من قال :

كَلَّفْتُمُونَا حُدُودَ مَنْطِقِكُمْ وَالشَّعْرُ يَكْفَى عَنْ صِدْقِهِ كَذِبُهُ
إلى هذا النحو قصْد ، وإياه عمْد ؛ إذ يريد أن يُرِيدَ بالكذب إعطاء
المدوح حظاً من الفضل والسؤدد ليس له ، ويُبلِغه بالصفة حظاً من التظيم
يجاوز به من الإكثار محله ؛ لأن هذا الكذب لا يبين بالحجج المنطقية ،
والقوانين العقلية ؛ وإنما يُكَذَّبُ فيه القائل بالرجوع إلى حال المذكور ،
واختباره فيما وُصِفَ به ، والكشف عن قدره وخسته ، ورفعته أو ضعفته ،
ومعرفة محله ومرتبته .

والمتنبى من هذه المبالغات المقيتة أوفر نصيب ، ولا يكاد أحد يسبقه

فيها . واهل السبب في ذلك أنه يتكسب بشهره ، ويتخذ مَطِيَّةً لِمَآرِبِهِ
ومطامعه التي فاق بها نظراءه ، ولم يقف عند حد كما وقفوا ؛ فليس بدعا أن
يفوقهم في المبالغة كذلك ؛ ليرضى الممدوحين ، ويصل إلى ما يريد . استمع إليه
يمدح ابن العميد فيقول ^(١) :

خَلَقَ اللَّهُ أَفْصَحَ النَّاسِ طَرًّا فِي بِلَادِ أَعْرَابِهِ أَكْرَادُهُ
وَأَحَقَّ الْغُيُوثِ نَفْسًا بِحَمْدِهِ فِي زَمَانٍ كُلِّ نَفُوسٍ جَرَادُهُ
مِثْلَ مَا أَهْدَتْ النُّبُوءَةَ فِي الْعَالَمِ ، وَالْبَعْثَ ؛ حِينَ شَاعَ فَسَادُهُ
زَانَتْ اللَّيْلَ غُرَّةُ الْقَمَرِ الطَّا لَعِ فِيهِ ، وَلَمْ يَشْنُهُ سَوَادُهُ
كَثُرَ الْفِكْرُ ! كَيْفَ تُهْدَى كَمَا أَهْدَتْ إِلَى رَبِّهَا الرَّئِيسُ عِبَادُهُ ^(٢) ؟
وَالَّذِي عِنْدَنَا مِنَ الْمَالِ وَالْخَيْلِ فَهُنَا هَبَانُهُ ، وَفِيَادُهُ

(١) بل استمع إليه حين يمدح ابن المبارك الأنطاكي فيقول :

مَنْ يَزُرُّهُ يَزُرُّ سَلِيمَانَ فِي السَّمَاكِ ؛ جَلَالًا ، وَيُوسُفًا فِي الْجَمَالِ
وَرَبِيهًا يُضَاحِكُ الْغَيْثُ فِيهِ زَهَرَ الشُّكْرُ مِنْ رِيَاضِ الْمَعَالِي
أَكْبَرُ الْعَيْبِ عِنْدَهُ الْبَخْلُ ، وَالطَّمَنُ عَلَيْهِ التَّشْبِيهُ بِالرُّثْبَالِ
فَخَذَا مَاءَ رِجْلِهِ ، وَانْضَحَا فِي السَّمْدَنِ ؛ تَأْمَنُ بَوَاقِ الزَّلْزَالِ

(١) أبو الفضل محمد بن الحسين العميد : فارسي الأصل ، ولكنه نبغ في الأدب ،
وعلم اللغة ؛ حتى صار أشهر أديب في عصره . وقد زاره المتنبي بأرجان (من
بلاد فارس حيث يتولى الوزارة لركن الدولة البويهى) ومدحه ؛ فأغدق عليه .
وكانت وفاته سنة ٣٦٠ هـ .

(٢) تأمل هذا البيت خاصة . ومعناه كما قال العكبرى : أ كثرْتُ الفكرُ ؛ فكيف أهدي
إليك شيئاً كما تهدي العميد إلى ربهها ؟ .

وَأَمْسَخَا نُوْبَهُ الْبَقِيرَ^(١) عَلَى دَا ثِيكَا ؛ تَشْفِيَا مِنْ الْأَعْلَالِ
 مَاثِمًا مِنْ نَوَالِهِ الشَّرْقَ وَالْمَغْرِبَ ، وَمِنْ خَوْفِهِ قُلُوبَ الرِّجَالِ
 قَابِضًا كَفَّهُ الْيَمِينَ عَلَى الدَّنَسِيَا ، وَلَوْ شَاءَ حَازَهَا بِالشَّمَالِ
 نَفْسُهُ جَيْشُهُ ، وَتَدْبِيرُهُ الْمَصِيرُ ، وَالْحَظُّ الْغَائِبُ وَالْعَوْدُ إِلَى
 رَجُلٍ طِينُهُ مِنَ الْخَنْبَرِ الْوَرْدِ ، وَطِينُ الْمِهَادِ مِنْ صَلْصَالِ
 قَبَقِيَّاتٍ طِينُهُ لَاقَتْ الْمَاءَ ، فَصَارَتْ عُذُوبَةً فِي الزَّلَالِ
 وَبَقَايَا وَقَارِهِ عَافَتْ النَّسَا ، فَصَارَتْ رَكَاةً فِي الْجِبَالِ
 أَنْتَ طَوْرًا أَمْرًا مِنْ نَاقِعِ السَّمِّ وَطَوْرًا أَحْلَى مِنَ السَّلْسَالِ
 إِنَّمَا النَّاسُ حَيْثُ أَنْتَ ؛ وَمَا النَّاسُ فِي مَوْضِعٍ مِنْكَ خَالِ

(٢) وَقَوْلُهُ فِي مَدْحِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ : —

تَشْبِيهُ جُودِكَ بِالْأَمْطَارِ غَادِيَةً جُودٌ أَكْفَكَ ثَانٌ ؛ نَالَهُ الْمَطَرُ^(٢)
 تَكَسَّبَ الشَّمْسُ مِنْكَ النُّورَ طَالِمَةً كَمَا تَكَسَّبَ مِنْهَا نُورُهُ الْقَمَرُ

(٣) وَقَوْلُهُ فِي مَدْحِ أَمِيرِ حِمصَ : —

تَمَضَى الْمَوَاقِبُ ، وَالْأَبْصَارُ شَاخِصَةً مِنْهَا إِلَى الْمَلِكِ الْمَيْمُونِ طَائِرُهُ
 قَدْ حَرَّنَ فِي بَشَرٍ ؛ فِي تَاجِهِ قَمَرٌ فِي دِرْعِهِ أَسَدٌ ، تَدْعَى أَظَافِرُهُ
 حُلُوَ خَالِئَتِهِ ، شَوْسٍ^(٣) حَقَائِقُهُ^(٤) تُحْكَمُ الْحَصَى قَبْلَ أَنْ تُحْكَمَ مَآثِرُهُ

(١) الَّذِي لَا كَمْلَهُ . (٢) لِأَنَّكَ رَضِيتَ أَنْ يَتَشَبَّهَ بِكَ .

(٣) جَمْعُ : أَشْوَسَ ؛ وَهُوَ : الشَّيْءُ الْبَعِيدُ الَّذِي لَا يُنَالُ .

(٤) جَمْعُ : حَقِيقَةٌ ؛ وَهِيَ : الشَّيْءُ الَّذِي يَجِبُ عَلَى الْفَرَسِ أَنْ يَصُونَهُ وَيَحْرُسَهُ .

تَضِيقُ عَنْ جَيْشِهِ الشُّنْيَا ؛ فَلَوْ رَحُبَتْ كَصَدْرِهِ لَمْ تَبِنْ فِيهَا عَسَاكِرُهُ
إِذَا تَغَلَّغَلَ فَسَكَّرُ الْمَرْءِ فِي طَرَفٍ مِنْ تَجْدِيدِهِ غَرِقَتْ فِيهِ خَوَاطِرُهُ
مَنْ قَالَ : لَسْتُ بِمُخِيرِ النَّاسِ كُلِّهِمْ . فَيُجَوِّدُهُ بِكَ عِنْدَ النَّاسِ عَازِرُهُ

(٤) وقوله في مدح محمد بن زريق الطرسوسي : —

لَوْ كَانَ ذُو الْفَرَنْجِينَ أَتَمَلَ رَأْيَهُ (١) لَمَّا أَتَى الظُّلُمَاتِ - صِرْنَ شُمُوسًا
أَوْ كَانَ صَادَفَ رَأْسَ عَازِرٍ (٢) سَيْفُهُ فِي يَوْمٍ مَهْرَكَةٍ - لَأَعْيَا عَيْسَى
أَوْ كَانَ لُجُجَ الْبَحْرِ مِثْلَ بَيْتِهِ مَا انْشَقَّ ؛ حَتَّى جَارَ فِيهِ سُوسَى
أَوْ كَانَ لِلنِّيرَانِ ضَوْءٌ جَبِينُهُ عُبِدَتْ ؛ فَصَارَ الْعَالَمُونَ كَجُوسَا

(٥) وقوله في الغزل : —

فَذُقْتُ مَاءَ حَيَاةٍ مِنْ مُقْبَلِيهَا لَوْ صَابَ رُبًّا لَا أُخَيَّسَافَ الْأَمَمِ
(٦) وَقَالَ يَصِفُ سَيْفَ الْمَدُوحِ ، وَمَا شَرِبَهُ السَّيْفُ مِنْ دَمِ الْأَعْدَاءِ : —
رَبَّانَ ؛ لَوْ قَذَفَ الَّذِي أُسْقِيَتْهُ لَجَرَّتْ مِنْ الْمُهَيَّجَاتِ (٣) بَحْرٌ مَزِيدٌ

(٧) وَقَوَاهُ يَصِفُ نَفْسَهُ بِالنُّحُولِ ، وَيَخَاطِبُ حَبِيبَتَهُ : —

حُلْتُ دُونَ الْمَزَارِ ؛ فَالْيَوْمَ لَوْ زُرْتُ لِحَالِ النُّحُولِ دُونَ الْعِنَاقِ
(٨) وَمِثْلُهُ : —

أَبْلَى الْهَوَى أَسْفَايَوْمَ النَّوَى بَدَلِي وَفَرَّقَ الرَّجْرُ بَيْنَ الْجَنِّ وَالْوَسَنِ

(١) أى : عمل برأى المدوح . (٢) ميت أحياء سيدنا عيسى .

(٣) أى : من دم المهج .

رُوحٌ تَرَدَّدُ فِي مِثْلِ الْخِلَالِ ؛ إِذَا أَطَارَتْ الرِّيحُ عِنْدَ الثَّوْبِ لَمْ يَبِينِ
كَفَى بِجَسَمِي لَمْخُولًا أَنِّي رَجُلٌ أَوْ لَا تَخَاطِبُنِي إِلَّاكَ لَمْ تَرَنِي

(٩) وقوله في مدح سعيد بن عبد الله الكلابي ، ووصف أول أعدائه المهزومة
من قبيلة تميم : —

وَضَاقَتْ الْأَرْضُ ؛ حَتَّى كَانَ هَارِبُهُمْ إِذَا رَأَى غَيْرَ شَيْءٍ طَائَهُ رَجُلًا
فَبَعْدَهُ ... وَإِلَى ذَا الْيَوْمِ لَوْ رَكَضَتْ بِالْخِيلِ فِي لَهَوَاتِ الطُّفْلِ مَا سَعَا (١)

(١٠) وفي مدح سيف الدولة : —

إِنْ كَانَ مِثْلَكَ كَانَ أَوْ هُوَ كَأَنْ فَبَرَزَتْ حِينُودٌ مِنَ الْإِسْلَامِ

(١١) وفي مدح أبي علي هارون الكاتب : —

لَمْ تَحْكُ نَائِلَاتِ السَّحَابِ ؛ وَإِنَّمَا نُحِثُّ بِهِ ؛ فَصَبِيحَتِهَا الرُّسُودُ (٢)
لَمْ تَلَقْ هَذَا الْوَجْهَ شَمْسُ نَهَارِنَا إِلَّا بِوَجْهِ لَيْسَ فِيهِ حَيَاءٌ

(١٢) وفي مدح محمد الأوسى (من بني أوس بن معن) : —

لَمْ يَخْلُقِ الرَّحْمَنُ مِثْلَ مُحَمَّدٍ أَحَدًا . وَظَنِّي أَنَّهُ لَا يَخْلُقُ

(١٣) وفي بدر بن عمار : —

لَوْ كَانَ عِلْمُكَ بِالْإِلَهِ مُتَسِّمًا فِي النَّاسِ مَا بَعَثَ إِلَهُ رُسُولًا
لَوْ كَانَ لَفُظُكَ فِيهِمْ مَا أَنْزَلَ السَّقَرُ آتَانَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ

(١) أى : بعد اليوم الذى انهزم فيك أعداؤك وإلى يومنا هذا — لو ركضت خيلهم

في خلق صبي ماسعل ، لأنه لا يشعر بها ، ولا براكيها ؛ لقلتهم وذلتهم .

(٢) عرق الحمى .

(١٤) ويقول عن نحوه وهزاله :

ولو قلم أقيت في شق رأسه من السقم ما غيرت من خط كاتب^(١)

(١٥) وقوله : —

يفنى الكلام ولا يحيط بوصفكم أحيط ما يفنى بما لا ينفد ؟

(١٦) وقوله : —

فقل كفك تهمة ، وأنن وأبلها إذا كتفيت ؛ وإلا أغرق البلدا

(١٧) وقوله :

فلم تلق ابن إبراهيم عني^(٢) وفيها قوت يوم للقراد^(٣)

(١٨) وقوله في مدح محمد بن سيار : —

يكاذ يصيب الشئ من قبل رميد^(٤) ويكذبه في السقم المرسل — الرد^(٥)

وينفذه في العقد وهو مضيق سن الشرة السوداء والآيل مسود^(٥)

وفي هذه المبالغة وأشباهها يقول ابن فورجة : ليس هذا أول محال ادعاء الممدوح ؛ وما هو إلا هوس عراض له فقذفه .

(١٩) ويدعو على الأبل المرتحلة بأحبابه فيقول : —

لا سرت من إبل لو أنى فوقها لمت حرارة مدمعى سماتها

(١) يقول : بلغ من سقمي ونحولي أننى لو وضعت في داخل الشق الذى برأس القلم (بجانب السن ؛ حيث يجرى الحبر) وكتب الكاتب به — ما أثر هذا في القلم أو الكتابة .

(٢) ناقتى الصلبة . (٣) قمل الحيوانات .

(٤) أى يمكنه إرجاع السهم المرسل ؛ لأن السهم يطيعه .

(٥) أى : ينفذ سهمه في العقدة الضيقة بالشرة السوداء ، في الليل المظلم .

(٢٠) وقال يمدح فارساً : —

لو مَرَّ رَكْضٌ فِي سَطُورِ كِتَابِي أَخْصَى بِحَافِرِ مَهْرِهِ مِجَاسِيهَا

(٢١) فِي فُؤَادِ الْحُبِّ نَارُ جَوِّيْ أَحْرَقُ نَارَ الْجَحِيمِ أَبْرَدَهَا

(٢٢) يَا أَكْرَمَ الْأَكْرَمِينَ ، يَا مَالِكَ الْأَمْلاكَ طَرًّا ، يَا أَعْيَدَ الْأَعْيَدِ

(٢٣) أَلْبَابِنَا بِجَمَالِهِ مَبْهُورَةٌ وَسَحَابِنَا بِقُوَاهِ مَنْفُوشٌ

(٢٤) لَوْ فَرَّقَ الْكَرِيمَ الْمَرْفُوقَ مَالَهُ فِي النَّاسِ لَمْ يَكْ فِي الزَّمَانِ شَيْخٌ

(٢٥) إِنْ كُنْتَ ظَاعِنَةً فَإِنْ مَدَامِي تَكْفِي مَزَادَ كَيْ ، وَتُرْوَى الْعِيَا

(٢٦) وَفِي مَدْحِ كَافُورٍ ، وَتَهْنِئَةِ بَدَارٍ جَدِيدَةٍ : —

أَنْتَ أَعْلَى مَحَلَّةٍ أَنْ تُهَيَّيْ بِمَكَانٍ فِي الْأَرْضِ ، أَوْفَى السَّمَاءِ

وَلَكَ النَّاسُ ، وَالْبِلَادُ ، وَمَا يَسْرَحُ بَيْنَ الْغُبَرَاءِ وَالْخَضِرَاءِ

(٢٧) وَفِي مَدْحِهِ (وَهُوَ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ ؛ لَا نَسَبَ لَهُ وَلَا حَسَبَ) : —

وَأَيُّ قَبِيلٍ يَسْتَحْقُّكَ قَدْرُهُ مَعْدُ بْنُ عَدْنَانَ فِدَاكَ ، وَيَعْتَرِبُ

(٢٨) وَقَالَ فِي رُبْعِ الْأَحْبَابِ : —

سَقَيْتُهُ عِبْرَاتٍ ؛ ظَنَّمَا سَطَرًا سَوَائِلَ مِنْ جُفُونٍ ؛ ظَنَّمَا سُجُبًا

(٢٩) وَقَوْلُهُ فِي مَدْحِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ :

إِنْ كَانَ قَدْ مَلَكَ الْقُلُوبَ فَإِنَّهُ مَلَكَ الزَّمَانَ ؛ بِأَرْضِهِ وَسَمَائِهِ

الشَّمْسُ مِنْ حُسَادِهِ ، وَالنَّصْرُ مِنْ قُرْنَائِهِ ، وَالسَّيْفُ مِنْ أَسْمَائِهِ

أَيُّ الثَّلَاثَةِ مِنْ ثَلَاثٍ خِلَالِهِ مِنْ حُسْبِهِ ، وَإِبَائِهِ ، وَمَضَائِهِ

مَضَتْ الدُّهُورُ وَمَا أَتَى ؛ فَسَجَزَنْ عَنْ نَظَرَائِهِ وَلَقَدْ أَتَى ؛ فَسَجَزَنْ عَنْ نَظَرَائِهِ

(٣٠) وفي مدح المغيث بن علي (وقد جاء اسمه على لسان امرأة فقال) :

جاءت^(١) بأشجع من يسنى ، وأسمع من
لو حلَّ خاطره في مقعد يسنى
أعطى ، وأبلغ من أعلَى ، ومن كتباً
أو جاهل لنعنا ، أو أخرس خطباً

.....

تحلوا مذاقته ، حتى إذا غضبنا
سالت ، فلو قطرت في البحر^(٢) ما شرباً

(٣١) وفي مدح علي بن محمد التميمي :

قنا ؛ فالاستد تفرغ من قواه
أشد من الرياح الوج بطشاً
ورق ؛ فنحن نفرغ أن يدوبا
وأشرع في الندى منها هبوا

(٣٢) وفي مدح طاهر بن الحسين الملقب : —

وحق له أن يسبق الناس جالسا
ويحذى عرائن الملوك ؛ وإنما
ويدرك ما لم يدركوا غير طالب
لمن قدميه في أجل المراتب

* * *

تلك أمثلة من شنيع مبالغاته ، وما أكثرها . وقد يكون عذره فيها أنها الوسيلة الناجعة لاستنزاف المنح ، والعطايا ، وإغراء الملوك والأمراء وأشباههم من الأغنياء بالبذل والهبات ؛ لميائهم — إذ ذاك — إلى المديح المسترف ، وحب الثناء المستفيض . وهو هوئى يخالج نفوس كثير من الأمم العربية قديمها وحديثها ؛ لأسباب تاريخية .

على أن له مبالغات أخرى لم تبلغ في القبح ما بلغت هذه ؛ فقد يلابسها ما يجملها خفيفة الوقع ، مستظرفة الأثر ؛ (اقربها مما يجري على السنة الناس وخواطرهم ، أو : لاشتغالها على ما يدل على التشبيه ، والمقاربة ، والبعد عن الحقيقة) كقوله :

- (١) وَعَدَلْتُ أَهْلَ الْعِشْقِ حَتَّى ذُقْتُهُ
فَعَجِبْتُ كَيْفَ مَوْتُ مَنْ لَا يَمُوتُ
(٢) لَوْ لَا مَفَارِقَةُ الْأَحْبَابِ مَا وَجَدْتُ
لَهَا الْمُنَايَا إِلَى أَرْوَاحِنَا سُبُلًا
(٣) هَامَ الْفُؤَادُ بِأَعْرَابِيَّةٍ سَكَنَتْ
بَيْتًا مِنَ الْقَلْبِ لَمْ تَعُدْ لَهُ طُغْيَاً^(١)
مُظْلَوْمَةُ الْفَدَى فِي تَشْبِيهِهِ غُثًى
مُظْلَوْمَةُ الرَّيِّقِ فِي تَشْبِيهِهِ خَسِرًا^(٢)
(٤) ذِكْرُ الْأَنَامِ لَنَا ؛ فَكَانَ قَصِيدَةً
كَانَتْ الْبَدِيعُ الْفَرْدَ مِنْ أَيْبَاتِهَا
(٥) يَجِدُ^(٣) الْأَحْمَامَ ، وَلَوْ كَوْنُ جَدِي لَا نَبْرَى
شَجَرُ الْأَرَاكِ مَعَ الْعَدَمِ يَنْوَحُ
(٦) كَيْفَ الرَّجَاءُ مِنَ الْخَطُوبِ تَخْلُصًا
مِنْ بَعْدِ مَا أَنْشَبَنِي فِيَّ مَخَالِبًا
أَوْحَدَنِي ، وَوَجَدَنِي حُزْنًا وَاحِدًا
مَتَنَاهِيًا ؛ فَجَعَلَنِي إِلَى صَاحِبِنَا
وَنَصَبَنِي غَرْخَ الرُّمَامَةِ ؛ تُصَيِّدُنِي
مَحْنٌ أَحَدٌ مِنَ الشُّيُوفِ مَضَارِبًا
(٧) رَعْدُ^(٤) الْفَوَارِسِ مِنْكَ فِي أَبْدَانِهَا
أَجْرَى مِنَ الْعَسَلَانِ^(٥) فِي قَنَوَاتِهَا
(٨) وَفِي الْغَزْلِ : —

- تَنَاهَى سَكُونُ الْحُسْنِ فِي حَرَكَاتِهَا
فَلَيْسَ لِرَأْيِ وَجْهَهَا لَمْ يَمُتْ عُدْرُ
(٩) مَلِكٌ تَصَوَّرَ كَيْفَ شَاءَ ؛ كَأَنَّمَا
يَجْرَى بِفَصْلِ قَضَائِهِ الْمَقْدُورُ

(١) الحبلى الذى تربط به الحيمة . (٢) عَسَلًا أبيض .

(٣) يحزن . (٤) جمع : رعدة ، وهى : الرعدة من خوف ونحوه .

(٥) الاضطراب .

(١٠) لَا كُلُّ سَمِيحٍ غَيْرُكَ الْيَوْمَ بَاطِلٌ وَكُلُّ مَدِيحٍ فِي سِوَاكَ مُضَيِّعٌ

* * *

ولا ندع الكلام على عيوب المتنبي قبل أن نردفها بعيب آخر ؛ هو : الضالة ، أو : التفاحة . فقد سبقت الإشارة إلى أن له ممانى غزيرة ، دسمة ؛ ترضى العقل ، وتشبع النفس . لكن إلى جانبها أخرى لادسم فيها ولا غذاء . تعرفها بامتنانها ، وابتذالها ، وأنها من البدائيه الأولية ، أو : بسطحيّتها ، والإسراف في الفاظها من غير حاجة . ومن أمثلتها :

(١) قوله في رثاء عبد تركي لسيف الدولة :

وإني وإن كان الدفين ^(١) حبيبته ^(٢) حبيبٌ إلى قلبي حبيبٌ حبيبي

(٢) وقوله في مدح محمد بن زريق :

أُبْقَى زُرَيْقٌ لِلشُّغُورِ مُحَمَّدًا أَبْقَى نَفِيسٌ لِلنَّفِيسِ نَفِيسًا

(٣) وقوله في مدح علي بن صالح الكاتب الدمشقي ، ووصف حساده بأنهم

يَقْضَمُونَ الْحَلِيدَ غِيظًا كَمَا يُقْضَمُ السُّكَّرُ :

تَقْضَمُ الْجَمْرَ وَالْحَدِيدَ الْأَعَادَى دُونَهُ ، قَضَمَ سُكَّرَ الْأَهْوَاِ

(٤) وقوله في مدح ابن العميد :

أَنْتَ الْوَحِيدُ إِذَا ارْتَكَبْتَ طَرِيقَةً فَمَنْ الرَّدِيفُ وَقَدْ رَكِبْتَ غَضَنَفَرًا؟

(٥) وقوله يخاطب سيف الدولة حين مرض :

وَجَسْمُكَ فَوْقَ هِمَّةٍ كُلِّ دَاءٍ فَتَرُبُّ أَقْلَهَا مِنْهُ عَجِيبٌ ^(٣)

(٦) وقوله لرجل نقل إليه ذما (وقد سبق البيت) :

أَنَا عَيْنُ الْمَسُودِ^(١) الْجَحْجَحِ^(٢) هَيَّجَنِي كَلَامُكُمْ بِالشَّيْخِ

(٧) وقوله في رثاء عمه عضد الدولة ، وقد ماتت بعيدة عنه في بلاد آخر

لَمْ دَرَّتِ الدُّنْيَا بِنَا عِنْدَهُ لَا سَتَحَيْتِ الْأَيَّامُ مِنْ عَمِّهِ
لَهَا تَحْسَبُ أَنَّ الْأَيَّامَ لَيْسَ لَدَيْهِ لَيْسَ مِنْ حِزْبِهِ

... ..

حَامِلًا أَنْ تَضُمَّتْ مِنْ هَلْ سَا تَحْمَلُ الْمَسَارَ^(٣) فِي كَتْمِهِ

يَدْخُلُ صَبْرُ الْمَرْءِ فِي مَدَامِهِ وَيَدْخُلُ الْإِشْفَاقُ فِي قَلْبِهِ

(٨) إِذَا كَانَ بَعْضُ النَّاسِ سَيِّئًا لِلدَّوْلَةِ فِي النَّاسِ بَوَاقَاتِهَا وَطَبُولُ

(٩) فَإِنْ قَلِيلَ الْحَسَبِ بِالْعَقْلِ صَالِحٌ وَإِنْ كَثِيرَ الْحَبِّ بِالْجَهْلِ فَاسِدٌ

(١٠) فَهُوَ كَالْأَمِيرِ ابْنِ بِنْتِ الْأَمِيرِ . أَوْ مَنْ كَاتَبَهُ وَالْجَسَدُودِ

(١١) تَهَلَّلَ قَبْلَ تَسْلِيمِي عَلَيْهِ وَأَتَى مَالَهُ قَبْلَ الْوَسْطَانِ

نَلُومُكَ يَا عَلِيُّ بِمُسِيرِ ذَنْبِ لَأَنَّكَ قَدْ زَرَيْتَ^(٤) عَلَى الْعِبَادِ

(١٢) فَتَقِيلُ^(٥) حُبُّ الْخَبِيرِ قَرِيحَ بِهِ وَمَقِيلُ غَيْظِ عَدُوِّهِ مَقْرُوحُ

(١٣) أَيْنَ الْهَبَاتِ الَّتِي يُفَرِّقُهَا عَلَى الزُّرَافَاتِ^(٦) وَالْمَوَاحِيدِ^(٧)

(١) السيد . (٢) السيد العظيم .

(٣) الذي سار حاملا إليه كتابا فيه خبر الوفاة .

(٤) عبت . والمراد : أنه أظهر عيبهم بأفعاله الجليّة .

(٥) مكان ومستقر . . . والمراد به : القاب . (٦) الجمادات .

(٧) جمع موحّد . وهو : الفرد .

(١٤) في وصف حوادث الأيام :

مَطَايَا لَا تَذِلُّ لِمَنْ عَلَيْهَا وَلَا يَبْقَى لَهَا أَحَدٌ رُكُوبًا

(١٥) وقوله يخاطب طهراً المملوك حين أشار إليه بمسك ، والأمير

الحسن بن طنج حاضراً :

الطَّيِّبُ ثَمًّا غَنِيَتْ عَنْهُ كَفَى بِقُرْبِ الْأَمِيرِ طِيْبًا

يَبْقَى لَكَ رَبُّنَا الْمَالِي كَأَيْكُمْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَا

(١٦) وقوله في مدح يار من عمار :

يَا بَدْرُ ، يَا بَرْقُ ، يَا غَمَامَةُ ، يَا لَيْثَ الشَّرَى ، يَا حَمَامُ ، يَا رَجُلُ

(١٧) وكلُّ طريقٍ أَمَامَ النَّقَى عَلَى قَدَرِ الرَّجُلِ فِيهِ أَلْطَفَا

(١٨) فَإِنَّهُمْ قَدْ أَكْثَرُوا الْحِجَابَا وَاسْتَوْقَفُوا لِرَدَّنَا الْبَسْرَابَا

(١٩) لَا يَحْزَنُ اللَّهُ الْأَمِيرُ ؛ فَإِنِّي لَأَخْذُ مِنْ حَالَاتِهِ بِفَصِيْبِ

(٢٠) يَدَا الْعَالِي ، وَمَعْدِنَ الْأَدَبِ سَيِّدَنَا ، وَابْنَ سَيِّدِ الْعَرَبِ

* * *

تلك أبيات متفرقات وإن شئت قصائد كاملة فاقراً قصيدته التي مطلعها :

هَذَا الْيَوْمَ بَعْدَ غَدٍ أَرْجُ وَنَارٌ فِي الْمَدُونِ لَهَا أَجِيْبُ

والتي مطلعها :

أَمْسَ ارْجِيَارَكَ فِي الدُّجَى الرِّقَابِ إِذْ حَيْثُ كُنْتَ مِنَ الظَّلَامِ ضِيَاءِ

والتي مطلعها :

أَلَا كُلُّ مَا شِيقَةِ الْخَيْرِ لِي فِدَا كُلِّ مَا شِيقَةِ الْهَيْدَبَى

والتي مطلعها :

يَا أُخْتَ خَيْرِ أَخٍ ، يَا بِنْتَ خَيْرِ أَبٍ كَفَايَةَ بِهِمَا عَنِ أَشْرَفِ النِّسَبِ

ومن عيوبه إلحاحه في موضوعاته الشعرية — من غير تجديد وحسن
نصرف — على المعاني التي سلكها الشعراء وغيرهم في عصره ، وقبل عصره .
ولا تزال مُرَدِّدة حتى يومنا ؛ في المدح ، والفزل ، والرثاء ، وغيرها مما
رأينا بعض أمثلة فيما سبق ؛ فالممدوح كريم كالبحر ، فيأض اليدين كأنفيث ،
على المكانة كالثريا ... والحبوبة مُشرقة كالقمر ، فرعاه كالقصب ، صرتجة
الأرداف كالكتيب ، قتالة الأجفان كالسهم والميت منفرد بالحسن ،
تحسد السماء عليه الأرض وأشباه هذا مما يجري على ألسنة الجمهرة
الغالبة من الأدباء وغيرهم حتى عصرنا ، ويذيع حتى صار قولاً مُكرَّراً ،
وحديثاً مُعاداً ؛ لا جدّة فيه ولا طرافة . وقد يكون للشاعر المذرف في بعضه ؛
عما لا غناء عنه ، ولا منجاة منه . ولكن ليس له عذر في بعض آخر يستطاع
أن يتناوله بالتجديد الحسن ، أو التوليد الحمود كالذي فعله أبو تمام وابن الرومي
وأمثالهما (وسنبين هذا تفصيلاً في مكانه عند الكلام على الموضوعات
الشعرية) .

* * *

ثم ننتقل للكلام على نصيب المتنبّي من تَوْفِيَةِ المعاني ، واستيعابها الحمود ،
واشتمالها على ناسية منطقية مقبولة ؛ ترضى الفكر ، ولا تغطي على العاطفة
والخصائص الشعرية .

فأما نصيبه من التَوْفِيَةِ والاستيعاب فنصيب الجمهرة الغالبة من شعراء العربية
— وإن تفاوتوا في ذلك^(١) — ؛ يتناولون المعاني بِقَدَرٍ ، ويشخفون منها ،

(١) ولعل من أحسنهم في ذلك : ابن الرومي . وخير شاهد على هذا قصيدته المزية
في عتاب أبي القاسم التوزي . وقصيدته العينية في الصيد والطرْد .

ولا يجمعون أطرافها وما قد يتصل بها اتصالاً وثيقاً . وكل معاني المتنبي من هذا النوع الأبتري . اسكنه في الهجاء ، ووصف الطرب ، والثورة على الأيام والحساد — أقلّ تفصيلاً .

أى توفيقية محدودة في قوله متغزلاً ؟ :

قد علمَ البينُ مناَّ البينَ أحناناً تدعى ، وألفَ في ذا القلبِ أحزاناً
أملتُ ساعةً ساروا كشفَ معصمها ليملأ الحىَّ دونَ السَّيرِ حيراناً
فأينَ ولَّههْ ، وذهوله ، وسهده ، وزهده في الطعام . والشرابِ ومُتَمِّعُ
الحياة ؟ وأينَ لهفته على متابعتها ، أو ترقب عودتها ورؤيتها ؟ وأمثال هذا
ما يتصل بما هو فيه ؟

وأين استيفاء المعانى ، بل أين إيفاء المعنى الواحد بما يتصل به حين يقول
في التهنئة بدار جديدة :

أحقُّ دارٍ بأنْ تُسمَى مُبارَكَةً دارٌ مُبارَكَةٌ الملائِكُ الذى فيها
وأجدرُ الدُّورِ أنْ تُسَمَّى بِسائِكِنِها دارٌ غداً الناسُ يُستَسقُونَ أهلِها

...

وحين يقول في وصف بطيخة من الدُّ ، فى غِشاءٍ من الخيزران ، عليها
قِلادة من اللؤلؤ :

وسوداءَ مَنْظُومٍ عليها لآلِى لها صورةُ البَطِيخِ وهى مِنَ الدُّ
كَأَنَّ بَقايا عَنبرٍ فوقَ رأسِها طُلُوعُ رِوَاعِ الشَّيْبِ فى الشَّعْرِ الجَمْدِ

وأما نصيبه من المناحى الفكرية المنطقية السائفة فسطاحى ضئيل .
وهو — على ضآلته — أوفى من نصيب الكثرة الكاثرة من شعرائنا
— إلا أبا تمام وابن الرومى والممرى — واهل عذر الجمهرة فى هذا : نشأتهم الأولى ،

ونصيبهم ونصيب بيئتهم المحدود من فنون الثقافة ، وأصول شعرهم التي تفرض عليهم الوزن والقافية ، واشتغال القصيدة على عدة أغراض — في الغالب — واستقلال كل بيت بمعناه ؛ فكل هذه أسباب تساعد على التفكك ، وإهمال التحليل السائغ ، والتعليل الحميد ، وإضعاف الربط المعنوي في القصيدة . لكن إذا سارع لهم العذر في التقصير أيام جهالتهم ، ونقص ثقافتهم الفلسفية — فهل يسوغ أيام حضارتهم ، وشيوع الفلسفة والمنطق زمن العباسيين ومن بعدهم ؟ وكيف تناسوا أن الشعر فرع من الأدب ؛ ولن يكون الكلام أدبا حتى يرضى الفكر والم عاطفة معاً ؟

إن المقني — كغيره — يعرض للمعاني عرضاً مجملًا ، ويمسحها مسًا رقيقًا ، في عجلة وإسراع ؛ فلا تفصيل ، ولا تعليل ، ولا ربط ، ولا تناسب ، ولا تحليل . يمدح فيقول :

الناسُ مالم يَرَوْكَ أشباهُ والدهرُ لفظٌ ، وأنتَ معناهُ
والجودُ عينٌ ، وأنتَ ناظرُها والبأسُ باعٌ ، وأنتَ يُمنَاهُ

فلمَ كان الناسُ أشباهها إن لم يَرَوْه ؟ ولمَ كان الممدوح سعى الدهر ، وناظر العين ، ويمين البأس ؟ وما الصلة بين هذه المعاني ؟

ويهجو فيقول :

وإنما نحنُ في جيلٍ سواسيةٍ شرٌّ على الحرِّ من سُقمٍ على بَدَنِ
حولِي بكلِّ مكانٍ منهمُ خِلَقٌ تُخطِي إذا جِئْتَ في استِفْهامِها بِحَنٍ

فلم كانوا سواسية ؟ ولم كانوا شرا على الحر ؟ وكيف انتشروا وهم على هذا الحال ؟ وما حصلت بعضهم ببعض ومظاهر ذلك ؟ وكذلك الشأن في مواضع أخرى .

.....

لكن له مواضع غيرها كثيرة تبدو عليها بعض المظاهر المنطقية الجميدة كقوله :

فلما صار ودّ الناس خبياً جزيت على ابتسامٍ بابتسامٍ
وصرت أشك فيمن أضطفيه لعلي أنه بمض الأنام

.....

وقوله في مدح سيف الدولة ، وعلو منزلته على سائر الملوك والأمراء . . .
ولو كنت سميتهم باسمه لكان الحديد ، وكانوا الخشب
أفى رأى يشبهه ، أم فى السخا ، أم فى الشجاعة ، أم فى الأدب ؟
مبارك الأسم ، أغرّ اللقب كريم الجرشي^(١) ، شريف النسب
أخو الحرب ؛ يخدم مما سبى قناه ، ويخلع مما سلب
إذا حاز مالا فقد حازه فستى لايسر بما لا يهب

وقوله : —

الرأى قبل شجاعة الشجعان هو أول ؛ وهى الحمل الثانى
فإذا هما اجتمعا لنفس حرة بكفت من العلياء كل مكان
ولربما طمن الفتى أقرانه بالرأى قبل تطاعن الأقران
لولا العقول لكان أدنى ضيفهم أدنى إلى شرف من الإنسان

(١) النفس . وكلمة : الجرشي ، من الكلمات التى طابها النقاد على التنبيه .

ولما تفاضلت النفوس ، ودبرت
أيدي السكّاة عو إلى المران^(١)

وقوله في وصف الدنيا :

ولا فضل فيها للشجاعة والندى وصبر الفتى ؛ لولا إقناه شعوب

وقوله : —

حَتَّامَ نَحْنُ نَسَارِي النَجْمَ فِي الظُّلَمِ ؟ وما سَرَاءُ عَلَى خَفٍّ ، ولا قَدَمِ
ولا يُحِسُّ بِأَجْفَانٍ ؛ يُحِسُّ بِهَا فَقَدْ الرُّقَادِ غَرِيبٌ بَاتَ لَمْ يَنْمِ
تُسَوِّدُ الشَّمْسُ مِنَّا بَيْضَ أَوْجِهِنَا ولا تَسْوَدُّ بَيْضَ الْعَذْرِ ، وَاللَّامِ
وكان حالهما في الحكمِ واحدة لو احْتَكَمْنَا مِنَ الدُّنْيَا إِلَى حَكَمِ

ومما يتصل بالناحية المنطقية الفلسفة ومذاهبها . وايس المتنبى حفظ منها
إن أردنا بها ما يريد علماءها ؛ من كشف مذهب جديد ، أو تأييد رأى
خاص ، بعد دراسة كل منهما دراسة فنية وافية ؛ تمتد من أصوله إلى
فروعه ، وتشمل دقائقه وأجزائه ، كما تشمل نتائجها وغاياته . وتنتهى بحقائق
جديدة . فأما إن قصدنا بها أن يكون لصاحبها مذهب خاص في فهم
الحياة ، ومعاملة الناس ؛ يختاره من المذاهب المعروفة ، ويسرضه عرضاً
سريعاً مجملًا ، بل مكرراً — فالمتنبى فيلسوف من هذه الناحية فلسفة تافهة
سطحية ؛ لأن له مذهباً ارتضاه ؛ هو : مذهب الإيمان بالقوة وحدها ،
وبالعنف ، وسوء الظن بالناس جميعاً ؛ وعلى هذا يدور شعره في كثير من

(١) جمع مصانة : وهى : القناة (الرمح) .

مناحيه ... وهو مذنب سبق إليه ، ولا يزال يردده أفراد كثيرون في سائر العصور والبقاع ؛ فليس فيه فضل ابتكار ، ولا فضل دراسة وإقناع . ومن عجب أن يعدّه بعض الباحثين ^(١) فيلسوفاً يمثل الأبيات الآتية التي قالوا فيها إنها أخرجته عن رسم الشعراء إلى الفلسفة .

- (١) وَلَجِدْتُ حَتَّى كَدْتُ تَبْخُلُ حَانِلًا ^(٢) الْمُشْتَهَى ^(٣) ؛ وَمِنَ السَّرُورِ بَكَاءُ ^(٤)
 (ب) إِلْفُ ^(٥) هَذَا الْهَوَاءِ أَوْقَعَ فِي الْأَنْفَسِ أَنَّ الْحِمَامَ مَرُّ الْمَذَاقِ ^(٦)
 وَالْأَسَى قَبْلَ فَرْقَةِ الرُّوحِ حَجَزٌ وَالْأَسَى لَا يَكُونُ بَعْدَ الْفِرَاقِ
 (ح) تَضَالَفَ النَّاسُ حَتَّى لَا اتَّفَاقَ لَهُمْ إِلَّا ظَلَى شَجَبٍ ^(٧) ؛ وَالْخُلْفُ فِي الشَّجَبِ ^(٨)
 قَعِيلٌ تَخْلُسُ نَفْسُ الْمَرْءِ سَائِلَةً وَقِيلَ تَشْرِكُ جِسْمَ الْمَرْءِ فِي الْعَطَبِ
 (د) تَمَتَّعَ مِنْ سَهَابٍ ، أَوْ رُقَادٍ وَلَا تَأْمُلْ كَرَّمِي تَحْتَ الرُّجَامِ ^(٩)

(١) راجع الصبح المنى ج ١ ص ١٦٤ هامش العكبري . واليساطة للجرجاني عند الكلام على فلسفة المتنبي ص ١٤٧ (طبعة عارف الزين بصيدا) .
 (٢) راجعاً . (٣) لأجل بلوغك النهاية .
 (٤) المعنى : كدت تمود للبخل ؛ لبوغك نهاية الكرم . وما دمت لا تزدد فكأنك بخلت . (٥) مؤالفة ومصاحبة .

(٦) معنى هذا البيت والذي يليه : مصاحبتنا الهواء ، ومدامتنا له ، جعلنا فراقه صعباً علينا ؛ لأن من تعود شيئاً وألفه صعب عليه فراقه ؛ فلا شيء في الموت إلا صعوبة الفراق . ومن تألم قبل الموت كان عاجزاً جباناً ؛ يعذب نفسه بشيء لم يقع بعد . ومن مات لا يشعر بالألم . فقيم الحزن والألم وشدة الخوف من الموت ؛ لأنه من كذب النفس . (٧) هلاك وموت .

(٨) معنى البيت والذي يليه : أن الناس مختلفون في كل شيء إلا في حقيقة واحدة ؛ هي : الموت ؛ فبهم متفقون جميعاً على أنهم سيموتون . ومع ذلك هم مختلفون في الموت نفسه ؛ أهو للجسم وحده ؛ أم للجسم مع الروح ؟ أتبعث النفس (الروح) وحدها يوم القيامة ؟ أم تبعث في الجسم . . . ؟
 (٩) القبور . (المفرد : رَجُم) .

فَإِنَّ لِمَآكَ ^(١) الْحَالَيْنِ مَعْنَى سَوَى مَعْنَى انْتِبَاهِكَ وَالْمَنَامِ
(هـ) وَكَمْ لِظَالَمِ اللَّيْلِ عِنْدَكَ مِنْ يَدٍ تُخَبِّرُ أَنَّ الْمَانَوِيَّةَ ^(٢) نَسَكُذِبُ
(و) يَا أَيُّهَا الْمَلَكُ الْمُصَنِّى جَوْهَرًا مِنْ ذَاتِ ذِي الْمَلَكُوتِ أَسْمَى مِنْ سَمَاءِ
نُورٍ تَظَاهَرَ فِيكَ لَاهُوتِيَّةً ^(٣) فَتَكَادُ تَعْلَمُ عِلْمَ مَا أَنْ يُقْلَمَا
(ز) وَلَقَدْ رُمْتَ بِالسَّعَادَةِ بَعْضًا مِنْ نَفُوسِ الْمَدَا ؛ فَأَذْرَكْتَ كُلًّا

فماذا فى الأبيات السالفة — وأشباهاها — مما يدل على أن صاحبها
فيلسوف ؟ أين الفلسفة ومذاهبها وأصولها وأدلتها ؟ وهل الفلسفة ترداد كلمة
من كلمات الفلاسفة ، أو مصطلح من مصطلحاتهم ، أو التعريض ، أو القنوية
المجرد باسم زعيم من زعمائها ؟ إذا كان طلاب العلم جميعا فلاسفة .

* * *

تلك صور المتنبي فى معانيه المجرَّحة الواهنة . أما صُورُهُ فى معانيه
الفنية الناضرة فكثيرة أيضا . وقد يسبق فى بعضها (شوقيا) بل يسبق شعراء
العربية جميعا .

كقوله فى الغزل : —

(١) فَدَيْنَاكَ أَهْدَى النَّاسِ سَهْمًا إِلَى قَلْبِي وَأَقْتَلَهُمْ لِلدَّارِ عَيْنِ ^(٤) بِلا حَرْبٍ

(١) هو : الموت . (٢) المانوية : قوم ينسبون إلى رجل يسمى : « مانى » .

يقول : إن الخير من النهار ، والشر من الليل .

(٣) لاهوتية أو لاهوتيه . أى : أنه منسوب إلى اللاهوت ، وهو : الله . ومعنى البيت :

ظهر فىك نور إلهى تكاد تعلم به الغيب الذى لا يعلمه إلا الله .

(٤) لمن يلبسون الدروع .

وقوله :

ما باله ؟ لاحظته ، فتَضَرَّجَتْ
ورمى - ومارمتا يداه - فصابنى
وجذاته ؛ وفؤادى المَجْرُوحُ
سهمٌ يَعْذِبُ والسَّهْمُ تَرْيَحُ

(٢) وقوله :

وَمَنْ سَرَّ أَهْلَ الْأَرْضِ ، ثُمَّ بَكَى أُمِّى
بَكَى بَعِيُونَ سَرَّهَا وَقُلُوبُ^(١)

(٣) وقوله فى الغزل : —

وكيف عَرَفْنَا رَسْمَ مَنْ لَمْ تَدَعْ لَنَا
فؤاداً لِعِرْفَانِ الرُّسُومِ ، ولا لَبَّاءَ ؟

(٤) وقوله يخاطب سيف الدولة حين
بعض أقاربه : —

وكيف يَتِمُّ بِأُسُوكَ فى أَنَاسٍ
تُصِيبُهُمْ ؛ فَيُؤْلِمُكَ الْمَصَابُ

تَرْفُقُ - أَيُّهَا الْمَوْلَى - عَلَيْهِمْ ؛
فَإِنَّ الرِّفْقَ بِالْجَسَانِ عِتَابُ

وإنهم عبيدك حيث كانوا
إذا تَدَعَوْ لِحَادِثَةِ أَجَابُوا

وعينُ الخَطِئِينَ هُمُ ، وَلَيْسُوا
بِأُولِ مَعْشَرٍ خَطِئُوا ؛ فَتَابُوا

وَأَنْتَ حَيَاتُهُمْ غَضِبْتَ عَلَيْهِمْ
وَهَجَرْتَ حَيَاتِهِمْ لَهُمْ عِقَابُ

وما جَهَلَتْ أَيْدِيكَ الْبَوَادِىَ
وَلَكِنْ رُبَّمَا خَفَى الصَّوَابُ

وَكَمْ ذَنْبٍ مُؤَلَّدُهُ دَلَالٌ !!
وَكَمْ بُعْدٍ مُؤَلَّدُهُ اقْتِرَابٌ !!

وَجُرْمٍ جَرَّ ، سُفْهَاءُ قَوْمٍ
وَحَلَّ بَغِيرٍ جَارِمِهِ الْعَذَابُ

(٥) وقوله فى رثاء أخت سيف الدولة ، (وأصولها من قبيلة تغلب) :

(١) أى : أن هذه العيون والقلوب تشاركه فتبكي معه .

وإن تَكُنْ تَغْلِبُ الغلباءَ ^(١) عنصرها
فَلَيْتَ طَالِمَةَ الشَّمْسِينَ ^(٢) غائبة
(٦) يَزُورُ الأعادي في سماء عَجَاجَةٍ
فَتَسْفِرُ عَنْهُ وَالسَّيُوفُ كَأَنَّمَا
طَلَعْنَ شَمُوسًا ، وَالنُّمُودُ مِشَارِقُ
(٧) فَإِنَّ نَهَارِي لَيْسَلَةٌ مَدْلُومَةٌ
بِسِيْدَةٍ مَا بَيْنَ الْجَنُونِ ؛ كَأَنَّمَا
فِيَالَيْتَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ أُحِبَّائِي
(٨) تَرَكْنَا لِأَطْرَافِ الْقَدَا كُلَّ شَبَّوَةٍ
(٩) أَبْدَى الْعِدَاةُ بِلَاكَ السَّرُورِ ؛ كَأَنَّهُمْ
قَطَّعَتْهُمْ حَسَدًا ؛ أَرَاهُمْ مَا بِهِمْ
حَتَّى انْثَنُوا وَلَوْ أَنَّ حَرَّ قُلُوبِهِمْ
(١٠) وَقَوْلُهُ (يَخَاطَبُ مَنْ نَامَ وَالْمُنْبِي يُنْشِدُ) :

إِنَّ الْقَوَافِي لَمْ تَنْمِكَ ؛ وَإِنَّمَا
وَكَأَنَّ أَذُنَكَ فَوْكَ حِينَ سَمِعْتَهَا
(١١) أَنَا بِالْوِشَاقِ إِذَا ذَكَرْتُكَ أَشْبَهُ
وَإِذَا رَأَيْتَكَ دُونَ عِرْضِي عَارِضًا
تَحَقَّقْتُكَ حَتَّى صِرْتُ مَا لَا يُوْجَدُ
وَكَأَنَّمَا - مِمَّا سَكِرْتُ - الْمُرْقَدُ ^(٣)
تَأْتِي النَّدَى ، وَيُدَاعُ عَنْكَ ؛ فَتَكْرَهُ
أَيَقُنْتُ أَنَّ اللَّهَ يَبْغِي نَصْرَهُ

(١) كثيرة الغلب والنصر .
(٢) الشمسان : شمس الدنيا الطالعة ، والشمس
التي ماتت .

(٣) ما سمعته منها بأذنك مرقد (أى : منوم) شربته بفمك .

(١٢) صِيَامٌ^(١) بِأَبْوَابِ الْقِيَابِ جِيَادُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ مَبْدُولَةٌ لَوْفُونُهُمْ
وَأَشْخَاصُهَا فِي قَلْبِ خَائِفِهِمْ تَعْدُو
(١٣) رِضَاكَ رِضَايَ الَّذِي أَوْثَرُ كَفَّتَكَ الْمَرْوَةَ مَا تَقَى
وَسِرَّتَكَ سِرِّي ؛ فَمَا أَظْهَرُ
وَأَمَّنَكَ الْوُدَّ مَا تَحْذَرُ
إِذَا أَنْشَرَ السَّرَّ لَا يُنْشَرُ

.....

(١٤) تَمَرَّسْتُ بِالْآفَاتِ حَتَّى تَرَكْتُهَا وَأَقْدَمْتُ إِقْدَامَ الْآتِي^(٢) ؛ كَأَنَّ لِي
دَعِ النَّفْسَ تَأْخُذُ وَتُغْنِي قَبْلَ يَدَيْهَا
(١٥) وَدَعَاكَ حُسْدُكَ الرَّئِيسَ وَأَمْسَكَوْا
خَلَقْتَ صِفَاتِكَ فِي الْعَيُونِ كَلَامَةً
تَقُولُ : أَمَاتَ الْمَوْتُ أَمْ ذُعِرَ الذُّعْرُ ؟
سِرِّي مُهْجَتِي ، أَوْ كَانَ لِي عِنْدَهَا وَثَرُ
فَتَفْتَرِقُ جَارَانِ دَارُهَا الْعُمُرُ
وَدَعَاكَ خَالَتُكَ الرَّئِيسَ الْأَكْبَرَا
كَأَنَّ لِي يَلَا مِسْمَعِي مَنْ أَبْصَرَ^(٣)

(١٦) وَقَوْلُهُ يَمْدَحُ ابْنَ الْعَمِيدِ وَيُودِعُهُ : —

كَأَنَّ أَرَادَتْ شُكْرَنَا الْأَرْضُ عِنْدَهُ
(١٧) وَخَصَصَتْ تَشَبُّهُتْ الْأَبْصَارُ فِيهِ
فَلَمْ يُخْلِنَا جَوْهَ هَبْطَنَاهُ مِنْ رِفْدِ^(٤)
كَأَنَّ عَلَيْهِ مِنْ حَقِّ نِطَاقًا

(١) قِيَامٌ . (٢) السَّيْلُ الَّذِي لَا يَرُدُّهُ شَيْءٌ .

(٣) مَعْنَى الْبَيْتَيْنِ : حَسَادُكَ يَسْعَوْنَكَ : الرَّئِيسُ ؛ وَلَا يَزِيدُونَ عَلَى هَذَا شَيْئًا . أَمَّا اللَّهُ
فَاتِهِ يَسْمِيكَ : الرَّئِيسَ الْأَكْبَرَ ؛ نَعَمْ لَمْ يَنْطَلِقْ بِهَذِهِ التَّسْمِيَةِ ، وَلَكِنَّهُ وَهَبَ لَكَ
مِنْ الْأَوْصَافِ مَا يَنْبَغِي مِنَ النُّطْقِ ، فَكُنْتَ تِلْكَ الْأَوْصَافِ مِثْلَ الْكِتَابَةِ الَّتِي تَعْلَمُ
الْبَصَرَ ، وَتَفْنِي عَنِ الْكَلَامِ وَعَنِ اسْتِعْمَالِ السَّمْعِ .

(٤) كَرَّمَ وَعِطَاءٌ . وَمَعْنَى الْبَيْتِ : كُلُّ مَوْضِعٍ نَزَلْنَاهُ فِي طَرِيقِنَا إِلَيْهِ أَصَابَنَا بِالْخَيْرِ
وَالرَّاحَةِ ؛ تَقَرُّبًا لِلْأَمِيرِ ، وَحِرْصًا عَلَى رِضَاكَ ، وَعَمَلًا عَلَى أَنْ نَذْكُرَكَ بِالْخَيْرِ
فِي حَضْرَتِهِ .

(١٨) نَهَبْتُ مِنَ الْأَعْمَارِ مَا لَوْ حَوَّيْتُهُ
 لَمُنَّكَ الدَّيْسُ بِأَنْكَ خَالِدُ
 (١٩) يُعْطِيكَ مَبْتَدَأًا ، فَإِنْ أَجْجَلْتَهُ
 أَعْطَاكَ مَمْتَدِرًا ؛ كُنْ قَسِدًا أَجْرَمًا
 وَيَرَى التَّمْظُمَ أَنْ يُرَى مُتَوَاضِعًا
 وَيَرَى التَّوَاضُعَ (١) أَنْ يُرَى مُتَعَظِمًا
 (٢٠) قوله في وصف القلم : —

نَحِيفُ الشَّوَى ، يَمْزُو عَلَى أُمِّ رَأْسِهِ
 وَيَخْفَى ؛ فَيَقْوَى عَدُوَّهُ حِينَ يُقْطَعُ
 يَجُجُ ظَلَامًا فِي نَهْسَارِ لِسَانِهِ
 وَيُفْهِمُ عَمَّنْ قَالَ مَا لَيْسَ يَسْمَعُ
 فَصِيحٌ ، مَتَى يَنْطَلِقُ تَجِدُ كُلَّ أَنْفَظَةٍ
 أَصُولَ الْبَرَاهِنِ الَّتِي تَتَفَرَّغُ
 فَإِنْ شِئْتَ قَصَائِدَ كَامِلَةٍ مِنْ رَوَائِدِهِ
 فَالَيْكَ قَصِيدَتُهُ الَّتِي مَطَّلَعُهَا : —

غَيْرِي بِأَكْثَرِ هَذَا النَّاسِ يَنْتَحِدِعُ
 إِنْ قَاتَلُوا جَبِينُوا ، أَوْ حَدَّثُوا شَجِعُوا
 والتي مطلعها :

الرَّأْيُ قَبْلَ شَجَاعَةِ الشَّجْعَانِ
 هُوَ أَوَّلُ وَهْيِ الْحَلِّ الشَّانِ
 والتي مطلعها :

الْحُبُّ مَا مَنَعَ الْكَلَامَ الْأَلْسُنَا
 وَالذُّ شَكْوَى عَاشِقٍ مَا أَعْلَنَا
 والتي مطلعها :

مَفَازِ الشُّعْبِ طَيْبًا فِي الْمَغَانِي
 بِمَنْزِلَةِ الرَّبِيعِ مِنَ الزَّمَانِ
 والتي مطلعها :

أَطَاعِنُ خَيَالٍ مِنْ فَوَارِسِهَا الدَّهْرُ
 وَحِيدًا وَمَا قَوْلِي كَذَا وَمَهِي الصَّبْرُ
 والحق أن في الديوان كثيرا من قصائده الخالدة على الزمان .

* * *

شوقى . معانيه وما يتصل بها :

معانى شوقى — كالأفاظه ، وكسائر خصائصه الشعرية — صَدَرَتْ
فى طَورين مختلفين من حياته ؛ أحدهما : قبل منفاه إلى البلاد الأندلسية ،
والآخر بعد المنفى . وكان فى الطور الثانى أنضجَ عقلًا ، وأوفرَ تجربةً ،
وأخصبَ خيالًا ، وأكملَ شاعريةً ؛ فجاءت معانيه أكرمَ جوهرًا ، وأتمَّ
صقلًا من معانى الطور الأول ، وأدنى إلى الغاية التى يرتضيها الأدباء .
وبالرغم من تَفَاوُتِ المعانى بين الطورين ان ترى فيهما أو فى أحدهما
من النقائص والعيوب ما تراه مركزًا مُجْمَعًا فى شعر المتنبى .

(١) فالدعامة الكبرى فى المعانى — وهى الوضوح — شائعة فى أدب
شوقى . وقَرِيضُهُ موسومٌ بسمَةِ الإِشْرَاقِ والنَّصَاعَةِ . وديوانه فى مختلف
نواحيه خير شاهد على ذلك . بل إن شوقى ليعمِدُ إلى المعنى المختلط
بغيره فى النفس ، الذى يَفْشِيهِ الإِبهامُ والخفاءُ بسببِ ذلك الاختلاط
والامتزاج — فينتزعه من مكانه ، ويفرده عن نظائره ، ويسوقه لك
واضحًا ، جليًا ، لا لابس فيه ولا إبهام . يشفى نفسك به وقد كانت
منه فى قلق .

غير أن المعانى الشوقية قد يعتريها أحيانًا بعض الغموض والاستغلاق ،
وهذا قليل . وهو ينكشف بالمحاولة اليسيرة ، والمعالجة الهيئَة . وقد يكون
مرجهه إلى كلمة واحدة خفية ينبجلى بانجلاؤها المعنى . وليس الشأن كذلك
فى معانى المتنبى ؛ فإن غوامض كلماته بل أبياته — كثيرة ، واستجلاؤها
عسير . فى حين نرى غوامض شوقى قليلة — كما قلنا — تكاد تقتصر على

الكلمات المفردة ، ولا تحتاج في تجليتها إلى كبير عناء . أما الأبيات المتقدمة التي تفضل فيها القول ، وتضطرب الأفهام فتأخرة . ونموض المعنى يكاد يكون طبعاً قبيحاً ، أو ما يشبه الطبع . أما نموض شوقي فبعيد عن هذا بُعد عما يقع فيها صاحبه من المماثلة (بنوعها اللفظي والمعنوي) .

وأكثر ما يتسربب النموض إلى المعاني الشوقية . من قبل إشاراته لوقائع وأحداث تاريخية ، قد تحفى على غيره ؛ فيذهب الخلاء بزيقتها وبقيمتها في وصل الحاضر بالماضي ، وإمداد المعنى بفيض من القوة والقرارة . ولهذا الغيب دلالاته الأخرى على سمة ثقافة شوقي ، وإلمامه بالتاريخ إلماماً وافياً . وقد يكون منشأ النموض حديثاً عن خطاير نفسية لا يعلمها سواه ، ولا يريد أن يُفصح عنها لأسباب سياسية أو غير سياسية . وقد يكون من ممارضته أحد الشعراء — كما سبق — ؛ فتضطره الممارسة إلى الخروج عن طبيعته ؛ (ليسلك مسلك قريمه ، أو يفوقه) فيجتاح إلى التكلف والاعتساف ؛ وهما مطية النموض غالباً ؛ كسينيته التي عارض بها سيدنية البحترى ، ونونيته التي عارض بها نونية ابن زيدون فجاءت القصيدتان جميلتان ولكنهما مشوّبتان بفلق اعنى ، وقلق القافية :

وقد يكون النموض عنده من إيصال الخيال ، وإطلاقه بغير عنان يضبطه ويكبح جماحه ؛ كما سترى في الأمثلة .

تلك هي خلاصة الأسباب المباشرة للنموض الذي يكتنف المعاني الشوقية (وهي التي تكلمنا عليها آنفاً في مواضع متفرقات بمناسبة أخرى) .

ومهما تكن الأسباب فشوقي — في هذه الناحية — خير من المتنبي كما قلنا .

وإليك أبياتنا من غوامضه توضح ما أشرنا إليه :

(١) النفسُ حربُ الموتِ إلا أَسَها أنتَ الحياةَ وشغلَها من بابِهِ
وسمى هذا البيت النامض، عبر عنه المتنبي فأحسن وأبان حيث قال :
سُبِقْنَا إِلَى الدُّنْيَا فَلَوْ عَاشَ أَهْلُهَا سُبِقْنَا بِهَا مِنْ جَيْمَةٍ وَذُؤُوبِ
(٢) يصف كواعب :

يَبِضُّ رِقَاقُ الْحُسْنِ فِي لَحَى مِنْ نَاعِمِ الدُّرِّ وَمِنْ رَطْبِهِ
ذَوَابِلُ النُّرْجِسِ فِي أَصْلِهِ يَوَانِغُ الرُّودِ عَلَى قُضْبِهِ
(٣) وقوله في وصف مصر أيام الخديوي إسماعيل ومدحه :

كَلَّ يَوْمَ صَرْحٍ يُشَيِّدُ لِلْمَدَنِيِّمْ ، وَظِلٌّ يُمَسِّدُ فِي مِصْرَ مَدًّا
وَلَوَاءَ ، وَعُدَّةٌ ، وَعَدِيدٌ وَنِظَامٌ نَزَى بِهِ الشُّهْبَ جُنْدًا
وَعِزَّةً فِي الْبَيْضِ وَالسُّودِ ؛ تَبْنِي مِصْرُ فِيهَا مُجَدِّدًا مُسْتَرَدًّا
وَبَرِيدًا لَهَا تَسِيلُ بِهِ الْقُضْبُ ، رِثَانٌ بِالْبَرْقِ أَجْرَى وَأَهْدَى
فَمَا مَعْنَى الْبَيْتِ الْأَخِيرِ ؟ أَلَيْسَ مُحْتَاجًا إِلَى وَقْفَةٍ وَإِنْ كَانَتْ خَفِيفَةً ؟
(٤) وقوله في تلك التمهيدة : —

يَا كَبِيرَ الْفَوَادِ ، وَاهْمٌ ، وَالْأَبْ رَابٍ ، مَهْلًا ، مَهْلًا ، رَوِيدًا ، رَوِيدًا
لَمْ تَكُنْ حِقْبَةَ أَسَاءَتِ عَلِيًّا فِي جَنَى عَمْرِهِ لَتَحْفَظَ وَدًّا

ففي البيت الثاني إشارة تاريخية أسدلت عليه ستارا من الغموض
لا ينكشف إلا بكشفها ، ولا يتضح معناه إلا لعارفها . تلك أن الدول الأوربية
وقفت في وجه محمد علي حين أقبلت الدنيا عليه ، وانعقد له لواء النصر
في فتوحه العظيمة . فلن ترضى تلك الدول أن تدع إسماعيل يسلك ببلاذه
مسلك المجد والنمو كما فعل جده . فالزمن الذي قاوم الجدد وعوقفه يقاوم

الحفيد ويُعَوِّقُه . وهذا المعنى لا يفهم إلا بفهم الإشارة التاريخية كما قلنا .
فإذا تكشفت زاد بها قوة ، وروعة ، وغزارة . ومن هنا صبح ما يردده الباحثون
من أن ديوان شوقي — على نفاسته ، وكريم منزلته بين الدواوين الغالية —
لم يحظ حتى اليوم بمن يشرحه شرحاً وافياً ، وبتصنيف ليبيان إشارته التاريخية
قبل أن يطول عليها الأمد ؛ فتتكاثف فوقها سحب الإيهام والخفاء ؛ ولا سيما
الإشارات التي تتعلق بمصرنا الحديث ، ونهضتنا القائمة ، وما يتصل بها من
الوقائع والأحداث التي شهدناها كثير من أهل هذا الجيل الذي وقعت فيه ،
وأدركوا حقائقها ، وتفاسيلها ، ومستقرض بانقراضهم ، أو يختفى كثير من
معالمها . وفي هذا خسارة كبيرة يحجب العمل على انقائها منذ اليوم . بل كان
الواجب اتقاؤها في حياة شوقي ، وقمت سمته وبصره ؛ ليكون المرجع الوثيق
فيها ، الخبير بأسرارها ؛ فلا تذهب العقول في فهمها مذاهب شتى .

(٥) ومثله في قصيدة توت عنخ آمون : —

أَمِنْ سَرَقِ الْخَلِيفَةِ وَهُوَ حَيٌّ يَعِفُّ عَنِ الْمَلُوكِ مَكْفِينًا^(١)

فمن الخليفة المسروق وهو حي ؟ ومن سرقة ومسرق الملوك الموتي ؟

(٦) ويقول : —

ما سمعنا بفاتحٍ سَلَّ سيفاً يأخذ الملكَ حَذُّهُ ثم أغمد
حالةً سامها (الأمين) أخوه وأمور بها (أمية) يشهد

(٧) ومثل هذا قوله في قصيدة الأزهر التي نظمها بمناسبة إصلاحه^(٢) : —

نَبَأٌ سَرَى : فَسَكَمَا (المنارة) خَبْرَةً وَزَهَا (المعلى) واستخَفَّ (المنبر)

(١) لهذا البيت قصة تاريخية وردت في الجزء الأول ص ٣٣٩ من الشوقيات عند شرح هذا البيت . (٢) في عهد الملك فؤاد الأول .

وسمّا (بأروقة) المـدى : فأحلبها فرغ الثريا ، وهي في أصل الثرى
ومشى إلى (الخلدات) ؛ فانخرجت له حلةً ؛ كحلات السماء ، مُنَوَّرًا
حتى نلتنا (الشافعي) و (مالك) (وأبا حنيفة) (وابن حنبل) حضرا
إن الذي جعل (العتيق ^(١)) مثابةً جعل (الكيفاني ^(٢)) المبارك كوثرا
فإن يدرك ، ماني هذه الأبيات على حقيقتها إلا أن عرف الأزهر ،
ومنارته الأثرية ، ومضلاّه المام ، ومنبره القديم ، والأروقة الخاصة بالطلاب
— ولا سيما الغرباء عن مصر — ونظام الدراسة ، وجلس الطلاب حلقات
في الدروس أمام أسيادهم ، والعمارة بتلقينهم مذاهب الأئمة الأربعة
وما إلى ذلك مما يتصل بالمسجد الكيفاني .

(٨) ومثل هذا قصيدته في مشروع ٢٨ فبراير :

قالوا : (الحماية) زالت قلت : لا تجب بل كان باطلها فيكم هو العجبا
رأس الحماية مقطوع ؟ فلا عدمت كنانة الله حزماً يقطع الذنباً
لو تسألون (النبي) يوم جندلها بأي سيف على يا فوخها ضرباً ؟
أبالي جرّ يوم السلم متشجاً أم بالذي هزّ يوم الحرب مختضباً
يا (فاتح القدس) خلّ السيف ناحية ليس الصليب حديداً كان ، بل خشباً
فما رأس الحماية ؟ وما ذنبها ؟ ومن « النبي » الذي ضربها ؟ وما دخل
الحرب والسلم وفتح القدس هنا ؟ إنها إشارات تاريخية ؛ يعرفها كثير من
المعاصرين ، ويجهلها كثير يزاد عددهم على الأيام .

(١) البيت العتيق ، هو : الكعبة ، والجامع العتيق : جامع عمرو بن العاص بمصر القديمة ،

وقد كان موضعاً للتعليم . (٢) الأزهر . نسبة للكنانة ، وهي : مصر .

(٩) ويتول في قصيدة المؤتمر (مشيراً) إلى البرلمان الذي سماه : حصن الحق .

احتل حصن الحق غير جنوده وتكالبت أيدٍ على المفتاح ...
فمن المحتلون من الأحزاب السياسية المصرية ؟ وما تلك الأيدي ؟
لم يرد الإفصاح .

(١٠) وقوله في قصيدة بنك مصر :

تَرَاوَحُ بِالْحَوَادِثِ أَوْ تُشَادَى وَنَكَرُهَا ، وَنَعْلِيهَا الْقِيَادَا
وَنَحْمَدُهَا ، وَمَارَعَتِ الضَّحَايَا وَلَا حَبَزَتِ الْمَوَاقِفَ وَالْجِهَادَا
لَحَاحَهَا اللَّهُ !! بَاعَتُنَا خِيَالًا مِنْ الْأَحْلَامِ وَاشْتَرَتْ اتِّحَادَا
مَشِينَا أَمْسٍ نَلْقَاهَا جَمِيعًا وَبَحْنُ الْيَوْمِ نَلْقَاهَا فِرَادَى
فَمَا تِلْكَ الْحَوَادِثُ بَلِ الْكِرَاوِثُ الَّتِي أَشَارَ إِلَيْهَا ؟ وَمَا تِلْكَ الْأَحْلَامُ الَّتِي
اشْتَرَيْنَاهَا بِاتِّحَادِنَا ؟ وَمَا أَمْسٍ وَالْيَوْمِ وَنَصِيدُهُمَا مِنْ تِلْكَ الْأَحْدَاثِ ؟
إنها أحداث سياسية خطيرة لم يشأ أن يفصح عنها في إبانة وجلاء لأسر
يطويه في نفسه . فهو يشير إلى النزاع بين الأحزاب المصرية سنة ١٩٢٦ ،
وما انتهى إليه من اتساع الهوة بينها ، ومقاومة كل حزب للآخر ،
بل محاربتة محاربةً دنيئة ؛ لا هوادة فيها ولا مهادنة ؛ حتى كادت تقضى
على حرية البلاد ، ودستورها ، ومظاهر الحضارة فيها .

(١١) وقوله في السجناء السياسيين الذين أطلق سراحهم بالنفوذ عنهم : —

طَلَبُوا الْجَلَاءَ عَلَى الْجَهَارِ مَشْرُوبَةً لَمْ يَطْلُبُوا أَجَرَ الْجِهَادِ زَهِيدًا
وَاللَّهِ مَا دُونَ الْجَسَدِ وَيَوْمِهِ يَوْمَ تَسْمِيَةِ السَّكْفَانَةِ عَيْسِدًا
وَجَدَ السَّجِينَ يَدًا تُحَطِّمُ قَيْدَهُ مَنْ ذَا يُحَطِّمُ لِلْبَلَادِ قَيْدَا ؟

رَبِّحَتْ مِنْ (التصريح) أَنْ قِيودَهَا قَدْ صِرْنَ مِنْ ذَهَبٍ ، وَكُنَّ حَدِيدًا
أَوْ مَا تَرُونَ عَلَى (المنابع) عُدَّةٌ لَا تَنْجَلِي ، وَعَلَى الضَّغَافِ عَدِيدًا ؟
فَمَا الْجَلَاءُ ^(١) ؟ وَمَا التَّصْرِيحُ ^(٢) وَقِيوده التي صارت ذهبًا بعد أن كانت
حديدًا ؟ وَمَا الْمُنَابِعُ ^(٣) وَعُدَّتْهَا ؟ وَالضَّغَافُ ^(٤) وَعَدِيدُهُ ؟
(١٢) وَيَقُولُ فِي قَصِيدَةِ شَهِيدِ الْحَقِّ الَّتِي سَلَفَتْ : —

إِلَامَ الْخُلْفِ بَيْنَكُمْ ؟ إِلَّا مَا ؟ وَهَذِي الضَّجَّةُ الْكُبْرَى عَلَامًا ؟
وَفِيمَ يَكِيدُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ ؟ وَتُبْدُونَ الْعِدَاوَةَ وَالْخِصَامَ ؟
وَأَيْنَ الْفُوزُ ؟ لَمْ يَنْصُرْ اسْتَقَرَّتْ عَلَى حَالٍ ، وَلَا السُّودَانُ دَامَا
وَأَيْنَ ذَهَبْتُمْ بِالْحَقِّ لِمَا رَكِبْتُمْ فِي قَضِيَّتِهِ الظَّالِمَا ؟
لَقَدْ صَارَتْ لَكُمْ حُكْمًا وَغَنًا وَكَانَ شِمَارُهَا (الْمَوْتُ الزُّوَامَا)
فَأَيُّ خَلْفٍ وَضَجَّةٍ يَقْصِدُ ؟ وَمَا السَّكِيدُ وَالْعِدَاوَةُ وَالْخِصَامُ الَّتِي أَشَارَ إِلَيْهَا ؟
وَمَاذَا يَعْنِي بِالْفُوزِ ؟ وَأَيْنَ ذَهَبَ السُّودَانُ ؟ وَمَا ذَلِكَ الشَّعَارُ : (الْمَوْتُ الزُّوَامَا) ؟
وَكَيْفَ انْتَهَى أَمْرُ الْقَضِيَّةِ إِلَى الْحُكْمِ وَالْفَتْهِمِ ؟

تلك رموز لوقائع وأحداث تاريخية حلت بمصر ، واشتهرت بين أبناء
ذلك العهد الذي قيلت فيه القصيدة (سنة ١٩٢٤) أما الآن فقلَّ من يعرفها
من الناشئة الجديدة ، وشباب الجيل الحاضر .

-
- (١) يريد : جلاء الإنجليز عن وادي النيل .
(٢) تصريح ٢٨ فبراير الذي صرحت فيه إنجلترا بأن مصر صارت مستقلة . واشترطت
لذلك شروطاً أربعة ؛ هي التي سماها الشاعر : القيود .
(٣) يريد منابع النيل وما أقامه حولها الإنجليز من حصون ومعدات حربية .
(٤) أى : ضفاف النيل ؛ وما عليه من جيوش الإنجليز المحتلة .

(١٣) بل إنه قد بسرف في الإشارات التاريخية إسرافاً لم يسبقه إليه شاعر؛
كقوله يخاطب الخليفة العثماني في قصيدة عنوانها : « عيد الدهر » .

مَكُنْتَ لِلدُّسْتُورِ فِيهِ ، وَخَزَنَةَ تاجاً لوجهك فوق تاجِ جلاله
فَكَأَنَّكَ (الفاروق ^(١)) فِي كَرْسِيهِ نَعِمْتَ شُعُوبُ الْأَرْضِ تَحْتَ ظِلَالِهِ
أَوْ أَنْتَ مِثْلُ (أَبِي ثَرَابٍ ^(٢)) يُنْتَقَى وَيَهَابُهُ الْأَمْلَاقُ فِي أُمَمَالِهِ
عَهْدُ النَّبِيِّ هُوَ السَّيَاحَةُ وَالرُّضَا (مُحَمَّدٌ ^(٣)) أَوَّلَى ، وَسَمَحَ خِلَالِهِ
يَا بَنَ « الْخُلُوفَيْنِ » (الثَّلَاثِينَ ^(٤)) الْأَلَى قَدْ جَمَّأُوا الْإِسْلَامَ فَوْقَ جَمَالِهِ
.....

الْمُؤْطِئِينَ مِنَ الْمَلَائِكِ خِيَلِهِمْ مَا لَمْ يَنْزُ (إِسْكَندَرُ ^(٥)) بِرِصَالِهِ
فِي عَدَلٍ (فَاتِحِهِمْ ^(٦)) وَ (قَانُونِيَّتِهِمْ ^(٧)) مَا يَحْتَدِي الْخُلَافَاءُ حَذَوْ مِثَالِهِ
إلى أن قال : —

إِيَّاهِ (فَرُوقٍ ^(٨)) الْحَسَنَ نَجْوَى هَاتِمٍ يَسْمُو إِلَيْكَ بِجَدِّهِ ^(٩) وَبِخَالِهِ ^(١٠)
أَخْرَجْتَ لِلرَّبِّ الْفِيضَ بَيَانَهُ قَبَسًا يَضِيءُ الشَّرْقَ ، مِثْلَ كَالِهِ
لَمْ تَكْثُرِ (الْحِرَاءُ) مِنْ نُظَارَائِهِ نَسْلًا ، وَلَا (بَغْدَادُ) مِنْ أُمَمَالِهِ
جَعَلَ الْإِلَهُ خِيَالَهُ (قَيْسَ) الْهَوَى وَجَعَلْتَ (أَيْلَى) فَتْنَةً لَخِيَالِهِ

(١) عمر بن الخطاب . (٢) علي بن أبي طالب .

(٣) محمد رشاد الخليفة العثماني .

(٤) هم آباء الخليفة العثماني الذين سبقوه للسلطنة العثمانية . (٥) إسكندر المقدوني .

(٦) محمد الفاتح الخليفة العثماني الذي فتح القسطنطينية ، وكان أول خليفة استولى عليها .

(٧) سليمان القانوني . (٨) اسم القسطنطينية .

(٩، ١٠) يشير إلى أن جده وخاله من الأتراك .

أَفْرَاحُهُ لَمَّا رَأَى طَلِيْقَةً أَفْرَاحُ (يُوسُفُ) يَوْمَ حَلِّ عِقَالِهِ
وَسُرُورُهُ بَكَ مِنْ قِيُودِكَ حُرَّةً كَسُورِ (قَيْسِ) بِانْتِلَاتِ غَزَالِهِ

... ..

أرأيت الإسراف في الإشارات والأعلام التاريخية ؟ وكيف تزاخت
في قصيدة واحدة ؛ تخفى بها المعنى إلا على من نال حفظاً من العلم ، وأثارة
من التاريخ ؟ وما أقل هؤلاء ... أكان شوقي ينظم الشعر لهم ، ويُفعل
من عداهم ؟ أم كان يزعم أن الجهرة من الناس تُدرك سراميه ، وتنبى إشاراتهِ
التاريخية ؟ . أم كان يقول الشعر لنفسه ؛ لا يعبأ بمن يدركه أو لا يدركه ؟ .
سواء أكان هذا أم ذاك أم غيرهما ، فلن يتسع مجال العذر لشوقي . ولن يجد
الناقد النزيه بُدّاً من غمزه لهذا الإسراف الذي سَلِمَ منه المتنبي ؛ فقد كانت
إشاراتهِ التاريخية قليلة ، وهى — مع قِلَّتِها — أشهر وأوضحُ من الحوادث
التي يشير إليها شوقي . ولا أعرف المتنبي قصيدة واحدة جمعت بعض ما جمعتهُ
القصيدة الشوقية السابقة من الأسماء التاريخية . حتى قصيدته في مدح
أبى الفضل بن العميد (وعدد أبياتها سبعة وأربعون) وهى التى اشتهرت
بكثرة ما فيها من أعلام وأسماء تاريخية ؛ فإن الأعلام والأسماء فيها لم تزد على
سبعة مشهورة ، ساقها فى خمسة أبيات هى : —

لَا تَتَرَبَّ (١) الأيدي المقيمة فوقه (كسرى) مقامَ الحاجبين و (قيصراً)
(أَرَجَان) أيتها الجياد ؛ فإنه عزى الذى يذرُ الوشيعَ مَكْسَرَا

... ..

(١) أى : لا يصيبها التراب . يدعو لها بعدم الفقر .

... ..

أُمِّي (أبا الفضل) الْمَبْرُ الْيَتِي لَا يَمَنَّ أَجَلَ بِحَرِّ جَوْهَرَا
مَنْ مُبْلِغُ الْأَعْرَابِ أُنَى بَعْدَهَا شَاهِدَتْ (رَسْطَالِيْس) وَ (الْإِسْكَندَرَا)

... ..

وَسَمِعْتُ (بَطْلَمَيْسُوس) دَارِسَ كُتَيْبِهِ مُتَمَلِّكًا ، مُتَبَدِّلًا ، مُتَحَضِّرًا
فَأَيْنَ هَذِهِ مِنَ الشُّوقِيَةِ السَّابِقَةِ : « عِيدُ الدَّمَرِ » وَعِدَّتْهَا سَبْعَةٌ وَخَمْسُونَ
بَيْتًا حَوَتْ مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالْأَعْلَامِ التَّارِيخِيَةِ نَحْوَ خَمْسَةِ وَعِشْرِينَ أَوْ تَزِيدُ ؟
لَا شَكَّ أَنَّ هَذَا إِسْرَافٌ لَا يَجِدُ دِفَاعًا .

وَمِنْ غَوَامِضَ مَعْنَاهُ قَوْلُهُ يُخَاطَبُ الْخَلِيدُ إِسْمَاعِيلُ : —

فَتَرَكْتَ السَّرِيرَ مُضْطَرَبَ الْأَحْـوَالِ ؛ مِنْ تَأْيِ رَبِّهِ ، لَيْسَ يُهْدَى
لَمْ تَكُنْ مَنْ جَنَى عَلَيْهِ ؛ وَلَكِنْ عَوَّدَتْهُ الْأَيَّامُ أَنْ تَسْتَبِيدًا
مَنْعَتْ مِصْرَ أَنْ تُتَوَجَّجَ مِصْرُ وَأَبَى النِّيلُ أَنْ يُحَرَّرَ وَرَدًا
فَمَاذَا يَرِيدُ بِالْبَيْتِ الْآخِرِ ؟

(١٤) وَقَوْلُهُ فِي وَصْفِ الْقَذَائِفِ الْحَرْبِيَّةِ : —

قَذَائِفُ تُخَشَى مَهْجَةُ الشَّمْسِ كُلِّهَا عَلَتْ مَصْعِدَاتٍ أَنْهَا لَا تُصَوَّبُ^(١)
(١٥) مَجْدُ الْأُمُورِ زَوَالُهُ فِي زَلَّةٍ لَا تَرْجُ لَأَسْمِكَ بِالْأُمُورِ خُلُودًا
فَمَا الْمَعْنَى ؟ لَعَلَّهُ يَرِيدُ بِالْأُمُورِ (الْأَوَامِر) فَيَمْنُكَشِفُ الْمُرَادَ .

(١٦) وَقَوْلُهُ فِي وَصْفِ شَعْرِ غَزَلَى : —

(١) أَى : أَنَّ الشَّمْسَ تُخَشَى أَنْ تُصِيبَهَا الْقَذَائِفُ ؛ فَتَفْتِكُ بِهَا إِذَا لَمْ تُصَبَّ أَهْدَافُهَا ،
وَسَارَتْ مَصْعَدًا .

ونسب تحاذر الفيد منه شرك الحسن ، أوشبك الدلال
(١٧) ومن بدائع شوق الفتاة التي يشوبها الغموض ؛ بسبب وفرة أسماؤها
وأعلامها — سيدنته التي قالها في منقاه ، يعارض سينية البحترى .
فهي على روعتها وفنتها تضم نحو خمسين اسما وإشارة تاريخية في أبياتها
التي تبلغ عشرة ومائة . فوق ما يسىء إليها أحيانا من خيال مُعقد ،
أو لفظة مُحجبة ، أو قافية مقهورة . وفيها يقول : —

وسلام مصر ؛ هل سلا القلب عنها أو أسا جرحه الزمان المؤسسى
كلما مرت الليالى عليه رقى . والعهد فى الليالى تقسى
مستطار إذا البواخر رنت^(١) أول الليل ، أوعوت بعد جرس
راهب فى الضلوع ، للسفن فطن كلما ثرن شاعهن بنقس

.....

نفسى مرّجل ، وقلبي شراع بهما فى الدموع سيري وأرمى
واجعل وجهك (المنار) ومجرا ليد (الثغر) بين (رمل) و (مكس)
وطني لو شغلت بالخلد عنه نازعتني إليه فى الخلد نفسى
وهنا بالفؤاد فى سلسبيل ظما للسواد من (عين شمس)
شهد الله لم يغب عن جفونى شخصه ساعة ، ولم يخل حسى
يصبح الفكر (المسلة) ناديه ، و (بالسرحة الزكية) يرمى
وكأنى أرى الجزيرة أينكا نغمت طيره بأرخم جرس

(١) كان فى منقاه يسكن بيتا قريبا من ميناء السفن .

هي (بلقيس) في الخيال صرخ من عباب ، وصاحب غير نكس
 حسبها أن تكون للنيل عرسا قبلها لم يجن يوما بعرس
 ليست بالأصيل حلة وشي بين صمءاء في الثياب ، وقس
 قدّها النيل ؛ فاستتحت ؛ فتوارت منه بالجسر بين عري ولبس
 وأرى النيل (كالعقيق) بوادييه ، وإن كان كوتر المستحسن
 ابن ماء السماء ، والوكب الفخيم الذي يحسر الميون ويخشي
 لا ترى في ركابه غير من بجميل ، وشاكر فضل عرس
 وأرى (الجزيرة) الحزينة ثكلى لم تنق بعد من مناساة (رمسي)^(١)

ومنها : —

وعظ (البحتري) إيوان (كسري) وشفتني القصور من (عبد شمس)
 ربّ ليل سریت ، والبرق طرقي وبساط طويت ، والريح عني
 أنظم الشرق في (الجزيرة) بالفر ب ، وأطوى البلاد حزنًا لدّس
 في ديار من الخلائف دريس ومنار من الطوائف طمس
 وربّا كالجنان في كنف الزيتون خضر ، وفي ذرا الكرم طلس

(١٨) ومن طرائفه الساحرة أندلسيته الفونية التي يعارض بها نونية
 ابن زيدون ، والتي أطلق فيها خياله ؛ يتدع ، ويتسكّر ما شاء له
 القدرة ، والحرية ، والبراعة التي أغرته بالجموح حيناً . وفيها يقول :
 ياساري البرق ؛ يرمى عن جوانحنا بعد الهدوء ، ويهيم عن مآقينا

لما ترقق في دمع السماء دنا
الليل يشهد لم تهتك دياجيه
والنجم لم يرنا إلا على قدم
بالله إن جئت ظلماء النباب على
ترد عنك يداه كل عادية
حتى حوتك سماء النيل عالمة
وأحرزت شغوف اللازورد ، على
وحازك الريف أرجاء مؤرجة
فتف إلى النيل ، واهتف في خمائله
وأس مابات يذوى من منازلنا
وفيها يقول :

نحن اليواقيت ؛ خاض النار جوهرا
ولا يحول لنا صبغ ، ولا خلق
لم تنزل الشمس ميزانا ، ولا صعدت
ألم توعل على حافته ؟ ورأت
إن غالت شاطئيه في الضحا لبنا
وبات كل مجاج الواد من شجر
ولم يهن بسند التشيت غالينا
إذا تلون - كالهرباء - شائنا
في ملكها الضخم عرشا مثل وادينا
عليه أبناءها الغر الميامينا ؟
خمائل السندس ، الموشية ، الغينا
لوافظ القز بالخيطان ترمينا

وبهذه المناسبة نقول : إن خيال شوق باد في مختلف قصائده ؛ شأن
الذين أتيحت لهم ثقافته وسياحاته ، ومتمعه ، ووسائل حياته . بيد أن خياله

في شعر الطور الأول (قبل المنى) أضعف ظهوراً ، وأقل براعة ، وأهدأ حركة — من شعر الطور الثاني الذي يبدو الخيال فيه واضحاً ، قويا ، نشيطاً . وقد يتجاوز النشاط حدَّ الفراهة المحمود إلى حد الجوح والشلل كما قلنا . ومن أمثلة شعره في الطور الأول قوله يخاطب القمر من سفينة مجرب البحر : -

الماء والآفاق حولك فضة والشهب دينار لدى دينار
والفلك مشرقة الجوانب في الدجى يبدو لها ذيل من الأنوار
بيننا تَخَطَّرُ في لَجَيْنٍ مائج إذ تنثني في عسجد زخار
وقوله في الحرب المثنائية اليونانية يمدح الترك ويصف حصنا : -

حَمَّةٌ لَيُوثٌ من حديدٍ تركزت على عجل ، واستجمعت تترقب
تَأَبَّى ؛ فظان العالمون استحالة وأعيى على أوهامهم ؛ فترَبَّوا
فما في القوى أن السموات تُرْتَمَى بجيش ، وأن المِجْمُ يُفْشَى ؛ فيغضب
سَمَوْنُهُمْ إِلَيْهِ ، والقنابل دونهُ وشهب المنايا ، والرصاص المصوب
فكنتم يواقيت الحروب كرامة على النار ، أو أنتم أشد ، وأصلب

ومن هذا قصيدته في وصف المرقص وأولها : -

مال واحتجب وادعى الغضب
ليت هاجري يذكر السب

وقصيدته في وصف (البال) وأولها : -

خَفَّ كأسها الحَبَبُ فهي فضة ذهب

وقصيدته في المطرية وأولها : —

يا ناشر العلم بهذى البلادِ وَقَفَّتْ ؛ نَشْرُ الْعِلْمِ مِثْلُ الْجِهَادِ
ومن أمثلة الطور الثاني (غير ماسبق) قصيدته في الخلافة التي ألفها الترك
بعد انتصارهم على أعدائهم عقب الحرب الأوروبية الأولى (وقد أشرنا إليها
قبلاً) ومطلعها : —

عادت أغاني العُرسِ رَجَعْ نَوَاحِ وَنُعَيْتِ بَيْنَ مَعَالِمِ الْأَفْرَاحِ
كَفَنْتِ فِي لَيْلِ الزَّفَافِ بِثَوْبِهِ وَذَفَنْتِ عِنْدَ تَبَلُّجِ الْإِصْبَاحِ
شُيِّعَتْ مِنْ هَلَعٍ بِمَبْرَةِ ضَاحِكٍ فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ ، وَسَكْرَةِ صَاحِ

وقصيدته في أبي الهول ، ومنها : —

أبا الهولِ ، وَيَحْكُ !! لَا يُسْتَقَلُّ مَعَ الدَّهْرِ شَيْءٌ ، وَلَا يُحْتَقَرُّ
تَهَزَّاتُ دَهْرًا بِدِيكَ الصَّبَاحِ فَتَقْطُرُ عَيْنِيكَ فِيمَا نَقَرُ
أَسَالَ الْبَيَاضَ ، وَسَلَّ السَّوَادَ وَأَوْغَلَ مِنْقَارَهُ فِي الْحُفَرِ
أَبَا الهولِ ، أَنْتَ نَدِيمُ الزَّمَانِ نَجَى الْأَوَانِ ، سَمِيرُ الْعُصْرِ
بَسَطْتَ ذِرَاعِيكَ مِنْ آدَمَ وَوَلَيْتَ وَجْهَكَ شَطْرَ الزُّمَرِ

وكقصيدته في تذكريم بعض الوطنيين ، وأولها :

وَطَنٌ يَرِفُ هَوًى إِلَى شَبَابِهِ كَالرُّوضِ رِقَّتُهُ عَلَى رِيحَانِهِ
هُمْ نِظَامُ حَلِيَّتِهِ ، وَجَوْهَرُ عِقْدِهِ وَالْعِقْدُ قِيَمَتُهُ يَتِيمُ جُمَانِهِ

وقصيدته التي عنوانها : اعتداء^(١) ، ومطلوها :

نَجَا وَمِثَالِ رَبَّانِيَا وَدَقَّ الْبَشَائِرُ كِبَانِيَا
وَهَلَّلَ فِي الْجَوِّ قَيْدُوهَا وَكَثُرَ فِي الْمَاءِ سَكَانِيَا

.....

ومن أظهر أمثلة الخيال قصيدته في وصف مشاهد الطبيعة^(٢) ومنها :

وَلَقَدْ تَمَرُّ عَلَى الْغَدِيرِ تَخَالُهُ وَالنَّبْتُ مِنْ آةِ زَمْتِ بِطَارِ
خَلَوِ التَّسْلِسِ مَوْجُهُ وَخَرِيرُهُ كَأَنَّا نَسِلُ مَرَّتْ عَلَى أَوْتَارِ

والله خيال نصيب مخمرد في أكثر أبيات القصيدة :

وقوله في أبي الهول وقد أوغل الخيال : —

لَمِبَ الدَّهْرُ فِي ثَرَاهُ صَبِيًّا وَاللَّيَالِ كَوَاعِبًا خَيْرَ غُثِّ
رَكِبْتُ صَيْدُ الْمَقَادِيرِ عَيْنِي وَالْمَقْدِ ، وَتُخَدِّعِيهِ إِمْرَسِ

وغير هذا من قصائد الطور الثاني التي يمتزج الخيال فيها ، ويجود ، ويمرح ، وقد يجمع كما سبق . وشوق في خياله الهادئ ، أو الجامح خير من المتنبي ، وأقدر . فكيف به في الخيال الفاره الذسيط ؟

أما طرافة المعاني الشوقية ، واستقامتها ، ومناسبتها لموضوعها ، وعصرها - فليست موضع جدل ؛ فكل شعره ناطق بها . وَالْبَوْنُ بينه وبين المتنبي

(١) قالها حين ضرب الزعيم سعد زغلول باشا برصاصة من شاب أحق فأصابته

ولكنها لم تقتله . (٢) ج ٢ ص ٤٣ .

شائع . وأمامك الدليل من قصائده : (توت عنخ آمون) و (انتحار الطالبة)
و (الأندلسية الجديدة) ... وأمثالها .

غير أني ألحظ في مدائح شوقي وبعض موضوعاته الأخرى ما لحظته
في مدائح المتنبي من النعوت الشائنة المرددة ؛ كوصف الممدوح بأنه كريم
كالبحر ، فياض كالنيت ، عالي المنزلة كالنجم ... ، وأشياء هذا مما قد يقوم
لها فيه وجه المذر أحيانا ؛ لسبب الشاعر عن أن يجد في التشبيه أكل وأنسب
من هذه في موضوعها ؛ فليس أغزر من البحر ، ولا أغدق من المطر ،
ولا أهلى من النجم ... وإن يحول الشيوخ والابتذال دون هذا التشبيه الذي
لا غناء منه ، حتى يهتدى الناس إلى ما يضارع البحر ، والمطر ، والنجم ،
وأشباهها — في المزايا ، أو يفوقها . وعندئذ يستغنون عن الشائع القديم ،
ويستبدلون به الجديد . ولكن هذا لا يفي « شوقي » من تهمة التقصير
إعفاء تاما ؛ فقد كان أمامه منافذ للتجديد والتوليد لم يدخل منها إلا قليلا ؛
حيث تسال إلى بعض المعاني الشائعة المرددة ، وتناولها بالصقل ، أو التوليد ،
وحسن التصرف ؛ فبدت كأنها الجديدة المبتكرة . كقوله في قصيدة الحجاب
والسفور يحصف الكنار ، وهي (مثال لخياله أيضا) :

فوق الأسيرة والمنا برِ قَطُّ لم تترجل
تهتز كالدينار في مرتجج لحظ الأحوال
وإذا خطرَت على الملا عيب لم تدع لممثل
ولقد تخذت من الضحَا صفر الفلائل ، والحقلي
ورويت في بيض القلا نس عن هذا رى الهيكل

فإذا وراء هذه الأبيات من المعاني إلا وصفه العصفور بأنه حبيس ،
يظل واقفا فوق الأسلاك ، مضطربا لا يهدأ . يتحرك ، وينفث ، ويصيح
في براعة تفوق براعة الممثل . أصفر الريش ، أبيض الرأس ؟ وكلها معان ،
وأوصاف مألوقة ، بل مبدولة . ولكن الصقل والتوليد جمالا منها شيئا
جديدا ، أو كالجديد .

وكتوله متغزلا :

أذكرت هرولة الصبابة والهوى	لما خطرني يقبلان خطاك ؟
لم أدر ما طيب السناق على الهوى	حتى ترفق ساعدي ؛ فطواك
وتأودت أغصان بانك في يدي	وأحمر من خفريهما خدك
ودخلت في إياين ؛ فرعك ، والدجى	ولشدت — كالصبح المنور — فأك
ووجدت في كنهه الجوامح نشوة	من طيب فيك ، ومن سلاف لماك
ونعطلت لغة الكلام ، ونأطبت	عيني في لفر الهوى عيناك

.....

فهل في هذه الأبيات الرائعة المعاني إلا هرواته وراءها ، ومناقبتها ،
وأنها بارنية القوام ، حمراء الخلد ، سوداء الشعر ، مضيئة الثغر ، طيبة
الفم ، خرية الريق ؟ وأن دهشة اللقاء ، والسرور به — عقدا لسانهما
عن الكلام ؛ فاكتفيا بالنظرات ؟ وهل في هذا كله معنى جديد غير
معروف ؟ اللهم لا . ولكنها البراعة والصقل ؛ خلقته خلقا آخر ، وعرضته
علينا عرضا قشيبا طريفا . وما أكثر هذا في الشوقيات .

أما حفظ « شوقى » من توفية المنى ، وإرضاء الفكر — فكحظ المتنبي ، أو أحسن قليلا . يعرض الصعاب عرضاً تجملها ، ويتناولها برفق ، ويتعسف عنها بغير استيعاب ، ولا تفصيل ، ولا ربط ، ولا تعليل . وإذا كان هذا عيبا كبيرا ، وقبحا ظاهرا فى المتنبي — فهو فى شوقى أكبر وأظهر ؛ لنصيب شوقى الأولى من الثقافة ، ولعصره الذى يروج بأسباب الحضارة ، ولا يرضى بإهمال الفكر فى النتاج الأدبى الخالص .

واقدر قلنا إن المتنبي بعيد عن الفلسفة بمعناها العالى ، ولم يكن له رأى فيها ، ولا فى مذاهبها إلا إن جملنا مسلكه فى الحياة ، وحكمه على الناس — مذهباً يدعو فيه إلى العنف والجبروت . وشوقى مثله من هذه الفاحشة ؛ ليس له مذهب فلسفى خاص ، ولا رأى ذاتى ينفرد به ، إلا لمحات نفسية عابرة ليست من صميم الفلسفة ؛ وإن كانت منها بسبب . وأظهر ما يتردد فى شعره رأيه فى الملاينة ، والموادّة ، والفرار من الإيذاء . فهو على النقيض من رأى المتنبي .

ومن الشوقيات التى فازت ببعض الاستيعاب ، والمنطق الفلسفى — قصيدته فى سجناء الوطنية الذين احتملوا من أجلها أنواع الشقاء والتعذيب إلى أن أطلق سراحهم ، وفيها : —

قَالُوا : أَتَنْظُمُ لِلشَّبَابِ تَحِيَّةً	تَبَقَى عَلَى جِيدِ الزَّمَانِ قَصِيدَا ؟
قُلْتُ : الشَّبَابُ أَنْتُمْ عِقْدُ مَآثِرٍ	مِنْ أَنْ أَزِيدَهُمُ الثَّنَاءَ قَصِيدَا
قَبِلْتُ جُهْدَهُمُ الْبِلَادُ ، وَقَبِلْتُ	تَاجًا عَلَى هَامَاتِهِمْ مَعْقُودَا
خَرَجُوا ؛ فَمَا مَدُّوا حَنَاجِرَهُمْ ، وَلَا	مَنُّوا عَلَى أَوْطَانِهِمْ مَجْهُودَا

ما كان أفطنهم لكل خديمة !! وأكل شرّاً بالبلاد أريدا !!
جاذوا بأيام الشباب ، وأوشكوا بتجاوزون إلى الحياة الجودا

.....

وأبياته من قصيدة محمد علي : —

حبذا دولة ، ومُلك كبير أنت ناني رُكنيّهما ، يا مُحَمَّدُ
ولوا في البر والبحر يُعطى مظهر الشمس في الوجود ، وأزِيدُ
تَدْخُلُ الأرضُ فيه قَطْرًا قَطْرًا مَدْخُلُ الناسِ في شريعة أحد
تَمَلُّ الأرضَ صافناتٍ ، وتَجْرِي لك في البحرِ كلُّ بُرْجٍ مُشِيدُ
علمت مصرُ ، والحجازُ ، وأرض الثوب ، والشام — أن عهدك عَشِيدُ

.....

وقصيدته في الفلاء : —

عبادك .. رَبِّ — قد جاعُوا بِمَضْرِي أُنِيلاً سُقَّتَ فِيهِمْ ، أم سَرَابًا ؟
حنانك ، واهْدِ لِلْحُسْنَى تِجَارًا بها ملكوا المرافق والرقابا
أَمَنْ أَكَلِ الْيَتِيمَ لَهُ عِقَابٌ ومن أَكَلِ الْفَقِيرِ فَلَا عِقَابًا ؟

.....

وكذلك أبياته الأولى في وصف الصحف ، وأبياته في وصف الصحراء

من قصيدة رحالة الشرق^(١) ...

لكن أي استيعاب وأي منطق يُرضى الفكر في قوله يمدح السلطان عبد الحميد :

(١) وأولها :

كم في الحياة من الصحراء من شبه كلتاها في مفاجاة الفتي شرع

نهضت بهرش ينهض الدهر هونه
مكين على متن الوجود ، مؤيد
ترقت له الأسواء ؛ حتى ارتقيته
فكنت كمين ذات جري ، كيفة
مؤكلة بالأرض ، تنساب في الثرى ؛
فأحييت ميتاً ، دارس الرسم ، غابراً
وشدت منارا للخلافة في الوري
خشوعاً ، ونشأه الليالي ، وترهب
بشمس استواء ؛ ما لها الدهر مغرب
فقمت بها في بعض ما تنكب
تفيض على مر الزمان ، وتغذب
فيحيا ، وتجري في البلاد ؛ فتخصب
كأنك فيها جئت عيسى العروب
تشرق فيهم شمس ، وتغرب

فأين الاستيعاب ، والتفصيل ، والتعليل ، والربط في معاني هذه
الآبيات ؟ أليست جملة ، مبهمة ، مرسل . فما تلك الأسواء التي تنكبهما ؟
وما خيراته التي أحييا بها الدارس وكان بها كمين الذي أحييا الموتى
بإذن الله ؟ ...

وقوله في براءة مرقص بك فهمي في تهمة نسبت إليه ، ومنعته من
الاشتغال بالحاماة إلى أن ظهرت براءته : —

قل للمبرأ مرقص : أنت النقي من الطبع
هذا القضاء رماك باليمن ، وباليسرى نزع
هذا قضاء الله ممثلاً الحكومة ، متبع
عد للمحاماة الشريفة عود مشتاق ولع
والبس رداك طاهراً كدء مرقص في البيع

فهل يكفي في مثل هذا الموقف أن يقول له : أنت النقي ، وأنت الولع
بالحاماة ، وأنت ، وأنت ... من غير تفصيل ؟ فما مظاهر النقاء عند مرقص ؟

وما دلائل براعته وولعه بالحمامة ؟ وما آثاره فيها ؟ وما سبب اتهامه ؟
ومثل هذا قصيدته التي عنوانها : (إلى عرفات) . وقصيدته في نابليون
وغيرها من القصائد ؛ ولا سيما التي صدرت في الطور الأول من حياته ،
والتي قرّبت الشبه بينه وبين المتنبّي من هذه الناحية .

وجدير بنا — ونحن نتكلم عن المعنى وتفاهته ، وانحلال وعجزه ، والفلسفة
والمنطق وضمنهما — ألاّ نُلقيّ التّبعة كلّها على الشاعر وحده (المتنبّي ، أو :
شوقي ، أو : غيرها) فإن الإنصاف يقتضينا أن نشرك به في احتمالها :
نظام القصيدة في الشعر العربي ، والبيئة التي يعيش بين أهلها .

فأما نظام القصيدة العربية فدقيق : يفرض على الشاعر قيوداً صعبة ،
عنيفة ؛ تكاد تبلغ حد الإرهاق ؛ كما أشرنا من قبل .

وأما البيئة فلأن الشاعر يتأثر بها ، ويعمل جاهداً لإرضاء أهلها ؛
فإن كانوا جهلاء لم ينالوا حظاً محموداً من الثقافة العامية والأدبية فإنهم
لا يرضون عن الشاعر الفنى المعنى ، المنطقى الفكرة ، الفسيح الخيال ؛ لأنهم
لا يفهمونه ، ولا يستطيعون مسايرة خياله ، وكشف دقائقه في التصوير والابتكار ،
ويرونه مُلقِزاً مُعَمِّياً ؛ ولعل هذا سرّ إقبال العامة وأشباههم من أهل عصرنا على
شعر «حافظ إبراهيم بك» أكثر من شوقي^(٢) وكذلك الشأن في العصور الأخرى .
ولهم العذر ؛ فليس العقل الضعيف إلا كلمة الضعيفة ؛ لا تطيق
دسم الطعام ، ولا تحتمل الكثير منه ، وإن كان غنيا بالعناصر الغذائية
المفيدة . ومن ثمّ كان الشاعر مضطراً أن يجارى بيئته إلى حدّ ، ويرضيها
بقدر ؛ وإلا انصرفت عنه ولم يكن لشعره الأثر المُبتَغى .

(١) ص ١٦٤ . (٢) مع أن «حافظا» نفسه كان من المفتونين « بشوقي »
السباقيين إلى الاعتراف بإمارته ، ومبايعته بالزعامة الأدبية .

ولم تكن البيئة المصرية (ولا العربية عامة) أيام (شوقي) تَسِينُغُ
الغزير السميح من المعاني والأخيلة ؛ إذ الأُسَيَّةُ شائعة ، والجهالة الأدبية غالبة ،
وانصراف التلة المثقفة إلى أسباب الحياة المادية عامٌ شامل ، والأديب
في صدر ذلك العصر — غريب ، أو : كالغريب ، والثقة به وبالأدب
وآثاره واهية مزعزعة أمام العاصم المادية ، وشئون الحياة العملية . ولم
يَشُقَّ الأدب العربيّ طريقه في موكب الحضارة ، ويسترد مكانته — إلا بعد
الحرب العالمية الأولى ، وما تلاها من نهضات قومية لا تزال تسير قدماً نحو
تحقيق أهدافها النبيلة .

كذلك كانت البيئة أيام المتنبي . ولكنها أفضل وأسلم من البيئة أيام
شوقي ؛ لقرب الأولى من عهود اللغة الفصحى ، وقرب الأعراب الخلص
من حدود ممالكها ، وكثرة معاهد العلوم العربية ورجالها في المدن والحوضر ،
وعدم تداول الغزاة الأجانب عليها وفرض لغاتهم على سكانها ؛ لهذا كله
كثرت شعراؤها وأدباؤها ، والبارعون في كل علم وفن .

فن النصفنة أن نخفف الملام عن الشعراء ، ونلقمهم لها من الأمرين
السالفين (نظام القصيدة ، والبيئة) بعض العذر . بل قد نحمد لها تقدير الملائات ،
والمؤاممة بين دواعي الفن وضررات العصر . أو : كما يقول البلاغيون :
مراعاة المقام . ونحن حين نرميها بالتقصير إنما نتطلب منهما الكمال المرجو
من مثلها ، ونقيسهما إلى أقران لها برعوا في بعض النواحي التي بدا فيها
تقصيرها ؛ كالفلسفة بالنسبة المعري مثلاً فقد تخلفا عنه فيها ...

* * *

بقيت الماطفة ومبلغ تدفقها في الشوقيات ، وسريان تيارها في القصائد
والأبيات . والذي ألاحظه أنها فائرة ، خامدة في كثير من شعر شوقي ؛
لا تتأجج ، لا تتدفق إلا في :

(أ) النواحي الوطنية والدينية (ب) وصف متاعبه وما يلقي من أهوال
(ج) وراثته لأهله ، وخاصة نفسه ، واستحباب نعمائه (د) وبعض الغزليات .
فإن جاوزنا هذه المباحي رأينا شعرا لا عاطفة فيه ولا روح : —

(أ) فمن وطنياته قوله وهو منفي :

لكن مصر وإن أغضت على مقية
على جوانبها رقت تماثدا
ملاعب مريحت فيها ماربنا
ومطالع السعود من أواخرنا
بنّا ؛ فلم نخل من روح يراو حنا
من مصر ، وريحنا يعادينا

... ..

ياسارى البرق ؛ يرمى عن جوانبنا
لما تفرق في دمع السماء دما
الليل يشهد لم تهتاك دياجيه
والنجم لم يرنا إلا على قدم

... ..

بالله إن جبت ظلماء العباب على
مجانس النور كحدوا مجبرينا (١)

... ..

فَقَفْتُ إِلَى النِّيلِ ، وَاهْتَفْتُ فِي خَمَائِلِهِ وَانْزِلْ كَمَا نَزَلَ الطَّلُّ الرِّيحَيْنَا
وَأَسِرَ مَا بَاتَ يَدْوَى مِنْ مَنَازِلِنَا بِالْحَادِثَاتِ ، وَيَضْوَى مِنْ مَغَانِينَا

... ..

وكل هذه القصيدة فياض بالمعاطفة ، مُتَرَعِّع بالشعور الوجداني الدِّفَاق .
أما شعره الديني العاطفي فأظهر مثال له قصيدته المشهورة : (نهج البردة)
فوق ما له من أبيات منشورة خلال القصائد الأخرى .

ففي نهج البردة يقول : —

إِنْ جَلَّ ذَنْبِي عَنِ الْفُفْرَانِ لِي أَمَلٌ فِي اللَّهِ يَجْعَلُنِي فِي خَيْرِ مُعْتَصِمٍ
أُلْقِي رَجَائِي — إِذَا عَزَّ الْمُجِيرُ — عَلَى مُفَرِّجِ الْكَرْبِ فِي الدَّارَيْنِ ، وَالْغُفَمِ
إِذَا خَفَضْتُ جَنَاحَ الذِّلِّ أَسْأَلُهُ عَزَّ الشِّفَاعَةَ لَمْ أَسْأَلْ سِوَى أَمَمٍ ^(١)
وَإِنْ تَقَدَّمَ ذُو تَقْوَى بِصَالِحَةٍ قَدَّمْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ عِبْرَةَ النَّدَمِ

... ..

وفي عرفات يقول : —

لَكَ الدِّينُ يَا رَبَّ الْحَجِيجِ ؛ جَمَعْتَهُمْ لَبِيتَ طَهُورِ السَّاحِ ، وَالْعَرَاصَاتِ
دَعَانِي إِلَيْكَ الصَّالِحُ ابْنُ مُحَمَّدٍ ^(٢) فَكَانَ جَوَابِي صَالِحَ الدَّعَوَاتِ
وَخَيَّرَنِي فِي سَابِحٍ ، أَوْ : نَجِيمَةٍ إِلَيْكَ ؛ فَلَمْ أَخْتَرْ سِوَى الْعَبْرَاتِ
وَقَدَّمْتُ أَعْذَارِي ، وَذُلِّي ، وَخَشْيَتِي وَجِئْتُ بِضَعْفِي شَافِعَا ، وَشَكَاتِي

(١) أمر يسر .

(٢) الحديوي عباس بن محمد توفيق ، وكان قد دعا الشاعر لمرافقته في الحج ؛ فاعتذر .

ويارب ، هل تُفني عن العبد حجةً
وتشهد ما آذيتُ نفساً ، ولم أضِرْ
ولا غلبتني شقوةٌ ، أو سعادةٌ
ولا جال إلا الخيرُ بين سرائري
وإني (ولا منَّ عليك بطاعة)
أبالغ فيها ، وهي عدلٌ ، ورحمةٌ
وأنت وليُّ العفو ؛ فامحُ بناصبع

وفي القمر ما فيه من الهفوات ؟
ولم أبغ في جهري ؛ ولا خطرأتي
على حكمة آتيتني ، وأناة
لدى سُدَّةٍ خيريةِ الرغباتِ
أجلُّ وأغلي في الفروض زكاتي
ويتركها الشساكُ في الخلواتِ
من الصفح ماسودت من صفحتاتي

(ب) ومن متاعبه (وهي من وطنياته أيضا) قوله في المنفى يحنُّ إلى مصر :
وسلاً مصر : هل سلا القلبُ عنها ؟
كلما مرت الليالي عليه
مستطارٌ إذا البواخرُ رنتُ
راهبٌ في الضلوع ، للشفنِ فطنٌ
يا بنة اليمِّ ، ما أبوكِ بخيلٌ
أحرامٌ على بلابله الدو
كل دارٍ أحقُّ بالأهل إلا

أو أسأ جرحه الزمانُ المؤسى ؟
رققٌ ؛ والعهدُ بالليالي تقسى
أولَ الليل ، أوعوتُ بعد جرسِ
كلما تُرنَ شاعهن بناتسِ
ماله مولعاً بمنعٍ وحبسِ ؟
حُ حلالٌ للطير من كلِّ جنسِ ؟
في خبيثٍ من المذاهبِ ، رجسِ

... ..

وطني لو شُغِلْتُ بالخلدِ عنه
وهناً بالفؤادِ في سلسبيلِ
شهد الله لم يغيب عن جفوني

نازعني إليه في انخلدِ نفسي
ظماً للسَّوادِ من (عينِ شمسِ)
شخصه ساعة ، ولم يخلُ حسبي

(ج) ومن رثائه لوالدته : —

إلى الله أشكو من عوادي النوى سهما
من الهاتكاتِ القلب أول وهلة
توارد والنساعى ؛ فأوجست رنة
فاهتفا حتى نزا الجنب ، وانزوى
أصاب سويداء الفؤاد ، وما أضمت
وما داخلت حشا ، ولا لامست عظما
كلما على سمى ، وفي كبدي كلما
فيا ويح جنبي ! كم يسيل ، وكم يدعى !!

ومن رثائه لصديقه الدكتور أحمد فؤاد : —

أمدادى الأرواح قبل جسومها :
رؤح بلفظك كل روح مذهب
قد كال للقدّر العتاب ؛ وربما
قم داو فيك فؤادى المحزون
حيران طار بابسه الناعونا
ظن الدلة بالقضاء ظنونا

... ..

الله أبقى . أين من جسدى يد
لم أنس رفق بنانيها واللينى ؟

... ..

(د) ومن غزلياته العاطفية : —

رُدَّتِ الروحُ على المضى معك
مرّ من بُعدك ما رَوَّعَنِى
كم شكوتُ البينَ بالليل إلى
وبعثتُ الشوق فى ریح الصبا
يا نعيمى ، وعذابى فى الهوى
أنت ربحى ؛ ظلم الواشى الذى
أحسن الأيام يوم أرجعتك
أترى يا ملو بُعدى رَوَّعَكَ
مطلع الفجر !! عسى أن يُظلمك
فشكا الحرقه مما استودعك
بذلولى فى الهوى ما جهحك ؟
زعم القلب سلا ، أو ضيفك

... ..

أَرْجَفُوا أَنْكَ شَاكٍ مُوجِعٌ لَيْتَ لِي فَوْقَ الضُّمْنَا مَا أَوْجَعَكَ
نَامَتِ الْأَعْيُنُ إِلَّا مَقْلَةً تَسْكِبُ الدَّمْعَ ، وَتَرْعَى مَضْجَعَكَ

تلك صُور من شعره العاطفي ، وكثير غيره لا عاطفة فيه ولا وجدان
— كما قلنا — وأظهر ما يكون ذلك في مدائحهم ومراثيهم ، ولا سيما التي يسرع إلى إعدادها
لتدرك حفلاً عاجلاً ، أو مناسبة طارئة . وفي قصائده التي يُحْمَلُ عَلَى نظمها ؛
لِدافع سياسي أو اجتماعي ، من غير أن يُؤْمِنَ بعظمة صاحبها ، واستحقاقه التمجيد ؛
فتراه يرصف القول رصفاً ، ويقذف بالأبيات جامدة الحس ، فاقدة الروح .
وَيَرْوِغُ وَيَتَهَرَّبُ ؛ فَيُضْمِنُ القصيدة أغراضاً مختلفة ، لعل أقلها وأضعفها الغرض
الذي قيلت فيه . وقد يكون من هذا النوع قصيدته التي أَلْقَيْتَ فِي تَكْرِيمِ الرحالة
المصري (أحمد حسنين باشا)^(١) بعد عودته من رحلته الصحراوية ؛ فأبياتها أربعمون ؛
تضرب في نواح شتى ؛ من سرد المخترعات الحديثة ، وأثرها ، وأهمية
الإقدام في الحياة ، ونصح الشبان . ولم يرد فيها ما يخص الرحالة إلا بيتين
في آخرها ، هما : —

أَكْبَرْتُ مِنْ (حَسْنَيْنِ) هِمَّةً طَمَحَتْ تَرُومُ مَا لَا يَرُومُ الْفَتِيَّةُ الْقُنْعُ

رحالة الشرق ، إِنَّ الْبَيْدَ قَدْ عَلِمَتْ بِأَنَّكَ اللَّيْثُ لَمْ يَخْلُقْ لَهُ الْفَرْعُ

وكرثائه للأميرة فاطمة إسماعيل^(٢) ، وفيها يقول : —

حَلَفْتُ بِالْمُسْتَرَّةِ وَالرَّوْضَةِ الْمَعْطَرَةِ

(١) الذي كان رئيس الديوان الملكي . (٢) أخت الملك فؤاد .

ومجاس الزهراء في السحظائر المنورة
مراقد السلالة الطيبة المطهرة
ما أنزلوا إلى الثرى بالأمس إلا نيرة

* * *

ولم تتجَلَّ العاطفةُ في شعر لشوقي كما تجلت في الموشح الذي اهتمصر
فيه كبده ، واعتصر فؤاده ؛ ليصف الشريب في غربته . وفي أوله يقول :

مَنْ لِنِضْوٍ يَتَنَزَّى أَلَمَّا بَرَّحَ الشَّوْقُ بِهِ فِي الْفَلَسِ
حَنٌّ لِلْبِئَانِ وَنَاجَى الْعَلَمَا أَيْنَ شَرْقُ الْأَرْضِ مِنْ أُنْدَاسِ

* * *

ومنه :

قلتُ لليل : - وليلِ عوادِ - من أخو البَثِّ؟ فقال : ابنِ فِرَاقِ
قلت : ما واديه؟ قال : الشَّجْوَادِ ليس فيه من حجازٍ ، أو عراقِ
قلت : لكانَ جفنه غير جوادِ قال : شر الدمع ما ليس يُرَاقِ

ومنه :

نَقَبْتُ الطَّيْرَ ؛ وما نَعَلْتُ ما هِيَ فِيهِ ؛ من عذابِ بَيْسِ
فدع الطير ، وحظاً قُسمَا صَيَّرَ الْأَيْكَ كدُورِ الْأَنْسِ

...

* * *

ولا يفوتني أن أسجل على شوقي عيبين آخرين لم يبلغ فيهما درجة المقتنى ،
ولم يشيما في نظمه كما شاعا في نظم قريعه ؛ هما : المبالغة الدمية حينما ، والتفاهة
حينما آخر .

فمن مبالغاتة قوله يخاطب الوطن : —

ولو أنى دعيت^(١) لكنت ديني
أديرُ إليك قبل البيت وجهي
وقوله في الخديو إسماعيل : —

حُلمٌ مَدَّهُ الكرى لك مدداً
وحياة ما غدرت لك في الأمد
وقوله في حب الوطن : —

وجه الكفانة ليس بضرب ربكم
وقوله في وصف الروض والبحر :
والروض في حجم الدنيا^(٢)
وقوله يصف قلباً بالحنان : —

قلب لو انتظم القلوب حفانه
وقوله يخاطب عرش الخلافة العثمانية بالقسطنطينية مادحا الخليفة : —

يا عرش (قسطنطين). نلت مكانة
شرفت بالصدیق، والفاروق، بل
حامی الخلافة، مجدّها، وکیانها
یا واحد الإسلام غیر مدافع
لم تُعطها في سالف الأعصار
بالأقرب الأدنى من المختار^(٣)
بالرأى آونة، وبالبتسار
أنا في زمانك واحد الأشعار

(١) طلبت للموت .

(٢) الموت .

(٣) الدنيا .

(٤) على بن أبي طالب .

ومن التوافه قوله في محمد هلى ، وما أنشأ في مصر :

والقطن مزروعا بفضل محمد في مصر ، محلوجا ، بها موزولا
وقوله :

(١) خيلُ الرسول من الفولاذِ مـلـيـنـها وسائر الخيل من لحم ، ومن عصب

(٢) وكل مسافرٍ سيثوب يوما إذا رزقَ السـلامـة والإيـابـا

(٣) ففقت أجيلُ الطرف حيران ، قائلا : أهذى تُغور الترك أم أنا أحسب ؟

(٤) فقالت شهدت الحرب أم أنت موشك ؟ فصفتنا ؛ فأنت الباسل ، المتأدب

(٥) وما هي إلا دعوة وإجابة أن التهمت ؛ والحربُ بكرو تغلبُ

(٦) إذا رأيت الهوى في أمة حكما فاحكم هنالك أن العقل قد ذهب

(٧) عبد الحميد^(١) حسابُ مثلك في يد الملك الففسور

سـلـدت الثلاثين الطوا ل ؛ ولسن بأحكم القصير

تفهي وتأسر ما بـلـدا لك في الكبير وفي الصغير

... ..

(٨) هل كلام العباد في الشمس إلا أنها الشمس ليس فيها كلام

وله قصائد عدة ؛ يغلب على كل واحدة منها الهزل والتفاهة إذا قيست

إلى أغراضها الجليلة ، وموضوعاتها الهامة التي قيلت فيها ؛ كقصيدة : الجامعة^(٢) ،

وقصيدة : وداع (فروق^(٣)) ، وقصيدة : كرومر^(٤) ، ومقطوعة : (يانصيب^(٥)) .

وكقوله : — (في الهلال)

(١) قال هذه الأبيات في الخليفة العثماني عبد الحميد بعد إسقاطه عن عرش السلطنة .

(٢) ج ١ ص ١٨٠ . (٣) ج ١ ص ١٨٣ . (٤) ج ١ ص ٢٠٩ .

(٥) ج ٤ ص ٨٩ .

مفتواضع ، والله شرف قدره بالشمس ندًا ، والكواكب آلا
 متودد عند الكمال ؛ تخاله في راحتك . وعز ذلك منلا
 وكقوله في مطلع قصيدة يودع بها الخديوي حين اعتزم الحج : —
 إلى عرفات الله (يا بن محمد) عليك سلام الله في عرفات
 وكقوله في مطلع قصيدته في احتفال الجامعة القديمة أيام الخديوي عباس : —
 يا بارك الله في عباس من ملك وبارك الله في عمات عباس
 وقوله : —

يا أهل مصر كلوا الأمور لربكم فالله خير ثمنًا ومقيماً — لا
 سمحان من لا عز إلا عزة يبق ، ولم يك ملك ليزولا

* * *

ولكن شوقي صاحب تلك التوافه القليلة هو شوقي صاحب الروائع الكثيرة
 الذي ينطق بالحكمة وفصل الخطاب . ولك في قصيدة : نابليون ، وقصيدته
 التي ألقاها في حفل تكريمه ، وقصيدته في مسجد أياصوفيا ، وقصيدته الحائية
 في خلافة الإسلام ، وأشباهاها من خالد القصائد — ما ينهض دليلاً أي دليل
 على صحة ما نقول .

(٤) الموضوعات والأغراض التي عالجها الشاعران ؟

طريقتيهما في ذلك (١)

نظم المتنبي شعره في الموضوعات التي سبق إليها الجاهليون ، ومن تبعهم إلى آخر الدولة الأسوية ، والتزم أغراضهم ، وحافظ على ما يسميه القدّامى : (عمود الشعر) ؛ يسميه المحدثون : (الشكل، والموضوع).

(١) فأما من حيث الشكل فقد سلك مسلكهم في تأليف الجمل ، واختيار الأساليب ، واستخدام الوسائل البلاغية كما كانوا يستخدمونها ، ووزن شِعره بموازين بحورهم ، وأخضعه لحدود قوافيهم ، ولم يتناول شيئاً من ذلك كله بالابتكار ، أو التجديد ، أو الإصلاح كما تناوله بشار ، ومسلم ، وأبو تمام ، والنواصي ، وابن المعتز ، وغيرهم من المجددين المصلحين قبله . فليس له من هذه الناحية فضل يميز به . فكل عمله أنه تلقى التراث الأدبي القديم فالتزمه ، وحافظ عليه ، بل ربما أساء إليه أحيانا بلطفة مَعِيبة ، أو أسلوب مُجَرَّح ، أو استعارة قبيحة ، أو كناية خفية ، أو صفة بلاغية سيئة ، أو بحر غير مناسب للموضوع ، أو قافية تائّرة (وما أكثر ما يسيء اختيار البحر والقافية) أو غير ذلك مما بيناه بإفاضة وتفصيل عند الكلام على الألفاظ والمعاني ...

(ب) وأما من حيث الموضوع فنرى الأغراض الشعرية التي نظم فيها القصائد هي الأغراض السبعة المأثورة عن الجاهليين والأمويين ؛ أخذها عنهم ، وأفرط في واحد منها (هو : المدح) الذي بلغ تسعة أعشار قريضه .

(١) سأقتصر في هذا البحث على ما يفيد العنوان ، ولن أتعرض لغيره من محاسن الألفاظ ، والمعاني ، وعيوسهما ، وما يتصل بهما ؛ فقد أطلنا بحمته أول الكتاب .

وفُرِّطَ في آخر (هو : الوصف) مع جلال شأنه ، وشدة الحاجة إليه ،
 (ولا سيما في العشر السباسي الذي عاش فيه المتنبي ، ورأى من مشاهدته ،
 وآثار حضارته — ما يحتاج للتسجيل) . واعتدل في باقي الأغراض ؛
 برغم كثرة هجائه ، وراثته . ولكنهما لم يبلغا من الكثرة المددبة نصف
 المدائح . وإكثاره من هذه الأغراض الثلاثة التي حنّزه إليها حافز
 شخصي بحث ؛ هو : رضاه أو غضبه — دليل أي دليل على أنه شاعر
 ذاتي لا إنساني ؛ يُسرف في الشعر ويُقترّ للمدائح خاص به ، لا يبالى
 بأشاركة الناس فيه أم لم يشاركوه . على أن إسرافه إنما يقع في عدد
 القصائد ؛ لا في عدد أبيات القصيدة الواحدة ؛ فالمتنبي قصير النفس ،
 ضيق الباع في القصيدة ، لا يطيلها ، وقل أن يتجاوز بها الأربعين بيتا .
 والعيب في موضوعات المتنبي الشعرية ليس قسراً على أنها قديمة ،
 مبدولة ، وأنها مُشَوَّهة الألفاظ أو المسماني ، وأن المدائح مسرفة ،
 والأوصاف قليلة وغيرها معتدل ؛ بل يمتدُّ إلى أمور أخرى تَمَسُّ صميم
 تلك الأغراض ، وكيانها . وإليك إيضاحاً شافياً ، وتفصيلاً وافياً : —

إن قصيدة المتنبي تُبنى لفرض واحد أساسي ، ولكنها لا تقتصر
 عليه ؛ بل تشمل إلى جانبه — في الأكثر — أغراضاً أخرى كما كان
 يفعل القدماء :

(١) فقد يبدأ قصيدته بالانزِل — ؛ تشويقاً للسامع ، وجلباً لانتباهه —
 ثم يتخلص إلى الغرض الذي بنى القصيدة من أجله ؛ كقصيدته في مدح
 كافور ، ومطلعها :

من الجأذُر في زِيِّ الأعرابِ حُمْرُ الحُلَى ، والطَّيَّاءِ والجلابيبِ
 إن كنتَ تسألُ شكّا في معارفها فمن بَلّالِكَ بتسهيدي وتغذيبِ ؟
 إلى أن دخل في الغرض الخاص قائلًا : —

ترعرع الملكُ الأستاذُ مَكْتَهلاً قمل اكتهالٍ ، أدبياً قبل تأديبِ
 ومثل مدحه لاهل بن منصور ، ومطامحه : —

بأبى الشَّموسُ الجانحاتُ غَوَارِباً اللابساتُ من الحريرِ جلابباً
 المُنْهَباتُ قلوبنا ، وعقولنا وَجَنَاحَتِهنَّ الناهباتِ الناهباً
 الناعماتُ ، القاتلاتُ ، المُخَيِّماتُ ت ، المبدياتُ من الدلال غرائباً
 إلى أن قال :

أُظْمِئْتَنِي ^(١) الدُّنْيَا ؛ فلما جُمْتُهَا مُسْتَسْقِيًا مَطَرْتُ عَلَى مصائبها
 وَخُبَيْتُ ^(٢) مِنْ خُوصِ ^(٣) الرِّكَابِ بِأَسْوَدِ ^(٤) مِنْ دَارِشٍ ^(٥) ؛ ففقدتُ أُمِّشِي رَاكِباً
 حالاً متى عَلمَ ابنُ منصورٍ بها جاء الزمانُ إلىَّ مِنْهَا تَائِباً

ولا عيب في محاكاة الأقدمين في تصدير القصائد بالغزل العاطفي الصادق ؛
 لئلا له من حميد الأثر . وإنما العيب أن يكون غزلاً مصنوعاً ، مبتذلاً .
 والمعتنى من هذا وذاك نصيب .

(ب) وقد يبدأ قصيدته بيماء الديار ، والوقوف على الأطلال ، ثم الانتقال

(١) أظمأتني . (٢) مبدلت .

(٣) جمع خوصاء ؛ وهي : الناقة الغائرة اليمين من التعب والمشقة .

(٤) خف أسود . (٥) نوع ردىء من جلد الضأن .

إلى الغرض الخاص ؛ كقصيدته في مدح عبيد الله بن يحيى البحتري ،
وأبياتها الأولى : —

بكيتُ ياربٍ حتى كدتُ أهلكا وجدتُ بي وبدمي في مغانيكا
فعم صباحاً ؛ لقد هيجتُ لي شجناً ورددُ تحيتنا : إنا نُحيوُكَ
بأيِّ حُكمِ زمانٍ صرتُ مُتخذاً ريمَ الفلا بدلاً من ريمِ أهليكا ؟
أيامٍ فيك شمسٌ ما انبعث لنا إلا انبعث دماً باللاحظ مسفوكا
والعيش أخضرٌ ، والأطلال مشرقةٌ كأن نور عبيد الله يعلوكا
نينا امرؤٌ — يابن يحيى — كنتُ بغيتهُ وخاب ركب ركبٍ لم يؤثوكا
والوقوف على الأطلال ، وديار الأحباب — قد يلهب الشعور الحى
بذكرياته الطيبة الخالدة ، ويهيج الوجدان المرهف ؛ فيدفع اللسان إلى
البيان الشجى . أما الذى يساق محاكاة وتقليدا فلا قيمة له ، والشأن فيه
كالغزل .

(ج) وقد يبدأ القصيدة بالغزل ، أو الوقوف على الأطلال ونحوها ؛ ثم ينتقل
إلى وصف البيد والتفار التى قطعها إلى الممدوح (مطيلا فى الوصف ،
أو مُقصرا) ثم يدخل فى الغرض الخاص ^(١) ؛ كقصيدته فى مدح الحسين
ابن إسحاق التنوخى ، ومثلها : —

هو البينُ حتى ماتأنى ^(٢) الحزائق ^(٣) ويا قلبُ ، حتى أنت ممن أفرِقُ
وقفنا ، ومما زاد بُثًا وقوفنا فريقي هوًى ؛ منا مشوقٌ وشائقُ

(١) وقد يحى الغرض الخاص قبل وصف البيد ، والتفار ، وسرد المشاق والمتاعب .

(٢) أى : تنأى وتسهل . (٣) الجماعات ، والمفرد : حزيفة .

وقد صارت الأجفان قرحة من البكا وصار بهاراً في الخدود الشقائق
إلى أن قال : —

سل البيد : أين الجن منا بجوزها (١) ؟ وعن ذي المهاري : أين منها النفاق (٢) ؟
وليل دجوجي كأنا جلت لنا محيالك فيه - فاهتدينا - السماق

... ..

(د) وقد يبدأ القصيدة بغرضها الخاص غير مسبوق بشئ ؛ كقصيدته التي

يخاطب بها كافورا ويصف الصلح الذي تم بينه وبين منافسيه : —

حسم الصلح ما اشتته الأعدى وأذاعته السن الحساد
وأرادته أنفس حال تدبيرك ما بينها وبين المراد

(هـ) وقد يستهل القصيدة بكشف خواطر تموج بها نفسه ، ثم ينتقل بعدها

إلى الغرض الخاص (وربما عرض الخواطر في موضع آخر أيضا)

وهذا النوع كثير في قصائده ، نادر في شعر القدامى ؛ كقصيدته في مدح

محمد بن سيار التي سبقت ، ومطلعها : —

أقل فعالي - بله أكثره - مجد وذا الجد فيه ، نلت أم لم أنل جد

سأطلب حتى بالقنأ ، ومشايخ كأنهم من طول ما التسموا مرد

إلى أن قال : —

وأرحم أقواما من العي والفبا وأعذر في بغضي لأنهم ضد

ويمنعني ممن سوى ابن محمد أيار له عندي يضيق بها عند

وقوله في هجاء كافور بعد مفارقة مصر ليلة عيد الأضحى :

(١) بقطعها . (٢) جمع : تنق ، وهو : ذكر النعام ، ويشتهر بسرعه .

عيدٌ بأيقِ حالِ عدتِ يا عيدُ بما سغى أم بأمر فيك تجديدا ؟
أما الأحبة فالبيداء دونهم فليت دونك بيذاً دونها بيداً
إلى أن قال : —

إني نزلتُ بكذابين ؛ ضيفهم عن القرى وعن الترحال محدود
جود الرجال من الأيدي ، وجودهم من اللسان ؛ فلا كانوا ولا الجود

* * *

وفي هذا الغرض الأصلي الذي يدنى عليه القصيدة ، وفي غيره من الأغراض ظواهر تبدو للفاحص المتمهل .

(١) ففي المداخل نلاحظ كثرة عددية في القصائد لم تقع لغير المتنبي من شعراء المديح ، والمتكسبين بالشعر ؛ على وفرتهم ، ووفرة مدائحهم . ومن ثمَّ كان المتنبي المداح الأول الذي لا يكاد يسبقه سابق في هذا الميدان العددي^(١) . ومن كان هذا شأنه تضيق أمامه ساحات المعاني الجديدة ، وتقصُر ذخائره عن إمداده بالطرائف ؛ لكثرة ما استنفد منها ، ولكثرة المداحين في عصره وقبل عصره ، ممن لم يتركوا معنى جديداً إلا اختطفوه . فأنى له المعنى الطريف الذي لم ينتزعه هو في مواقفه الكثيرة ، أو لم ينتزعه سواء من المداحين ؟

لهذا جاءت معانيه متشابهة في المواقف المختلفة ؛ يمدح هذا بما يمدح به ذلك . ويسجل في هذه القصيدة ما سجله في تلك . بل إنه ليسابه نظائره المداحين في معانيهم وأوصافهم ، ويقع معهم على هدف ؛ حتى جاءت المعاني بينهم مشتركة ، متكررة ؛ هي إلى التبدل ، والفتور الماطفي ، والبلى - أقرب ؛ وحلت

(١) إذا قسنا عدد مدائحه بغيرها من شعره .

بعض الباحثين على أن يقولوا : إن شعر المديح قد أساء إلى الأدب العربي ،
وعرض من شأنه ، ونهاية ذكره ؛ لجوده أساليبه ، وابتذال معانيه الضيقة ،
المحصورة ، الجملة ، التي لا تخصص فيها ولا تفصيل ، ولا توليد .

فالمتنبى (وهو من شعراء القرن الرابع الهجرى) يمدح عبید الله بن يحيى
البحترى فيقول فيه :

إلى ليت حرب ؛ يُلحِمُ^(١) الليث سيفه وبحر ندى ؛ فى جوده يَهْرِقُ البحرُ
تباعداً ما بين السحاب وبينفسه فنانها^(٢) قطر ، ونائله غمرُ
حتى ما يشرُ نخسوس السماء بوجهه شجرة له الشورى ، وينكسب البدرُ

فالممدوح شجاع كالأسد أو أجراً . كريم كالبحر أو السحاب بل هو
أنزر . على المكانة ، جميل كالشورى وكالبدر أو أجل . وتلك صفات
وتشبيهات أربعة نسأور الشعراء ألتأطها وسأافها من عهد الجاهلية الأولى ، وظلوا
يرددونها حتى جاء المتنبى ؛ فأنزهم عليها بمنابتهم فيها . يمدح بها عبید الله حينما ،
وسيف الدولة أو غيره حينما آخر . ومثل هذا باقى المدايح وصفات المديح .

وجدير بنا أن نقف برهة عند هذه الدعوى التي أثارها أولئك الباحثون .
لقد لامست الحق من جانب ، وزايلته من جانب آخر ؛ فصحیح أن
التشبيهات مكررة ، شائعة اللفظ والمعنى ، فجملتها ، لا تخصص فيها ، ولا تفصيل
ولسكن لأسبيل إلى الاستثناء عنها ؛ لأنها تتضمن فضائل وأوصافاً خالدة ؛
كالشجاعة ، والكرم ، وعلو المنزلة ، والجمال — محاسن لا يختص بها جميل دون
جميل ، ولا يرضى عنها قبيل دون قبيل . فالتناس قديمهم وحديثهم فى الإعجاب بها

(١) يقتل . (٢) الضمير يعود على السحاب (جمع : سحابة) .

سواء ، وسيظل شأنهم كذلك فيما تقدّر . أما تشبيه أصحابها بالأسد ، والبحر ،
والثريا ، والقمر ، وأمثالها — فلا خير فيه مادامنا نرى الأسد أشجع
الطاوقات ، والبحر أعز الأشياء مادة ، والسحاب أعما فيّضا ، والنجم أعلاها
مكانا ، والقمر أجملها وجهها ، وأوسمها ضياء . ولم ترشدنا الطبيعة حتى اليوم
إلى ما يفوق تلك الأشياء في خصائصها أو ما يماثلها . وقد نستبدل بالقمر
الشمس ، وبالسحاب حائما ، وبالشعري الشها .. كما فعل كثير من الشعراء
ورددوه — ولكن هذا لا يغير من الأمر قليلا أو كثيرا ؛ فما زلنا أمام أشياء
لامثيل لها في خصائصها وأوصافها ، ولا غنى عنها في التشبيه حتى نثر على
ما يضارعها في تلك الخصائص ، أو يفوقها . فنحن إزاء ضرورة حافزة ؛
لم نستطع التغلب عليها حتى وقتنا هذا . وليس من الإنصاف أن نؤاخذ
الشاعر بها ونحن نعترف بقسوتها ، واستحالة تذليلها . اللهم إلا أن نطالبه بشئ
من حُسن التأتى ، وسمة الخيلة ؛ وهما يدفعان إلى التوليد في المعانى الشائعة ،
وجميل التفنن في الأساليب المطروقة ؛ فيظهر القديم في ثوب الجديد ، والمبدول
في عروض المصون ؛ كما فعل ابن الرومي ، والنواصي وأبو تمام وغيرهم . ولم
يفعله المتنبي قصورا .

نعم إن الاقتصار والتحجر على تلك الالفاظ والمعانى العامة الجملة المشتركة
عيب ، والتزامهما في أغلب المدائح — كما فعل المتنبي — إسماء للشاعر وللشعر .
وكان في استطاعته أن يتصرف فيهما ، وأن يضم إلى المعانى أوصافا خاصة
بممدوحه لا تكاد تنطبق على غيره ؛ فيخفف بهذا من التعميم ، والإجمال ،
والابتدال ؛ كأن يصفه بما انفرد به بين قومه من ذكاء كهرجى ، وآثار ذكائه ،
أو عمل صالح تفرّغ له مع بيان مظاهره ، أو فضيلة لا بسما ولا بسمة ودلائلها

في حياته . وَقَلَّ أَنْ يَخْلُو ممدوح من خصائص أو ما يشبهها . أما نظم الممدوحين جميعا في سَمَط واحد من الألفاظ والأوصاف والألقاب ، وتردادها دون تفریق ، ولا تخصيص ، ولا توليد ، ولا افتنان — فذلك العيب الذي لا يجِدُ المذر . وقد توقاه المتنبي أحيانا (كمدحه ابن الحميد) وتوقاه بعض الشعراء العباسيين بل بعض الجاهليين ؛ فهذا زهير يمدح هَرَمًا والحارث لتوسطهما في وقف الحرب الدائرة بين عبس وذبيان ، واحتمال مفارمها ، فيقول :

عَيْنًا ؛ لِنِسَمِ السَّيِّدَانِ وَجِدْتُمَا على كل حالٍ من سَحِيلٍ وَمَبْدَمٍ
تداركتُمَا عبسًا وذُبيانَ بعدما تفانوا ، ودَقُّوا بينهم عِطْرَ مَنْشَمٍ
وقد قلتما إن ندرِكَ السِّلْمِ واسعًا بمالٍ ومَعروفٍ من القول نَسْلَمُ
فأصبحتُمَا منهُما على خيرِ موطنٍ بعِمدَيْنِ فيها من عقوقٍ ومَأْنَمٍ
.....

(٢) وكان من نتائج الإفراط في المدح ، واستنزاف المذخر — تهافت المتنبي ، ووهنه في كثير من مدائحه ، وبرود عاطفته ؛ فيقذف بالأوصاف قذفًا ، ويَرُصُّها رصًّا لأرواح فيه ، ولا فن ؛ كالمتعب الضجر ، يرمى بما يحمل ؛ لا يبالي أكان سائغًا أم غير سائغ . كقوله يخاطب سيف الدولة : —

كُلُّ عَيْشٍ مَالٌ تُطِيبُهُ^(١) حِمَامٌ كَلُّ شَمْسٍ مَالٌ تَكْنُهَا ظَلَامٌ
أَزِلْ الْوَحْشَةَ الَّتِي عِنْدَنَا يَا مَنْ بِهِ يَأْنِسُ الْجَيْشُ^(٢) اللَّهُمَّ^(٣)
إِنَّمَا هَيْبَةُ الْمُؤَمَّلِ سَيْفُ الدَّوْلَةِ الْمَلِكِ فِي الْقُلُوبِ حَسَامٌ^(٤)

(١) تجعله طيبا . (٢) الجيش . (٣) العظيم .

(٤) أى : كالسيف يخافه الناس .

ويقول فيه :

فليس بواصب إلا كثيراً وليس بقاتل إلا قريباً^(١)
 هل أيسر يمنع من يحيى مباركاً ، ومعه الدجوما
 على قاتل البطل المفسدنى ومبطله من الررد النجوما

ويعمد عبد الواحد بن المباس الكاتب فيقول : —

الحازم ، اليقظ ، الأغر ، السالم السفطان ، الألة ، الأريحي ، الأروما
 الكاتب ، اللبق ، الخطيب ، النَّدَس^(٢) ، اللبيب المبرزى^(٣) المبتعها^(٤)

ويعمد عبيد الله بن خراسان الطرابلسي فيقول : —

أبا النظارفو الحامين مبارشمو وتاركي الليث كلباً غير مفترس
 من كل أبيض ، وضاح عمامته كأنما اشتمت نورا على قبس
 داني ، بسيد ، محب ، مبيض ، بهرج ، أغر ، حلو ، ثمر ، لين ، شرس
 ند ، أبي ، واف ، أخى ثقبسية

جديد^(٥) ، سرى^(٦) ، نه^(٧) ، نذب^(٨) ، رضا ، نذس

ويعمد محمد بن عبد الله التاضى الأنطاكي فيقول : —

المارض المثنين ، ابن المارض المثنين ، ابسس من المارض المثنين ، ابن المارض المثنين .
 فأى شعر هذا ؟ وأى جمال أو فن فيه ؟

(١) سيداً شريفاً . (٢) الباحث الفهيم .

(٣) السيد الكريم . أو : الجليل . (٤) الفصيح

(٥) ماض في الأمر . (٦) شريف . (٧) عاقل .

(٨) مسرع عند الطلب .

(٣) ولأخبر ما قد يضطرب المتنبي ، أو ينهر نفسه ؛ فيسوق النهم في مقام المدح من سيف يدرى أو لا يدرى ؛ كقوله في مدح علي التتوني : —

يَفْضُ الطرفَ من مكِّي ودَّيٍّ^(١) كَأَنَّ بهِ — وليسَ بهِ — خُشُوعًا

فأين المدح في هذا البيت وهو يصفه بالمسكر والدَّهْي (كما يقول المكبري) ؟

(٤) وقد يمدح بما لا مدح فيه ؛ كقوله في أهداء سيف الدولة ومحمار بيه :

إذا فاتوا الرماح تناولتهم بأرماحٍ من المطشِ القِفَارُ

فأي مدح ، بل أي نخر لسيف الدولة في أن يسلم أعداؤه من رماحه ؛

فتصيدهم الصَّحاري رماحها ؟ وما رماحها إلا المطش . قد يريدُ : أنهم فرُّوا

مذعورين ، هائعين في البوادي ، يَرَوْنَ التعرض لها لسكرها أيسر وقعًا ، وأهون

هولًا من التعرض لسيف الدولة ، وهذا على حسنه — يخفف عنه الملام

ولا يدقسه .

(٥) ثم هو أحيانًا يسوق الكلام غامضًا ؛ يصلح للمدح وللذم معا . كقوله

في سيف الدولة : —

أنت الذي لو يُسأَلُ في ملإٍ ما عيب إلا بأنه بشرٌ

وقوله في مدح كافور : —

ولله سِرٌّ في علائِكَ ؛ وإنما كلام العدا ضرب من الهذيان

وأبياته الأولى من قصيدته التي يمدح بها سيف الدولة ، ومطلعها :

غيري بأكثرِ هذا الفاسِ ينخدعُ إن قاتلوا جَبَنُوا ، أو حَدَّثُوا شَجَبُوا

وقوله في كافور : —

قضى الله يا كافورُ أنك أولُ وليس بقاضي أن يُرى لك ثانٍ

وقوله في مدحيه أيضاً :

يَضِيقُ عَلَى مَنْ رَأَاهُ^(١) الْمَذْرُؤُ أَنْ يُرَى ضَعِيفَ الْمَسَاعِي ، أَوْ قَلِيلَ التَّكْرَمِ^(٢)
وغير هذا كثير .

(٦) وترى المتنبي في مدائحه يُقْجِمُ نفسه مع مدوحه ، ويمنحها حظاً من الإطراء . وقد يكون في هذا كفيه من فرسان الشعر . ولكنه بزّهم بكثرة القصائد التي شارك فيها مدوحه ، وبكثرة ما يقوله عن نفسه في القصيدة الواحدة . وقد يفسد ذوقه وبسره أدبه فيستهلها بالحديث عن نفسه وعن مزاياه ؛ كقصيدته التي مرّت بنا في مدح محمد بن سيار ومطلعاها : —
أَقْلُ فَعَالِي — بَلَهَ أَ كَثْرَةً — مَجْدُ وَذَا الْجَدُّ فِيهِ ؛ نَلَتْ أُمُّ لَمْ أَنْلَ جَدُّ
سَأَطْلُبُ حَقِّي بِالْقَنَاءِ وَمَشَايِخِ كَأَنَّهُمْ مَوْسِمٌ طَوِيلٌ مَا لَتَمَّوْا — مُرْدُ
وانبرى يتكلم عن خاصة أمره في نحو خمسة عشر بيتاً من هذه القصيدة التي تبلغ سبعة وثلاثين بيتاً . وكقصيدته في مدح علي بن أحمد الأنطاكي ومطلعاها : —

أَطَاعَنْ خَيْالاً مِنْ فَوَارِمِهَا الدَّهْرُ وَحَيْدًا ، وَمَا قَوْلِي كَذَا وَمَعَى الصَّبْرِ ؟
وَأَشْجَعُ مِنْ كُلِّ يَوْمٍ سَلَامَتِي وَمَا ثَبَقَتْ إِلَّا وَفَى نَفْسِهَا أَمْرُ

.....

(١) أبصره . (٢) معنى البيت : من رآه ورأى أفعاله لم يكن له عذر في ضعف المساعي ، وقلة التكرم ، فإنه يتعلم الناس هذه الأشياء ؛ فمن رآه ولم يتعلمها فليس بمعذور . وقال ابن جني : هذا البيت داخل في الهجاء ؛ لأن معناه إذا كان كافور في خسة طبعه ، ولو لم أصله — يتفضل ويتكرم فلا عذر لأحد بعده في ترك هذه الفضائل .

فقد تحدث عن نفسه ومزاياه في خمسة عشر بيتاً من أبياتها الواحدة والأربعين . ومثلها قصيدته في مدح علي بن مكرم التميمي ومطلعها : —

ضروبُ الناسِ عشاقُ ضروباً فأعذرُهُم أشـفَهُم حَبِيباً
وقصيدته في مدح علي بن إبراهيم التنوخي وأولها : —

أسادُ أم سَداسٍ في أحادٍ لِيَمِيلَتُنَا المَنوطةُ بالتَّنَادِ
ومن عجيب أمره أن إسرافه في إقحام نفسه مع ممدوحيه — أنساه الموضع التي يليق فيها الإقحام ، والتي لا يليق ؛ فبينما تراه يرثي شخصاً ، تراه يكرُّ فيمدح أقارب الميت ، ويمدح نفسه أيضاً ، ويذكرها بالخير في هذا المقام الذي يحسن فيه الإقتصار على الرثاء .

هذه قصيدته في محمد بن إسحاق التنوخي ؛ يرثيه فيها ، ثم ينشئ إلى أبناء عمه فيمدحهم ، ثم يختتمها بالحديث عن نفسه قائلاً : —

فَأَعِذْ إِخْوَتَهُ رَبَّ مُحَمَّدٍ أَنْ يَحْزَنُوا ، وَمُحَمَّدٌ مَسْرُورٌ
أَوْ يَرْغَبُوا بِقُصُورِهِمْ عَنْ حَفَرَةٍ حَيَّاهُ فِيهَا مَنَكْرٌ وَنَكِيرٌ
نَفَرَ إِذَا غَابَتْ غَمُودُ سَيُوفِهِمْ عَنْهَا فَأَجَالُ الْعِبَادِ حُضُورٌ
وَإِذَا لَقُوا جَيْشاً تَيَقَّنَ أَنَّهُ مِنْ بَطْنِ طَيْرِ تَنْوَقَةٍ (١) مُحْشُورٌ (٢)
لَمْ تَنْ فِي طَلَبِ أَعْنُ خِيَاهِمُ إِلَّا وَغَرُّ طَرِيدِهَا مَبْتُورٌ
يَمَمْتُ شَاسِعَ دَارِهِمْ عَنْ نِيَّةٍ إِنَّ الْمُحِبَّ عَلَى الْبُعَادِ يَزُورُ
وَقَنَمْتُ بِاللُّقْمَا وَأَوَّلُ نَظَرَةٍ إِنْ الْقَلِيلُ مِنَ الْحُبِّ كَثِيرٌ

(١) أرض بعيدة .

(٢) أى : أن هذا الجيش يعتقد أنه سيحشر يوم القيامة من بطن الطيور التي أكلته .

وبالرغم من إصرافه في المدح ، وما عدها من مفاخره - فقرأه خشداً
من شوارده الأبيات الخالصة بطريق المفاخر - وبطريق الأبيات - وعذب
الصياغة ؛ سبق بها في المدح جميع الشعراء حتى شوقي . كقوله يمدح ابن العميد
(بازجان) ويودعه :

وَمَنْ يَحْتَضِرُهُ اسْمُ ابْنِ الصَّيْدِ مُعَذِّدٌ	يَسِيرُ بَيْنَ أَنْيَابِ الْأَسَادِ ، وَالْأَسَدِ
كَأَنَّا أَرَادَتْ تُشْكِرُنَا الْأَرْضُ عِنْدَهُ	فَلَمْ يَخْلُفْنَا جَوْثَ مَقْعَاتِهِ مِنْ رِفْدٍ (١)
لَنَا مَذْهَبُ الْعَبَادِ فِي تَرْكِ غَيْرِهِ	وَأَنِّيَانِهِ بَعْضُ الرِّغَائِبِ بِالرُّشْدِ
رَبِّهِنَا النَّبِيُّ يَرْجُونَ فِي كُلِّ جَنَّةٍ	بَارِجَانِ ؛ حَتَّى مَا يَسْتَمِنَا مِنَ الْخَطْبِ
تَفَضَّلْتَ الْأَيَّامُ بِالْجَمْعِ بَيْنَنَا	فَلَمَّا خَدَمْنَا لَمْ تَكِدُنَا عَلَى الْحَدِ
فَجَدَلِي بِنَلْبِ إِنْ رَحَلْتُ ؛ فَنَاقِي	تَخَلَّفَ قَلْبِي عِنْدَكَ مِنْ فَضْلِهِ عِنْدِي
وَلَوْ فَارَقْتُ نَفْسِي بِإِيَّاكَ مَنِيَّتَهَا	لَقَدْتُ أَصَابَتِ غَيْرَ مَذْمُومَةٍ الْعَيْدِ

وقوله في مدح سيف الدولة :

إِذَا الدَّوْلَةُ اسْتَكْفَتْ بِهِ فِي مُلْكِهِ	كَفَاكُمَا ؛ فَكَانَ السَّيْفُ ، وَالْكَفُّ وَالْقَلْبُ
تَهَابُ سَيُوفُ الْهَنْدِ ، وَهِيَ حَدَائِدُ	فَكَيْفَ إِذَا كَانَتْ رِزَارِيَّةً عُرْبًا (٢)
وَرُحْبُ نَابِ الْأَيْثِ ، وَالْأَيْثُ وَحْدَهُ	فَكَيْفَ إِذَا كَانَ الْأَيْوُثُ لَهُ صَحْبًا ؟
وَيُخَشَى عِبَابُ الْبَحْرِ ، وَهُوَ مَكَانُهُ	فَكَيْفَ بَعْنُ يَفْشَى الْبِلَادَ إِذَا عَابَا (٣) ؟
هَنِيئًا لِأَهْلِ الثُّغْرِ رَأْيُكَ فِيهِمْ	وَأَنَّكَ حَزْبُ اللَّهِ صَرَّتْ لَهُمْ حِزْبًا

(١) معنى البيت - كما سبق - أن كل موضع نزلنا ونحن في طريقنا إليه - أصبنا منه خيراً ؛ لأن البقاع كلها أكرمنا ؛ إرضاء له ، وقرابا منه .
(٢) لأن سيف الدولة من عرب نزار . (٣) أي: جرى وتدفق في البقاع .

وَأَذِنَتْ رُبَّتُ الدَّهْرَ فِيهَا ، وَرَبَّيْتَهُ
 كَفَى عَجَبًا أَنْ يَسْتَجِبَ النَّاسُ أَنَّهُ
 وَمَا الْفَرْقُ مَا بَيْنَ الْأَنَامِ وَبَيْنَهُ
 لِأَعْمُرَ أَعَدَّتْهُ الْخِلَافَةُ الْعِدَا
 فَمَنْ كَانَ يُرْضَى الْإِسْلَامُ وَالْكَفَرُ مُلْكُهُ
 وَقَرَاهُ غِيه :

يُفَرِّقُ لَهُ بِالْفَسْلِ مَنْ لَا يَوْدُهُ
 أَجَارَ (١) عَلَى الْأَيَّامِ حَتَّى ظَنَنْتُهُ
 أَتَمَّ سَبِّ بَيْتِ الْهِنْدِ أَضْلَكَ أَهْلِيهَا
 إِذَا نَحْنُ سَمَّيْنَاكَ سَخَانًا سَيُوفِنَا
 أَخَذَتْ عَلَى الْأَيَّامِ كُلِّ ثَنِيَّةٍ
 فَلَا مَوْتَ إِلَّا مِنْ سِنَانِكَ يُتَّقَى

وَيُفَضِّلُ لَهُ بِالْمَقْدَرِ مَنْ لَا يُنْجِمُ
 تُطَالِبُهُ بِالرَّدِّ عَادٌ ، وَجُرْهُمُ
 وَأَنْتَ مِنْهَا ؟ سَاءَ مَا تَقْوَمُ !!
 مِنْ التَّيْمِ فِي أَغَاوِيهَا تَبَسُّمُ
 مِنْ الْقَيْشِ ؛ تُعْطَى مِنْ تَشَاءُ ، وَتَعْوَمُ
 وَلَا رِزْقَ إِلَّا مِنْ يَمِينِكَ يُقْسَمُ

* * *

« ب » الهجاء

هجاء التنبئ كثير كما أُلْحِنَا - يسبحه - حيناً في قصائد ، وحيناً في مقطوعات .
 وهو إلى المقطوعات أميل . ولما كان في طوالة وقصاره سواء أمام ثلاث
 صفات تشيع في هجائه :

(١) الضمير في كلمة فيها وكلمة ساحتها - يعود على « الأرض » ، وهي غير مذكورة ،
 ولكنها مفهومة من السياق ، أي : أزعجت الأرض (فإن شكك فليحدث
 بساحة الأرض خطبا) (٢) ساعد ونصر .

أولها : الذاتية ؛ فهو لا يصدر إلا عن باعث خاص ، وغرض شخصي لاصلة له بالأسباب العامة ، والأغراض الإنسانية العالية ؛ فليس هجاؤه نزيهاً ، بريئاً ؛ تحفزه إليه جريمة عامة ارتكبها المتهجور ، أو نقصير بالغ عدّه الناس عليه . وإنما يهجو من حرّمه ، أو : خيّب رجاءه ومطمعه ، أو : أساء إليه إساءة يستحقها ؛ فهجاؤه نوع من شتائم السفهاء ، أو الخاقدين والחסادين .

وثانيها : السذاجة التامة التي تسوق الشتائم سوقاً أولياً ، هزيلة ؛ لا أثر فيه الموهبة الأدبية ، ولا الفن الرفيع . ويعرضها عرضاً صريحاً لاتكفية فيه ، ولا تلميح ؛ شأن العامة . ومن لا نصيب له من الزاد الأدبي البارع . استمع إليه يقول في ذم إسحاق بن كينغاف (حين هدد وأوعد بالانتقام من المتنبي الذي سبه وأهان) :

أتاني كلامُ الجاهلِ ابنِ كينغافِ يجوبُ حُزونا بيننا ، وسهولاً
ولو لم يكن بين ابنِ صفراءِ ^(١) حائلٌ ويأني سوى رمحي لكان طويلاً
وإسحاقُ مأمونٌ على من أهانهُ ولكنّ تسلّى بالبكاء قليلاً
وليس جميلاً عرضه فيصونهُ وليس جميلاً أن يكون جميلاً
ويكذب ؛ ما أذلّته بهجائه لقد كان من قبل الهجاء ذليلاً
ويقول في ذم قوم توعدوه : (من نسل رجل يدعى : أبا الطيب)

أما تكلم من قبل موتكم الجهلُ وجركم من خفة بكم النملُ
وليد أبي الطيب الكلب ، مالكم فطنتهم إلى الدعوى ، وما لكم عقل ؟

ولو ضَرَبْتَكُمْ مَنجَنِقِي^(١) وأصلكم قَوِيَّ - لَهَدَّتْكُمْ فكيفَ ولا أصْلُ؟
وقوله في كافور ويطانته :

إني نزلتُ بكذابين ؛ ضيفهم
جودُ الرجال من الأيدي . وجودهم
ما يقبضُ الموتُ نفسًا من نفوسهم
من كل رِخْوٍ وكاءِ البطنِ ، مُنْذَقِي ؛
من علَّمَ الأسودَ المَخْصِيَّ مَكْرُمَةً
أقومه البيضُ أم آباؤه الصَّيْدُ ؟
وقوله فيه (من مرثية نظمها في رثاء أبي شجاع فأنك) :

أيموتُ مثلُ أبي شجاعٍ فأنك ويعيش حاسدُهُ الخَصِيُّ الأوْكمُ^(٢)
أُبقِيَّتَ أكذبَ كاذبٍ أبقِيَّتَهُ وأخذتَ أصدقَ من يقولُ ويسْمَعُ
وتركتَ أنتَ ريحَ مَذْمُومَةٍ وسلبتَ أطيْبَ ريحٍ تَتَضَوَّعُ
وقوله فيه :

لقد كنتُ أحسبُ قبلَ الخَصِيِّ أن الرءوسَ تَقْرَأُ النُّهْيَ
فلما نظرتُ إلى عَقْلِهِ رأيتَ النهيَ كلها في الخَصِيِّ
وقد ضلَّ قومٌ بأصنامهم^(٣) فأما بزقٌ رِيَّاحٍ فلا
وذاك^(٤) صموتٌ ، وذا ناطقٌ إذا حرَّكوه فسًا ، أو : هَذَى
.....

(١) المنجنيق - يذكر ويؤنث - : آلة تُرمى بها الحجارة .

(٢) الأحمق . أو : من في يده ورجلاه عيب . وهذا من عيوب العبيد .

(٣) بعبادة أصنامهم . (٤) أي : الصنم .

فأى براعةٍ أو فنٍّ في أن يهجو رجلاً بأنه جاهل ، ويذكر اسم أمه ،
 وأنه لن يستطيع الوصول إلى المتنبي ، وأنه ذليل ، غير مصنون العِرْض ؟
 وأن يهجو آخرين فيصفهم بالجهل ، وضالة الشان ؛ حتى يستطيع
 النمل أن يجرهم ؟ وأن أباهم كلب ، وليس لهم عقل ، وأنه يستطيع تهديدهم
 بغير عناء ؟ وأن الأسود الخصى كيئت وكيت ... ؟ أليس العجز الفنى ،
 والفقر الأدبى — بادٍ بَيِّن في هذا الهجاء ؟ وأنه بالشتائم العامية الساذجة أشبه ؟
 وثالثها : إسفافه وفحشه أحياناً حتى يهوى إلى ترك لم ينزل إليه سواء .
 نعم إن إسفافه متفاوت السريجة ، ولكن الغالب عليه الإقذاع الذى
 لم يَسْفَل إليه شاعر قط ، ولم ينسحق إليه هجاء أديب . ويزيده شناعة
 وبشاعة ما فيه من استعراض السوءات والخمازى بألفاظها الفايضة
 المكشوفة الصريحة بغير تلميح أو إيهام ؛ كقصيدته في هجاء ضبّة بن
 يزيد ، وأوطأ :

ما أنصت القومَ ضبّةً وأُمَّهُ الطَّرْطَبَةُ

فلست أعرف قصيدة جمعت من بذىء القول ، وشنيع الوصف —
 ما جمعته هذه المباءة . وحسبك أن يكون أيسر أبياتها هجاء ، وأهونها
 قدحا — قوله :

وما عليك من الضد رِ، إنما هي سُـبَّةٌ
 وما عليك من العا رِ، إِنَّ أُمَّكَ قَحْبَةٌ
 وما يَشُقُّ على الكلب أن يكون ابنَ كَلْبَةٍ
 ما ضرها مِنُّ أُنْها وإِنما غر صُلْبَةٌ

.....

أما باقى أبياتها فليس يليق نشره هنا .

ومثل هذا في شناعته وبناءته ، وإن خفَّ عنه في فداحته — قوله
في هجاء رجل من طيِّ اسمه: وَرْدَان ، أفسد على المتنبي عبيده ، وحرَّضهم عليه :

إِنْ تَكُ طَيِّ كَانَتْ لِسَامًا فَأَلَامَهَا رَيْبَةً ، أَوْ : بَفَوْهُ
وَإِنْ تَكُ طَيِّ كَانَتْ كَرَامًا فَوَرْدَانٌ لِفَيْرِهِمْ أَبُوهُ
مَرَّرْنَا مَيْنَهُ (١) فِي « حِسْمِي » (٢) بَعِيدٍ يَمْجُجُ الْوُومَ مَنَخِرُهُ ، وَفَوْهُ
أَشَدَّ بَعْرُسِهِ عَنِّي عَبِيدِي فَأَتْلَفَهُمْ ، وَمَالِي أَتْلَفُوهُ (٣)

وقوله فيه :

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَرْدَانًا وَأُمًّا أَتَتْ بِهِ
فَمَا كَانَ فِيهِ الْفَدْرُ إِلَّا دَلَالَةً
إِذَا كَسَبَ الْإِنْسَانُ مِنْ هُنَّ عِرْسِهِ
وقوله في رجل يسمى : الذهبي :

لَمَّا نُسِبْتَ فَكُنْتَ ابْنًا لِفَيْرِ أَبٍ
سُمِّيتَ : بِالذَّهْبِيِّ الْيَوْمَ ؛ تَسْمِيَةً
وقوله في كافور :

الْعَبْدُ لَا تَفْضُلُ أَخْلَاقُهُ
لَا يُنْجِزُ الْمِيعَادَ فِي يَوْمِهِ
عَنْ فَرْجِ الْمُنْتَنِ ، أَوْضِرْسِهِ
وَلَا يَعِي مَاقَالَ فِي أُمْسِهِ
مَرَّتْ يَدُ النُّخَاسِ فِي رَأْسِهِ
فَلَا تَرْجِ الْخَيْرَ عِنْدَ ادْرِيٍّ

(١) من وردان . (٢) أرض بالبادية غليظة لا خير فيها .
(٣) أي : أنه فرق عني عبيدي بسبب امرأته ؛ إذ كان يدعوهم للفجور بها .

فأى هجاء هذا ؟ وأين منه هجاء الخطيئة ، وشمر المناقضات (بين جرير ، والأخطال ، والفرزدق) وإقذاع بشار ؟ إن هؤلاء — على إسفافهم وتبذلهم — لم يُوغلوا في هذه الحماة كما أوغل المتنبي ، ولم ينضحوا بمثل ما نضح به . وأين الفن في ذلك النوع وهو بكلام السُّفلة أنسب ، وإليهم أنزع^(١) ؟ بل أين الكنايات والتوريات التي تجرح مالا يجرح التصريح ؟ وأين أنواع البراعات الأدبية التي تؤذى مالا يؤذى الإسفاف واللفظ الوقاح ؟ أين المتنبي من ابن الرومي وأضرابه في هذا الفن الذي لا يعدو أن يكون موضوعا من موضوعات الأدب ؛ يقتضى صاحبه البراعة والمهارة والذوق جميعاً ؟ . ومن هنا سَحَّ أن يكون هجاء المتنبي بعيداً عن الفن الأدبي الحق ، أو هو منه بأضعف نسب ، وأوهى سبب .

بقي أن نشير إلى أن الهجاء العربي كله (من أقدم عصوره إلى اليوم) موسوم بِسِمَةِ الذاتية ؛ ولعلها هي التي تناسب البيئة العربية ؛ حيث الثقافة محدودة ، والآفاق العقلية والفنية ضيقة . ولكن هذا لا يعفى المتنبي من تبعَةِ التقصير وإن خففها عنه ؛ فليس شيموع العيب ، وتقادم العهد عليه — مما يزيل عنه صفته المردولة ، ولا مما يدخله في عِدَاد المحاسن ، أو يقرِّبه منها . وإذا وجدَ المتنبي ما يخفف عنه عيب الذاتية فهل يجد ما يدافع به عن عيبه الآخرين ، ولا سيما السذاجة التي لا تلائم عصره الحضري ، ولا مواهبه التي يزهر بها في قصائده ، ويسرف في الحديث عنها ؟

(ج) الرثاء :

لا تخلو مرأى المتنبي من قوة وجمال فنى . ولما تسيرها عيوب أربعة :
أولها : الذاتية — كدعيه وهجائه — فقل أن يرثى ميتاً لمزاياه الفطرية ،
ومنافعة العامة ؛ وإنما يرثيه لنفع خاص ، ومعمونة اقتصرت عليه .
فليس رثاؤه إلا جزاء المعروف ، أو للنفع الخاص ، ومقابلة
للمعروف بالمعروف . وإن شئت فقل : إنه الثمن الأدبي لذلك
النفع المادى المحدود . وليس فى هذا عيب ؛ فهو نوع من حسن
الجزاء ، أو جميل الوفاء . وإنما العيب أن يقصره الشاعر على من
أحسنوا إليه وحده بالمنح والعطايا ، وإن لم يكن لهم نصيب من سامى
المواهب ، وكريم السجايا ؛ أو من الإحسان إلى غيره . كمدائحه
فى كافور قبل أن يغاضبه .

والعيب كذلك أن يضمن بمراثيه على العظماء ، وإن لم يفدقوا عليه ؛
فليس يليق بالشاعر أن يكون مأجوراً فى كل موقفه ، بائعاً أو مشترياً فى كل
ما ينظم . وليس يليق بالشعر أن يكون على الدوام ثمناً أدبياً لجزء مادى
اقتصر نفعه على فرد واحد . وماذا يبقى للشعر من مآثر إن لم يسجل
للعظماء والأبطال والأخيار مواقفهم الرائعة ، ويخلد كرائم أعمالهم النبيلة ،
لا يقيس ذلك بمقياس المنفعة الفردية ، أو الهوى المدخول . وإنما يزنه بميزان
العدالة الدقيقة ، والنزاهة التامة التى تؤثر النفع الأعم ، وتقدر من يعملون
له حق قدرهم ، وتخصهم بمزيد من الإكبار والتمجيد ؟

قد يستساغ من الشاعر أن يقف بشعره موقف البائع أو المشتري حيناً ؛

ولكن لا يستساغ منه أن يقف هذا الموقف كل الأحيان ، كما فعل المتنبي ؛ فقد حوى ديوانه من المراثي اثنتي عشرة قصيدة ، كلها لمن أحسنوا إليه إحسانا خاصا ، أو أفردوه بمعونة . وليس من بينها سرثية واحدة لغيرهم . وقد يكون من المفيد أن تعلم أن إحداهما في رثاء جدته لأمه ، وستا في أقارب سيف الدولة ومن يتصل به ^(١) . وثنتان في محمد بن إسحاق التميمي ، ومثلها في أبي شجاع فانتك ، وواحدة في عمه عضد الدولة .

فأين ما قاله في رثاء العلماء ، والأدباء ، والأنمة ، والقواد ، والأمراء ، وسائر العظماء ممن كان يهوج بهم عصره ، وتمتلى بهم البلاد التي زارها ، أو أقام فيها ؟ فلا غرابة أن تكون سرثية في جعلتها كدائحه ؛ فائرة ، ضئيلة الحظ من الماطفة ؛ لأنها ليست وليدة الرغبة الوجدانية الصادقة ، وإنما هي دين حل قضاؤه . وخير قصائده من هذه الناحية سرثيته في جدته لأمه (وكانت قد يئست منه ؛ لطول غيبته . فكتب إليها كتابا فرحت به ، وأكبت على تقبيله ؛ حتى أصابتها الحمى من فرط السرور ؛ فماتت) وفي تلك القصيدة مظاهر من القوة الفنية ، والماطفة الجياشة . ومن أبياتها .

للك الله من مفجوعة بحبيبه قتيمة شوق غير ملحقها وضما
أحن إلى الكأس التي شربت بها وأهوى لمثواها التراب وما ضحما
بكيت عليها خيفة في حياتها وذاق كلانا كل صاحبها قدما
عرفت الليالي قبل ما صنعت بها فلما دقتني لم تزدني بها علما

(١) فواحدة قيلت في رثاء والدته ، وواحدة في ابنه ، وثنتان في أخته ، والخامسة في ابن عمه ، والسادسة في عبده يمسك التركي .

أَتَاهَا كِتَابِي بَعْدَ يَأْسٍ وَتَرْحَةٍ فَمَاتَتْ سُرُورًا بِي ؛ فَتَتْ بِهَا هَمًّا
حَرَامٌ عَلَى قَلْبِي السُّرُورُ ؛ فَإِنِّي أَعَدُّ الَّذِي مَاتَ بِهِ بَعْدَهَا سُخًّا
أَمَّا الْعُيُوبُ الثَّلَاثَةُ الْبَاقِيَّةُ فَتَقْتُمُّ فِي :

(١) سَرْدُ الْأَوْصَافِ الْعَامَةِ الْجُمْلَةِ ^(١) ، وَتَكَرُّرُهَا فِي الْقَصَائِدِ الْمُخْتَلِفَةِ ،
وَسَوَوْقِهَا سَوَاقًا سَادِجًا لَمْ يَمَسَّهُ الْفَنُ السَّامِيُّ ، وَلَمْ تَصْقَلْهَا وَسَائِلُهُ الْجَمِيدَةُ ؛ عَلَى
الْوَجْهِ الَّذِي شَرَحْنَاهُ فِي الْمَدَائِحِ . كَقَوْلِهِ فِي مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ التَّمُوحِيِّ :

مَا كُنْتُ أَحْسَبُ قَبْلَ دَفْنِكَ فِي الثَّرَى أَنْ السُّكُوكَ فِي التَّرَابِ تَغُورُ
مَا كُنْتُ أَمَلُ قَبْلَ نَعْشِكَ أَنْ أَرَى رَضْوَى عَلَى أَيْدِي الرِّجَالِ تَسِيرُ
خَرَجُوا بِهِ ، وَلِكُلِّ بَاكِ خَلْفُهُ صَفَقَاتُ مُوسَى يَوْمَ ذَلِكَ الطُّورِ
وَالشَّمْسُ فِي كَبَدِ السَّمَاءِ سَرِيضَةٌ وَالْأَرْضُ وَاجِفَةٌ تَكَادُ تَمُورُ

(٢) وَخَلَطَ الرِّثَاءُ بِمَا يَفْسُدُهُ ، كَالْحَدِيثِ عَنِ النَّفْسِ ، أَوِ الْكَلَامِ عَنْ جِهَالِ
الْفَقِيدَةِ ، وَحَسَنَ وَجْهَهَا مِمَّا هُوَ بِالْغَزْلِ لَا بِالرِّثَاءِ أَشْبَهَ . كَقَوْلِهِ فِي رِثَاءِ وَالِدَةِ
سَيْفِ الدَّوْلَةِ (مِنْ أَبْيَاتِ سَبَقَتْ) :

صَلَاةُ اللَّهِ خَالِقُنَا حَفُوطٌ عَلَى الْوَجْهِ الْمَكْفَنِ بِالْجَمَالِ
بَعِيشُكَ هَلْ سَلَوْتَ ؟ فَإِنْ قَلْبِي وَإِنْ جَانِبَتْ أَرْضُكَ غَيْرَ سَالِي
وَقَوْلُهُ فِي رِثَاءِ أُخْتِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ : —

وَهَمُّهَا فِي الْعِلَا وَالْمُلُكِ نَاشِئَةٌ وَهَمُّ أَتْرَابِهَا فِي اللَّهْوِ وَاللَّعِبِ
يَعْلَمَنَّ حِينَ تَحْيَا حُسْنَ مَبْسَمِهَا وَلَيْسَ يَعْلَمُ إِلَّا اللَّهُ بِالشَّنْبِ

(١) أى : التى تصلح أن يقال لكل شخص . دون أن تبرز خصائصه التى تميزه من غيره ،
كما هو الشأن فى المدائح العامة أيضا .

(ب) وفتور العاطفة فتورا يُحيل الكلامَ مَوَاتَا ؛ لا يهيج ألما ، ولا يحرك
شجنا ، ولا يحمل تيارا من الحزن إلى السامع أو القارئ ، كالأبيات السالفة .

(د) الغزل :

غَزَل المتنبي — كسائر الغزل العربي — يتجه إلى المحسوس والمشاهد من
جسم الحبيب ، ووصف جماله المادى ، وما يجلبه الحب من تعب ، وسهر ،
ونحول ، وعذاب ...

وأكثر ما يتجه الوصف الحسى إلى بياض الجسم ، وإشراق الوجه ،
وسواد الشعر ، واعتدال القامة ، ونحول الخصر ، وثقل الأرداف ، وحلاوة
الريق ... ، وما إلى ذلك من ضروب الحسن المادى الذى تختلف الآراء
والأذواق فى تقديره وتحديدده ؛ باختلاف العصور والبيئات .

وكان حقيقا بالشعراء أن يُسجلوا صور الجمال وألوانه بحسب كل عصر وبيئة ،
بحيث يكون تسجيلهم صادقا يُطابق رأى أهل ذلك العصر — فى الجمال
وأوصافه . ولكنهم لم يفعلوا ؛ بل ارتضوا من أوصاف الجمال ومحاسنه ما ارتضاه
السابقون من شعراء الجاهلية وصدّر الإسلام ؛ سواء أكان موافقا لما تمألا عليه
الناس فى عصر الشاعر أم مخالفا . وسواء أكان محمودا أم مذموما . وقد عرض
علينا المتنبي بعض نماذج منه حين يقول :

مَظْلُومَةُ الْقَدِّ فِي تَشْبِيهِهِ غَضَنًا مَظْلُومَةُ الرِّيقِ فِي تَشْبِيهِهِ ضَرَبًا^(١)
بيضاء ، تطمع فيما تحت حُلَّتِها وعزّ ذلك مطلوبا إذا طُلِبَا

كأنها الشمس؛ يُغيي كَفَّ قَابِضِهَا شعاعها ، ويراها الطَّرْفُ مُقْتَرَبًا

* * *

ويقول :

صَرِيحٌ مُقْلَتِهَا ، سَأَلَ دِمْنَتِهَا قَتِيلٌ تَكْسِيرِ ذَاكَ الْجَفْنِ ، وَاللَّعَسِ (١)
خَرِيدَةٌ ؛ لَوْرَاتِهَا الشَّمْسُ مَا طَلَعَتْ وَلَوْ رَأَاهَا قَضِيبُ الْبَانِ لَمْ يَمَسِ
مَا ضَاقَ قَبْلَكَ خَلْخَالٌ عَلَى رَشَأٍ وَلَا سَمِعَتْ بِدِيْبَاجٍ عَلَى كَنْسٍ (٢)

وليس من عيب في التغزل بالحسن المادي ، والجمال الحسي ، بلفظ عَفٍّ ،
وأسلوب بعيد عن الخنا ؛ فذلك نوع من الغزل مطلوب ؛ بل مرغوب أحياناً .
ولكن العيب كل العيب في التزامه ، والتزام طريقة القدماء فيه ، والاقتصار
عليها ؛ كأن لم يكن هناك غيره ، أو كان التغزل بالأوصاف النفسية والمعنوية
لا يَعْدِلُهُ أو يَفُوقُهُ . فمن ينكر قوة المحاسن الخلقية ، والمزايا العقلية ، وخفة الروح ،
وشدة الأسر في استهواء النفوس ، وإيقاعها في شرك الحب ؟ أليست هذه
المحاسن السامية في منزلة سابقتها ، إن لم تفضلها ؟ فما بال المتنبي — وأنداده —
يقبل على نوع ، وينصرف عن الآخر ؟ وهل لطبيعة الشرقيين ، ووسائل
حياتهم وثقافتهم — دخل في ذلك ؟ أغلب الظن أن الجواب : نعم .

وكيفما دار الأمر فالمتنبي أقبلَ على الناحية الحسية مُقَرَّبًا ، وحاكِيَ القدماء
فيها لفظاً ومعنى ، وَرَدَّدَ مَا اسْتَهْلَكُوهُ مِنْهَا ؛ فجاء غزله صناعياً ، تقليدياً ، مبتذلاً ،
مسلوب العاطفة . وربما أهمل الصياغة الجيدة ، واللفظ العَفَّ ، والأسلوب
المنتقى الذي يتجنب الإشارة إلى المتعة المادية الرخيصة ، وأعضائها ،

(١) سمرة في الشفة مستحسنة عند العرب .

(٢) بيت الطي . والديباج على كنس لأنها كانت في الهودج .

وكل ما يتصل بها ، أو يُوجَّه الذهن إليها من قُرب أو بُعد ؛ كقوله
في وصف حبيبته :

هَرَأَتْ دُمَى سَن بِي مِنَ الْوَجْدِ مَا بَهَا مِنْ الْوَجْدِ بِي ، وَالشَّوْقُ لِي وَلَهَا حِلْفُ
وَمَنْ كَلَّمَا جَرَّدَتْهَا مِنْ ثِيَابِهَا كَسَاهَا ثِيَابًا غَيْرَهَا الشَّعْرُ الْوَحْفُ (١)
وَقَابِلَنِي رُمَانًا غَضَبَ بَانَةٍ يَمِيلُ بِهِ بَدْرٌ ، وَيُمْسِكُهُ حَقْفُ (٢)
وقوله يخاطب خيالها : —

عُدْ ، وَأَعِدْهَا ؛ فَهَذَا تَلَفٌ أَلَصَقْتُ ثَدْيِي بِثَدْيِهَا النَّاهِدِ
وقوله :

أَعَارَنِي سُتْمٌ عَيْنِيهِ وَحَمَّائِي مِنَ الْهَوَى ثِقَلُ مَا تَحْوِي مَازِرُهُ
وقوله :

إِنِّي عَلَى شَفْقِي بِمَا فِي خَيْرِهَا لِأَعِفُّ عَمَّا فِي سَرَائِيلِهَا
وقوله :

بِيضَاءُ تَطْمَعُ فِيمَا تَحْتَ حُلَّتِهَا وَعَزَّ ذَلِكَ مَطْلُوبًا إِذَا طُلِبَا
وربما قصَّر أو عجز عن اختيار ألفاظه الغزلية رقيقة ، حلوة الجرس ،
واضحة المعنى كقوله (٣) :

بَانُوا بِمُخْرُغُوبَةٍ لَهَا كَفَلٌ يَكَادُ عِنْدَ الْقِيَامِ يُقْعِدُهَا
رَبِحَلَّةً ، أَسْمَرٌ مُقْبَلَهَا سِبَخَلَّةً ، أَبْيَضٌ مُجَرَّدُهَا

(١) الشعر الوحف : الكثير الملتف — يريد أنها إذا تعرَّتْ من ثيابها غطاها شعرها

الطويل . (٢) الرمل المتعرج .

(٣) قد سبق البيتان وشرح كلماتهما في ص ٨٣ .

فإذا أغضينا عن هذه النواحي — رأيناها في غيرها من السباقيين ؛ دقة وصف ، وقوة رصف ، وحسن أداء . وقد نحس حرارة العاطفة في غزله أحيانا (وما أقل ظهورها في شعره ! وما أظهر فتورها وبرودها فيه ! لما بيناه آنفا) كقوله في قصيدة عرضنا لأبيات منها :

أَرَقُّ عَلَى أَرَقٍ ؛ وَمِثْلِي يَأْرَقُ وَجَوِّي ^(١) يَزِيدُ ، وَعَبْرَةٌ تَتَرَقُّ
جَهْدُ الصَّبَابَةِ أَنْ تَكُونَ كَمَا أَرَى عَيْنٌ مَسْهَدَةٌ ، وَقَلْبٌ يَحْتَقُّ
مَالِاحَ بَرْقٍ أَوْ تَرْتَمَ طَائِرٌ إِلَّا انْثَنَيْتُ وَلِي فُؤَادٌ شَقِيقُ
جَرَّبْتُ مِنْ نَارِ الْهَوَى مَا تَنْطَفِئُ نَارُ الْفَضَى وَتَكِلُ عَمَّا تَحْرِقُ
وَعَذَلْتُ أَهْلَ الْعَشْقِ حَتَّى ذُقْتُهُ فَعَجَبْتُ كَيْفَ يَمُوتُ مَنْ لَا يَعْشَقُ
وَعَذَرْتُهُمْ ، وَعَرَفْتُ ذَنْبِي ؛ أَنِّي عَيَّرْتُهُمْ ؛ فَلَقِيتُ فِيهِ مَا لَقُوا

* * *

ويقرب من هذا قوله (برغم برود عاطفته) :

وَلَمَّا التَّقِينَا - وَالنَّوَى وَرَقِيبُنَا غَفُولَانَ عَنَا - ظَلَمْتُ أَبْكَى ، وَتَبَسِمُ
فَلَمْ أَرْ بَدْرًا ضَاكِكًا قَبْلَ وَجْهِهَا وَلَمْ تَرَ قَبْلِي مَيِّتًا يَتَكَلَّمُ
ظُلُومَ كَمْتَنِيهَا لَصَبٍ كَخَضِرِهَا ضَعِيفِ الْقَوَى ، مِنْ فَعْلَاهَا يَتَظَلَّمُ
بَفَرَعٍ يَعِيدُ اللَّيْلَ وَالصَّبْحَ نَيْرٌ وَوَجْهِ يَعِيدُ الصَّبْحَ وَاللَّيْلَ مَظْلَمُ
فَلَوْ كَانَ قَلْبِي دَارَهَا كَانَ خَالِيًا ^(٢) وَلَسَكُنَّ جَيْشَ الشَّوْقِ فِيهِ عَرْمَرَمُ
وقوله :

تَرَشَّفْتُ فَاهَا سُحْرَةً ؛ فَكَأَنِّي تَرَشَّفْتُ حَرَّ الْوَجْدِ مِنْ بَارِدِ الظَّلَمِ ^(٣)

فَنَاتُ تَسَاوَى عِقْدُهَا ، وَكَلَامُهَا وَسَبَّحُهَا الشَّرِيفُ فِي الْحُسْنِ وَالنَّظْمِ .

* * *

أما بقية أغراضه من تهنئة ، وفخر ، ووصف ... فلا تخرج في جملتها عن حدود ما وصفنا به المديح . غير أن الوصف في شعر المتنبي مظلوم من ناحيته العددية ، والموضوعية ؛ فنصيبه من القصيدة الواحدة ومن عدد القصائد قليل ، وحظه من العناية والتجديد والتنوع — ضئيل ، محدود ، بل مفقود . فأين الأبيات والقصائد التي تسجل معالم عصره ، ومشاهد الحضارة فيه ؟ أين وصف المواكب ، والمآدب ، والقصور ، والملابس ، والحلى ، والبساتين ، والأثمار ، والأطيار ، والأغاني ، ومجالس الأنس ، ومحافل الطرب ، ومجامع الصباح ، ومتع الأنهار ، ومفاتيح الحياة ، في الحواضر العباسية ، والبلاد الإسلامية ، وحال المجتمع ، ونظام الأسرة ، وما يتصل بذلك من الشؤون السياسية ، والمذهبية ... وغيرها مما أشرنا إليه بإيجاز أول الكتاب^(١) ؟ بل أين وصف الطبيعة ، ومجاليها المختلفة في البلاد التي زارها ، والممالك التي طاف بها ؟ شغل عن ذلك كله بمطامعه ، ومآربه ، واستجدائه الملوك والأمراء . ولم يحفظ ديوانه من الأوصاف إلا بعض مقطوعات تافهة قليلة العدد في بعض الأغراض ، وإلا وصف الحرب الذي أجاده .

والحق أن المتنبي قَصَّرَ في هذا الغرض تقصيرا بالغالا يستطيع عنه دفاعا ، واتسع تقصيره فيه حتى شمل النواحي الثلاث : العدد ، والألفاظ ، والمعاني . أو : الكم ، والكيف ؛ كما يقولون . ومن ثم كان مقصرا في رسالته الأدبية (كما سبق) . لكنه في وصف الحرب يتجلى شاعرا قويا في عباراته ،

ومعانيه ، وأخيلته ، وبدائع افتنانه ؛ لا يكاد يسبقه في هذا الميدان أحد من شعراء العربية ؛ فقد اقتحم نيران الحرب بنفسه ، وكابد أهوالها ، ورأى ببصره وبصيرته وسائلها ودخائلها ، وعرف من جلائلها ووقائعها ما لا يعرفه إلا الخبراء ؛ « فإذا وصف معركة كان لسانه أسفى من نصالها . وأشجع من أبطالها ، وقامت أقواله للسامع مقام أفعالها ؛ حتى يظن أن الفريقين قد تقابلا ، واللاحين قد تواصلوا . فطريقه في ذلك يضل بسالكه ، ويقوم بعذر تاركه . ولا شك أنه كان يشهد الحروب مع سيف الدولة ؛ فيصف لسانه ما أداه عيانه ^(١) . » وقد تقدمت صور من أوصافه الحربية ^(٢) ، وإليك أخرى يخاطب بها سيف الدولة ، ويعرض بالروم وبطريقهم « ابن شمشقيق » الذى حلف لينتقم من سيف الدولة وأتباعه :

صَدَقْتَهُمْ بِجَمِيسٍ ^(٣) أَنْتَ غَرَّتُهُ وَشَمَّهَرِيَّتُهُ فِي وَجْهِهِ غَمَمٌ ^(٤)
فَكَانَ أَثْبَتَ مَا فِيهِمْ جُؤْمُهُمْ يَسْقُطُنَ حَوْلَكَ ، وَالْأَرْوَاحُ تَنْهَزُمُ
وَالْأَعْوَجِيَّةُ ^(٥) مِلءُ الطَّرْقِ خَلْفَهُمْ وَالْمُسْرِفِيَّةُ مِلءُ الْيَوْمِ فَوْقَهُمْ
إِذَا تَوَافَقَتِ الضَّرَبَاتُ صَاعِدَةً تَوَافَقَتْ قُلُلٌ فِي الْجَوِ تَصْطَدِمُ ^(٦)
وَأَسْلَمَ ^(٧) ابْنُ شَمَشَقِيْقٍ أَلَيْتَهُ ^(٨) إِلَّا أَنْتَى ؛ فَهَوَّيْنَايَ ، وَهَى تَبْتَسِمُ ^(٩)

- (١) الكامل لابن الأثير — باختصار ، والصبح ج ١ ص ٢٥٠ هامش العكبرى .
(٢) ص ٣١ وما بعدها (٣) جيش كبير . (٤) كثرة الشعر المنسدل على الوجه ، جعل الرماح الكثيرة تحيط بالوجه كالشعر الذى يتدلى عليها .
(٥) الخيل التى من نسل أعوج ، وهو أشهر حصان عربى فى القديم .
(٦) أى : أن الضربات حين ترن فى الفضاء وتتلاقى يتبعها تلاقى الرؤوس المقطوعة وتصادمها ؛ فكل ضربة برأس ، ورنين الضربات يعادها صدام الرؤوس الطائرة .
(٧) ترك وتنازل . (٨) يمينه التى حلفها على ألا ينثنى عن رأيه ، ولا يرجع عنه .
(٩) أى : أن يمينه التى حلفها تضحك سخرية واستهزاء من حشته .

لا يأمل النفس الأَقْصَى ^(١) لِمُجْتَهِّهِ
 تَرُدُّ عَنْهُ قَدَا النُّرْسَانِ سَابِقَةً ^(٢)
 تَخُطُّ فِيهَا الْحَوَالِي ، لَيْسَ تَنْفُذُهَا
 أَلْقَتْ إِلَيْكَ دِمَاءَ الرُّومِ طَاعَتَهَا
 يُسَابِقُ الْقَتْلُ فِيهِمْ كُلَّ حَادِثَةٍ
 وَمِثْلُهَا قَصِيدَتُهُ الْقَافِيَةُ الَّتِي مَطَّلَعَهَا :

لَعِينِيكَ مَا يَلْقَى الْفَوَادُ ، وَمَا لِقَى
 وَلِلْحُبِّ مَا لَمْ يَبْقَ مِنِّي ، وَمَا بَقِيَ

... ..

ومن بارع أوصافه — غير الطريفة — ورقيقها وصفه نخيمة سيف الدولة
 (وكانت أثوابا ، — أى : أجزاء متضامّة — من الديباج المنقوش ،
 الْمُحَلَّى بِرُسُومٍ مُخْتَلِفَةٍ) : —

وَأَحْسَنُ مِنْ مَاءِ الشَّيْبَةِ ^(٧) كُلِّهِ
 عَلَيْهَا ^(١٢) رِيَاضٌ لَمْ تَحْكَمْهَا ^(١٣) سَحَابَةٌ
 وَفَوْقَ حَوَاشِي كُلِّ ثَوْبٍ مُوجَةٌ ^(١٥)
 حَيًّا ^(٨) بَارِقٌ ^(٩) فِي فَازَةٍ ^(١٠) أَنْشَاءُ ^(١١)
 وَأَغْصَانُ دَوْحٍ لَمْ تَغْنِ ^(١٤) حَامَّةٌ
 مِنَ الدَّرِّ سَمَطٌ لَمْ يُشَقِّبْهُ نَاطِمَةٌ ^(١٦)

- (١) العميق الأبعد .
 (٢) مطر ، والمراد به : دم غزير كالطر . (٣) أى : درعه الواسعة الواقية .
 (٤) أى : أن آثار الرماح فوقها كأنها
 الكتابة . (٥) أى : أرواح الروم طوع أسرك تستجيب لك من غير قتال .
 (٦) أى : أنك تقتلهم ، ولا يموت منهم أحد موتا طبيعيا .
 (٧) ماء الشببة — حسنبا ونضارتها . (٨) مطر وخصب .
 (٩) برق لامع . (١٠) خيمة ، أو : قبة . (١١) طالبه .
 (١٢) على الخيمة ، أو : القبة . (١٣) لم تنسجها . (١٤) لم تغن ولم تصدح .
 (١٥) له وجهان . (١٦) معنى البيت : كل ثوب تستقبله من هذه الفازة ترى فوق
 حواشيه سلك لآلى غير مثقوبة ولا منظومة ؛ لأنها لآلى مرسومة ، لا حقيقية .

تَرَى حَيَوَانَ الْبَرِّ مُصْطَلِحًا بِهَا يَحَارِبُ ضِدَّ ضِدِّهِ ، وَيُسَالِمُهُ
 إِذَا ضَرَبَتْهُ الرِّيحُ مَاجَ ؛ كَأَنَّهُ تَجُولُ مَذَاكِيمَهُ ^(١) ، وَتَدَأَى ^(٢) ضَرَاغِمُهُ
 وَفِي صُورَةِ الرُّومِيِّ ^(٣) ذِي النَّاجِ ذِلَّةٌ لَا بُلَجَ لَا تَيْجَانِ إِلَّا عَمَائِمُهُ
 لَهُ عَسْكَرًا خَيْلٍ وَطَيْرٍ ؛ إِذَا رَمَى بِهَا عَسْكَرًا لَمْ يَبْقَ إِلَّا جَاجِمُهُ
 أَجْلَتْهَا ^(٤) مِنْ كُلِّ طَاغٍ ثِيَابُهُ وَمَوْطِئُهَا مِنْ كُلِّ بَاغٍ مَلَاغِمُهُ ^(٥)
 فَقَدْ مَلَّ ضَوْءُ الصَّبْحِ مِمَّا تُفِيرُهُ وَمَلَّ سَوَادُ اللَّيْلِ مِمَّا تُزَاجِمُهُ
 وَمَلَّ الْقَنَا مِمَّا تَدُقُّ صُدُورُهُ وَمَلَّ حَدِيدُ الْهِنْدِ مِمَّا تُلَاطِمُهُ
 سَحَابٌ مِنَ الْعِقْيَانِ يَزْحَفُ تَحْتَهَا سَحَابٌ إِذَا اسْتَسْقَمَتْ سَقَتُهَا صَوَارِمُهُ
 وَقَدْ سَبَقَتْ أَيْبَاتُهُ الْجَمِيلَةَ فِي وَصْفِ شَعْبِ بَوَّانٍ ^(٦) ، وَلَهَا نَظَائِرُ ، كَقَصِيدَتِهِ
 الدَّالِيَةِ فِي الصَّيْدِ وَغَيْرِهَا .

أَمَّا ضَعْفُهُ وَتَهَافُتُهُ فِي الْوَصْفِ فَكَثِيرٌ . وَمِنْ أَمْثَلَتِهِ : أَيْبَاتُهُ فِي لَعِبَةٍ كَانَتْ
 تَدُورُ فَسَقَطَتْ عِنْدَ بَدْرِ بْنِ عِمَارٍ (وَبَيْنَ الْبَيْتِ الْأَوَّلِ وَالثَّالِثِ تَنَاقُضٌ) ^(٧) .

مَا نَقَلْتُ فِي مَشِيئَةٍ قَدَمًا وَلَا اشْتَكْتُ مِنْ دُورِهَا أَلَمًا
 لَمْ أَرِ شَخْصًا مِنْ قَبْلِ رُؤْيَيْتِهَا يَفْعَلُ أَفْعَالَهَا وَمَا عَزَمَا
 فَلَا تَلَمُّهَا عَلَى تَوَاقُعِهَا أَطْرَبَهَا أَنْ رَأَتْكَ مُبْتَسِمًا

(١) خِيُولُهُ السِّنَّةُ . (الْمَفْرَدُ : مُذَكَّرٌ) .

(٢) تَحَاوَلَتْ وَتَحَادَعَتْ .

(٣) مَلِكُ الرُّومِ ، وَكَانَتْ مَرْسُومَةٌ عَلَى الْحِيْمَةِ .

(٤) جَمْعُ : مُجَلٌ ، وَهُوَ : ثَوْبٌ يَفْطِي ظَهْرَ الْفَرَسِ وَجَوَانِبَهُ .

(٥) الْمَوَاضِعُ الَّتِي حَوْلَ الْفَمِ (الْمَفْرَدُ : مَلْفَمٌ) . (٦) ص ٣٠ .

(٧) لِأَنَّهُ جَعَلَهَا أَوَّلَ الْأَمْرِ لَا تَشَاءُ ، وَلَا تَحْسُ بِأَلَمِ . ثُمَّ عَادَ فَجَعَلَهَا تَطْرِبُ لَا يَتَسَامُ الْمَدُوحُ
 (رَاجِعُ الْعَكْبَرِيِّ فِي شَرْحِ الْبَيْتِ)

وقوله حين سمع زئير أسود بالفراديس (١) :

أَجَارُكَ يَا أَسَدَ الْفَرَادِيسِ مُكْرَمٌ فَتَسْكُنَ نَفْسِي أَمْ مُهَانَ فَمُسْلَمٌ ؟
وَرَأَى وَقْدَامِي عُدَاةً كَثِيرَةً أَحَازِرُ مِنْ لَهْزٍ ، وَمِنْكَ ، وَمِنْهُمْ
فَهَلْ لَكَ فِي حِلْفِي هَلَى مَا أُرِيدُهُ ؟ فَإِنِّي بِأَسْبَابِ الْمَيْشَةِ أُعْلِمُ
إِذَا لَأَتَاكَ الْخَيْرُ فِي كُلِّ وَجْهَةٍ وَأَثَرَيْتِ مِمَّا تَغْنَمِينَ وَأَغْنَمُ
وأضعف من هذا كله ، وأشد تهافتاً ، وأوضح عجزاً — أن يصف
مجلس الأمير ، وقد كثر البخور ، وارتفعت رائحة النَّد ، وعلت الأصوات —
فلا يزيد في هذا الموقف الرائع على البيتين الآتين :

أَنْشُرُ الْكِبَاءَ (٢) ، وَوَجْهُ الْأَمِيرِ وَصَوْتُ الْغِنَاءِ ، وَصَافِي الْخَمُورِ ؟
فَدَاوِ خُمَارِي (٣) بِشُرْبِي لَهَا فَإِنِّي سَكِرْتُ بِشُرْبِ الشُّرُورِ
ومثله وصفه للعبة في صورة جارية في يدها طاقة ربحان . وهذه القطعة
أوضح دلالة على عجزه وتصوره (٤) :

(١) موضع بالشام . (٢) العود الذي يحرق فتفوح رائحته . (٣) دوار الخمر .
(٤) ذلك لأنه قالها وهو في موقف يشبه موقف الامتحان ، وإظهار القدرة والبراعة ؛
فقد روى العكبري قبل هذه الأبيات : أن بدر بن عمار كان يجالسه رجل أعور ،
يعرف بابن كَرْوَس ؛ يحسد أبا الطيب ؛ لما كان يشاهده من سرعة خاطره ؛
لأنه لم يكن شيء يجري في المجلس إلا ارتجل فيه شعرا . فقال الأعور لبدر :
أظنه يعمل قبل حضوره ، وبعده . ومثل هذا لا يجوز . وأنا أمتحنه بشيء أحضره
لوقت . فلما كان في المجلس ، ودارت الكؤوس — أخرج لعبة لها شعر في طرفها
تدور على لولب ، لإحدى رجليها مرفوعة ، وفي يدها طاقة ربحان . فاذا وقفت
إزاء لإنسان شرب ، فدارت . فقال الأبيات المذكورة ، ونجح في الامتحان ،
ولكنه نجاح لا تفوق فيه ولا امتياز .

وجارية شَفَرُها شَطَرُها مُحْكَمَةٌ ، نافذِ أَمْرِها
تدورُ وفي كَفِّها طاقةٌ تَضَمَّنُها مَكْرُها شِبْرُها
فإنَّ أَسْكَرَتْنَا فِي جَهْلِها بِمَا فَسَلَّتْهُ بِنَا عُدْرُها
* * *

ونكتفي من موضوعاته بما تقدم ؛ فباقيها كسابقتها في تلك الأحكام العامة التي عرضنا لها . ولكن نختتم الكلام بأبيات من فخره (وما الفخر إلا مدح يوجهه المرء لنفسه وخاصته) ونصيب المتنبي منه أوفر نصيب . ولا أعرف شاعرا عربيا يسبقه فيه ؛ كثرة ، وقوة . ولعله كان يرضى به غروره ، ويشفى ألم نفسه ، وحقدتها على الزمان والناس ؛ فقد زعم أن الأيام تنكرت له ، وأنكرت مواهبه . وأن الناس جحدوا فضله ؛ فلم يرفعوه إلى المكانة اللائقة به ، ولم يمنحوه ما يستحق وتستحق مواهبه ؛ من ملك ، أو ولاية ، أو زعامة عامة ؛ فجاء بفخره يَهْوَنُ الأسر على نفسه ، ويخفف عنها ؛ بترداد محاسنها ، أو بدم الزمان والناس ، أو بالتظاهر بالصبر ، والاستهانة بالحوادث ، أو أشباه هذا مما يشفى أحقادهم ؛ وإن تمت كلماته عن ثورة داخلية عميقة ، ومرارة متمكنة ، وألم دفين . ولقد كان شعوره النفسى بهذا قويا صادقا ؛ فجاء تصويره قويا صادقا كذلك ؛ إذ دفعه الإحساس العميق المتغلغل إلى ترجمته ، والتعبير عنه ترجمة تلائمه ، وتظهر حقيقته . ومن هنا امتاز فخره بأنه وجداني رصين . استمع إليه يقول :

أَيَّ حِلٍّ أَرْتَقِي أَيَّ عَظِيمٍ أَتَنَقِّي
وَكُلُّ مَا خَلَقَ اللَّهُ وَمَا لَمْ يَخْلُقْ
مَحْتَقِرٌ فِي هَمِّي كَشَعْرَةٍ فِي مَفْرِقِي

ويقول : . . .

فالخيل ، والليل ، والبيداء — تهرق
كم تطالبون لنا عيباً فيعجزكم
ما أبعد العيب والنقصان من شرفي
والضرب ، واللعن ، والقرطاس ، والقلم
ويكره الله ما تأتون ، والكرم
أنا الثريا ؛ وذان الشيب والهرم
وقوله :

ردي حياض الردى — يا نفس — وأتركي
إن لم أذكرك على الأرماع سائلة
أيمالك الملك — والأسياف ظامئة
من لورآني ماء مات من ظمإ
وحياض خوف الردى للشاء والنهم
فلا دُعيت ابن أم المجد والكرم
والطير جائعة — لحم على وضم^(١)
ولو مثلت له في النوم لم ينم^(٢)
وقوله :

ما مُمقأ بأرض نخلة^(٣) إلا
مفرشي صهوة الحصان ولكن قيصي مسرودة من حديد
... ..

لا بقومي شرفت ؛ بل شرفوا بي
وبهم نخر كل من نطق الضأ
إن أكن مُعجباً فعجب عجب
وبنفسى كفرت ، لا بجدودي
د ، وعوذ الجاني ، وغوث الطريد
لم يجد فوق نفسه من مزيد

(١) الوضم : كل شيء يوضع عليه اللحم . ويضرب مثلاً للضعيف الذي لا يدفع الشر عن نفسه . ومعنى البيت — أيمالك الملك قوم أذلاء ؟ كاللحم على الوضم . وأسيفنا ظامئة إلى دمائهم ، والطير جائعة لا تشبعها من لحومهم ؟ .

(٢) المعنى : كيف يملك الملك من لو رآني ماء وهو عطشان لمنعه خوفه أن يقترب مني ، فيموت عطشاً ، ومن لو رآني في منامه فر النوم من عينيه .

(٣) قرية شامية لبني كلب على ثلاثة أميال من بعلبك . نزلها المتقي أياما .

أنا ترَّبُ النَّدى ، وَرَبُّ القوافي وَسَمَامُ العِدا ، وَغَيْظُ الحُسدِ
أنا فى أُمَّةٍ - تداركها الله - غريبٌ ؛ كصالحٍ فى ثُودِ
وقوله مخاطباً سيف الدولة :

وما أنا إلا سَمَهْرِيٌّ حَمَلْتَهُ ؛ فَرَيْنَ مَعْرُوضاً ، وَرَاعَ مُسَدِّداً
وما الدهرُ إلا مِنْ رِوَاةٍ قَلَّادِي إِذَا قَلْتُ شِعْراً أَصْبَحَ الدهرُ مَنْشِداً
فسار به مَنْ لا يَسِيرُ مُشَمِّراً وَغَنَى به مَنْ لا يُغْنَى مَغْرَداً
أَجِزْنِي إِذَا أَنْشَدْتُ شِعْراً ؛ فَإِنَّمَا بِشِعْرِي أَتَاكَ المَادِحُونَ مُرَدِّداً
وَدَعَى كُلُّ صَوْتٍ غَيْرِ صَوْتِي ؛ فَإِنِّى أَنَا الصَّاحُحُ المَحْكِي وَالْآخِرُ الصَّدَى

* * *

أما شوقى فقد حافظ كذلك على عمود الشعر ، وسلك مسلك المتنبي
والقدماء فى الفن الشعرى ؛ شكله ، وموضوعه . ولكنه منح نفسه بعض
التحرر ، وحسن التصرف ، وقد حرَّهمَا المتنبي .

(١) فمن حيث الشكل كانت طريقته فى تأليف الجمل ، وبناء الأساليب ،
واستخدام الوسائل البلاغية ، والأوزان الشعرية — هى طريقة المتنبي
والسابقين . ويفضله بأمر ثلاثة :

أولها: أن شوقى جانب — ما استطاع — الوقوع فى كثير مما وقع فيه قرينه ؛
من لفظ معيب ، أو أسلوب مجرَّح ، أو خروج على محاسن البلاغة ،
أو اختيار بحر غير مناسب أو قافية مضطربة ... إلى غير ذلك مما
وصفنا به المتنبي .

ثانيها: أنه لم يقتصر على حسن اختيار الوزن الشعرى (البحر) ملائماً كل

الملاءمة للموضوع (على الوجه الذى شرحناه) واختيار التنافية مناسبة مطمئنة ثابتة فى مكانها — بل لجأ إلى أوزان أخرى قديمة لم يلجأ إليها المتنبى ؛ كالموشحات ، والمربعات ، والخمسات ، وأشباهها ، واستخدمها فى أنسب المواضع وأحكمها استخداما بارعا عجيبا ؛ يلائم موضوعاتها ، ويسير الحياة الحاضرة ، والحوادث الجارية ؛ كالموشح الأندلسى ، والأناشيد الوطنية ، وأناشيد الكشافة ، والنيل ، وكرة القدم ، والانتصار فى الحروب ولم يَتَزَمَّتْ فى استعمال الأوزان القديمة ؛ بل كان يتحلل حينما من بعض قواعد الفرعية اليسيرة الشأن ، (كالتى تتعلق بالزحاف والعلل) استجابة لتوقيع موسيقى ، أو تلحين غنائى ، أو أمر آخر تقتضيه طبيعة الموضوع ، وصياغته صياغة فنية حديثة ؛ توافق التلحين ، أو الترنيمة ، أو العاطفة ، فى غير جراءة منكورة على علم العروض وقواعده العامة الأساسية . ومطلع الموشح الأندلسى كما عرضناه ..

مَنْ لِنِضْوٍ يَتَسَنَّرِى أَلَمَا بَرَحَ السُّوقُ بِهِ فِي الْفَلَسِ
حَنٌّ لِلْبَّانِ وَنَاجَى الْعَلَمَا أَيْنَ شَرْقُ الْأَرْضِ مِنْ أُنْدَلَسِ ؟
... ..

ومن أناشيد الوطنيه :

بَنِي مِصْرٍ ، مَكَانُكُمْ تَهَيَّأ فَهَيَّأ ؛ مَهْدُوا لِلْعَجْدِ هَيَّأ
خُذُوا شَمْسَ النَّهَارِ لَهُ حُلِيَّأ أَلَمْ تَكُ تَاجَ أَوَّلِكُمْ مَلِيَّأ ؟
... ..

ومن أناشيد الكشافة :

نحن الكشافة في الوادي جبريلُ الروحُ أنا جادى
يا رب بهيسى ، والهادى وبموسى خذ بيدِ الوطنِ
... ..

ومن أناشيد الفيل :

النيلُ العذبُ هو الكوثرُ والجنةُ شاطئُهُ الأخضرُ
رَبَّانُ الصَّفْحَةِ ، والمنظرُ مأبى الخلدِ !! وما أنصر !!
البحرُ الفَيَّاضُ ، القدُّسُ السَّاقِ الناسِ ، وما غرسوا
وهو المنوالُ لما لبسوا والمنعمُ بالقطنِ الأنورُ
... ..

ثالثها : أن شوق استطاع في رواياته المختلفة — مسرحية وغير مسرحية — أن يخضع أوزان الشعر للمحاورة الطويلة ، والحديث المتبادل بين اثنين وأكثر ؛ وهذه أول مرة — فيما نعرف — في تاريخ الشعر العربى ، يقع فيها مثل ذلك النقاش ؛ فى البيت الواحد وفى الأبيات المتعددة ؛ بحيث يستطيع الشاعر أن ينطق أشخاص الرواية فى مواقفهم المختلفة بلغة سليمة ، مؤاتية الأداء ، صادقة التعبير عن المراد ، مع الحرص على الوزن الشعرى ، والقافية الصحيحة . نعم إن « شوق » قد يغير الوزن (البحر) والقافية ؛ فينتقل من بحر ، ومن قافية لغيرها ؛ إذا طال الحوار ، وكثر الجدل ، واقتضى الموقف التمثيلى ، والنغم الموسيقى ذلك . ولكنه فى كل حالاته لا يهمل الوزن العربى المأثور ، والقافية السليمة . ترى هذا وغيره ، واضحا فى رواياته الساحرة التى امتاز بها على أدباء

العربية جديداً ؛ سلامة لغة ، وبلاغة أسلوب ، وروعة معنى ، ودقة وقائع ، وبراعة حوار^(١) ، وحسن تقسيم للفصول ، واختيار للشخصيات . تراه في مسرحية « كليوباترة » و « قهبيز » و « على بك الكبير » و « مجنون ليلى » ... وهى روايات ممتازة أثبت بها شوقى نجاح الشعر العربى فى الميدان القصصى والتمثيلى ، وكذب بالفعل ما ادعاه الأدعياء بالقول عن قصور شعرنا ، وعجزه فى ذلك الميدان

(١) ورد الحوار فى الشعر فى العصور الأدبية المختلفة ؛ ولكنه حوار سطحي قصير ، لا يتجاوز من القصيدة بعض أبيانها . يدور بين شخصين غالباً ، وعماده : « قال » « قلت » ... « قالت » ... ومن أمثاله مادار بين أبى نواس وخماره (أى : صاحبة حانة) :

نَبَّهْتُهَا سَحَرًا ، والليل مهتكرٌ	والديك يَمْزُجُ تصفيقا بتصويت
فَأَوْجَسَتْ خَيْفَةً مِنِّي ، وما شعرت	أنى طَرُوقَ لِرَبَاتِ الحَوَانِيتِ
فَقُلْتُ : لا تَجْزَعِي . قالت : حسبكم	طَرِيقَ لَيْلٍ أَرَادُونِي لَتَبِيتِ
وَقُلْتُ : عِنْدَكَ خَيْرٌ تُتَمَتِّعِينَ بِهَا	بِكُرٍّ ، وَحِظُّكَ عِنْدِي كُلِّ مَاشِيَةٍ ؟
قَالَتْ : أَتَيْتَ الْمَنَى مِنْ عَانَسٍ عَصْرَتْ	فِي الدَّنِّ مَذْ صَاحِبِ الِيتَّطِينِ وَالْحَوْتِ
فَقُلْتُ : مَا إِنَّ لَهَا غَيْرِي . فكيف بها ؟	قَالَتْ : فَأَتَى بِهَا ؟ قُلْتُ : لَهَا إِيَّتِي
فَوَدَّجَتْ خَصْرَ دَنٍّْ فِي زَجَاجَتِهَا	فَأَبْرَزَتْ خَمْرَةً فِي لَوْنِ يَاقُوتِ
فَقُلْتُ : لَمَّا رَأَيْتَ الشَّمْسَ طَالِعَةً	تَجْلُو الظَّلَامَ — أَلَا يَأْخُرُ حَيِّتِ ... ؟

وهذا حوار — على حالوته — ساذج . أين هو من حوار شوقى الذى لا قال فيه ولا قيل ، والذى يؤديه أشخاص مختلفون فى أبيات كثيرة ، أو بيت واحد ؛ مع إصابة الغرض التمثيلى ، وإجادة المعنى ، وإحكام المناسبة ، وتسلسل الفكرة ، واتصالها .

المسرحي^(١) . وهالك مشهداً من رواية كليوباترة يُسجل فيه موقف « أنطونيوس » حين جرح ، وموقف كليوباترة التي يحبها الجريح . كليوباترة وهي تخاطب أعوانها :

ما تَسْمُونُ ؟ أَصِيخُوا شَرٌّ ، وهذا بريدُهُ
كان الضجيجُ بعيداً والآنَ يَدْنُو بَعِيدُهُ
حاجي^(٢) : أَتَسْمَعُ ؟! ضَجَّةُ صَاحِبَةٍ
وَجَرِيحٌ ، وَجَنُودٌ فِي الطَّرِيقِ
هَاهُمْ قَدْ دَخَلُوا الدَّارَ بِهِ
أنوبيس^(٣) : دَارُنَا الشَّاطِئُ لَا يَأْبَى الْفَرِيقُ

حاجي : هَاهُمُ قَدْ حَضَرُوا
أنوبيس : يَا مَرَّحَباً أَعَدُّوا كَانَ أَمْ كَانَ الصَّدِيقُ
كليوباترة : (وَقَدْ دَخَلَ جَنْدِيَانِ يَحْمِلَانِ أَنْطُونِيُوسَ الْجَرِيحَ)
ويح عيني ماذا ترى؟ ومن المَحْمُولُ كالسيفِ في الأَكْفِ خَضِيباً؟
أيها الجند ما بأيديكم اليوم؟

جندى : جَرِيحٌ عَلَى الطَّرِيقِ أَصِيباً
كليوباترة : أَفَتَدْرُونَ مَنْ حَمَلْتُمْ ؟
جندى : حَمَلْنَا هَيْكَلًا عَزَّ فِي الرِّجَالِ ضَرْباً
قد عرفناه خير من هَزَّ رُمُحاً وَنَضَّا صَارِمًا ، وَلَاقَى الْحَرْبَ

(١) وضعت في عصر النهضة الحاضرة روايات زمن شوقي وقبله . ولكنها لم تبلغ من الجودة والإحكام إلا بعض ما بلغته الروايات الشوقية . ولا يزال الشعراء يحتذونها ، ويحاولون محاكاتها .

(٢) مساعد أمينة المكتبة الملكية . (٣) الكاهن الأكبر .

كليوباترة: آه أنطونيو!! حبيبي أدركوني بطبيب
ما ترّون الأرض ترّوى من دمّ اللّيث الصّبيب؟

... ..

هذه لمحة يسيرة من مشهد واحد . فأما المشهد كله ، وأما الرواية كلها ،
والروايات الأخرى — فمجائب أدبية لم تشهدها اللغة العربية قبل شوقي .
وليس في هذا الحكم مبالغة ولا إسراف ؛ بل هو الحق الصراح . نعم سبقه إلى
هذا آخرون فكانوا — بعمالهم — كالأقزام المهازيل إزاء المردة الجبارين .

* * *

(ب) ومن حيث الموضوع نراه — كالمقنبي والأقدمين — نظم الشعر في تلك
الأغراض السبعة المأثورة ، وزاد سبعة أخرى ؛ هي : شعر الدّعابة والمزح ،
وشعر الأغاني الخاصة ، وشعر الأناشيد ، وشعر الحكايات ، والشعر الروائي
(الذي أشرنا إليه) وشعر الخصوصيات ، والشعر التاريخي الذي خص
به عظماء الإسلام .

نعم إن هذه السبعة الأخيرة قد عرفها الشعراء الأقدمون (إلا المقنبي)
ولكن ليس فيهم من أكثر منها ، وأفرّد لكل غرض بابا خاصا ، وقسما
مستقلا من شعره ، تفاوله بالبراعة والتجديد كما فعل شوقي .

وكان شوقي في السبعة المأثورة القديمة معتدلا ، إلا في الهجاء ؛ فقد تركه
أو كاد . وفي الوصف ؛ فقد أفرط فيه وزاد . وهو بهذا كله يخالف المقنبي في خطته ؛
فقد أفرط المقنبي في المديح إفراطا ذميا ، وزاد في الهجاء ، وقصّر في الوصف ،
وتصوّر الحياة تقصيرا شائئا ؛ أساء إليه وإلى رسالته الشعرية . وأهمل الدعابة

وبعض الأغراض السبعة الأخيرة ، فاستحق من أجل ذلك كله أن يلقب
بالشاعر الذاتي ، على حين يستحق شوقي أن يلقب بالشاعر الإنساني ؛ إذ لم
يترك شأنا خطيرا في بلاده ، ولا أمرا هاما في أرجاء العالم — إلا ترجمه شعرا
وجدانيا ، وموسيقى عاطفية ، وإليك تفصيلا مناسبا عن موضوعات شوقي
(كالتفصيل الذي قدمناه لقرينه) .

كان شوقي يبني قصيدته على غرض أساسي مُعين ؛ ولكنه لا يقتصر
عليه إلا في شعر الأغاني والأناشيد ، وبعض المراثي . أما ما عداها فله أغراض
فرعية تقوم إلى جانب الغرض الأساسي :

(١) فقد يستهل قصيدته بالغزل — انتفاعا بمزاياه — ثم ينتقل منه إلى الغرض
الذي أنشأ القصيدة من أجله . وهذا النوع قليل في شعره عامة —
والمتنبى أكثر التجاء إليه . كقصيدته في مشروع « مانر » وقد رجع
به أربعة من وفد المفاوضين المصريين ؛ ليعرضوه على البلاد ، ويستمعوا
للآراء المختلفة فيه . ومطلعا :

أثْنِ عَيْنَانَ الْقَلْبِ ، وَاسْلَمْ بِهِ مِنْ رَبِّ الرَّمْلِ ، وَمِنْ سِرِّهِ
وَمِنْ تَتَنَّى الْغَمْدِ عَنْ بَانِهِ مَرْجَّةَ الْأُرْدافِ عَنْ كُثْبِهِ
ظَبَاوُهُ الْمُنْكَسِرَاتُ الْغُظْبَا يَغْدِبْنَ ذَا الْأَبِّ عَلَى لُبِّهِ
إلى أن يتحدث عن فؤاده قائلا :

مَا خَفَّ إِلَّا لِلْهَوَى وَالْعُمَلَا أَوْ : لَجَلالِ الْوَفْدِ فِي رَكْبِهِ
أَرْبَعَةٌ تَجْمَعُهُمْ هِمَّةٌ يَنْقُلُهَا الْجَيْلُ إِلَى عَقْبِهِ
قَطَارُهُمْ كَالْقَطْرِ هَزَّ التَّرَى وَزَادَهُ خِصْبًا عَلَى خِصْبِهِ

وكهمزيتته ، ونهج البردة (وهما في مدح الرسول) . وكثير من غزله الذى يفتتح به قصائده — مصنوع ، فاتر الحرارة ؛ لأنه يسوقه محاكاة وتشبهاً بالأقدمين ، لا استجابة لم عاطفة مشبوبة ، ولا تلبية لوجدان ملتهب . على غير غزله فى أغانيه ؛ فأكثره مثال صادق للشعور المتدفق ، والحس المتوقد . وهو — فى كليهما — قد يجيء بممان لم يعبها الشيوع والابتذال ، وأخرى عابها الترديد والامتهان .

(٢) وقد يستهل قصيدته بمكاء الديار ، والوقوف على الأطلال والرسوم . وهذا أقل الأنواع عدداً فى شعره (والمتنبى أكثر فيه) كقصيدته بعد عودته من المنفى فى وصف الأندلس ، ووصف الغلاء بمصر .

أنادى الرسم ، لوملك الجوابا !! وأجزيه بدمعى ، لو أثابا !!
وقل لحقه العبرات تجرى وإن كانت سواد القلب ذابا
إلى أن قال :

وداعاً أرض أندلس ، وهذا ثنائى إن رضيت به ثوابا
وما أثبت إلا بعد علم وكم من جاهل أثنى فعابا
ثم قال :

ويا وطنى لقيمتك بعد يأس كأنى قد لقيت بك الشبابا
وكل مسافر سيثوب يوما إذا رزق السلامة والإيابا
إلى أن قال :

أمن حرب البسوس إلى غلاء يكاد يعيدها سبعاً صعباً ؟
وهل فى القوم يوسف يقيها ؟ ويحسن حسبة ويرى صواباً ؟
عبادك رب قد جاعوا بمصر أنيلا سقت فيهم أم سرايا ؟

(٣) وقد يبتدئ القصيدة بموضوعها الخاص ، لا يقدم عليه شيئاً . وهذا أكثر من النوعين السالفين ؛ كقصيدته في الصحافة ، ومطلعها :

لكلِّ زمانٍ مضى آيةٌ وآيةٌ هذا الزمانِ الصحفُ
لسانُ البلادِ . ونبضُ العبادِ ، وكهفُ الحقوقِ ، وحربُ الجَنَفِ

(٤) وقد يفتتح القصيدة بإعلان خواطره الطارئة ، وما يشغل باله وبال الناس وقت نظمها من أحداث هامة عامة ، ثم ينتقل إلى الغرض المعين (وقد يعرض للخواطر مرة أخرى) كقصيدته في الذكرى السابعة عشرة لمصطفى كامل ، وقد جاءت والبلاد فريسة خلاف سياسي ، ونزاع حزبي عنيف — كما سبق — ؛ فبدأها بقوله :

إلامَ الخلفُ بينكم ؟ إلاما ؟ وهذي الضَّجَّةُ الكبرى علّاما ؟
وفيمَ يَكِيدُ بعضكمو لبعضٍ ؟ وتُبْدُونَ العداوةَ والخصاما ؟

إلى أن وصل إلى موضوع القصيدة فقال :

شهِيدَ الحقِّ ، قُمْ تَرَهُ يَتِيماً بأرض ضُيِّعَتْ فيها اليَتَامَى
وما أنْسَاكَ في العشرينَ لَمَّا طَلَعْتَ حَيَالِمَا قَمَرًا تَمَامَا
يُشَارُ إِلَيْكَ في النَّادِي ، وتُرْمَى بِعَيْنَيْ مَنْ أَحَبَّ وَمَنْ تَعَامَى
فيبدو من هذا أن « شوقي » في استهلاله يحاكي القدماء ، وأنه والمتنبى سواء . ولكنه يخالف المتنبى في أمور أربعة :

أولها : أن استهلاله بالغزل ، والوقوف على الدمن والرسوم — قليل .
ثانيها : أنه لا يصدر قصائده بوصف متاعب الأسفار ، وتحمل المشاق ، وقطع
الفيافي والقفار للوصول إلى ممدوحه أو غيره كما فعل المتنبى أحيانا

(واهل سبب ذلك أن عصره لم يكن عصر أسفار شاقة . ولا رحلات مرهقة ، ولا صحارى مهلكة ؛ فقد زالت هذه المتاعب — أو كادت — بكشف البخار ، واختراع المحركات الآلية ، وذيوع الأسن ، وباقي الوسائل التي جعلت السفر متعة ونعما ، بعد أن كان عذابا وجحيمًا)
نالتها : أنه — وإن حاكى الأقدمين في مطالعهم ، ومعانيهم ، وأساليبهم — لم يعدم كثيرا من المعاني الطريفة الشائقة التي فاز المتنبي بقليلها دون كثيرها .

رابعها : أنه قد يبدأ قصائده بالحديث عن موضوعات عامة تشغل خواطر الناس .

* * *

هذا ، وفي النرض الأساسى الذى يقوم عليه بناء القصيدة الشوقية ملاحظات نجملها فيما يلى :

(١) المديح :

نلاحظ فيه نوعين متفاوتين غاية التفاوت ؛ « أحدهما » ضعيف هزيل فى سائر مناحيه . وهو الذى ورد فى الديوان فى طبعته الأولى القديمة تحت عنوان باب المديح . وهو — على ضعفه وهزاله — كثير العدد ، وافر الأبيات ؛ فقصائده تبنى على خمس وأربعين ، وكثير منها طويل النفس ، عديد الأبيات . « والآخر » قليل العدد لا يتجاوز تسعاً ، وردت فى الطبعة الثانية من الديوان ، ولم ترد فى الأولى . والمتأمل فى قصائد النوعين يجد التفاوت بينهما عظيماً « فالأولى » واهية اللفظ ، فقيرة المعنى ، عتيقة الفكرة ، جذبة الخيال ، فاترة العاطفة ، إذ يمدح بها الملوك والأمراء ممن اختاروه لهذا الأمر ، وأعدّوه ليكون شاعرهم الخاص الرسمى ؛ فجاءت مدائحهم فيهم رسمية

كذلك . وإن شئت فقل إنها حكومية ؛ يؤدي بها واجب الوظيفة ومقتضياتها ، لا يدفعه دافع من شعور دفاق ، ولا وجدان متوثب . والأخرى أحسنُ حظاً من سابقتها ؛ فقد نالت نصيباً من اللفظ الحسن ، والمعنى الجيد ، وحظاً من الخيال الصنع ، والعاطفة المأسجة ؛ إذ لم تتجه للملوك ، والأمراء ؛ وإنما اتجهت للعظماء والأخيار ، وتحدثت عن خصائصهم ، وجلائل أعمالهم . ولم يلجأ فيها — إلا قليلاً — لتلك الأوصاف العامة التي تداولها شعراء المديح من أقدم عصورهم إلى اليوم ؛ وهي الأوصاف التي تكاد تنحصر في الشجاعة ، والسمو ، والجود ، والجمال . يرددونها لكل ممدوح ، ويرددون معها تشبيهاتها الماثورة : بالأسد ، وحاتم ، والقمر ... سواء أكان الممدوح جديراً بهذا الوصف أم غير جدير . وإن المنصف ليقرر أن مدائح شوقي دون مدائح المتنبي في المعنى ، وقوة الأسلوب ^(١) ، بل يرى أن التفاوت بينهما عظيم . ولولا مزية التخصيص التي أخذَ بها شوقي لكان التفاوت أعظم . وإذا كان المتنبي من نشأته وبيئته ما ينهض عذراً أو ما يشبه العذر فإن مجال الاعتذار أضيقُ أمام شوقي . ولأمرًا أهمل الديوان في الطبعة الثانية بعض المدائح التي حوتها الطبعة الأولى . وقد يكون ذلك لسبب سياسي ، أو : لأنه شعرُ الحداثة الذي لا تجويز فيه ولا إيمان ، أو : لأنه ينظم صاحبه في عداد المداحين ، ويسجل عليه أنه من المتكسبين بالشعر ، وهذا ما يفزع منه شوقي ، ومن كان مثله في النشأة والبيئة ، والفنى .

ولقد عرفنا أنه عاب على المتنبي إسرافه في المديح ، وكثرة قصائده في هذا النوع المصنوع ، ولكنّه وقع فيما عابه عليه ، فبادر بحذف الكثير منه ، والإضراب

(١) هذا إن أغضينا عن عيوب المتنبي اللفظية .

عن المدائح بعد ذلك ، إلا قليلا خلا من التكلف ، وزانه الطبع والإتقان .
وقد يكون عذر شوقي في الإكثار المميب أول حياته الأدبية أنه كان
صنيعة الخديوى توفيق ، وشاعره الرسمى ، وشاعر ابنه عباس بعده ؛
فلا مناص من امتداحهما ، وامتداح أسرتهما . والإشادة بهما في المناسبات
المتختلفة ؛ رضيت نفسه أم سخطت ، واثقه طبيعته أم خالفته ؛ فشأنه شأن
الموظف ، يؤدي عمله راضياً أو كارهاً . ومن هنا كان الإكثار المميب ،
وضعف الفن الشعري . وساعد عليهما عوامل من البيئة العامة وروح العصر ،
واستهلال الشاعر حياة أدبية لم تصقل بمزيد من القراءة ، والتجربة ، وفنون
الآداب المختلفة ، أجنبية ، وغير أجنبية . فلما تحرر الشاعر من قيود الوظيفة ،
ومن الاتصال الرسمى بالقصور الخديوية ، وانسخت تجاربه وآفاقه الأدبية ، ونهضت
البيئة — أقلع عن المديح ، وعزف عنه ، إلا إن أُجبرَ عليه لداعى مجاملة أوسياسة
— كما أشرنا — ؛ فيسوقه شعراً جامداً ، ونظماً مقهوراً ، يبدو عليه الفتور ،
والهزال ، والتهرب من وصف الممدوح إلى الكلام على أمور عامة تُشرك
بأنه يفر من مدحه . وفي الندرة قد ينتهز مناسبة نبيلة ، أو عملاقاً نافعاً —
فيمدح صاحبها مدفوعاً بميل صادق ، وعاطفة بريئة من الملق والرياء ؛
فيجىء شعره بصورة طيبة للفن والافتنان ، وطاقة من الرياض الأدبية
البديعة ؛ يهديها إلى من يستحقها . وإليك نماذج من المهددين :

فمن الأول قوله في مدح الخديوى عباس حلى (وهو ابن الخديوى
محمد توفيق) :

بِعَبَّاسٍ عِشْنَا ؛ حِينَ لَا الْعِيشُ هَيِّنٌ وَحِينَ بَنُوهُ لَا حِمِيلٌ ، وَلَا تَحْمَدُ

وَرُبَّ كَثِيرٍ قَوْمُهُ ، وَهُوَ قَوْمُهُ
وإنَّ (ابن تَوْفِيقٍ) لأَكْرَمُ مَنْ سَرَتْ
فِي تَتَقِيهِ فِي خَلَاتِقِهِ الْعِدَا
تُحِبُّكَ يَا خَيْرَ الْمُلُوكِ رَعِيَّةَ
فَأَنْتَ حَبِيبٌ ، وَالْيَمَالُ عَوَازِلُ
كُنِ الْبَدْرُ شَأْوًا ، أَوْ : كُنِ ابْنُ مُحَمَّدٍ
وَقَوْلُهُ فِيهِ :

وَجْهَ عَبَّاسٍ ، وَجْهَ عَبَّاسٍ ، أَكْرَمُ
كُلِّ يَوْمٍ فِي ذَا الْوَرَى لَكَ - حِلْمِي (٢) -
وَقَوْلُهُ فِيهِ :

فَتَّ النُّجُومَ الزُّهْرَ فِي طَلَبِ الْعَلَا
وظَهَرْتَ فِي شَرْقِ الْبِلَادِ ، وَغَرِبَهَا
وَقَوْلُهُ فِي مَدْحِ الْخَدِوِ تَوْفِيقٍ :

لَكَ مَصْرٌ يَجْرِي تَحْتَ عَرْشِكَ نِيْلَهَا
أَنْتَ الْعَزِيزُ ، وَهَذِهِ مَصْرٌ ؛ فَلَا
وَلَكَ الْبِلَادُ ؛ عَرِيضُهَا ، وَطَوِيلُهَا
عَجِبْتُ إِذَا احْتَقَرَ الْبِلَادَ نَزِيلَهَا (٣)

(١) معنى البيت : من الناس من قومه كثيرون ولكن لا قيمة لكثرتهم إلا به ؛ فكأنه القوم . وقبيلة طى العربية المشهورة لم تشتهر إلا بفتاىم الكريم حاتم ؛ فإذا عددها فلا قيمة لأفرادها إلا به . (٢) يا حلمي .

(٣) معنى الشطر الثانى غريب ، أريد أن الأجنبي يحتقر بلاده حين يرى مصر وجمالها ومظاهر النعمة فيها ؟

آتٍ لجأهك بالرجاء مكارمٍ مُستكثرٍ عند الملوِكِ قليلها

ومن الثانى قوله فى مدح أم الخديو السابق ، وتهنئتها بالعودة إلى مصر ،
زمن الملك فؤاد ، بعد غيابها سنوات طويلة ، فى بلاد الترك ؛ انتقل فيها
العرش المصرى إلى فرع آخر غير فرعها ؛ فلم تلق الحفاوة الرسمية وغير الرسمية
التي كانت تجدها أيام ابنها الخديو عباس :

يامِثَلاً للعقيلاتِ العُـلا	وكالاً للنساء العالمين
وجمالاً نزلت آيتُهُ	من حجاب الله ، والحصن الحصين
ملكْتُ نفسُك حتى سئمتُ	ضجةَ الملك ، وهمَّ المالكين
رب يومٍ عُدت فيه من (مِنى)	ومن (الخيف) ، ومن دار «الأمين»
مَنْ دنا من ركبتِ العالى به	آبَ فى القرية معدوم القرين
نسيت روعتُهُ فى بلدٍ	كل شىء فيه يُنسَى بعد حين
لا تروى غير شعري موكباً	إن شعري درجاتُ الخالدين
أقبلِ ؛ أحسنَ دنياً أقبَلْتُ	لبنى الآمال ، فى أحسن دين
أقبلِ ؛ صبحاً لأَنْضاء الشرى	وسماء للعجاف المُسَدِّتين
أقبلِ ؛ كالشمس لم تجعل لها	موكباً ، أو تمخذ من حاشرين
أقبلِ كالشمس راقَتْ فى الضحا	ثم راعتُ فى الأصيل المناظرين

وقوله فى الجراح المصرى الكبير « على باشا إبراهيم » :

على ، لقد لَقَّبْتُك البلادُ	بأبى الجراح . ونِعَمَ اللقب !!
سلاحك من أدوات الحياة	وكلُّ سلاحِ أداة العطب

ولفظك بنج ، ولكنه ، لطيف الصبا في جفون العصب
 أنامل مثل بنان المسيح أواسى الجراح ، مَوَاحِي النَّدْب
 تعالج كفاك بؤس الحياة ؛ فكف تداوى ، وكف تهب
 كأنك للموت موت أتيح فلم ير وجهك إلا هرب
 ومن ذلك قوله في « محمد طلعت حرب باشا » المؤسس الأول لأ كبز
 مصرف وطني حديث . (بنك مصر) وكان نجاحه في تأسيسه ، وتأسيس
 شركاته ، واطراد نموها — معجزة مصرية ؛ قوامها الصبر ، والحزم ، وإصابة
 الرأي ، ودقة العمل ، والجرأة في غير استهتار :

شرفاً « محمد » هكذا تُبنى العلا ؛ بالصبر آونة ، وبالإقدام
 همم الرجال إذا مضت لم يثنها خدع الثناء ، ولا عوادي الزام
 المال في الدنيا منازل نقلة من أين جئت له بدار مقام ؟
 فرفت إيواناً ؛ كركن النجم ، لم يضرب على كسرى ، ولا بهرام
 صيرت طينته الخلود ، وجئت من وادي الملوك بجنود وزغام
 هذا البناء العبقري أتي به بيت له فضل ، وحق ذمام
 كانت به الأرقام تدرك حسبة واليوم جاوز حسبة الأرقام
 ياطلما شغف الظنون ! وطالما كثر الرجاء عليه في الإلمام !
 ما زلت أنت وصاحبك بركنيه حتى استقام على أعز دعام
 أسستمو بالحاسدين جداره وبنيتمو بمعاول الهدام
 شركاتك الدنيا العريضة لم تنل إلا بطول رعاية ، وقِيَام

اللهُ سَخَّرَ لِسَكَنَانِهِ خازِنًا أَخَذَ الْأَمَانَ لَهَا مِنَ الْأَعْوَامِ
وَكُنَّ عَهْدُكَ عَهْدُ يَوْسُفَ ؛ كَلَهُ ظِلٌّ ، وَسُنْبُلَةٌ ، وَقَطَرٌ غَمَامِ
وَكُنَّ مَالِ الْمَوْدِعِينَ وَزَرْعِهِمْ فِي رَاحَتَيْكَ وَدَائِعُ الْأَيْتَامِ
مَا زِلْتَ تَبْنِي رُكْنَ كُلِّ عَظِيمَةٍ حَتَّى أَتَيْتَ بِرَابِعِ الْأَهْرَامِ
إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَشِيعُ فِي دِيَوَانِهِ ، وَمِنْ أَمْثَلِهِ قَصِيدَتُهُ فِي مَجْدِ عَلَى
الْكَبِيرِ وَمِطْلَعُهَا :

عَلِمْتُ أَنْتَ فِي الْمَشَارِقِ مَفْرُودٌ لَكَ فِي الْعَالَمِينَ ذِكْرٌ مُخَلَّدٌ
وَقَصِيدَتُهُ فِي الْخَدْيِوِ إِسْمَاعِيلِ وَمِطْلَعُهَا :

عَلِمْتُ مَدَّةُ الْكَرْسِيِّ لَكَ مَدًّا وَسُدِّي تَرْجِيحِي لِجُلْمِكَ رَدًّا

ولقد كان « شوقي » مسرفاً مبالغاً في الثناء على ممدوحيه أول عهده بالشعر.
فلما نَضَجَ اعتدل ، وقلَّ أن تقرأ له مثل قوله في الملك فؤاد :

اللهُ أَكْبَرُ يَا بْنَ إِسْمَاعِيلَ ! لَمْ تَتْرُكْ لِصُنَّاعِ الْمَأْتَرِ مَفْخَرًا

فمن الحق أن نُسَجِّلَ عَلَى مَدَائِحِهِ — بعد عهد الحداثة — اقتصاها
في الثناء ، وتجاوبها عن المبالغات المسرفة التي كان يلجأ إليها المتنبي وأشباهه
المدايحون . بل إن شوقي ليلاجاً أحياناً إلى بعض نقائص الممدوح ، ويومئ إليها
في مهارة ، ولباقة ، وحسن تلطف ؛ ليكون ذكرها عظة وإرشاداً ، ويكون
الشعر صادقاً نافعاً . استمع إليه يقول للخديوي إسماعيل الذي اندفع بمصر
إلى طريق المدنية اندفاعاً لا هَوَادَةَ فِيهِ وَلَا تَرِيثَ ؛ فتعثرت ، وزلت بها
القدم زلة جملت الدول الأوربية تقف في وجهه ، كما وقفت في وجه جده
الأكبر محمد علي ، وتعملُ على عزله ، وإنزاله عن عرش مصر ، وتمد
أصابعها في الشئون المصرية الصميمية :

يا كبير الفؤاد ، والهمم ، والآ
لم تكن حِقْبَةُ أساءت (علما)
خَذَلْتُ مِنْهُ وَاحِدَ التَّرِكِ ، والعُر
لا غراما بحاسديه ؛ ولكن
ولأنت ابنه الذكي : فهلاً
فَتَأْنَيْتَ ، وَالتَّائِي فَلَاحٌ
وحملت الأيدي المواتى أن تد
بالغت بعد لينها لك في العُد
وإذا المصير والملوكُ خصومٌ
فتركت السريرَ مضطربَ الأحـ وال : من نأى ربه ، ليس يَهْدَى
(ب) الهجاء :

صرح شوقي أنه هَمَّ بالهجاء حينما ولم يفعل ، وأن نفسه راودته إليه فلم يجيبها ؛
صَنَّا بالكرامة ، وحرصاً على حميد الخلال . سجل هذا في حديث بينه
وبين غادة كانت تسأله عن أمور مختلفة :

قالت : كَأَنِّي بالهجاء قِلَادَةٌ سارت . فقلت : هَمَّتْ ، ثم تركته
أَخَذْتُ به نفسي ؛ فقلت لها : دَعِي ما شاءت الأخلاق ؛ لا ماشئته
من راح قال الهجر ، أو نطق الخلفاً هَذَا بياني عنهما نَزَّهْتُهُ

(١) أى : أن الزمن الذى لم يحفظ الود لأبيك محمد على لا ينتظر منه أن يحفظ الود لك .
(٢) أعداء .

اللهُ عَلَّمَنِيهِ سَمَحًا طَاهِرًا نَزَهَ الْخِلَالَ . وَهَكَذَا عَلَّمَتْهُ
ويقول عن ابن زيدون: إنه ترك الهجاء تأديبا ؛ لأن الشاعر النبيل لا يهجو ،
وإلا كان كمن يمسّ المقارب لمن يشم الرياحين ؛ استمع إليه يصف
ابن زيدون بأنه :

يُرْسِلُ اللّٰحْنَ كُلَّهُ	مُبْدِعًا فِيهِ ، مُفَرِّبًا (١)
أَحْسَنُ النَّاسِ هَانِفًا	بِالْفَوَانِي ، مُشَبِّهًا
وَنَزِيلُ الْمُتَوَجِّهِ	نَ ، النَّدِيمَ ، الْمُقَرَّبَا
كَمْ سَقَاهُمْ بِشْمَرِهِ	مِدْحَةً ، أَوْ تَعْتَبَا
وَمَنْ الْمَدْحِ مَا جَزَى	وَأَذَاعَ الْمُنَاقِبَا
وَإِذَا الْمُهْجُوُ هَاجَهُ	لَمُـنَـاتِهِ أَبَى
وَرَأَهُ رَذِيلَةً	لَا تَمَاشِي التَّشَادُّبَا
مَا رَأَى النَّاسُ شَاعِرًا	فَاضِلَ الْخَلْقِ طَيِّبَا
دَسَّ لِلنَّاشِئِينَ فِي	زَنْبَقِ الشُّمْرِ عَقْرَبَا

فهو بهذه الأبيات والتي قبلها ، يكشف عن رأيه في المديح والهجاء .
على أن المتأمل ديوانه يصادف أنواعا ثلاثة من الهجاء الأدبي الهين ، المبرأ
من الإقذاع والإسفاف :

أولها : أبيات قلائل متفرقة خلال موضوعات مختلفة ؛ يذم بها فردا أو جمعا
أساء إليه من غير أن يذكر أسماء ، ولا أوصافا تدل على شخص بعينه .
ذلك أن الهجو الصريح يفتح باب الملاحاة ، ويوقظ الشر ، أو يزيد ،

(١) يأتي بغريب الكلام وعجيبه ونوادره .

وَيَنْهَى الْقَطِيعَةَ . والخير كله في ذم الميوب نفسها ، وكشف آثارها ؛
 لِمَتَوْقَاها النَّاسُ ، من غير تعرض لأسماء أصحابها تَهْرُضًا يَجَافِي كَرِيمَ
 الْخَلْقِ ، وَيُدْنِي إِلَى الضَّعَةِ ، وَيُدْخِلُ الْهَجَاءَ فِي عِدَادِ السُّوقَةِ . ومن أمثلة
 هذا النوع قوله بعد عودته من منفاه في الأندلس ؛ يُخَاطَبُ تِلْكَ الْبِلَادَ
 وَيَمْدَحُهَا ، وَيَذْكُرُ حَسَّادَهُ ، وَأَعَادِيهِ الَّذِينَ كَادُوا لَهُ ، وَظَاهَرُوا عَلَى
 إِخْرَاجِهِ مِنْ وَطَنِهِ ، وَنَفِيهِ لِمَتْلِكَ الْأَصْقَاعِ :

شَكَرْتُ الْفُلْكَ يَوْمَ حَوَيْتِ رَحْلِي فَمَا لَمُفَارِقِ شَكَرَ الْغُرَابَا !!
 فَأَنْتِ أَرْحَمَنِي مِنْ كُلِّ أَنْفٍ كَأَنْفِ الْمَيْتِ فِي النَّزْعِ انْتِصَابَا
 وَمَنْظَرِ كُلِّ خَوَّافٍ يَرَانِي بَوَجْهِ كَالْبَغْيِ ؛ رَمَى النَّقَّابَا
 وَلَيْسَ بِعَاصِرِ بَنِيَّانٍ قَوْمٍ إِذَا أَخْلَاقُهُمْ كَانَتْ خَرَابَا
 وَهَذَا يَدْخُلُ فِي عِدَادِ الْهَجَاءِ الذَّاكِي الْهَيْئِ ، إِذْ لَمْ يَفْصَحْ عَنْ أَسْمَاءِ .
 وَلَمْ يَبْلُغْ فِي الْكَثْرَةِ وَالْفُتْرِ مَعْشَارَ مَا بَلَغَهُ عِنْدَ الْمُتَنَبِّيِّ أَوْ غَيْرِهِ مِنَ الْهَجَائِينَ .
 ثَانِيهَا : قِصَائِدُ يَهْجُو بِهَا صَفْوَةَ رِفَاقِهِ ، هِجَاءٌ هُوَ إِلَى الدُّعَابَةِ وَالْفِكَاهَةِ أَقْرَبُ .
 بَلْ هُوَ نَوْعٌ مِنَ الْمَزْحِ الْحَبِيبِ ، لَمْ يَعْرِفْهُ الْمُتَنَبِّيُّ . وَفِيهِ أُمَارَاتٌ مِنْ حَسَنِ الصَّنَاعَةِ ،
 وَجَمَالِ الْمَعَانِي ، وَرِسْمَاتُ التَّجْدِيدِ الْمُسْتَمْلَحَةِ . كَقِصَائِدِهِ الْمَعْنُونَةِ بِعَنْوَانِ :
 « مَحْجُوبِيَّاتٌ ^(١) » : وَالتِّي يَقُولُ فِي وَاحِدَةٍ مِنْهَا :

بِرَاغِيثُ مَحْجُوبٍ لَمْ أَنْسَهَا وَلَمْ أَنْسَ مَا طَعِمْتُ مِنْ دَمِي
 تَشَقُّ خَرَاطِيمُهَا جَوْرَبِي وَتَنْفُذُ فِي اللَّحْمِ وَالْأَعْظَمِ
 تَرْحَبُ بِالضَّيْفِ فَوْقَ الطَّرِيقِ فَبَابِ الْعِيَادَةِ ، فَالْسَّلَمِ
 قَدْ انْتَشَرَتْ جَوْوَقَةٌ ^(٢) جَوْوَقَةٌ كَمَا رُشَّتْ الْأَرْضُ بِالسَّمْسَمِ

(١) يوجهها لصديقه الدكتور محجوب بك ثابت (كما سبق) . (٢) جماعة .

وترقصُ رقصُ المَوَاسِي الحِدَادِ عَلَى الجِلْدِ ، والعَلَقِ ^(١) الأَسْحَمِ
وقوله فيه ، وفي دنانيره التي بلغت ألفين :

يَا هَلْ تُرَى الْأَلْفَانِ وَقَفْ لَا يُمَسِّ ، وَمَحْرَمُ
« بنك السعيد » ^(٢) عليهما حتى القيامة فيم
« لاشيك » يظهرُ في « البنو لك » ولا « حِوَالَة » تَخْصَمُ
وأَعَفُ مَنْ لَا قَيْتَ يَدْفَعُهُ فَلَا يَتَكَرَّمُ

ثالثها : قصائد فيها شئ من القسوة والإيلام يوجهها إلى من أساء للوطن ،
وما لآ أعداءه ، أو تَوَاتَبَ في إنهاضه . وهو في توجيهها ، والإيلام بها —
نزيه الغاية ، شريف المقصد ؛ إذ لا يوجهها لمأرب خاص ، ولا هوى
مريب . على أنها — بالرغم مما فيها من إيلام وتجريح — أشبه بالعتاب
القاسى منها بالهجاء المرُّ ؛ كقصيدته في وداع « اللورد كرومر » المندوب
البريطاني في مصر ، وكان طاغية جبارا ؛ فنقلته حكومته استجابة
للمصريين ، الناقمين عليه . وأقيم لتوديعه حفل كبير بدار « الأوبرا »
حضره الأمير حسين كامل (الذي صار سلطانا بعد) وخطب فيه بعض
المصريين خطبة ضافية ، أثنى فيها على الإنجليز واللورد ، وأشاد بفضلهم
على مصر ، وعظم أياديهم . ثم وقف (اللورد) يردّ على الخطباء ،
ويشكر المودعين ، فأفليت منه زمام القول ، وانطلق يعيب مصر والمصريين ،

(١) نوع من الدود الأسود الطويل يوضع على الجلد ليمتص الدم الفاسد . أى : أن تلك
البراغيث ترقص على الجلد كالعَلَق .

(٢) يريد « بنك » إبراهيم سعيد باشا ، أحد المصارف المصرية بالقاهرة .

فانبرى له شوقى ؛ يَرُدُّ عليه ، ويُعرِّض بمن حضر من كبار المصريين
الذين استمعوا إلى السبِّ والطعن ساكتين :

أيامكم ، أم عهد إسماعيل ؟ أم أنت فرعون يسوس الفيلا ؟
أم حاكم فى أرض مصر بأمره لأسائلأ أبدا ، ولا مسئولا ؟
يا مالكا رِقَّ الرقابِ ببأسه هلا اتخذت إلى القلوب سبيلا ؟
لما رحلت عن البلاد تشهدت فكأنك الداء العيا رحيلاً

... ..

فى ملعب^(١) المضحكات مُشيدٌ مثلت فيه المبكيات فصولاً
شهيد^(٢) (الحسين) عليه لعن أضو له وتصدَّر الأعمى^(٣) به تطفئلا
جبنٌ أقلَّ وخطَّ من قدرَيهما والمرءُ إن يجبنُ يقشُ مردولاً
لما ذكرت به البلاد وأهلها مثلت دورَ مماتها تمثيلاً
أنذرتنا رِقاً يدوم ، وذلةً تبقى ، وحالاً لا ترى تحويلاً
أحسبت أن الله دونك قدرة لا يملكُ التغيير والتبديلا
فرعونُ قبلك كان أعظمَ سطوة وأعزَّ بين العالمين قبيلاً
اليومَ أخلفت الوعودَ حكومة^(٤) كنا نظن عهدَها الإنجيلا

(١) هو : دار الأوبرا الملكية للتمثيل والغناء . (٢) الأمير حسين كامل .

(٣) الشيخ عبد الكريم سلمان أحد كبار العلماء الأزهريين فى عصره ، وقد كف بصره آخر حياته ، أو كاد .

(٤) يشير إلى وعود الحكومة الإنجليزية عقب الاحتلال بأنه احتلال مؤقت ، وسيزول سريعاً .

دخلت على حكم الوداد وشرعه مهراً؛ فكانت كالسلال^(١) دُخولاً
هدمت معالمها، وهذت ركنها وأضاعت استقلالها المأمولاً

... ..

وكقصيدته في أحد رؤساء الوزارات المصرية (مصطفى رياض باشا)
وقد خطب في افتتاح مدرسة محمد علي الصناعية بالإسكندرية خطبة أثنى فيها على
العميد البريطاني (الورد كرومر ، وكان حاضراً) وكال له المديح بغير حساب ،
فقال شوقي : —

كبير السابقين من الكرام ، برغى أن أناك بالسلام
مقامك فوق ما زعموا ، ولكن رأيت الحق فوقك ، والمقام
لقد وجدوك مفتونا ؛ فقالوا : خرجت من الوقار ، والاحتشام
وقال البعض : كيدك غير خاف وقالوا : رمية من غير رام
وقيل : شططت في الكفران ؛ حتى أردت المنعمين بالانتقام
غمرت القوم إطرأً وجمداً وهم غمروك بالمتع الجسام
رأوا بالأمس أنفك في الثريا فكيف اليوم أصبح في الرغام ؟
أما والله ما علموك إلا صغيرا في ولائك ، والخصام
إذا ما لم تكن للقول أهلاً فمالك في المواقف والكلام ؟
خطبت ؛ فكنت خطيباً ، لا خطيباً أضيف إلى مصائبنا العظام
لهجت بالاحتلال وما أتاه وجرحك منه - لو أحسست - دام

وهذا النوع الأخير من الهجاء لم يكن شوقي يلجأ إليه إلا في الندرة ؛
رعاية لحرمة الأخلاق ، وتجنباً لإذاعة السوء . وما كان يصطنعه إلا مدفوعاً

بحافز عام نبيل ، ولا يكون فيه مُسِنَّاً ولا مُتَذِعاً كما كان المتنبي ؛ لاختلاف طبيعة الشاعرَيْن ، وتباين الدافع ، والغرض عند كل منهما . على أن هذا الهجاء ليس فيه شيء من النمط الأدبيِّ العالى ، ولا الفن الرائع ؛ بل هو كشمسه فى الطور الأول ؛ ساذج ، يسرد العيوب - كما يسردها سائر المثقفين - فى كلام إن صحت لفته لم تتسَّامَ عبارته ومهانيه ؛ فهو يقول فى قصيدة كرومر :

هلا اتخذت إلى القلوب سبيلا ؟ كأنك المداة القيء . وتصدر الأعمى به تطفيل . أحسبت أن الله دونك قدرة . فرعون قبلك كان أعظم سطوة .

ويقول لرياض باشا : غمرت القوم بالإطراء وهم غمروك بالإحسان . كان أنفك فى الثريا فصار فى الرغام . مادمت لا تحسن القول فلم تخطب ؟ لقد كنت خطيبا علمينا . وهذه ألفاظ وأساليب ومعان قد توصف بالسلامة والسلاسة والوضوح ، ولكنها لا توصف بالطرافة ، والبراعة ، وجميل التعمق . وهو من هذه الجهة شبيهة بالمتنبي . غير أن المتنبي قد يكون إلى الطرافة والقوة اللفظية والمعنوية أقرب ، وإن كان إلى الإسفاف والإقذاع أميل . وليس فى ترفع شوقى عنهما ما يشفع له فى إهمال الفن العالى ، والبراعة المحبوبة ؛ فمن الهجاء ما هو أجرح من السيف ، وأقتل من السم ، من غير تهافت إلى ألفاظ العامة ، وكناياتهم ، وتصريحاتهم . وكذلك كان يفعل ابن الرومى ، وبشار ، وأضرابهما فى كثير من الأهاجى الأدبية . وكان الظن بشوقى أن يسبقهما فى هذه الطريقة الفنية ؛ لما أتيح له من وسائل وأسباب لم تهيناً لشعراء العصور الغابرة .

فشوقى - إذا - ليس من الهجَّاءين بفنه ، ولا بعدد قصائده الهجائية . (أو ليس فى عداد الهجَّاءين كيفاً وكما - كما يقولون) وهذا مما يعاب عليه

قطْعاً ؛ فإن إهمال الهجاء ، أو التقصير فيه — إهمال وتقصير في غرض أدبي تدعو الحاجة إليه كما تدعو إلى سائر الأغراض الأخرى ؛ فمن الأحداث الوطنية ، والجرائم السياسية ، وغير السياسية — ما يفرض على الشاعر أن يسجله في شعره ، ويدمج الطغاة الخائنين والمُعَوِّقين بهجائه ؛ ليكونوا عبرة وذكرى ، وليتمتع الأدباء والمتأدبون بهذا النوع الفني كما يتمتعون بغيره من بقية الفنون الأدبية . فلا عذر لشوقي في أن يتحاشى هذا الميدان ؛ تورعاً أو تقصيراً . ولا يعفيه من التبعة الثقيلة أن يتعمل بالأخلاق ؛ فالهجاء النزيه ، البريء من الهوى المشوب ، والمطعم الذميم — ليس إلا غرضاً نبيلًا ، يساير الخلق الكريم ويؤاخي السجايا الحميدة ، وقد استمع إليه الخلفاء ، والآئمة الأبرار ، واستعانوا به في محاربة الرذيلة . بل استمع إليه الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ ودعا شاعره حسانا للرد على الكفار ومهاجاتهم ...

والحق أن ساحة المذرأمام شوقي ضيقة . ولعله خشي العاقبة فآثر السلامة وكان في استطاعته أن يسجل الأحداث الهامة ، ويذم القبيح منها ، ومن آثارها ، والمتصلين بها — من غير أن يصرح بأسمائهم وأوصافهم التي توضح ذواتهم ، مكتملاً بالتلويح المبهم ، والرمز الغامض ؛ كما فعل في النوع الأول فيرضى بذلك نفسه التي تخشى العواقب ، ويرضى الأدب والأدباء الذين يتهمونهم بالتقصير ، ويتخذ هذه المنزلة وسطاً بين الكمال والإهمال .

ولعل خير الأنواع الثلاثة التي سلكها شوقي هو النوع الثاني ؛ ولكنه أدخل في باب آخر — كما سبق — وأبعد مما نحن فيه

(ح) الرثاء :

اقتصر الجزء الثالث من ديوان شوقي على المرثي ؛ فيه تسع وخمسون مرثية ، سجل فيها مآثر العظماء ، ومجد النابغين ، وخلد ذكراهم بما اشتهروا به في نواحي الحياة السياسية ، أو الحربية ، أو العلمية ، أو الأدبية ، أو الفنية . . . لم يحفزه لذلك إلا نبوغهم ، وعظمتهم ، وما قدّموا من خير عام لبلائهم ، أو للإسانية جماء ؛ فلم يقتصر على عظماء بلاده ونابغها ، بل اتجه وجهة عامة ؛ لا تفرق بين شرق وغرب ، ولا تميز بين إمام سباق وآخر ، ولا تتأثر في التمجيد بقربة ، أو جنس ، أو لغة ، أو وطن ، أو دين . فبينما تراه يرثي شاعر النيل وإسماعيل صبري تراه يرثي شكسبير وهييجو . وبينما تسمعه يتحدث عن عبده الحمولى وعبد الحى تسمعه يتحدث عن فرداى . ويتكلم عن محمد عبده كما يتكلم عن تولستوى . ويدكر مصطفى باشا فهمى ؛ ورياض باشا ، ومصطفى كامل باشا ، وسعد باشا ، وعثمان غالب باشا ، والمنفلوطى ، كما يدكر بطرس غالى باشا ، وجورج زيدان ، ومولانا محمد على ، ومحمد تيمور ، ويعقوب صروف ، والدكتور فؤاد ، وأم المحسنين . . .

وقد يرثي بعض أقاربه الأقربين ، أو بعض الذين تعهدوه في نشأته الأولى ، وأغدقوا عليه من الأسرة المالكة وأشباهها ؛ وهذا وفاء حتم ، ودين واجب السداد . ولكن وفرة مرثيته بمد هذا لم تكن لقربة ، أو صلة خاصة ؛ وإنما كانت تقديرا للمجد ، وتسجيلا للمحامد ، والعظمة . (إلا قليلا من القصائد كان فيه مجاملا ، أو مسائرا هووى غيره) ولم يقع فيما وقع فيه المتنبي من الخضوع لشهوة المطامع ، والتأثر بدواعيها . ومن هنا تدفقت مرثيته

(في طوره الثانى) لوعة صادقة ، وزفرات ملتهبات . وفوق هذا فرائيه لم تركن إلى تلك الأوصاف العامة ، والنعوت المبهمة التى لجأ إليها المتنبي — وغيره — وهى التى تصلح لكل رثاء ، ولكل ميت ؛ تقال لهذا كما تقال لذاك ، وتخلع عن شخص لتسبغ على آخر ، كأنها ثياب الإعارة ، ليس لها وصف معين ، ولا تحديد مضبوط ، ولا شرائط خاصة ؛ بل كل ما يراعى فيها أن تصلح للراغبين جميعا ؛ وإن اختلفت جسامهم طولا ، وقصرا ، وسمنة ، وهزالا ... وما مثلها إلا كتلك المدائح المبهمة ، الغامضة ، التى تساق للأحياء جميعا من غير تفرقة بين الممدوحين ؛ فيوصفون بالشجاعة ، والكرم ، والجمال ، وأشباهها ... ويوصفون بها بعد الممات فى المراتى .

صان شوقى مرأى الطور الثانى عن هذا العيب ، واعتمد فى التأبين على الصفات المميّزة ، والخصائص الفردية التى تبرز المرثى وحده ، وتظهر حقيقته دون اشتراك ؛ فكأنها الصورة الشمسية لا تشرك مع صاحبها أحدا ، ولا تخطئ بين سماته وسمات غيره . إنه يستجمع أجزاءها من تاريخ صاحبها ، ويستلهم ذلك التاريخ وحده ؛ فيلهمه السداد . هذا إلى صفاء الألفاظ ، ونقاء الأسلوب ، وطلاقة المعانى ، والتفنن فيها ، وربط الحوادث بالخصائص ، واستخلاص العبر والسطات . ولولا اقتصاده فى الخصائص ، وإلمامه بها فى خفة وإسراع — لكان الرأى الفرد . أمامك قصائده فى والدته ، وفى إسماعيل صبرى ، وفى مصطفى كامل ، وفى عمر المختار ، وفى أم الحسين ، و ... و ... إنها خير مصداق لما أقول . تملّ أبياتها ، ولا تسكتف عن بعض ببعض — تسمع الرثاء الحق ، والفن العجب . استمع إلى قصيدته فى رثاء العالم القانونى الأملح

« عبد الحميد أبو هيف بك » صاحب المقالات الدائمة التي كشف بها عن أخطار المشروع الإنجليزي المسمى : مشروع « ملنر » وهتك أسرارها التي خفيت على كثير من المتصدرين للقانون ، وشئون السياسة المصرية ؛ فنجى البلاد من بلاء عظيم . كان ذلك العالم أعرج ، ذا مشية خاصة تفرضها آفته فقال شوقي :

اجمل رِئاءك للرجال جزاء	وابعثه للوطن الحزين عزاء
إن الديار تُريقُ ماء شَمُونِها	كالأمهات ، وتندبُ الأبناء
تُشكلُ الرجال من البنين ، وإنما	تُكلُّ الممالك فقدها العلماء
يجزغنُ للعالم الكبير إذا هوى	جَزَعُ السكتائبِ قد فَقَدَنَ لواء
علمُ الشريعة أدركتهُ شريعة	للموتِ يَنْظُمُ حكمها الأحياء
بالأمس كانت « لابن هَيْفٍ » غَضِبةٌ	للحق نذكرُها يدًا بيضاء
مشت البلادُ إلى رسالة « ملنر »	وتحفزت أرضاً لها ، وسماء
فلمحتُ أعرجَ في زوايا الحق ؛ لم	أعلمُ عليه ذِمَّةَ عرجاء
ارتدتُ العاهاتُ عن أخلاقه	لِسُموِّهنَّ ، وَحَلَّتِ الأعضاء
عَظَمَتُهُ عَظُفَ القَوْسِ يومَ رِمَايةٍ	وَوَدَّعَهُ كالمضى ؛ فزادَ مَضَاء
لما رأى « التقرير » ^(١) ينفثُ سُمَّهُ	سَبَقَ السَّوَاةَ ؛ فأخرج الرُقُطَاء
هتك الحماية ، والرجال وراءها	يتلمسون لها السُّتُورَ رياء

(١) يريد به تقرير « ملنر » أى : مشروعه وقد وصفه بأنه كالأنبيى اللينة الناعمة في مظهرها ؛ الفتاكة في حقيقتها ، المحتبئة في جحرها ، تنهز الفرس للفتك ونفث السموم . فجاء الحاوى (أبو هيف) فأخرجها من مكمنها ، وقضى على شرورها .

واستمع إليه في رثاء الشهيد الوطني^(١) ، والزعيم الفذ في تضحية ماله ،
وأهله ، ودنياه ، وحياته من أجل استقلال بلاده : « محمد فريد » :

فريد ، ضحايانا كثير ؛ وإنما بحال الضحايا أنت فيه فريد
فما خلف ما كابدت في الحق غاية ولا فوق ما قاسيت فيه مزيد
تفرقت عشرا ؛ أنت فيهن بأئس وأنت بآفاق البلاد شريد
تجوع بلدان ، وتغري بغيرها وترزح تحت الداء ، وهو عميد
ألا في سبيل الله والحق طارف من المال ، لم تبخل به ، وتليد
وجودك بعد المال بالنفس صابرا إذا جزع المحضور ، وهو يجود
فلا زلت تمثالا من الحق خالصة على سرى نبنى الملا ، ونشيد
يُعلم نشء الحى كيف هوى الحى وكيف يحامى دونه ، ويدود ؟

.....

وقوله في سمد زغلول الزعيم الوطني الأكبر ، والخطيب المشهور :
يا عدو القيد ، لم يلمح له شبحا في خطة إلا أباه
لا يضق ذرعك بالقيد الذي حز في سوق الأولي ، وبراه
وقع الرشل عليه ، والتوت أرجل الأحرار فيه ؛ فمفاها
يارفاتا مثل ربحان الضحا كالت (عدن) به هام رباه
وبقايا هيك من كرم وحياة أترع الأرض حياها
ودع المدل بها أعلامه وبكت أنظمة الشورى صواها
حضنت نعلك ، والفت به راية كنت من النل فداها

(١) قالها في سنة ١٩٢٤ الذكرى الخامسة للزعيم الوطني الشهيد في غربته .

فَظَمْتُ الصَّدْرَ الَّذِي قَدْ ضَمَّهَا وَتَلَقَّى السَّهْمَ عَنْهَا ؛ فَوْقَهَا
عَجَبِي مِنْهَا ، وَمَنْ قَائِدُهَا كَيْفَ يَحْمِي الْأَعْزَلَ الشَّيْخَ حَمَاهَا ؟

* * *

تَسْكِبُ الدَّمْعَ عَلَى « سَعْدٍ » دَمًّا أُمَةٌ مِنْ صَخْرَةٍ الْحَقِّ بِنَاهَا
حَمَلَتْهُ ذِمَّةٌ ؛ أَوْفَى بِهَا وَابْتَلَتْهُ بِحَقِّ سَوْقٍ ؛ فَقَضَاهَا
ابْنُ سَبْعِينَ تَلَقَّى دُونَهَا غُرْبَةً الْأَسْرِ ، وَوَعْثَاءَ نَوَاهَا
سَفَرٌ مِنْ « عَدَنَ » ^(١) الْأَرْضِ إِلَى مَنْزِلٍ أَقْرَبُ مِنْهُ قُطْبَاهَا
وَلَدَ الثُّورَةَ « سَعْدٌ » حُرَّةً بِحَيَاتِي مَا جِدَّ حُرٌّ نَمَاهَا
مَا تَمَنَّى غَيْرَهَا نَسْلًا ^(٢) وَمَنْ يَلِدُ الزَّهْرَاءَ يَزْهَدُ فِي سِوَاهَا

وَلَا تَفُوتُنِي الْإِشَارَةُ إِلَى أَنَّ هَذِهِ الْأَبْيَاتَ الْقَلَائِلَ الْمُنْتَزَعَةَ مِنْ مَوَاطِنِهَا
لَا تُؤْدِي — فِي صَحَّةِ الْحُكْمِ وَوُضُوحِهِ وَدَقِّقَتِهِ — مَا تُؤْدِيهِ قِصَائِدُهَا الْكَامِلَةُ ،
وَأَصُولُهَا الَّتِي نَزَعْتَ مِنْهَا ؛ فَلَا مَنَاصَ لِلْعَمْتِثَةِ الرَّكِيكِ مِنَ الرَّجُوعِ
إِلَى الدِّيْوَانِ .

أَمَّا الْمَرَاثِي الشُّوقِيَّةُ فِي طُورِهَا الْأَوَّلِ فَشَأْنُهَا شَأْنُ قِصَائِدِ ذَلِكَ الْعَهْدِ الَّذِي
لَمْ تَنْضَجْ فِيهِ مَوَاهِبُهُ ، وَلَمْ تَكْمُلْ ثِقَافَتُهُ وَتِجَارِيَّتُهُ ؛ فَهِيَ مَعْيِبَةٌ بِمَا فِيهَا مِنْ
تَفَاهَةٍ ، وَسَطَحِيَّةٍ ، وَتَعَمِيمٍ ، وَإِبْهَامٍ ، وَمَحَاكَاةٍ جَامِدَةٍ لَطَرَائِقِ الْأَقْدَمِينَ .
وَمَا أَشْبَهَهُ فِي هَذَا بِالْمُقَنَّبِيِّ ، بَلْ إِنَّ الْمُتَنَبِّيَّ يَفُوقُهُ صَيَاغَةً ، وَجُودَةً أَسْلُوبَ .

(١) نَقِيَ الْإِنْخِلَازِ زَمَنَ الْإِحْتِلَالِ سَعْدًا إِلَى مَدِينَةِ « عَدَنَ » ثُمَّ نَقَلُوهُ مِنْهَا إِلَى جَزَائِرِ
« سَيْشَل » ثُمَّ إِلَى « طَارِق » ثُمَّ أَرْجَعُوهُ حِينَ ثَارَ الْمَصْرِيُّونَ لِنَفِيهِ .

(٢) لَمْ يَرْزُقْ سَعْدٌ ذُرِّيَّةً .

أى جوده فى مرثيته لعلى أبى الفتوح باشا^(١) إذ يقول :

مشت الشبيبة جَحْفَلًا تبكى لواء الجَحْفَلِ
فانظر سريرك هل جرى فوق الدموع الهطل ؟
الله فى وطن ضعیف الركن ، واعى السفيل
وأب وراءك حزنه لنواك حزن المشكل
يهب الضياع العامرا ت لمن يراد له « على »
ليس الغنى من البرية غير ذى البال الخلى
ونجيمية بين العقاب نل كهتها لا ينسل^(٢)
دخلت منازلها المنو ن على الجرى المشبل
كسرت جناح منعم ورمت فؤاد مدال

ومرثيته فى رثاء سليمان أباطة ومطلعهما :

من ظن بعدك أن يقول رثاء فليوث من هذا الورى من شاء
فجمع المكارم فاجع فى ربها والمجد فى بانيها ، والعلية
ونعى النعاة إلى المروءة كنزها وإلى الفضائل نجمها الوضاء
أبا محمد اتشد فى ذا النوى وارفق بآلك ، وارحم الأبناء

* * *

ومن الخير والإنصاف أن نزجى فى خاتمة الرثاء قصيدتين - أشرنا إليهما من قبل - للشاعرين العظيمين ؛ إحداهما : المتنبى فى رثاء جدته التى ماتت سروراً

(١) قانونى كبير تولى وكالة وزارة المعارف ، واشتهر بعلمه ، وخلقه ، وفنائه فى واجبه وكانت وفاته سنة ١٩١٣ .

(٢) لا ينسل : لا يذهب سريعاً .

برسالة تلقتها منه ، يذبها بقدمه ، ورجوعه إليها بعد أن يئست من عودته ؛
فقبّلت الرسالة ، وفرحت بها فرحاً غلبها على نفسها ؛ فأصابها الحمى ، وأودت بها .
والأخرى لشوق في رثاء والدته التي قضت سنوات الحرب العالمية الأولى
حزينة ، مُوجمة القلب ؛ ألماً على فراق ابنها المنفى في بلاد الأندلس . فلما
انتهت تلك الحرب المشؤمة بعد سنوات أربع ، وشاع في مصر أن الغرباء
المشردين — ومنهم شوقي — سيعودون إلى موطنهم ، فرحت فرحاً
ضاق به جسمها ؛ فجمت ، وماتت ، من فرط ابتهاجها . فرثاها بمرثيته
التي سنذكر بعض أبياتها .

والقصيدتان متشابهتان في أمور كثيرة ؛ في الدافع عليهما ، وفي الوزن ،
والقفائية ، وبعض الألفاظ^(١) والأساليب ، وكثير من المعاني ، والخواطر
النفسية . وهما مختلفتان في أمور أخرى كذلك ؛ فطالع شوقي أقوى
صيغة ، والعاطفة فيه أحرّ ، ومناسبته للموضوع أبين . ولكن تلك القوة
اللفظية تضعف بعد ذلك ، والعاطفة تفتقر ، والخواطر تنهات ؛ حتى تصبح
هواجس شوقية ، يبدو شوقي خلالها واهناً من الغربة ، متحطماً مما أصابه ،
أقرب إلى الجازع المبالغ من الجلد الصبور ، ناقماً على الحرب ، متبرئاً
منها ، ومن آثارها ، وكل ما يتصل بها . وتتكشف طبيعته الوداعة الحنون
عن أسى عميق ، لما يصيب المتحاربين . على حين يبدأ المتنبي ضعيف
المطلع ، خفيّ العاطفة ، ولكنه يدفع بعد ذلك في رثاء حق ؛ قوامه
اللفظ المنتقى ، والأسلوب الرصين ، والمعنى المتخبر ، والعاطفة الحزينة التي
تتقاطر أسى وألماً يغمُران الألفاظ والحروف ، والخواطر النفسانية التي تلائم

(١) من اليسير الموازنة بين ألفاظهما ومعانيهما باستخدام قواعد النقد المدونة أول الكتاب .

الموقف ، وتسائر الطبع العنيف المتجلد ، بل الحريص على منازلة الدهر ،
ومقاومة الأيام .

ومع أن شوقي اطلع قبل مرثيته هذه على قصيدة المتنبي ، وانتفع
— دون شك — ببعض نواحيها ، لم يستطع أن يأتي بخير منها ، أو بما
يقاربها ، ولم يستطع أن يزيل الغموض المعنوي عن بعض أبياته .
واليك مطلع القصيدتين ، ثم أبياتا مختلفة ؛ في أكثرها تشابه
واشتراك : فمطلع شوقي :

إلى الله أشكو من عوادي النوى سهماً أصاب سويداء الفؤاد ، وما أصمى
من الهاتكاتِ القلب أول وهلةٍ وما داخلتُ لها ، ولا لامست عظاماً
تواردَ والناعى ؛ فأوجست رنةً كلاماً على سمى ، وفي كبدى كلما
فما هتفا حتى نزا الجنبُ وانزوى فيا ويح جنبي !! كم يسيل !! وكم يدعى !!
ومطلع المتنبي :

ألا لا أرى الأحداثَ خدماً ولا ذمّاً فما بطشها جهلاً ، ولا كفها حِلماً
إلى مثل ما كان الفتى صرّجُ الفتى يهود كما أبدى^(١) ويكرى^(٢) كما أرمى^(٣)

لك الله من مفجوعةٍ بحبيها قتيلةٍ شوق ، غير ملحقها وصماً
ونظير البيت الثاني والثالث قول شوقي :

إلى حيثُ آباء الفتى يذهبُ الفتى سبيلُ يدين العالمون بها قدماً
وما العيشُ إلا الجسمُ في ظل روحه ولا الموتُ إلا الروحُ فارقت الجسماً

لك الله من مطعونة بقنا النوى شهيدة حرب ، لم تقارف لها إنما
مدلهة ، أذكي من النار زفرة وأنزه من دمع الحياء عبرة سحما^(١)

ففي أبيات شوقي فتور ووهن ولا سيما بيته : (وما العيش ...) .
ويقول المتنبي :

عرفت الليالي قبل ما صنعت بنا فلما دهنتني لم تزدني بها علماً
فيقول شوقي :

زجرت تصاريف الزمان ؛ فما يقع لي اليوم منها كان بالأمس لي وهماً
ويقول المتنبي :

ولم يُسلها إلا المنيا ، وإنما أشد من الشقم الذي أذهب الشتماً
فيقول شوقي :

أست جرحها الأنباء غير رفيقة وم نازع سهماً فكان هو السهما
ويقول المتنبي :

ولو لم تكوني بنت أكرم والد فيقول شوقي :

لئن فات ما أملت من مواكب فدونك هذا الحشد ، والموكب الضخا^(٢)
ويقول المتنبي عن نفسه :

تغرب ؛ لا مستعظماً غير نفسه ولا قابلاً إلا لخالفه حكماً
ولا سالكاً إلا فؤاد عجاجة ولا واجداً إلا لمكرمة طعماً

(١) مصبوبة : (في الديوان سحما بالحاء ، أي : سحما) وفسرها بالسوداء . لكن أرى

الصواب بالجم . (٢) يريد : رثاءه .

يقولون لي : ما أنت ؟ في كل بلدة
 كأنّ بينهم عالمون بأنني
 ولكفني مستنصر^(١) بذبابه^(٢)
 فيقول شوقي مخاطباً والدته :

حلفت بما أسلفت في المهد من يد
 لما كان لي في الحرب رأي ، ولا هو
 ولم يك ظم الطير بالرق لي رضا
 فكيف رضائي أن يرى البشر الظلما

ولو وازنا بين قصيدة المتنبي في جدته وقصيدة شوقي في جدته ومطلعا :

خلقنا الحياة والممات ومن هذين كل الحوادث
 لحكمنا المتنبي بالسبق الذي تنبهر دونه أنفاس شوقي ، وتجز عنه وسائله .
 ومن السير الرجوع إلى قصيدة كل منهما في ديوانه ، وعقد الموازنة بينهما على
 ضوء ما قدمنا من معالم للنقد ، وسراشد للعوازنات .

(د) الغزل :

لشوقي نوعان من الغزل ؛ أحدهما : يبدأ به القصيدة على عادة القدماء ،
 ويتخذ قنطرة للوصول إلى الغرض الأصلي منها ؛ كما كانوا يفعلون . والآخر
 لم يتخذ صلة ولا قنطرة ؛ وإنما قصد به الغزل نفسه ، وترجمة شعوره ووجدانه ،
 وتصوير ما يشتمل في نفسه من عواطف مشبوبة ، وأحاسيس متقدة .
 وإذا كان شوقي في النوع الأول يجاري القدماء في استهلالهم ، ويتخذ

(١) الضمير يعود على السيف المفهوم من سياق الكلام . وذباب السيف : طرفة .
 (٢) الظلمة .

الغزل وسيلة ناجمة للتشويق ، واستمالة السامع أو القارئ إليه - فهو يجاريهم كذلك في طريقهم ، وأوصافهم الغزلية ، والميل إلى تصوير الجمال الحسى ، وظواهر الجسم . وليس في هذا عيب مع الاعتدال . وإنما العيب في الإسراف ، وإهمال النواحي الروحية والخلقية كما سبق - فالعشوق عندهم غزال نافر ، قرى الوجه ، ليلى الشعر ، لؤلؤى الثنايا ، أشيف القوام ، سيال الأعطاف ، كحيل الطرف ، ثقل الردف ، ساحر النظرات . . . والعاشق ناسحل الجسم ، ساهر الجن ، دائم الفكر ، يمتنى رؤية الحبيب ، أوزورة خياله . يراقبه العذال ، ويسى إليه الرشاة . وهو بين هؤلاء وهؤلاء محترق بنار البعد ، مهذب بالصد ، معرض للهلاك والاستشهاد فى سبيل الحب . . . إلى آخر ما هناك من أوصاف تناقلها الشعراء على وجه التاريخ ، وتشابهوا فيها جيلا بعد جيل . وشوقى والمتنبى - وغيرها - فى هذا سواء . ألفاظ مُرددة ، وتشبيهات مُعادة ، ومعان مبدولة ، وعاطفة باردة أو مفقودة ، وفن مصنوع ، وأدب لا روح فيه ولا قوة .

لكن شوقى - فى هذا النوع التقليدى الفاتر - لم يقع فيما وقع فيه المتنبى من الإيغال الحسى ، وذكر الشهوة الجسدية ؛ بالتعرض للثياب وما تحتها ، والسراريات^(١) وما فيها . بل كان عَفَّ اللفظ ، طاهر القول ، متحفظاً متحرّزا فى غزله بل فى سائر أشعاره . على أن غزله القديم - على ما فيه من محاكاة ، وفتور ، ونسج ضعيف - لم يخل من عاطفة تذكو حيناً ، وتخبو حيناً . وهى فى الحالتين أوضح ظهوراً ، وأقوى لهيباً من عاملقة المتنبى . ونحن لا نمنع من شوقى بهذا القدر . وكنا ننتظر مزيداً من

(١) هذه من ألفاظ المتنبى نفسه . وقد سبق البيت الذى يحويها ، وأيات أخرى تحوى

عاطفة ، وفضلاً من غزل لاعيب في نسجه ، ولا تقصير في معانيه وخياله .
فإن نحن أغضينا عن غزل المتنبي — راضين أو ساخطين — معتذرين عنه
بطبيعته الجامدة القاسية ، وحياته التي تشبه حياة البدو في كثير من مظاهرها
وأوصافها — فهل نقضي عن غزل شوقي ، وما فيه من بلى وقصور ، وهو
الذي يعيش في عصر يموج بألوان الحضارات المستحدثة ، وأفانين المتع التي
لم يشهدها عصر آخر ، وفنون من الجمال لم يمر بها الشمرء في غير عصره ؟
ولقد انغمس شوقي في هذه الحضارات ، وأترع بمتعتها ، وتقلب في أعطاف
النعيم ، وأحضان الجمال ؛ حتى لم يدع منها بقية لنفسه ، ولا أملا في استزادة ؛
فما عذره في التعلق بالقديم البالي ؟ وهل يغفر له حديثه عن الأطباء والآرام
في قيعانها ، بدال الكواعب الأتراب في قصور القاهرة ، وشواطئ
الإسكندرية ، وبور سعيد ، وضفاف البسفور وهل نستسيغ اليوم
ما يقوله عن ريم على القاع بين البان والعلم ؛ تاركا الكلام عن غادات
الحفلات الساهرة ؛ وغواني القاهرة ، وباريس ، وبرلين ، وغيرها من حواضر
الحسن ، ومدن الفتنة ؟

ومأباه قنع من الغزل الحديث بقصيدتيه :

(١) حف كأسها الحبيب ... (٢) مال واحتجب ...

وقصيدته في البحر الأبيض المتوسط :

(أمن البحر صائغ عبقرى . . .) ثم عاد أدراجَه ؛ لفظ قديم ،

وتشبيهات أثرية ، ومعان مرددة .

فإن ريم القاع ، والرشا الأغنّ ، وظباء الفلا ، وأشباهاها — من

فاتنات اليوم ، وساحراته ؟ أين الشعر الأسود — وإن كان جميلا — من الشعر الذهبي ، وغير الذهبي من صنوف الشعور الجديدة ؟ وأين العميون ، والجفون ، والقُدود ، والأرداف ، والأعناق ، بأوصافها التي سجلها قدامى الشعراء — مما نشهده ونراه ، وقد شهدته شوقي وتتلوه ؟ ما أشبه ألفاظه الغزلية القديمة بنظائر لها في موضوعات أخرى ، يُردّد فيها ذكر العيس ، والإبل ، والحذاء ، والرحل ، واللجام ، والهودج ، ونحوها ، مما أشرنا إليه فيما سبق^(١) ؛ كاستقباله أمّ الحسين (والدة الخديو عباس) وهي راجعة من تركيا بقصيدة مطلعها :

أرفعى السّتر ، وحيّى بالجبين وأريفاً فلقَ الصّبح المُبِينُ
وقفى الهودجَ فينا ساعةً نقتبسُ من نورِ أمّ الحسينِ

.....

يقول هذا في عصر السيارات والطائرات والبواخر والموسيقى ... ولمن يقوله ؟ للمنغمسة في الترف وأسبابه ، المترعة من النعمة وألوان الرفاهة ... إن الأسر في الغزل قد يختلف عنه في المديح ؛ فإن ارتضيها في المديح — مختارين أو مكرهين — أوصاف الشجاعة ، والكرم ، والرفعة ، والجمال ، وارتضيها معها التشبيه بالأسد ، وحاتم ، والنجم ، والقمر — فلأن تلك الأوصاف قوية ومشهورة لدى الناطقين بالضاد جميعا ، والمشبّهات بها معروفة قديما وحديثا ، ولا تزال النفوس تتقبلها عن رضا قليل أو كثير ؛ إذ لا ترى فيها غموضا ولا عيبا إلا ما يكون من شيوعها وامتهانها . وليس الشأن كذلك في القاع ، والعلم ، ووحش وجرة ، وطباء جاسم ، وذات

الشَّيْخ ، وذى سَلَم ؛ فالأما كن مجهولة ؛ وظباؤها وبقرها الوحشى ليس أقرب إلى نفوس الحضريين اليوم ، ولا أجل في عيونهم — من غادات الحواضر الشرقية والغربية ، وملكات الجمال العالمى . وإن صَحَّ أن في الظباء والغزلان وبقر الوحش ملامح للجمال المثاليِّ ليست في النساء — فان تلك الملامح والشَّيات ليست معروفة إلا للقليل — بل الأقل — من أهل العصور التى نعيش فيها . فليس من البراعة الأدبية أن تساق التشبيهات الضعيفة التى لا تُدرك غاياتها ، ولا يستبين المراد منها .

ويظهر أن شوقى قد فطن للأمر بعد لأي ؛ فأخذ يرجع عنه ويُبدأ ويُبدأ حين جاوز طَوْرَ الحداثة الشعرية ، ودلف إلى طَوْرِ النضج والقوة ؛ فتراه في النوع الثانى من غزله لا يستهل به المطالع — إلا قليلا — كما كان يفعل ؛ بل يَقْصِرُ المنظومة كلها على ترجمة شعوره ، وما يجيش في نفسه من لوعة صادقة في الحب ، ونفثات غرامية غير مدخولة . وفي هذا النوع نحس قوة العاطفة ، وحرارة الوجدان ، وفيضا روحيا عجيبا . ونرى « شوقى » قد خفف من الأوصاف والتشبيهات القديمة ، ولم يسرف في وصف الناحية الحسية الجسدية كما كان يفعل ويفعل الشعراء ؛ بل يشرك معها الناحية المعنوية ، ويزيد حظها وما يتصل بها ؛ فيصف الحب ، وعذابه أو نعيمه ، ودلال الحبيب ، وعتابه ، ولقاءه ، وهجره ، ومناجاته ، وكلامه ... فليس الأمر كله خدًا ، ووجها ، وقدًا ، وثغْرًا ، وعِناقًا ، وتقبيلا ... كما كان قَبْلًا . ولو أن شوقى جعل للناحية الروحية الخلقية نصيبًا في غزله لكان قد بلغ الغاية ؛ فإنها الناحية التى فقدتها النوع الثانى الذى فاز بمزايا أخرى جليلة ؛ فقد فاز بأصفي الألفاظ ،

وأرقها ، وأسَمَى الممانى وأحلاها ، وأعف العبارات ، وأنسب البحور والقوافي
الشعرية للتغزل والأغاني التي ليس في الترنم بها ما يخدش كرامة الرجل ،
أويسى إلى المذارى ؛ وبهذا كله تفوق^(١) على المتنبي وسبقه . وإليك
أمثلة من النوعين :

(١) فن أمثلة الأول مطلع قصيدته في مدح الخديو توفيق :

سَفَرَ الحبيبُ ؛ فقلتُ : يا عينُ انظُرِي	وتنَزَّهِي في حُسْنِ ذاك المنظرِ
وَبَدَأَ يَمِيسُ ؛ فلاحَ لي قمرٌ على	غُصْنِ رطيبٍ ، بالحاسنِ مشرِ
رَشَاءً ، إذا هزَّ النسيمُ قَوَامَهُ	أزرى بغُصْنِ البانةِ المتخَطِّرِ
متمايلُ الأعطافِ ، ورُدَّ خدوده	يُغْنِي الحبَّ عن الشقيقِ الأحمرِ
جمعَ الحاسنِ ؛ إذْ تَدَنَّى قَدَّهُ	وتفردت الحِطَّاطُ بِتَكَشُّرِ
فإِذَا رَنَا يَسْبِي العقولَ ، أو انثنى	تَحَلَّوْا رَشَاقَةً قَدَّهُ الْمُبْصِرِ

... ..

(٢) ومطلع قصيدته في مدح الخديو عباس (وهي قصيدة حاوة النغم ، عذبة
الجرس ، بالرغم من تهاقنها في النواحي الأخرى)^(٢) .

عَرَضُوا الأمانَ على الخواطرِ	واستعرضوا الشُّمرَ الخواطرِ
فوقفتُ أحذرُهُم ، ويا	بني القلبِ إلا أنْ يُخَاطِرُ
يا قلبُ شأنَكَ والهوى	هذي الغصونُ ، وأنتَ طائرُ
إن التي صادتك نسى	بِالقلوبِ لها النواظرُ

(١) كلمة : « تفوق » عربية صحيحة .

(٢) وهو يعارض بها رائية البهاء زهير المشهورة . وقد دخل القطعة في الطبعة الثانية
من « الشوقيات » تغيير لبعض الكلمات ، وتقديم أو حذف لبعض الأبيات .

يا نغمرها ، أُمْسَيْتُ كَالْـ
يا لخطها من أُمُها
يا شمرها ، لا تَسْمَعُ فِي
يا خمرها ، لِي مِنْكَ فِي
يَا رِدْفُهَا بِاللَّهِ كُنْ

(٣) ومطلع قصيدة في مدحه :

صَالَ الدَّلَالُ بِقَدِّهَا الْمَيَّاسِ
وَيْلَ الْبَرِيَّةِ مِنْ حَوَادِثِ فِي الْهَوَى
سَتَذُوقُ بِلَوَاهَا ، وَتَصَلِّي نَارَهَا

.....

هَيْفَاهُ ، مِمَّا صَاغَ مُنْشَى الْحُسْنِ مِنْ
تِلْكَ الْغَزَالَةِ فِي الْخُبَاءِ بَعِيْنَهَا
تَغْدُو لَهَا فِي الْقَلْبِ أَبْهَى مَشْرِقٍ

(١) ومن أمثلة النوع الثاني أغنيته^(١) :

رُدَّتِ الرُّوحُ عَلَى الْمَضْنَى مَعَكَ
مَرَّةً مِنْ بَعْدِكَ مَا رَوَّعَنِي
كَمْ شَكْوَتُ الْبَيْنَ بِاللَّيْلِ إِلَى
وَبَعَثْتُ الشُّوقَ فِي رِيحِ الصَّبَا

.....

(١) وقد سبقت ص ٢٧٧ . (٢) أي: الريح (وهو يذكر ويؤنث) .

وفي هذه القطعة من حلاوة الأسلوب ، وعذوبة المهاني ، وبراعة الخيال -
ما لا يحتاج إلى إبانة بعد الذي أوضحناه أول الكتاب من أمارات للحسن
اللفظي ، والمعنوي ، وما يتصل بهما من أسس وأصول .
(٢) قوله في مطلع قصيدة :

بأبي وروحي الناعمات الغيدا	الباسمات عن اليتيم نصيدا
الراميات بكل أخور فاتر	يذر الخلي من القلوب عميدا
الراويات من السلاف محاجر	الناهلات سوافا وخذودا
اللاعبات على النسيم غدائرا	الراعات مع النسيم قدودا
أقبلن في ذهب الأصيل ووشيه	ملاء الغلائل لؤلؤا وفريدا
يحدجن بالحدق الحواسد دمية	كخطباء وجرة؛ مقلتين وجيدا ^(١)
حوت الجمال؛ فلودهبت تزيدها	في الوهم حسنا ما استطعت مزيدا
لو مرّ بالولدان طيف جمالها	في الخلد خروار كها ، وسجودا
أشهى من العود المرّ من منطقا	وألد من أوتاره تفريدا

....

(٣) وقصيدته التي يترنم الشادون ببعض أبياتها ، ومنها : —

يا جارة الوادي ، طربت وعادني	ما يشبه الأحلام ؛ من ذكراك
مثّلت في الذكري هواءك ، وفي الجوى	والذكريات صدّي السنين الحاكى
ولقد سررت على الغدير ربوة	غنّاء ؛ كنت حيا لها ألقاك

(١) يقصد بالدمية : فتاة حسناء باهرة الحسن . وقد شبهها بظباء وجرة ؛ خاكي القدماء
في هذا الاسم ، ولم يتحرر من قديمهم .

فَحِكَتْ إِلَى وَجُوهِهَا ، وَغَيُّوْهَا
فَذَهَبَتْ فِي الْأَيَّامِ أَذْكَرُ رَفْرَفًا
أَذْكَرَتْ هَرَوَاتِ الصَّبَابَةِ وَالْهَوَى
لَمْ أَدْرِ مَا طَيْبُ الْعِنَاقِ عَلَى الْهَوَى
وَتَأَوَّدَتْ أَعْطَافُ بَانِكٍ فِي بَدَى
وَدَخَلْتُ فِي لَيْلَيْنِ : فَرَعِكِ وَاللَّجَى
وَتَعَطَّلَتْ لَفْظَةُ الْكَلَامِ ، وَخَاطَبْتُ
وَمَحَوْتُ كُلَّ لُبَانَةٍ مِنْ خَاطِرِي
لَا أَمْسٍ مِنْ نَعْمِ الزَّمَانِ ، وَلَا غَدٌ
وَفِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ فَنُونٌ وَفَتْحُونَ ، وَإِنْ كَانَ فِيهَا بَعْضُ جَرَأَةٍ عَلَى
الْحَيَاءِ وَاسْتَهْتَارٍ .

وفيما يلي نماذج أخرى مختلفة توضح رأينا في الغزليات الشوقية ، وتؤيد
حكمنا السابق .

فمنها مطلع قصيدته في لبنان ، وقد ساق فيه المعاني الغزلية المألوفة ،
ولكن بعد أن تناولها بشئ من التجديد ، وحسن التصرف في الصياغة ،
والمعنى ، والخيال ، فيقول :

السَّحَرُ مِنْ سُودِ الْعَيُونِ لَقِيْتُهُ وَالْبَالِيُّ بِلِحْظَيْنِ سُقِيْتُهُ
الْفَاتَرَاتِ^(١) ، وَمَا فَتَرَنْ رِمَايَةً بِمُسَدِّدٍ بَيْنَ الضُّلُوعِ مَبِيْتُهُ

الناعسات^(١) ، الموقظاتي للهوى المفريات به ، وكنت سلميته^(٢)
 القاتلات^(١) بعابث في جفنه تميل الغرار ، معربداً صليته^(٣)
 الشارعات^(١) الهدب أمثال القما يحيي الطعين بنظرة ، ويُميته^(٢)
 الناسجات^(١) على سوا سطوره سُقماً ، على منوالهن كسيته^(٣)
 فلهذه الأبيات روعة ، مرَدُّها إلى موسيقى الوزن الشعري والقافية من
 جهة ، وإلى حسن التصرف في المعاني الشائعة من جهة أخرى ، وإجادة التعبير
 عنها إجادة توهم القاري أنها مبتكرة لم تتناولها الشعراء من قبل . مع أنها من
 المعاني الشائعة ، المرهقة بالتداول والذبوع .

ومثل هذا أغنيته التي تمألاً على إجادتها حسن التصرف ، وسلامة الذوق
 في اختيار الوزن الشعري الأنسب الذي عُرِف به شوقي ، بل امتياز ، وكان
 من دواعي التغنى بغزله :

يا ناعماً رقدت جفونه مُضْنَاكَ لا تهديا شُجُونُهُ
 حَلَّ الهوى لك كله إِنْ لَمْ تُعِنِّهُ فَمَنْ يُعِينُهُ ؟
 عُدْ منعماً ، أو لا تعُدْ أَوْ دَعَتْ سِرِّكَ مَنْ يُصُونُهُ
 بيني وبينك في الهوى سببٌ ؛ سيجمعهُنا مَتِينُهُ
 رَشَاءُ يُعَابُ السَّاحِرُو نَ وسحرهم ، إلا جفونه
 الرُّوحُ ملكٌ يميني يَفْدِيهِ ما ملكت يمينُهُ
 ما البانُ إلا قَدُّهُ لو تيممت قلباً غُصُونُهُ
 ويزين كلَّ يتيمة فَمُهُ ، وتحسبها تَزِينُهُ

(١) صفة للعيون . (٢) لغة في ساوته ؛ بمعنى : نسبته . (٣) سيفه .

ما العمرُ إلا ليلةٌ كان الصبحُ لها جبينه
وكذلك أغنيته الذبة المعنى ، الشجيرة النهم الموسيقى ، ومطلعا :

رَوَّعُوهُ ؛ فَتَوَلَّى مُنْضَبًا أَعْلِمْتُمْ كَيْفَ تَرْتَعُ الطُّبَا
خُلِقْتُ لَاهِيَةً ، بَاعِمَةً زَجَمًا رَوَّعَهَا مَرُّ الصَّبَا

... ..

يا غزالاً أَهْلَ (١) القلبُ به قلبي السفوح ، وأخني تلعباً
لك ما أحببت من خبيته ؛ منهلاً عذباً ، ومرعى طيباً
لك قد سجدَ البانُ له وتمنت لو أقلتَهُ الرُّبَا
ولحاظٌ من معاني سحره جمع الجفر سهاماً وطباً
وقد تجيء ألفاظه واهية ، ومعانيه سوقية ، لاصلة بينها ولا تآلف
ويكثر هذا في غزليات الطور الأول ؛ كآياته المشهورة :

خدعوها بقولهم حسنا والغواني يُفْرُهُنَّ الثناء
أتراها تناست اسمي لما كثرت في غرامها الأسماءُ
إن رأيتني تميل عني ؛ كأن لم تك بيني وبينها أشياءُ
نظرة ؛ فابتسامه ؛ فسلام فكلام ؛ فوعد ؛ فلقاء

وقد يجيء في غزله بما يرفضه الموضوع ، ويأباه الغزليون كقصيده :

أريدُ سلوكم ؛ والقلبُ يأبى وأعتبكم ؛ وميل النفس عني
وأهجركم ؛ فيهمجرني رقادى ويضويني الظلام ؛ أسى ، وكرهاً

وأذكرُكمُ برؤيةٍ كلِّ حُسْنٍ فيصبوُ ناظري ، والقلبُ أَصْبَى
وأشكو من عذابي في هواكم وأجزىكم عن التعذيبِ حبًّا
وأعلمُ أن رأيتكمُ جفائي فإلى جعلتُ الحبَّ دأبًا
... ..

فليس من شأن الغزلى الماهر ، ولا الحب الصادق — أن يذكر رغبته
في السُّلُو، وحرصه على العتاب ، والهجر ، ويصرخ من عذاب الحب شاكيا ،
ويعلم جفاء حبيبته دائما

(هـ) الوصف :

يعدُّ شوقي أول شعراء العربية الوصافين ، وأظهرهم في تناول المشاهد
والوقائع بالتسجيل ، والتصوير الأدبي . ولا أعرف بينهم من سبقه في هذا
الفن . وحسبك أن تتصفح ديوانه لتستبين منه موضوعات الوصف التي عرضنا
لها من قبل : (كالنيل ، والأهرام ، وأبى الهول ، والجزيرة ، ومنظر الشروق
والغروب من سفينة ، والنخلة ، والمнар ، والربيع ، والببل الكناري ،
والبسفور ، وجبال سوسة ، وليلة ساهرة في عابدين ، ومرقص ، وقبر نابليون ،
ومملكة النحل ، ومقبرة توت غنخ آمون ، ورومة ، و « براكين » اليابان ،
والطيارة ، و « كوك صو » ، والبحر الأبيض ، وطابع البريد ، وغواصة ،
ولبنان ، وأنس الوجود وغير هذا من المشاهد الأخرى التي امتلأت
بها الأجزاء الأربعة من ديوانه ، غير قصصه ورواياته ومنشوره ...) .

وكثير من تلك الأوصاف قد استقل بنفسه ، وانفرد بموضوعه ، وبعنوانه
الخاص ، وبعض آخر جاء في ثنايا غيره ، وتبعاً له .

وسواء أكانت الأوصاف مستقلة بنفسها أم تابعة لغيرها فإنى ألاحظ عليها ما يلى :

(١) أنها على كثرتها قد أهمت مشاهد جليلة ، وحوادث هامة تستحق التصوير والتسجيل فلم تعرض لها . ومن هذه المشاهد والحوادث ما هو طبيعى ؛ كبير الشأن ، عظيم الأثر وما هو مصنوع حديث بادی الشهرة ، مرموق المكافحة ، عرفه شوقي ورآه ، وخبره بنفسه . فأين وصف البحار ، والمحيطات ، والسماء ، والنجوم ، والسحب ، والأسطار ، والزلازل ، و « البراكين » (غير زلزال اليابان) ؟ وأين الهواء ؛ ما كان منه نسيما منعشا ، أو عاصفا مدمرا ، أو نديا رطبا ، أو جافا مُحرقا ؟ أين الزروع ، والضرع ، والفواكه ، والثمار ، وضخام الدّوح ، وصغار الشجر ، وزواحف النجوم^(١) النباتية ؟ أين أطياف الزينة ، وأزهار الحديقة ، وسائر الطيور ، والرياحين ، والحيوانات الأليفة ، والبرية ، والمتوطنة والدخيلة ؟ وأين ... وأين ... من مظاهر الطبيعة التى خلقتها القدرة التى ليس فوقها قدرة ...

وأين وصف القناطر الخيرية ، وخزان أسوان ، وحديقة الحيوان ، ودار الآثار القديمة ، والعربية ، وقلعة محمد على ، ومسجده الفخم ، وسائر المساجد الأخرى التى اشتهرت بها القاهرة ، وانفردت بآياتها الفنية الباقية على الأيام ؟ أين وصف الملاعب ، والمسارح المصرية ، والشواطىء ، والمصايف ، ومدن الآثار الفريدة ؛ كالأقصر ، ومصر القديمة ... ؟

أين القطر ، والبواخر ، والسيارات ، والمذايح ، والبرق ، والمِسْرَة ،
وسائر المخترعات الحديثة ؛ وما جرت في أذيالها من حروب ، وويلات ،
أو جانب من سلام ، وأمن ، ورغافة ؟ إلى غير ذلك من المظاهر الطبيعية ،
وغير الطبيعية في بلادنا وفي نواحي العالم أجمع ؟

(٢) على أن المشاهد التي تعرّض لوصفها شوقى إنما تعرض لكل منها مرة ،
ولم يُننّ (في الغالب) . والشاعر المقتدر كالصوّر المقتدر ؛ يرسم الصورة
الواحدة مرات مختلفة ، كل واحدة تغاير سابقتها ، وتختص بلون من
الفنّ والحسن ليس لأختها . وشئ آخر هو أننا (نحن المصريين) لا يقنعنا
من شاعر مصري أن يقتصر في وصف مشاهدنا وأعجاذنا على قصيدة
واحدة ، أو بعض قصيدة . فهل نقنع بها في وصف النيل ، أو الهرم ،
أو حضارتنا القديمة أو ... أو ... مما نحن في حاجة إلى سماع الكثير
الطريف منه ؛ لينهض العزائم ، ويحرك الهمم .

الحق أن حظ شوقى في هذه الناحية ضئيل ؛ لا يناسب مكانته ، ولا عصره .
ونحن حين نقول إنه وصاف ، كثير التصوير — إنما نقوله بموازنته مع
نظرائه من شعراء العربية . أما إن وزنناه بميزان الثقة به ، والأمل المرجو .
فيه — فلن نصفه إلا بأنه مُقِلٌّ بل مُقَصِّر . ولا ندري سبب تقصيره .

(٣) وأوصافه — على قلتها أو كثرتها — يغلب عليها طابع التعميم والإجمال ؛
فلست أعرف له وصفا تناول فيه أجزاء الموصوف ، وخصائصه التي تميزه
من سواه — تناولا حميدا . خذ لذلك مثالا قصيدتيه العظيمة في الربيع ،
ومطلع أحدهما :

« آزار » أقبل ؛ قم بنا يا صاح — حتى الربيع حديقة الأرواح —

ومطلع الأخرى :

مرحباً بالربيع في ريعانه وبأنواره ، وطيب زمانه

فليس فيهما — على حسنهما وجهالهما — ما يوضح حقيقة الأزهار ، ويرسم صورتها ، ويميز واحدة من واحدة بحجمها ، وألوانها ، وسائر خصائصها . بل إنه في القصيدة الثانية قد أوغل في الإجمال والإسهام ؛ فلم يتعرض لأسماء الأزهار والرياحين كما تعرض في الأولى . وإنما اقتصر على مظاهر عامة للربيع ؛ لا تفصيل فيها ، ولا تحديد ؛ من أمثال : الترحيب به وبأنواره ، وطيب زمانه ، وازدحام مواكب الطبيعة فيه ، وطول أنهاره ، وعرض جناته ، وسحر صنعة ، وفننة عيونه ، وعبقريته خياله ، وتزنيهم جداوله ، وغناء أطياره ، وشدو رياحينه . وهذا كل ما ضمنه أبياته في وصف الربيع . أما وصف زهرة بعينها ، أو بستان ضاحك برياحينه ، أو تصوير جدول ، أو غدير ، أو طائر — تصويرا خاصا متميزاً فلا . ومن الخير أن أعرض عليك أبياته هذه :

مرحباً بالربيع في ريعانه وبأنواره ، وطيب زمانه

زفت الأرض في مواكب « آزا ر » ، وشب الزمان في مهرجانه

نزل السهل ضاحك البشر يمشي فيه مشى الأمير في بستانه

عاد حلياً براحتيه ووشياً طول أنهاره ، وعرض جنانه

أف في طيلسانه طرر الأر ض ؛ فطاب الأديم من طيلسانه

ساحر ، فتنة العيون ، مبین فصل الماء في الربا بحمانه

عبرى الخيال ، زاد على الطيف ، وأرّبي عليه في ألوانه

صبغة الله ؛ أين منها رفائيل ، ومنقأشه وسحر بنانه ؟

رثم الرّوض ؛ جدولاً ونسيماً وتلاّ طير أيكه غصن بانه

وشدّت في الرُّبَا الرياحينُ هَمْسًا كتمّني الطُروب في وِجدانه
كلُّ رِيحانةٍ بلحنٍ ؛ كمرُسٍ ألقتُ للغناء شَتَّى قِيَانَه
نغم في السماء والأرضِ شَتَّى من معاني الربيعِ ، أو الحانَه
هذه هي أبياته في وصف الربيع ؛ وهي ساحرة الصوغ ، والمعنى ، والخيال .
وما أعرف شاعرا عربيا قاربها في ناحية من نواحيها الثلاث السالفة . ولا يشوبها
إلا ذلك التعميم الذي يشوب الأدب العربي عامة . وإذا تلمسنا العذر لشوقي هنا
بأنه يتحدث عَرَضًا عن الربيع في مظهره العام ، وآثاره الجملة من غير أن يوجه
همه للحديث عن رياحينه ، وأزهاره ، وتسميتها بأسمائها ، وتحديدتها بخصائصها^(١) ؛
فهل نستطيع أن نتعبد له العذر في قصيدته الأخرى التي خصَّ بها الربيع ؛
فعرّضَ للأزهار ، والرياحين بأسمائها ، وبعض شاراتها ، واكتفى بذلك ؛
من غير أن يزيل غموضها وإجمالها ؟ يقول :

« الوردُ » في سرِّ العُصُونِ مُفْتَحٌ مُتَمَائِلٌ يُثْنِي عَلَى الْفَتَّاحِ
ويَقَابِقُ « النَّسْرِينَ » في أغصانها كالدرِّ ؛ رُكْبٌ في صُدُورِ رِمَاحِ
« والياسمينُ » لطيفه ، ونقيّه كسريّةٍ الْمُتَزَّرَةِ الْمِسْمَاحِ
مُتَأَلِّقٌ خَلَلَ الْعُصُونِ ؛ كأنه في بُلْجَةِ الإصْبَاحِ ضَوْءُ صَبَاحِ
« والجَلَنَارُ » دَمٌ عَلَى أَوْرَاقِهِ قَانِي الحُرُوفِ ؛ كخاتَمِ السَّفَاحِ
وكانَ محزونَ « الْبَنَفْسَجِ » ناكِلٌ يَلْتَقِي الْقَضَاءَ بِخَشْيَةٍ ، وَصَلَاحِ
وعلى « الخواطرِ » رِقَّةٌ وَكَابَةٌ كخواطرِ الشُّعْرَاءِ فِي الْأَتْرَاحِ
فهل رأيت في هذا الشعر وصفا يوضح الموصوف ، ويكشف غلامه ؟ لسنا

(١) ذلك لأن موضوع القصيدة هو : شكر المؤتمرين في حفل تكريمه ، ولم يكن موضوعها الأساسي : الربيع .

نريد من التفصيل أن يتعرض للدقائق ، والخصائص التي تخرج الموضوع عن الفن الأدبي ، وتباعد بينه وبين الجمال الشعري ، وتدخله في مدار الحصر البغيض ، والإحصاء المقيت ، والكلام العلمي الجامد ، وإنما نريد من « شوقي » حين يتحدث عن الورد أن يصف ورقها ، ولونها ، وشذاهها ، ونعومة ملمسها ، وتداخل طياتها ، وتفتح أطرافها ^(١) .

وحين يتحدث عن الياسمين يذكر لونه الخاص ، وورقه الصغير المنفرد ، المنحني ، وانثناء الورق ، وظهور داخله برسومه وألوانه ... نريد ذلك كله وأشباهه . ولكن بطرائق شعرية عالية ، تفصل بينه وبين الكلام المألوف ، والأحاديث التي لا تمت للأدب الرفيع بأقوى الصلات .

(٤) فإن نحن أغضينا عما سلف وقدرنا « شوقي » بمعايير ^(٢) الألفاظ العذبة المصنفة ، والأساليب المؤلفة المتسلسلة ، والمعاني الطريفة المشرقة ، والفهم الموسيقي الشجي — كان في طليعة الوصفين من شعراء الضاد ، بل أسبقهم جميعاً في هذا الميدان ، لا أستثنى الباحثي ولا غيره . هذا إلى ما وهبه الله من خيال مبتكر ؛ تظهر آثاره فيما يخاطبه من صور ناطقة تجسم الموصوف أمامك ، وتبرزه ماثلاً بين يديك ؛ وما هو بمائل ، وتوهمك أنك تراه ؛ ولست تراه . كما تظهر فيما يسوقه من تشبيهات دقيقة ، محكمة تناسب ^(٣)

(١) راجع ماقلناه في هذا الموضوع أول الكتاب ص ١٨ وما بعدها .

(٢) وقد وضعنا هذه المعايير أول الكتاب .

(٣) أي: كما يقول البلاغيون : فيها صلة التشابه بين الطرفين قوية ؛ ووجه الشبه بينهما واضح ، وهو أظهر صفات المشبه به .

ومع أن الوصول إلى تشبيه واحد محكم أمرٌ عسيرٌ على كثير من الشعراء — ترى « شوقي » يسهل عليه الوصول إلى عدة تشبيهات من هذا النوع الأسمى لموصوف فرد ، ويؤالي بينها ، ويوضح بها حقائقه ، وقد يعدد فوائده . كل ذلك في مهارة وإجادة وبراعة أشرنا إليها فيما سبق ، وعرضنا لها الأمثلة^(١) ونعرض هنا أمثلة أخرى ؛ منها قصيدته في البحر الأبيض المتوسط ، وفيها يقول عن الإسكندرية وشاطئها المزدان بالفانيات زمن الصيف :

وترى الفيدَ أولوا ثمَّ — رطبًا وجمانًا، حوَالِي^(٢) الماء نثرًا^(٣)
وكانَّ السماءَ والماءَ شيقًا صدَفٍ ؛ مُحمَّلاً رَفِينًا ودُرًّا
وكانَّ السماءَ والماءَ عُرسَ مُترَعُ المِهْرَجَانِ أمْحًا^(٤) ، وعِطْرًا
أو ربيعٌ ، من ريشة الفنِّ . أبهى من ربيعِ الرُّبَا ، وأفتنُ زهرًا
أو تهـاويلُ شاعِرٍ عبقريٍّ طَارَحَ البَحْرَ والطَّيْبَةَ شِعْرًا
ياسواريٍّ فيرُوزجٍ ولَجِينِ بهِمَا حُلِيَّتْ مَعاصِمُ مِصرَا
في شُعاعِ الضُّحَا يَعُودَانِ مَاسًا وَهَلَى لَمَحَّةُ الْأَصَائِلِ تَبْرًا
ومشتَ فيهما النجومُ ؛ فكانتْ في حواشيهما يواقيتُ زُهرًا
لاك في الأرضِ مَوْكِبٌ ليس يَأْلُو الـريحَ ، وَالطَّيْرَ ، وَالشَّيَاطِينَ — حَشْدًا
سِرَتْ فِيهِ عَلَى كَنُوزِ (سُلَيْمًا) (ن) تَعْدُ الْخُطَا ؛ اخْتِيَالًا ، وَكِبْرًا

.....

(١) ص ١٧٨ . (٢) حَوَالِي ، أو : حَوَالِي ، بمعنى : حالياته التي تزينه .

(٣) منشورات متفرقات (٤) إظهاراً للعن .

وفيه يقول أيضاً :

شاطئ مثل رُقعة الخلد حسناً وأديم الشباب ، طيباً وبشراً
جَرَ فيروزجا على فِضة الما ، وجَرَ الأصيلُ والصبحُ تَبْراً
كلما جُمْتُهُ تَهَلَّلَ بِشِراً من جميع الجهاتِ ، وافترَّ ثَغْراً
انثنى مَوْجَةً ، وأقبلَ رُخى كَلَّةً تارةً ، ويرفعُ سِتْراً
شَبَّ وانحطَّ مثلَ أسرابِ طيرٍ ماضياتٍ ؛ تَلَفُ بالسَّهلِ وَغْراً
ربما جاءَ وهْدَةٌ ؛ فتردَّى في الهاوِى . وقامَ يطْفِرُ صَخْراً
وترى الرملَ والقصورَ كأَيْكٍ رَكِبَ الوَكْرُ في نواحيهِ وَكْراً
وترى جَوْسِقاً يُزَيِّنُ رَوْضاً وترى روضةً تَزِينُ قَصْراً

وفيهما يخاطبه :

كَمْ مَلَأْنَاكَ بالسَّفِينِ مَوَاقِيمَ كَشْمِ الْجِبَالِ جُنْدًا ، وَوَفَرًا
شَاكِيَاتِ السِّلَاحِ يُخْرِجُنَ مِنْ مِصْرٍ بِمَلْمُومَةٍ ^(١) ، وَيَدْخُلُنَ مِصْرًا
شَارِعَاتِ الْجَنَاحِ فِي ثَبَجِ الْمَا ؛ كَنَسْرٍ يَشُدُّ فِي السُّحْبِ نَسْرًا
وَكَاَنَّ اللَّجَاجَ ^(٢) حِينَ تَنْزَى ^(٣) وَتَسُدُّ الْفِجَاجَ كَرًّا وَفَرًّا ...
أَجْمٌ بَعْضُهُ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ زَحَفَتْ غَابَةٌ لِمَزِيْقٍ أُخْرَى
قَذَفَتْ هَاهُنَا زَيْبًا وَنَابًا وَرَمَتْ هَهُنَا عَوَاءً وَظَفْرًا

(١) كتائب متجمعة .

(٢) جمع : لجة ، وهى : الماء الكثير الذى لا ترى العين أطرافه .

(٣) أى : تنزى ؛ بمعنى : تتوَّج وتقفز .

أَنْتَ تَغْلِي إِلَى الْقِيَامَةِ ؛ كَالْقَدْرِ ؛ فَلَا حَظَّ يَوْمُهَا لَكَ قَدْرًا
(٢) وقصيدته التي يخاطب بها توت عنخ آمون ، وبصف مقبرته
الأثرية النفيسة :

ذهبُ ببطْنِ الأرضِ ؛ لمْ تذهبْ بلمَحَةٍ القُرُونُ
استحدثتْ لك جَنَدَلًا وصنائجاً منه القيُونُ
ونواويساً وهَجَاجَةً لمْ يَتَخَذَهَا الهامِدُونَ
لو يَفْطَنُ الموتى لها سَرَحُوا الأناملَ يَنْبَشُونَ
وتنازعُوا الذهبَ الذي كانوا له يَتَفَاتَفُونَ
أَكْفَانُ وَشْيٍ فُصِّلَتْ بَرَاقِيقُ الذَّهَبِ الْفَتَيْنُ
قدْ لَفَّهَا لَفًّا الضَّمَامُ دِ مُحْنَطٌ ، آسٌ ، رَزِينُ
وكأَنَّهنَّ كَأَنَّمْ وكأنك الورْدُ الْجَنِينُ
وبكل ركن صورةً وبكل زاوية رَقِينُ^(١)
وترى الدُّمَى ؛ فتخالها انْتَثَرَتْ عَلَى جَنَبَاتِ زُونُ^(٢)
صُورٌ تُرِيكَ تَحَرُّكًا والأصلُ في الصُّورِ الشُّكُونُ
ويمُرُّ رَائِعٌ صَمْنِيهَا بِالْحِسِّ كَالنُّطْقِ الْمُبِينُ
صَحْبَ الزَّمانِ دِهَانَهَا حِينًا عَهِيدًا بَعْدَ حِينُ
غَضٌّ عَلَى طُولِ الْعِلَى حَتَّى عَلَى طُولِ الْمَنُونُ
خَدَعَ الْعَمِيونَ ولمْ يَزَلْ حَتَّى تَحْدَى اللامِسِينُ

غِلْمَانُ قَسْرِكَ فِي الرِّكَابِ يُنَاوِلُونَ وَيَطْرُدُونَ
وَالْبُوقُ يَهْتَفُ ، وَالسَّهَابُ مُمْتَرِنٌ ، وَالْقَوْسُ الْحَنُونُ
وَكِلَابُ مَسِيدِكَ كُهُتٌ وَالْخَيْلُ جُنَّ لَهَا جُنُونُ
وَالْوَحْشُ تَنَفَّرُ فِي الشُّهُوبِ لِي ، وَتَارَةً تَثِيبُ الْحَزُونُ
وَالطَّيْرُ تَرُسُفُ فِي الْجُرَا حِ ، وَفِي مَنَاقِرِهَا أَرْبَعُ
وَكَأَنَّ آبَاءَ الْبَرِيَّةِ فِي الْمَدَائِنِ مُخَضَّرُونَ
وَكَأَنَّ دُرَّةَ (آلِ شَمْسٍ) عَنْ شِمَالِكَ وَالْمِيزَانُ

(٣) وقصصته في قصر أنس الوجود (وهو الأثر الفرعوني الباهر الذي
يوشك أن ينهار وسط مياه النيل المحيطة به عند أسوان) وقد
مررت في ص ٥٠

(٤) وقصصته في وصف الوقائع القديمة العثمانية واليونانية . وفيها يتكلم
بلسان الترك ويصف أعداءهم^(١) ... (وقد سبقت أبيات منها) .

كَأَنَّا أَسْوَدُ رَابِضَاتٍ ، كَأَنَّهُمْ قَطِيعٌ بِأَقْصَى السَّهْلِ ؛ حَيْرَانٌ مَذْذَبٌ^(٢)
كَأَنَّ الدَّجَى بَحْرٌ إِلَى النِّجْمِ صَاعِدٌ كَأَنَّ السَّرَايَا مَوْجُهُ الْمُتَضَرِّبُ
كَأَنَّ الْمَنَايَا فِي ضَمِيرِ ظِلَامِهِ هُمُومٌ ؛ بِهَا فَاضَ الضَّمِيرُ الْحَجَبُ
كَأَنَّ وَجْهَ الْخَيْلِ — غُرًّا وَسِيمَةً — دَرَارِي لَيْلٍ ، طَلَعَتْ فِيهِ ، ثَقَبُ
كَأَنَّ أَنْوْفَ الْخَيْلِ حُمْرًا مِنَ الْوَغَى كَبَجَامِرُ فِي الظُّلُمَاءِ ؛ تَهْدَأُ وَتَلَهَبُ

(١) تأمل — بمناسبة هذه الأبيات وأشباهاها — ما ذكرناه قبل من قدرة شوقي على
إحكام التشبيه ، والبراعة فيه ، وكثرته التي يسايرها الخلق والإتيان .
(٢) مذعور خوفا من الذئب .

كَأَنَّ صُدُورَ الْخَيْلِ غَدَرَتْ عَلَى الدُّجَى
كَأَنَّ سَنَا الْأَبْوَابِ فِي اللَّيْلِ بَرْقُهُ
كَأَنَّ نِدَاءَ الْجَيْشِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ
كَأَنَّ عِيُونَ الْجَيْشِ فِي كُلِّ مَذْهَبٍ
كَأَنَّ الْوَعْيَ نَارًا ، كَأَنَّ جَنُودَنَا
كَأَنَّ الْوَعْيَ نَارًا ، كَأَنَّ الرَّدَى قِرَى
كَأَنَّ الْوَعْيَ نَارًا ، كَأَنَّ بَنَى الْوَعْيِ
وَتَبْنًا ؛ يَضْمِيقُ السَّهْلُ عَنْ وَثَبَاتِنَا
مَشَتْ فِي سَرَايَاهُمْ ؛ فَجَلَّتْ نِظَامَهَا
(٥) وَقَصِيدَتُهُ فِي وَصْفِ هَرَّةٍ عَثَرَ عَلَيْهَا مُخْتَبِئَةً فِي حَبِيزَةِ نَوْمِهِ . وَهِيَ قَصِيدَةٌ

تصويرية بديعة ، نكتفي منها بقوله :

فَهَذَا بَدَتْ لِي ، وَالتَّقَتْ
عَادَ رَمَادُ لِحْظِهَا
وَرَدَدَتْ فُحَيْحَهَا
وَلَبَسَتْ لِي مِنْ وَرَا
كَرَّتْ ؛ وَلَكِنْ كَالْجَبَا
وَانْتَفَضَتْ شَوَارِبَا
وَرَفَعَتْ كَفًّا ، وَشَا
نَحْمَ ارْتَقَتْ عَنْ الْمَوَا
نَظَرَتْهَا وَنَظَرَتِي :
مِثْلَ بَصِيرِ الْجَمْرَةِ
كَحَنَشٍ بِفَقْرَةٍ
ءِ السُّتْرِ جِلْدَ النَّمْرَةِ
نِ قَائِدًا ، وَفَرَّتِ
عَنْ مِثْلِ بَيْتِ الْإِبْرَةِ
أَتَ ذَنْبًا ؛ كَالدَّرَةِ (١)
ءِ ؛ فَعَوَتْ ، وَهَرَّتِ

(١) الدَّرَّةُ : السَّوْطُ ، وَنَحْوُهُ مِمَّا يُسْتَخْدَمُ الْخَاكِمُ فِي ضَرْبِ الْحَرْبِ . وَقَدْ جَاءَ فِي الشُّوْقِيَّاتِ كَلِمَةُ « الْمَذْرَّة » بِدَلِّ : الدَّرَّةُ . وَلَعَلَّ الْأَنْسَبَ مَا كَتَبْنَاهُ .

لَمْ أَجْزِهَا بِشِرَّةٍ عَنْ غَضَبٍ ، وَشِرَّةٍ
 أَتَيْتُهَا بِشِرَّةٍ وَجِئْتُهَا بِكِسْرَةٍ
 وَزِدْتُهَا الدَّفْءَ ؛ فَقَرَّبْتُ لَهَا مِجْمَرَتِي
 وَلَوْ وَجَدْتُ مِصِيدًا لَجِئْتُهَا بِفَارَةٍ
 فَاضْطَجَعَتْ تَحْتَ ظِلَا لِ الْأَمْنِ ، وَاسْتَبْطَرَّتِ
 وَقَرَأَتْ أَوْرَادَهَا وَمَا دَرَّتْ مَا قَرَّتِ
 وَسَرَحَ الصَّغَارُ فِي ثَدْيَيْهَا ؛ فَدَرَّتِ
 اخْتَلَطُوا ، وَعَيْشُوا كَالْعُمَى حَوْلَ سُفْرَةٍ
 تَحْسِبُهُمْ ضَفَادِعًا أُرْسَلَتْهَا فِي جَرَّةٍ
 وَقُلْتُ : لَا بَأْسَ عَلَى طِفْلِكَ يَا جُوَيْرَتِي
 تَمَخَّضِي عَنْ خَمْسَةِ إِنْ شِئْتَ ، أَوْ عَنْ عَشْرَةٍ
 أَنْتِ وَأَوْلَادُكِ حَتَّى يَكْبُرُوا فِي خُفَرَتِي ^(١)

وغير هذا كثير ، كقصيدته في طابع البريد ، وفيها يذكر مزاياء ،
 وقصيدته في الغواصة وبلاياها ، وقصيدته في النخلة ، وأبي الهول ، والبسفور ،
 والمنار وسواها من الشعر الوصفى الذى لا يحتاج إلى كشف
 محاسنه ، وتوضيح فنه . فما أسهل هذا على الأديب الخبير ، ومن يذكر
 الأصول النقدية العامة التى أوضحناها أول الكتاب .

* * *

على أن شوق الوصاف البارع قد يَفْتَرُّ ، ويَهْوِي ، فيعرض من الصور
الواهية ، والتشبيهات الضعيفة — ما لا يرضاه له . كقصيدته في نكبة اليابان
بأقصى زلزال مرَّ بها ، حيث يقول في وصفها :

لو تأملتُها عشيةً جاشتْ خِلَتُها في يدِ القضاءِ حَمَامَةٌ
استعذنا بالله من ذلك السَّيْلِ الذي يكسحُ البلادَ أُمَامَةٌ
من رأى جَلَمَدًا يَهْبُ هُبُوبًا وَحَمِيًّا يَسُحُّ سَحَّ القِمَامَةِ
ودخانًا يَلْفُ جُنْحًا بجَنحٍ لا تَرى فيه مِعْصَمِيهَا اليَامَةِ
وهزيمًا كما عَوَى الذئبُ في كُلِّ مكانٍ ، وزَجَرَ الضَّرْغَامَةِ

... أين هذه الصورة مما وقع ؟ وأين القمامة ، وزرقاء اليمامة ، وصوت
الذئب ، وزئير الضرغام — مما هم فيه . ولهذا الصور الواهية نظائر تكثر
في شعر الطور الأول ، وتقل في الثاني . ولكنها على قلتها أو كثرتها لا تزعج
عن مكان الصدارة بين شعراء العربية الوصافين .

* * *

وإلى هنا أكتفي بالكلام في موضوعاته الشعرية ، وأستغنى عن الحديث
في باقي الأغراض السبعة القديمة بما فصلته في نظائرها المتقدمة ؛ فحاسبه
في هذه وتلك متشابهة ، ومسأويه في اللاوحي كالسوابق .

أما الأغراض الأخرى التي انفرد بها شوقي دون المتنبي (وهي : المزاح ،
والأنشيد ، والقصص ، والمسرحيات ... الخ) فليس مكانها هنا ؛ لأننا نعرض
للموضوعات المشتركة عند الشاعرين ، ونوازن بينهما فيما عالجاه معاً . أما ما انفرد
به أحدهما فلا علاقة لبحثنا به . والحق أن تلك الموضوعات التي انفرد بها شوقي

جديرة بدراسة خاصة ؛ تكشف عنها ، وتظهر دقائقها ، وتعلن على الملأ مزاياها .
والكن هذا لا يمنعنا أن ننتهز المناسبة المواتية الآن لإعلان إعجابنا بها ، وثناها
عليها ، واعترافنا بجليل ما أقدم عليه صاحبها ، وعظيم ما قدّم للغة والناطقين
بها ؛ من مجد يبقى على الدهر ؛ وفي كَرِّ يَحْدُ على الزمان . ولم لا ؟

ألم يتخذ من أصفى الشمر ، وأعفّ الفزل ، وأكرم المعاني الوجدانية
أغاني سيارة ؟ يترنم بها الشيخ المتوقر الجادّ ، والغلام المرح ؛ فترهف
وجدانهم ، وتوقظ أنبل المواطف فيهم ، وتخفف عنهم حدة الجدّ ، وعناء
الكدّ ، وتضبط عنان المرح . من غير أن تذهب بوقار ، أو تبثني على وحشة ،
أو تزيد في جهود ، أو عبث . بل تتغنّى بها الحرة المحصنة ، والكاعب المعضر ؛
فتجد ثمّة النفس ، ولذة الروح ، والترجمة الطاهرة لأعمق المشاعر ، واللحن
السماوي البريء مما يخذش الحياء ، أو يجرح الفضيلة ، أو يوميّ من قرب أو بُعد
إلى دّاس . هذا إلى صوغ عجب ، وسهني رفيع ، ووزن موسيقيّ مطرب .

فأين من هذه الأغاني العلوية (بصوغها ، ومعناها ، وموسيقاها) ما كان
ذائعا مطلع هذا القرن في بلادنا والبلاد العربية الأخرى ؛ من تلك الخايزي
الماجنة ، الخليعة ، المهلهلة النسج ، الجوفاء المعاني ، التي جمعت في ثناياها كل مرذول
من القول ، ورجس من فنون الإغراء الدنيء ، وكانت من أكبر معاول الهدم
في حصون الأخلاق ، ومعادل الفضيلة ، ودعائم اللغة ؟ ولا أريد أن أسجل هنا
شيئا من تلك الأرجاس ، والأدناس ؛ فحسبنا ما صكّت به أسماعنا ، وهوّعت
به نفوسنا . حتى قيّضَ الله لنا وللناطقين بلغتنا «شوقيّا» فأنقذ الأغاني من تلك
الحماة ، وسما بها إلى مكانة من الفن الروحي الأقدس ، لم يكن يتسع لها أمل ،
ولا يسمو إليها وهم .

فمن كان يتوهم أو يتخيل أن أغانيها ستبقى حتى يكون منها الآيات الفنية المعجزة ، ويكون المترنمون بها أفراد الشعب جميعا ؛ خاصته وعامته ، شبابه وشبابه ، فتنته وفتيانه ؟ يتغنون بأغاني شوقي التي مطالعها :

(١) يا جارة الوادي، طربت، وعادني ما يشبه الأحلام من ذكراك

... ..

(٢) رُدَّتْ الروح على المُنَى معك أحسن الأيام يومٌ أرجعك

... ..

أرجفوا أنك شاكٍ موجع ليمتلى فوق الضنى مأوجعك...
(٣) بي مثل ما بك يا قمرية الوادي ناديت ليلى؛ فقومي في الدجى نادى
وأرسل الشجو أسجاءاً مفصّلةً أورددي من وراء الأيك إنشادى
لا تكتمى الوجد؛ فالجرحان من شجن ولا الصبابة ؛ فالدمعان من وادٍ

... ..

(٤) يا شرعاً وراء دجلة يجري في دموعي ؛ تجنبتك العوادي
سبر على الماء ؛ كالسميح رويدا وأجر في اليم ؛ كالشعاع الهادي

... ..

(٥) ريمٌ على القاع بين البان والعلم أحلّ سفك دمي في الأشهر الحرم

نعم إنها المعجزة الفنية ، أظهرها الله على يد شوقي ، وآثره بها ؛ فكان من ورائها ما يكون وراء المعجزات ؛ من إزالة مفسد ، وقضاء على شرور ، وإنذار بجديد فيه الخير ، والنفع ، والإسعاد . ولقد ظهرت بوادر الخير في وقت لم يكن يدور بخلد أحد فيه أن موج الأغاني المأجنة — وقد فاض بلاؤه ، وتغلغل شره — سيخفف تياره ، وينحسر طغيانه ، وينبرى له من يقف

في وجهه ؛ يردّه ، ويصدّه ، بل يقضى عليه ويزيل معالمه قدر استطاعة الجِدِّ
المخلص . ولا يكفى بالرد ، والصد ، والقضاء ، والحو ؛ بل يُحل محله ما فيه
شفاء النفس ، وهَوَى الفؤاد ، ومرضاة الأخلاق . من كان يتوهم أو يتخيل ذلك ؟
ولكن الله أراد ، وهياً الأمر شوقى . وكفى .

* * *

وإذا كنا نشيد بفضل أغانيه فلن نجد فضل أناشيده القومية ، والحماسية ،
وباقى أناشيده التي بعثت في النفوس حرارة الوطنية ، وأيقظت فيها حوافز
الحرية ، وكشفت عن ما أثرنا وأوجدنا ، وهيأت لطلابنا ، وصنّاعنا ، وجنودنا ،
وكثير من طوائفنا — ما يترجمون به عن مشاعرهم الخاصة ، وعميق أحاسيسهم
في ناحية معينة من نواحي حياتهم ؛ فيجدون متنفساً مأموناً لكوامن خواطرهم
التي تضطرم في صدورهم ولا يجدون السبيل للتخفيف منها إلا بمثل هذه الأناشيد
توائم بين طبائعهم وأعمالهم ، وتجمع بين المشاعر والمظاهر ؛ في عبارات ومعان
وأوزان موسيقية تعهد لها الذوق المصقول ، وحسن الاختيار الموفق . وبهذا
حلّت الأناشيد الكريمة محل الأناشيد السوقية المهينة ، وتوات مكان
الصدارة ، وسأيرت الأغاني في امتناع النفوس ، وإشاعة السرور ، وإذاعة
نبيل العواطف ، وكريم الحماد ، وشاركتها في مقاومة المامية ، ومحاربة
الابتذال والاستهتار ، وحببت للجماهير فصيح اللغة ، وحلو التعبير . وحسبك
من أناشيده ما أشرنا إلى عناوينه من قبل^(١) ، ونكتفى بأن نعيد الإشارة
للنشيد الوطني الذي مطلعته :

بنى مصر مكانكو تهياً فهياً ؛ مهّدوا للعجد ، هياً

خذوا شمسَ النهارِ له حُلِيًّا أَلَمْ تَكُ تاجَ أوَّلِكمُ مليًّا ؟
على الأخلاقِ خطُّوا المجدَّ ؛ وابنوا فليس وراءها للمجدِ رُكنُ
أليسَ لكم بوادي النيلِ عدنٌ وكوترُها الذي يجري شهياً

... ..

أما باقى الأناشيد فمؤنلها الديوان ، ومن تمام الفائدة الرجوع إليه .

* * *

وشىء آخر استأثر به شوقى دون المتنبى ، فقد هياً للأطفال شهراً يناسبهم ،
ويسير قواهم ، من غير أن يثقل عليهم ، أو يسىء إلى أصول الشعر . ولم يدعهم
يهيمون ويضطربون ، وقد يقعون على ما يفسد خلقهم ولفتهم ؛ فخدم الناشئة واللغة
خدمة غالية يدرك قيمتها الأدباء والمربون ، وتعهد أجيال الغد كما تعهد أجيال
اليوم ، ولم يدع فريقاً بغير رعاية .

* * *

أما حكاياته^(١) فننظر آخر من الفنون الشوقية الرفيعة ؛ لامن حيث إنها
حكايات شعرية ، وإطائف تهذب الخلق ، وتُحبَّب إلى النفس دراسة الأدب .
ولا من حيث إنها على السنة الحيوانات وأشباهاها ، أو أنها سهلة المأخذ ، جيدة
العبارة ؛ فقد سبقه إلى هذا بعض الأدباء قديماً وحديثاً — ولكن من حيث إنها
جمعت تلك المحاسن كلها ، وزادت عليها أموراً أخرى جليلة الشأن .
أولها : أنها تضرب في موضوعات شتى ، تتصل بالحياة المصرية القائمة ، من غير

(١) أ كثرها في الجزء الرابع ، وعددها خمس وخمسون حكاية ، في نحو تسع وسبعائة
بيت (كما ورد في مقدمة ذلك الجزء) .

أن تغفل الإشارة إلى الحوادث القديمة ، والتاريخ الماضى ؛ الانتفاع بمبهره ومواعظه ؛ الحكاية : حمامتان فى الحجاز (يرمى بها إلى حب الوطن) وحكاية : الديك الهندى والبلدى (يشير بها إلى الاستثمار الأجنبى ووسائله ، وكيف يُمكن له الخلاف بين أفراد الأمة) وحكاية : تدور الخادم (يوحى بها إلى غطرسة الملوك ، واستهانتهم ، وكيف تنتهى بهم إلى الدمار والهلاك) وحكاية : الفيل وأمة الأرانب (يوحى بها إلى أن اتحاد الضعفاء ، واتباعهم رأى عقلائهم ، وبعدهم عن الهوى — يقوِّيهم ، ويدفع عنهم شرور الأعداء الأقوياء) .

ثانيها : أنها حكايات وضعت (فى أغلب الظن) للأطفال — بجانب ما وضعه لهم من شعر خاص — كي يجدوا فيها مسلاتهم ، وما يلائم مواهبهم . ولكنها بالرغم من ذلك قد أحكمت لغتها — على سهولتها — وتضمنت معانيها الواضحة اليسيرة معانى أخرى عميقة ؛ فجاءت لغتها تحمّبة للناشئ الذى لا يتطلب أكثر من الخفة والسهولة ، والأديب المكتمل الذى يرى من إحكامها ، ودقائق تركيبها ، وبارع اختيار ألفاظها — ما لا يراه ذلك الناشئ . وجاءت معانيها جذابة للطفل بوضوحها ، وسهولة إدراكها شائقة للبلاغى الكبير الذى يدرك من ظواهرها ، وخفاياها ، وبعيد مراميها — ما لا يدركه سواه . فما مثلها إلا كصورة زيتية بارعة ؛ تناولها فنان مقتدر بريشته وألوانه ؛ فأبرزها طرفة تسر الناظر الفنى وغير الفنى ؛ إذ يرى فيها كلاهما ما يروقه بقدر خبرته ومواهبه .

ثالثها : أن تلك الحكايات الشائقة التى تستهوى الناشئة بصياغتها ودلالاتها ، وتحبب

الأدب إليهم في قابلهم — قد حوت حكماً صريحة غالية ، فوق ماتضمنته
في ثناياها من أخرى يدركها المَحَنِّكُونَ . والعجب أن هذه الحِكم
الظاهرة لم تصادف صعوبة في اللفظ ، ولا خفاء في الغرض ، ولا بُعْداً
في الفسكرة يباعد بينها وبين الأطفال ، ولم تَلَقَ ما يصغر شأنها أمام
الكبار المجرِّبين . وهذه كسابقتها من دلائل الشاعرية المقتدرة ، والمهارة
الفنية البارعة .

ومن أمثلة الحِكم (وأكثرها يحىء خاتمة للحكاية) :

- (١) قوله في نهاية قصة السَّاقِ والجواد
أَمَّا تَرَى الطَّيْرَ عَلَى ضَعْفِهَا تَطْوِي إِلَى الْحَبِّ مِثْلَ الْبِلَادِ
- (٢) وفي نهاية : النملة والمقطم
صَاحِ ، لَا تَخْشَ عَظِيماً فَالَّذِي فِي الْغَيْبِ أَعْظَمُ
- (٣) وفي نهاية : سليمان والهدهد
إِنَّ لِلظَّالِمِ صَـدْرًا يَشْتَكِي مِنْ غَيْرِ عِـلَّةِ
- (٤) وفي نهاية القبرة وابنها :
لِكُلِّ شَيْءٍ فِي الْحَيَاةِ وَقْتُهُ وَغَايَةُ الْمُسْتَعْجِلِينَ قَوَّتُهُ
- (٥) وفي نهاية الجمل والثعلب :
لَيْسَ بِحِمْلٍ مَا يَمْلَأُ الظُّهْرُ مَا الْحِمْلُ إِلَّا مَا يُعَانِي الصَّدْرُ
- (٦) وفي نهاية الثعلب والأرنب والديك :
مَا كُلْنَا يَنْفَعُهُ لِسَانُهُ فِي النَّاسِ مَنْ يَنْطَقُهُ مَكَانُهُ

(٧) وفي نهاية الوطن :

هَبْ جَنَّةَ الْخُلْدِ الْيَمِينُ لَأَشْيءَ يَهْدِلُ الْوَطَنُ

(٨) وفي نهاية الثعلب والديك :

مُخْطِئٌ مَنْ ظَنَّ يَوْمًا أَنَّ لِلثَّعْلَبِ دِينًا

(٩) وفي نهاية : اليمامة والصياد (وقد اهتدى إلى مكانها بسبب حديثها ، فصادها) :

تَقُولُ قَوْلَ عَارِفٍ مُخْتَقٍ مَلَكَتْ نَفْسِي لَوْ مَلَكَتْ مَنْطِقِي

(١٠) وفي نهاية : الكلب والجمامة (وقد نجَّاهما من الهلاك كما نَجَّيْتَهُ) :

هَذَا هُوَ الْمَعْرُوفُ بِأَهْلِ الْفِطَنِ النَّاسُ بِالنَّاسِ : وَمَنْ يُعْنِ يُعْنِ

.....

ولا عذر المتنبى في إهمال هذا النوع من الحكايات ؛ فقد كان معروفاً له من كتاب : كليلة ودمنة ، وألف ليلة وليلة ، وغيرها من الكتب الموضوعة والمترجمة .

* * *

فأما القصص المسرحية وغير المسرحية فأية في لغتنا ، انفرد بها شوقي ، وأنقذ بها سمعة الشعر العربي — كما قلنا — وقد كان متهماً بالعجز والقصور في هذه الناحية ، وتذكرك بها المسرح ؛ فانتشله من الوهدة التي هوى فيها بتمثيل روايات لا تقصّل بالفن الرفيع بصلة ، ولا تمتّ إلى الخلق الكريم بحرمة ، ولا تمتدّ إلى اللغة السليمة بوشيجة . فلما جاء شوقي ساعفه برواياته المعروفة التي كانت فاتحة عصر تمثيلي جديد ؛ تأخى فيه الفن

الإخراجي والموضوعي ، وباركتهما اللغة القويمة ، والأغراض الكريمة ؛ فكان من هذه المجموعة المثالية الآية التي انفرد بها شوقي ، وأنحف بها جيد العربية ، ومهدّ بها الطريق أمام رواد الأدب المسرحي المنظوم .
وقد سبق^(١) أن أشرنا إلى بعض مزاياها في مناسبة عابرة سالفة ، ونقلنا مشهدًا موجزًا منها .

ولشوقي قصص أخرى تاريخية ، أو تاريخ قصصي ، أودعه كتابا مستقلا سماه : دول الإسلام ؛ أشاد فيه بمجد الإسلام وأبطاله . وعرض مظاهر العظمة في دوله واحدة فواحدة ، مُنَوِّها بما لها من فضل ومآثر . ساق هذا كله في لغة سهلة ، وبيان جليّ ، وأمانة في الرواية . ولعله كان يقصد من وراء هذا جعله أدبا شعبيا عاما ؛ يفيء إليه المسلمون في مجامعهم وسهراتهم ، ويستعينون به على تذكر ماضيهم المجيد ، ويُقبلون عليه كما يُقبلون على قصة : عنتره ، والهلالي ، وغيرها من القصص الشعبي . وفي ذلك من جليل النفع ، وعظيم الأثر — مالا يخفى .

* * *

أما باب المزاح « والخصوصيات » في شعر شوقي فباب لم يطرقه المتنبي — كما سبق — ولكن طرّقه كثير من الأدباء في مختلف العصور ، وفي مقدمتهم بشّار ، والجاحظ ، وأبونواس ، والمعري . غير أن مزاح شوقي عَفَّ لا يجرح ، ودعاباته حلوة لا تلحق عداء ، ولا توظف فتنة ؛ وقد ذكرنا مثلا منها فيما سبق^(٢)

* * *

بقي من خصائص شوقي التي امتاز بها على المتنبى : النثر الرائع حقا ؛ فله في هذا الميدان كتاب حافل بالموضوعات النثرية القديمة والحديثة ، سماه : (أسواق الذهب) ووصف موضوعاته وصفا نستغنى به عن غيره ، حيث يقول :

(إنها فصول من النثر مازعت أنها غررُ زيادٍ ، أو فقرُ القصيح من إيادٍ ، أو سجعُ المطوِّفةِ على فرع غصنها الميادِ . ولا توهمت حين أنشأتها ألى صنعت : (أطواق الذهب) للزخشرى ، أو طببت : (أطباق الذهب) للأصفهاني ، وإن سميتُ هذا الكتاب بما يشبه اسميهما ، ووسمته بما يقرب في الحسن من وسميهما . وإنما هي كلمات اشتملت على معاني شتى الصور ، وأغراض مختلفة الخبر ، جليلة الخطر ؛ منها ما طال عليه القدم ، وشاب على تناوله القلم ، وألم به الغفل من الكتاب والعلم . ومنها ما كثر على الألسنة في هذه الأيام ، وأصبح يقرض في طرق الأقلام ، وتجرى به الألفاظ في أعنة الكلام ؛ من مثل الحرية ، والوطن ، والأمة ، والدستور ، والإنسانية . وكثير غير ذلك من شئون المجتمع وأحواله ، وصفات الإنسان وأفعاله ، أو ماله علاقة بأشياء الزمن ورجاله . يكتنف ذلك أو يمتزج به حكمٌ عن الأيام تلقيتها ، ومن التجارب استمليتها ، وفي قوالب العربية وعييتها وعلى أساليبها حبرتها ووشيتها ...)

وقد صدق في وصفه الذي يوضح حقيقة ما اشتملت عليه تلك الموضوعات وطريقة صياغتها . وليس فيها للناقد الزيه مغمز ، ولا عليها مأخذ . ولكن الذي يتلمس العيب يجده ، ومن يتتبع الزلات يصادفها ، وإن لم يصادفها يخلقها . فقد عابوا هذه الموضوعات بأنها مصنوعة متكلفة ، وأن سجع

الكهان فيها ملحوظ المكان . وتلك دعوى جريئة ، عَرَضْنَا لِمَثَلِهَا فِيما سبق ؛ فليست الصنعة في كل مواضعها بغيضة ، ولا السجع في كل مواطنه مستقبحا ؛ إنما البغيض المستقبح ما أَسَاءَ إلى المعنى ، أو كان في موضعه مقهوراً لا يؤيده الطبع السليم ، وفي موطنه غريباً لا يؤلفه الذوق الناضج . وليست موضوعات شوقى النثرية بسبب من هذا أوشبه سبب . وخير ما ترجع إليه في هذا المقام قول شوقى في موضوع عنوانه : السجع

« قد ظَلَمَ العربية رجالٌ قبحوا السجع ، وعدَّوه عيباً فيها ، وخلطوا الجميل المتفرد بالقبيح المرذول منه ؛ يوضع عنوانا لكتاب ، أو دلالة على باب ، أو حشوا في رسائل السياسة ، أوثرثرة في المقالات العلمية . فيأنشء العربية . إن لغتكم كَسَرِيَّةٌ مُثَرِّيةٌ ، ولن يضيرها عائب ينكر حلاوة الفواصل في الكتاب الكريم ، ولا سجع الحَمَامِ في الحديث الشريف ، ولا كل مأثور خالد من كلام السلف الصالح . . . »

ومن نماذج نثره :

(١) الجمال

جمعت الطبيعة عبقريتها فكانت الجمال . وكان أحسنه وأشرفه ما حلَّ في الهيكل الآدمي ، وجاور العقل الشريف ، والنفس اللطيفة ، والحياة الشاعرة . فالجمال البشرى سيدُ الجمال كله .

وليس الجمال بالهخّة العميون ، ولا بهريق الثُغُور ، ولا هَيْفِ القُدود ، ولا أَسَالَةِ الخدود ، ولا لُؤْلُؤُ الشَّكَايَا وراء عقيق الشفاه . . . ولكن شِعَاعُ

عُلُوٌّ يَبْسُطُهُ الْجَمِيلُ الْبَدِيعُ عَلَى بَعْضِ أَهْلِيَا كُلِّ الْبَشَرِيَّةِ ؛ يَكْسُوها رَوْعَةً
وَيَجْعَلُهَا سَجَرًا وَفِتْنَةً لِلنَّاسِ .

(٢) المال :

يَا مَالُ . الدُّنْيَا أَنْتَ ، وَالنَّاسُ حَيْثُ كُنْتَ ؛ سَجَرْتَ الْقُرُونُ ،
وَسَجَرْتَ مِنْ قَارُونٍ ؛ وَسَعَرْتَ النَّارَ يَا نِيرُونُ . تَعَوَّدَ الْحَقْدُ أَنْ
يُخَالَفَكَ ، وَأَبَى الْحَسَدُ أَنْ يَخَالَفَكَ ، وَكُتِبَ عَلَى الشَّرِّ أَنْ يُخَالَفَكَ
وَيُوَافِقَكَ . . .

(٣) الوطن

الْوَطَنُ مَوْضِعُ الْمِيلَادِ ، وَمَجْمَعُ أَوْطَارِ الْفَوَادِ ، وَمَضْجَعُ الْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ .
الدُّنْيَا الصَّغْرَى ، وَعَتَبَةُ الدَّارِ الْآخَرَى . الْمَوْرُوثُ الْوَارِثُ ، الزَّائِلُ مِنْ
حَارِثٍ إِلَى حَارِثٍ . مُؤَسَّسُ لِبَانٍ ، وَغَارِسُ إِبْجَانٍ ، وَحَيٌّ مِنْ فَانٍ ؛
دَوَالِيكَ حَتَّى يُكْسِفَ الْقَمَرَانُ ، وَتَسْكُنَ هَذِي الْأَرْضُ مِنْ دَوْرَانِ .

(٤) الزهرة

صُورَةُ الرَّقَّةِ ، وَرَمَزُ الْعَاطِفَةِ ، وَهَيْكَلُ الْخَيْرِ وَالْحُبِّ وَالْجَمَالِ . قَدِيمًا
أَوَّاعَ بِهَا النَّاسُ ، وَقَدِيمًا ظَلَمُوهَا . أَمَّا هِيَ فَطَالَمَا مَلَأَتْ حَدَائِقَهُمْ
بِهَاءَ وَخُسْنًا ، وَحَجَرَاتِهِمْ زِينَةً وَطِيبًا ، وَجَعَلَتْ عُرَى ثِيَابِهِمْ ، وَحَسَنَتْ
أَعْرَاسَهُمْ وَوَلَاءَهُمْ ؛ فَكَانَتْ مَنِصَّةً لِلْعُرُوسِ وَإِكْلِيلًا ، وَشَارَةً
لِلْمَائِدَةِ وَمِنْدِيلًا . . .

تِلْكَ نَمَازِجُ مَقْبَسَةٍ مِنْ مَنْشُورِ شَوْقٍ . وَهِيَ عَلَى قَصْرِهَا وَاخْتِصَارِهَا تَكْفِي

لتوضيح تلك الناحية الأدبية التي برع فيها براعته في الفواحي الأخرى ؛ وإن كان في الشعر أظهر براعةً ، وأبلغ اقتداراً .

أما المتنبي فليست أعرف له منشوراً . إلا بضع جميل قصار نسبوها إليه ، ووصفوها بأنها مما كان يمارض به بعض الآيات وقصار السور القرآنية ليثبت نبوته ؛ كقوله :

« والنجم السيار ، والفلك الدوّار ، والليل والنهار ، إن الكافر
لنفي أخطار . امض على سنّتك ، واقف أثر من كان قبلك من المرسلين ؛
فإن الله قانع بك زئج من ألدّ في الدين ، وضل عن السبيل . . . »

وأمثال هذه الآيات التي يثبتها قوم ، وينفيها آخرون . وهي قليلة غشّة ، مصنوعة ، تضرب في ناحية واحدة . ومع أنه يُحاكى بها القرآن ، وينسج على منواله ، فقد جانبها الروعة ، وزايلتها حسنات التأليف ؛ برغم قلتها ، وحرص مبتدعيها على التحدى ببلاغتها ؛ كما يزعم الرواة .

على أني أعرف له قطعة نثرية جميلة لا أعرف له غيرها ؛ وهي التي كتبها بعد شفائه من مرض كان يعود فيه صديق له ، ثم انقطع عن زيارته بعد الشفاء . قال :

« وصلّيتني — وصلّك الله — مُعتلاً ، وقطعتني مُبلاً . فإن رأيت ألا تحبب
العلة إليّ ، ولا تُكدّر الصحة عليّ — فعلت إن شاء الله . » . وهي قطعة مسجوعة
قوية النسيج والمعنى . ولكننا لانستطيع أن نتخذ منها حُكماً صادقاً على نثر المتنبي ،
ولا أن نوازن بينه وبين نثر شوقي . ومن هنا صح القول بأن المتنبي أخلى هذا
الميدان ، وهياً لشوقي فرصة التفرد والسبق فيه .

(٥) الحكمة التي اشتهر بها الشعراء

وأثرها في شعرها .

إذا كانت الحكمة هي : الكلام الموجز ، البليغ ، الذي يحوي عظة نافعة ، وعلماً مفيداً ، وقد تشتهر فتكون مثلاً سياراً ، وقولاً ذائعاً — فالمتنبي وشوقي في مقدمة شعراء الحكمة والأمثال ؛ إذ لا تكاد تخلو قصيدة لأحدهما من حكمة ومثل ، بل حكم وأمثال .

بيد أن حكم المتنبي أوفر عدداً في القصيدة الواحدة وفي القصائد . (ولعل هذا يفسر ما وصفه به القدماء من أنه : حكيم) . وهي — على وفرتها — أقوى صياغة ، وأقرب في دلالتها إلى قلوب الأمم العربية وهواها . وبهذه المزايا الثلاث — الكثرة ، وقوة الصياغة ، وقربها من النفوس — تفوق المتنبي على شوقي في هذا المجال .

فأما الكثرة فأمر حسابي لا يحتمل نقاشاً عقلياً ، ولا يتطلب أكثر من الرجوع لديوان كل منهما ، وحصر حكمه وأمثاله . وسينتهي الإحصاء والعدّ بإثبات الكثرة العددية المتنبي .

وأما قوة الصياغة ، وإحكام النسج — فمرّد الأمر فيهما للقوانين البلاغية والنقدية ؛ يحتمل إليها الباحث . (وقد أُلحنا إليها أول الكتاب) فتحكم المتنبي في غير تردد .

وأما قربها من أفئدة الأمم العربية وهواها فلأن تلك الحكم تُوحى بالقوة ، بل تطالب بها وبالعنف والشدة في إدراك الغايات ، واسترجاع الحقوق ، ودفع

المظالم . ولا ترى في هذا السبيل ملاينة ولا مسالمة ، ولا تجنب إلى مهادنة
وصفح كما تجنب الحكيم الشوقية في أكثرها .

فكلا الشاعرين يرسل حكمته ملونة بلون غرائزه وطباعه ، مُشكلة
بشكلها ؛ فالمتنبي يدعو إلى محاربة الطغاة ، والفتك بالأعداء ، وطلب الحق
بالقنا والأعوان ، وإهمال الرحمة ، وإيثار العز في الجحيم على النل في جنان
الخلد ، وتوسيد الأمور لأهلها ، وانتزاعها من غيرهم قسرا ، ومحاربة
الدخلاء ، ووقف الأجانب عند حدودهم ، وإنزال الناس منازلهم ؛ ولو اقتضى
الأمر ركوب الأسنة ، وإراقة الدماء .

ثم هو يسبّ الزمان الذي يرفع الجهلة الأوغاد ، ويحط العقلاء الأبطال .
وأمثال هذا مما قد يلجأ إليه شوقي ولكن بخفة ورفق لا يرضيان الأسم العربية
في أيام المتنبي ولا في أيامنا ؛ فقد كانت منكوبة في عصر المتنبي بالضعف
والنفك ، والانقسام ؛ يتركها الأجانب ، ويتحكم في أمرها العبيد ،
والإماء ، والجنود المرتزقة ، ويحطم كيائها الخلاف السياسي ، والنزاع
المذهبي . حتى هوت إلى درجة لم تشهدا من قبل . وهل أدل على هذا
من أن تكون مصر — إذ ذاك — محكومة بعبد حبشي ، قذفت به أسواق
النحاسين إلى قصور الحكم المصري ؟ وأن تكون الخلافة العباسية في بغداد
مغلوبة على أمرها . وإن شئت فقل : صورية ؛ تحرّكها أيدي الإماء ،
والجنود الدخلاء ، وتلهب بها لعب الصّوالج بالأكر . ومن استشعر العزة
من الخلفاء ، أو تظاهر بالقوة — وثبوا عليه ؛ فأوردوه موارد الهلاك ، في غير
تردد ولا إهمال .

وأن تكون بلاد فارس وما يليها خاضعة لسلطان جماعة من الأمراء ،
والقواد الأعاجم ؛ قَنَزُوا إليها من صفوف الجند — غالباً — وفي نفوسهم
ما فيها من كره للعرب وُبغض — برغم الدين الإسلامي الذي يظللهم برايته ،
ويجمع بينهم بأحكامه — إذ لم يندسوا لهم أنهم قَضَوْا على مملكة فارس الأولى ،
وحضارتها ، وأنهم أدمجوها في الدولة العربية الفتية ؛ فهم يضمرون للعرب
العداء من أجل ذلك ، ولا يعترفون لهم بفضل ، ويعملون دائبين على
التحرر بأنفسهم وبلادهم واقتهم ، ما استطاعوا لذلك سبيلاً .

وأن يكون الحجاز وما حوله شيعاً وقبائل ، لا تخمد ثورتها ، ولا تنطفئ
فتنتها . وليست بقيمة البلاد الإسلامية بأحسن حالاً مما وصفنا . إلا ولاية حلب
وما يليها ؛ فقد كانت — على الرغم من تبعيتها الاسمية للخلافة العباسية
ببغداد — محكومة بأمير عربي ، يجري في عروقه الدم العربي الأصيل ،
ويصدر في أقواله وأفعاله عن مثل ما كان عليه آباؤه الأجداد ، هو :
سيف الدولة الحمداني .

على أن عريته الأصيلة ، ونبل أخلاقه — لم يدفعاً عنه كيد
الكائدين ، وفتن الأعداء ؛ ففضى مدة الإمارة في حروب ، وجِلاد بينه
وبين أقاربه حيناً ، وحيناً بينه وبين الخارجين عليه ، وآونة بينه وبين
الروم المتآخسين لبلاده ؛ فلم يكن يخرج من حرب إلا ليستعد لحرب ،
ولا يطفى نارا إلا ليستقبل أخرى ؛ أقوى لهيباً ، وأشد اندلاعا .

كل هذا وأفراد الشعوب الإسلامية مستسلمة ، ساكنة ، تؤثر السلامة
وترجو العافية ؛ لطول ملاقت من عنت ، واحتملت من مظالم . فلم يكن

أمامها إلا أن تَسْجُوَ بنفسها ، وتنصرف عن شئون الحكم والحكام ، وكل ماله صلة بينهما ؛ إشارا للراحة ، وفرارا من البلاء . واهل المتنبي قصد هذا كله أو بعضه حين قال :

أَحَقُّ عَافٍ بِدَمْعِكَ الْهِمَمُ أَحَدْتُ شَيْءَ عَهْدٍ أَبَها الْقِدَمُ
وَإِنَّمَا النَّاسُ بِالْمُلُوكِ . يُفْلِحُ عُرْبٌ مُلُوكُهَا عَجَمُ
لَأَدَبٌ عِنْدَهُمْ ، وَلَا حَسَبٌ وَلَا عَهْدٌ لَهُمْ ، وَلَا ذِمَّةٌ
فِي كُلِّ أَرْضٍ وَطَنُهَا أُمَمٌ تُرْعَى بِعَبْدٍ ؛ كَانَتْهُمْ غَنَمُ
يَسْتَخْشِنُ الْخَزَّ حِينَ يَلْبَسُهُ وَكَانَ يُبْرَى بِظَفَرِهِ الْقَلَمُ

تلك حال الأمم الإسلامية الكبرى أيام المتنبي . وإنها كذلك أوقريية منه أيام شوقي الأولى ، في مستهل القرن العشرين ؛ حيث كانت الأمم العربية عامة خاضعة للدولة العثمانية خضوعا اسميا . أما في الحقيقة فلم تكن واحدة تبرأ من استعمار أوربي ، واحتلال أجنبي ؛ يبسط نفوذه عليها ، ويطلق سلطان أبنائه وأعوانه في شئونها ، ولا يدع صغيرة ولا كبيرة من تلك الشئون إلا يتصرف فيها كما يشاء . مستعينا في ذلك بوسائله ؛ من نشر الإرهاب حيناً ، وبسط الأمل حيناً آخر ، وخلق الأحزاب ، وإيقاع العداوة بينها ، وضرب بعضها ببعض ، وإذاعة أسباب التفرقة ، وإشاعة العداوة والبنضاء بين الجماعات والأفراد . . . إلى غير ذلك مما هو معروف من وسائل المستعمرين . وقد مكن له ما كانت تلاقيه الأمم العربية من حكامها ، ولا سيما الأتراك منهم . فلما جاءت العهود الاستعمارية لم يفرع الناس للشر الطاريء ، وحسبوه امتدادا للشر القديم ، ووصلة للبلاء السابق ،

واسعة قبلاؤه ساكتين ، أو خائفين ، أو مؤملين أن يكون فيه خير ونجاة مما يمانون . وانتظروا حتى طال بهم الانتظار ، وصبروا حتى كاد الصبر يكون تبكدا . ثم حركتهم الأحداث الخاصة والعامة ؛ فاستيقظوا على صوتها ، ودخلوا في فجر حياة جديدة .

في الفترة الأولى من عصرنا الحاضر ، وفي الفترة التي تشابهها من عصر المتنبي كان الناس يُؤثرون السلامة — كما أشرنا — لا يرفعون صوتا ، ولا يُحدثون حركة . وكان نظرهم للحكام نظر الطير للصائد كما يقولون ؛ لا يستطيعون محاسبتهم ، بل لا يأمنون جانبهم ، ولا يستطيعون الاقتراب منهم ، ولا يملكون دونهم من الأمر شيئا ؛ فكانت الجرائم والمصائب ، والكبائر ، والمضائر — تقع من حولهم وهم لا ينبسون ، ولا يملكون أن يقولوا ، ولا أن يعمالوا شيئا ، ولا يجرؤ واحد أن يُصرِّح بما يدور في خلدِه . فجاء المتنبي ، وتحدث عن الحقوق المسلوقة واستردادها ، والعزة والحرص عليها ، ومقاومة الطغاة ، والبغاة ، وعزل الدُّثي من مناصب الحكم ، و . . . و . . . فكان المترجم الصادق عن شعور الناس وأمانيتهم ، وكان الناطق بلسانهم حيث لا ينطقون ، أولا يجرؤ واحد منهم على النطق ؛ فطربوا ، وصادف حُرُّ كلامه هوى في نفوسهم ، ولاقت آراؤه مكانها من أفئدتهم ؛ فاهتزوا لها ، ورددوها ، وتحدثوا بها ، وبقائلها الذي خفف عنهم بعض ما يجدون ، وناب عنهم في ترجمة ما يحسُّون ، واحتمل التبعات دونهم . وكان كلامه فوق هذا مضوغا في قالب من الحكمة ، رصين الصوغ ، متين الأداء ، قوى الأصرة ، فزاد في قوته ، وذيوعه ، وحب صائغه . وأقبلوا على حكمه يحفظونها ، وينشدونها ،

غير ملتفتين إلى الكثرة الأخرى من شعره ؛ لأنها لاتعنيهم ، وغير مدركين ما فيها من عيوب ومثالب ؛ لأنها لا تتصل بحياتهم وأحوالهم . فمن ثم كانت الحكمة بصياغتها وصفاتها هي السبب الأقوى في شهرة المتنبي ، وخلود اسمه ، ولا أومن بسبب قوى آخر ، إلا ما قد يكون من ادعائه النبوة ؛ فإن هذا الادعاء في بلاد إسلامية هو أكبر الأحداث التي ترجّها رجا عنيفا إذ ذاك . فلا عجب أن تحدث الناس بمدّعيها ، ولهجوا بذكره ، وتطلعوا إلى أخباره ، وكل ما ينسب إليه من قول أو عمل ، لا إعجاباً به وبفنه وأدبه ؛ ولكن ليعرفوا حقيقة هذا المدّعى الجريء الغريب .

* * *

أما الحكم والأمثال الشوقية فلها نصيبها وأثرها في شهرة شوقي ، ولكنها ليست السبب الأوحد في تلك الشهرة ، بل ليست أهم الأسباب ، وإنما هي عامل من عوامل كثيرة تضافت ، واثقلت ، وتمالأت على أن تجعله نابه الشهرة ، ذائع الصيت ، فكان لها ما أرادت . وقد عرضنا لتفصيل ذلك فيما مضى . ولم ننس بعد ما قلناه عن تخلف شوقي في هذا الميدان الحكمي الذي كان المتنبي السّبق الأول فيه . وإليك طائفة من حكم كل وأمثاله :

(١) من قصيدة المتنبي وصفها الديوان بأنها قيلت في صباه :

عش عزيزا ، أومت وأنت كريم بين طعن القنا ، وخفق البنود
فرءوسُ الرماحِ أذهبُ للفيظِ ، وأشفى لغلِّ صدرِ الحقودِ

لا كما قد حبيبت غير حميدٍ وإذا مت مت غير فقيد
فاطلب المَرْ في النّفى ، وذر النّذل ولو كان في جنان الخلود

(٢) ومن قصيدة يمدح بها علي بن أحمد المرّي الخراساني ، مطلعها :
(وفيه كثير من الحكم والأمثال المتوالية) :

لا افتخارٌ إلا لمن لا يُضامُ مدركٌ ، أو محاربٌ لا ينَامُ
ليس عزمًا ما صرّضَ المرء فيه ليس هُما ما عاق عنه الظلامُ
واحتمال الأذى ، ورؤية جانيه غداة تَضَوَّى به الأجسامُ
ذل من يَغْبِطُ الدليل بعيش ربّ عيش أخف منه الحامُ
كل حلم أتى بغدير افتدّار حجة لاجئ إليها اللئامُ
من يَهْنُ يَسْهُل الهوان عليه ما لجرح يميّت إيلامُ

(٣) ومن قصيدة في ذم إسحاق بن كَيْغَلُغ (وفيها الحكم والأمثال
المتوالية الآتية) :

ولقد رأيتُ الحادثات ؛ فلا أرى يَقَقًا^(١) يُمَيّتُ ، ولا سوادا^(٢) يَغْصِمُ
والهَمُّ يَخْتَرِمُ الجسيم نخافةً ويُشيبُ ناصية الصبي ، ويَهْرِمُ
ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة يَنعَمُ
والناس قد نبذوا الحِفَافَ ؛ فطُلِقَ يَنسى الذي يُؤلى ، وعاف يندمُ
لا يخذعَنَّكَ من عدوّ دمه وارحم شبابك من عدوّ ترحمُ

(١) أبيض شديد البياض : يريد : الشيب .

(٢) يريد : سواد الشعر ، كناية عن الشباب .

لا يسلمُ الشرف الرفيع من الأذى حتى يراقَ على جوانبه الدم^(١)
يؤذى القليلُ من اللثام بطبعه من لا يقل^(٢) كما يقلّ ويلوّمُ
والظلم من شيم النفوس؛ فإن تجد ذا عفةٍ فليعلِّ لا يظلم[—]

(٤) وقوله من قصيدة يمدح بها الحسن بن طنج :

من الحلم أن تستعملَ الجهلَ دونه إذا اتسعت في الحلم طُرُقُ المظالم
وأن ترِدَ الماءَ الذي شطره دمٌ فتسقى إذا لم يسقِ من لم يزاحم
ومن عرفَ الأيامَ معرفتي بها وبالناسِ رَوَى رُحْمَهُ غيرَ راحم

(٥) ومن قصيدة يمدح بها سيف الدولة (وجاءت الحكم التالية بها متفرقة) :

(أ) ومن صحب الدنيا طويلاً تقلبتُ على عينه حتى يرى صدقها كذباً
(ب) ومن تكن الأسدَ الضواري جدوده يكن ليله صبيحاً ، ومطعمه غصناً
(ج) ولست أبالي بعد إدراكى العلا أكان تراثاً ما تناولت أم كسباً
(د) أرى كلنا يبغى الحياة بسعيه حريصاً عليها ، مُستَهَامَها ، صَباً
نُخبُ الجبانِ النفسَ أوردَهُ التَّقى وحبُّ الشجاعِ النفسَ أوردَهُ الحرباً
ويختلف الرزقانِ والفعلُ واحدٌ إلى أن يرى إحسانُ هذا لِدَا ذنباً
(٦) ومن حكمه وأمثاله الأخرى :

(١) يهونُ على مثلى إذا رام حاجةً وقوعُ العوالى دُونها ، والقواضبِ
كثيرُ حياةِ المرءِ مثلُ قليلها يزولُ ، وباقي عمره مثلُ ذاهبِ

... ..

(١) قال ابن جني : أشهد بالله إن لم يقل غير هذا البيت لتقدم به أكثر المحدثين

(صبح ج ٢ ص ٣٦٩) .

(٢) أى : من لا يقل قدره ، ولا تنعبط درجته .

إذا لم تكن نفسُ النسيبِ كأصله فما الذي يُفنى كرامَ المناصبِ
(ب) وكل امرئ يولى الجميلَ مُحِبُّ وكل مكانٍ يُنبِتُ العزَّ طيبُ
(ج) تركنا لأطرافِ القنا كلَّ شهوةٍ فليس لنا إلا بهنٌ إهابُ
تَصْرِفُهُ للطعنِ فوقِ حواذِرِ قد انقصتُ فيهن منه كِتابُ
أعزَّ مكانٍ في الدُّنى سَرَجُ سابعٍ وخيرُ جليسٍ في الزمانِ كتابُ

* * *

(١) ومن حكم شوقي وأمثاله ما جاء متفرقا في قصيدة رحالة الشرق :

(١) ما الجاهُ والمالُ في الدنيا وإن حسنا إلا عَوَارِيٌّ حَظٌّ ، ثمَّ تَرْتَجِعُ
(ب) وكل بنيانٍ قوم لا يقوم على دعائمِ مصرٍ من رُكنِيَّةٍ مُنْصَدِعُ
(ج) وما البطولةُ إلا النفسُ ، تدفعُها فيما يُبَلِّغُها حمداً ؛ فتندفعُ
(٢) وفي قصيدة أبي الهول :

(١) أبا الهول ، ماذا وراء البقا إذا ما تطاول غير الضجر ؟
(ب) فإن الحياةَ تَقْلُ الحديدِ إذا لبسته ، وتُبْقَى الحجرُ
(ج) فيارب وجهٍ كصافي الندي رتشابهَ حامله والنمرِ
(د) فدع كل طاغية للزما فإن الزمانَ يقيم الصَّـمـرَ
(٣) وفي قصيدة الأندلس الجديدة :

(١) الدهر لا يألو الممالك مُنْذِراً فإذا غَفَنَ فما عليه ملامُ
(ب) ولقد يقام من السيوف وليس من عثرات أخلاقِ الشعوب قيامُ
(ج) ودعوا التفاخر بالتراث وإن غلا فالجد كسب ، والزمان عِصَامُ

(د) إِنْ الْغُرُورُ إِذَا تَمَلَّكَ أُمَّةً كَالزَّهْرِ ؛ يَخْفَى الْمَوْتُ وَهُوَ زُؤَامٌ

(٤) وَمِنْ حِكْمِهِ وَأَمْثَالِهِ فِي قِصَائِدٍ مُخْتَلِفَةٍ :

(أ) مَنْ سَرَّهُ أَلَّا يَمُوتَ فَبِالْعُـلَا خَلَدَ الرِّجَالُ ، وَبِالْفَعَالِ النَّبَاهُ

(ب) مَا مَاتَ مِنْ حَازِ الثَّرَى آثَارُهُ وَاسْتَقُولَتِ الدُّنْيَا عَلَى آدَائِهِ

(ج) وَالْمُسْتَعْمِرِينَ وَإِنْ أَلَانُوا قُلُوبُ كَالْحِجَارَةِ ؛ لَا تَرِقُّ

وَالْأَوْطَانُ فِي دَمٍ كُلِّ حَرٍّ يَدٌ سَلَفَتْ ، وَدَيْنٌ مُسْتَحَقُّ

وَمَنْ يَسْقَى وَيَشْرَبُ بِالْمَنَاهَا إِذَا الْأَحْرَارُ لَمْ يُسْقَوْا ، وَيَسْقَوْا ؟

وَلَا يَبْنِي الْمَمَالِكُ كَالضُّحَايَا وَلَا يُدْنِي الْحَقُوقَ ، وَلَا يُحَقِّقُ

فِي الْقَتْلِ إِلَى أَجْيَالِ حَيَاةٍ وَفِي الْأَسْرِ فِدَى لَهُمْ وَعِثْقُ

وَالْحَرِيَةِ الْحُرَّاءُ بَابٌ بِكُلِّ يَدٍ مُضَرَّجَةٍ يَدُقُّ

(وَفِي هَذِهِ الْأَبْيَاتِ الْأَخِيرَةِ قُوَّةٌ فِي نَوَاحِيهَا الْمُخْتَلِفَةِ)

(د) صَبْرًا عَلَى الدَّهْرِ ، إِنْ جَلَّتْ مُصَائِبُهُ إِنْ الْمَصَائِبَ شَمًا يَوْقُظُ الْأَتَمَّا

إِذَا الْمُقَاتِلُ مِنْ أَخْلَاقِهِمْ سَلِمَتْ فَكُلُّ شَيْءٍ عَلَى آثَارِهَا سَلِيمًا

وَإِنَّمَا الْأُمَمُ الْأَخْلَاقُ مَا بَقِيَتْ فَإِنْ تَوَلَّوْا مَضَوْا فِي إِثْرِهَا قُدُمًا

(هـ) مَا الْجِدُّ زَخْرَفَ أَقْوَالٍ تَطَالَعُهُ لَا يَدْرِكُ الْجِدَّ إِلَّا كُلُّ فَعَّالٍ

(و) مَا تَصْنَعُ الْيَوْمَ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُهُ غَدًا الْخَيْرُ وَالشَّرُّ مَثْقَالٌ مَثْقَالٌ

أخلاق الشعراء من شعرهما

وأثرهما في الحكم عليهما .

قد يبدو غريبا أن نعرض لأخلاق الشاعر ونحن في صدد دراسته ،
والحكم على شعره . ولكن هذا أمر لا مناص منه في الوصول إلى ما نريد ؛
لما للأخلاق من صلة وثيقة بالحكم ، وأثر واضح فيه ؛ فما الشعر إلا كلام في
ممتاز ، يتناقله الناس مشوقين ، شغفين بما فيه من فن رفيع ، وتميز ظاهر .
وهم لهذا يروونه ، ويحفظون منه ما يستطيعون ، ويرجعون إليه في المناسبات
المتلفة ، ويخضعون لوجيه في كثير من المواقف ؛ فكم أريحية جامدة تركتها
أبيات من الشعر ، وهزتها إلى الندى وجلال الأمور !! وكم شجاع حملة على
الإقدام ، أو صدّه عن الفرار — بيت من الشعر !! وكم محسن لم يستطع أن
يكفّ عن الإحسان بسبب بيت من الشعر ، أو أبيات تذكرها فدفعته إلى
حيث يريد قائلها !! وكم صاحب مروءة ، أو همة ، أو موهبة — تردد
في إظهارها ، أو همّ بتمثيلها ، فلم يحل بينه وبين ذلك إلا وحى الشعر المحفوظ .
فللشعر أثره في النفوس ، بل سلطانه عليها ، وقدرته على إخضاعها لوجيه ،
ولقد كان عند الأقدمين بمنزلة الصحف عندنا ؛ يذيع ، ويشيع ، ويتغلغل
بين مختلف الطبقات ؛ ينشر الآراء ، والمذاهب ، ويوجه الجماعات حيث يريد
ويشعل الفتن أو يطفئها ، ويبلبل الخواطر أو ينشر لواء الدعة والسكون ،
ويعلن الحماد والمساوى أو يخفيها . ولا يزال له حتى اليوم الكثير من تلك
الآثار . بل إنه بذيوعه ، وسرعة تنقله في عصرنا ، وما هيأت له المطابع ،

والمعاهد التعليمية ، والصحف السيارة من شيوع وتغلغل — نوع من الإذاعة العامة ، بل هو أقوى وأبقى ؛ ذلك أن الإذاعة تمرّ وتُنسى . أما هوفيستقر أطيئه في أعماق النفس ، وينقش في صحائفها ؛ فتذكره في مناسباته ، وتردده حين تهيجها الحوادث ، وتستعين بإرشاده على ما هي فيه . ولهذا كان الشاعر في الخير والشر قدوة ، وإن اختلفت درجة الاقتداء به والمحاكاة ، وكان الشعر جليل الخطر ، عظيم الأثر ؛ شأنه شأن الصحف والإذاعة ، بل هو أظهر ؛ فهو أداة قوية في إنهاض المهم ، ونشر المذاهب النافعة ، والآراء الفاضلة ، وإذاعة مكارم الأخلاق ، ومحاربة مساوئها . وقد يكون أكبر داعية للرديلة ، وأقدر ناشر للآراء المدمرة ، وأقوى أداة للهدم والإفساد . وقديما وحديثا عرف الناس له هذا ، وأطالوا الكلام فيه ؛ حتى صار الهود إليه بفيضاً لا حظاً له من جدّة ، أو إفادة ، أو استحقاق .

وإذا كان للشعر هذا الجلال وهذا الخطر الخلقى — فليس بمقبول ولا مستساغ أن نوازن بين شاعرَيْن ، وأن نتصدى للحكم على شعرهما — من غير أن نعرض لأخلاقهما التي انعكست على ذلك الشعر ، ونضحت فكان صورة منها ، وقبساً من خصائصها . وإني حين أعرض لأخلاقهما سأستمد الأوصاف من كلامهما ؛ لأنه المرجع الاوثق . ولن أعوّل — إلا بقدر — على كلام النقلة ، والرواة ؛ لما قد يتسرب إليهم من فتنون الهوى ، وضلال الرأي .

(١) المتنبي :

فأما أخلاق المتنبي فصورة من صور الأخلاق السيئة كما عرضها علينا ديوانه .

(١) فهو شاعر منافق ، كاذب ، يمدح حيناً ويذم حيناً بدافع خاص ، ونفع ذاتي ؛ فرائده في المدح والذم إرضاء نفسه ، وتحقيق مآربها ، وما ظلت بشاعر يفخره سيف الدولة الحمداني بمطايا وهباته ، ويرضيه ؛ فيعترف له بالفضل ، وبأن كل ما يملكه هو من عطايا ، ويقول فيه :
أسيرُ إلى إقطاعه^(١) في ثيابه على طرفه^(٢) ، من دارم بحُسامه
وما مطرَ تذييه من البيض والقنا ورُوم العبدى^(٣) ما طلات غمامه
فنى يهبُ الإقليمَ بالمالِ والقرى ومن فيه ؛ من فرسانه وكرامه
ويبالغ في الترف له ، ومراءاته فيقول :

ليت أنا - إذا ارتحلت - لك الخيلُ ، وأنا إذا نزلت الخيامُ
ثم يقع بينهما جفوة ؛ فيهجره إلى مصر ، ويهجووه حين يمدح
كافورا ، قائلا :

رأيتكم لا يصونُ العرضَ جاركُم ولا يدِرُ على مرعاكمُ اللبنُ
جزاء كل قريبٍ منكمُ مللٌ وحفظُ كلُّ محبٍ منكمُ ضغنُ
وتغضبون على من نال رِفدكمُ حتى يعاقبهُ التغيصُ ، والائنُ
وإن بُليتُ بودٍ مثل ودكمُ فإنني بفراقٍ مثله قمنُ

(١) الإقطاع : البلاد التي يمنحها الأمير ونحوه لمن يشاء . (٢) فرسه .
(٣) العبد .

عند الهام أبي المسك الذي غرقت
ويمدح كافورا أيضاً فيقول :

وأخلاقُ كافورٍ إذا شئتُ مدحه
إذا ترك الإنسانُ أهلاً وراءه
فتي يملأُ الأفعالَ رأياً ، وحكمةً
إذا ضربتُ بالسيفِ في الحربِ كفه
تزيد عطاياه على اللبثِ كثرةً
وإن لم أشأْ تُسلي عليَّ وأُكتبُ
ويَمِّمُ كافوراً فما يتغربُ
ونادرةً ؛ أيا نَ يَرْضَى وَيَغْضَبُ
تبينتُ أن السيفَ بالسكفِ يضربُ
وتَلَبَّتْ أُمُوهُ السماءَ فتنضبُ

ثم يقع بينه وبين كافور نفور فيقول فيه أشنع ما يقول إنسان ، ويلزم
المصريين جميعاً من أجله بقوله :

من أَيْةِ الطَّرْقِ يَأْتِي نَحْوَكُ الْكَرْمِ ؟
جَازَ الْآلَى مَلَكَتْ كِفَاكَ قَدَرَهُمْ
لَا شَيْءَ أَقْبَحُ مِنْ فُخْلِ لَهُ ذِكْرُ
سَادَاتِ كُلِّ أَنْاسٍ مِنْ نَفْسِهِمْ
أَغَابَةُ الدِّينِ أَنْ تَحْمُوا شَوَارِبَكُمْ
وَيَقُولُ فِيهِ وَفِيهِمْ :

إِنِّي نَزَلْتُ بِكَذَّابِينَ ، ضِيفَهُمْ
جُودُ الرِّجَالِ مِنَ الْإِيدَى ، وَجُودُهُمْ
أَكْلَمًا اغْتَالَ عَبْدَ السُّوءِ سَيِّدُهُ
عَنِ الْقَرَى وَعَنِ التَّرْحَالِ مُحْدُودُ
مِنَ اللِّسَانِ . فَلَا كَانُوا وَلَا الْجُودُ
أَوْ خَانَهُ فَلَهُ فِي مِصْرَ تَهْيِيدُ

صارَ الخَصِيَّ إِمَامَ الْآبِقِينَ بِهَا فَالْحُرُّ مُسْتَعْبَدٌ ، وَالْعَبْدُ مَعْبُودٌ
 نَامَتْ نَوَاطِيرُ^(١) مَعْرِ عَنْ ثَعَالِبِهَا فَقَدْ بَشِمَنْ^(٢) ، وَمَا تَقَنَّى الْعَنَاقِيدُ
 وَيَقُولُ :

لَقَدْ كُنْتُ أَحْسَبُ قَبْلَ الْخَصِيِّ أَنْ الرَّهْأَوْسَ مَقَرُّ الشَّهَى
 فَلَمَّا نَظَرْتُ إِلَى عَقْلِهِ رَأَيْتُ النِّهْيَ كُلَّهَا فِي الْخَصِيِّ
 وَمَاذَا بِمَعْرِ مِنَ الْمُضْحَكَاتِ وَلَكِنَّهُ ضَحِكَ كَالْبُكََا
 بِهَا نَبْطِي^(٣) مِنْ أَهْلِ السَّوَادِ يُدَرِّسُ أَنْسَابَ أَهْلِ الْفَلَا
 وَأَسْوَدُ مَشْفَرُهُ نِصْفُهُ يُقَالُ لَهُ : أَنْتَ بَدْرُ الدَّجَى
 وَيَقُولُ فِيهِ :

أَمِينًا ، وَإِخْلَاقًا ، وَغَدْرًا ، وَخِسَّةً وَجِبْنًا ؟ أَشْخَصًا لَحْتَ لِي أَمْ مَخَازِيَا ؟
 وَتَعْجِبْنِي رَجَالُكَ فِي النَّثْلِ ؛ إِنِّي رَأَيْتُكَ ذَا نَسْلِ إِذَا كُنْتَ حَافِيَا
 وَإِنَّكَ لَا تَدْرِي : أَلَوْكَ أَسْوَدٌ - مِنْ الْجَهْلِ - أَمْ قَدْ صَارَ أَبْيَضَ صَافِيَا
 وَمَنْ عَجِبَ أَنْ يَتَوَدَّدَ إِلَى سَيْفِ الدَّوْلَةِ بَعْدَ ذَلِكَ شَاكِرًا لَهُ هَدِيَّةَ أَرْسَلَهَا إِلَيْهِ
 فَيَقُولُ :

إِنْ تَبَوَّأْتُ غَيْرَ دُنْيَايَ^(٤) دَارًا وَأَتَانِي نَيْلٌ فَأَنْتَ الْمُنِيلُ
 مِنْ عَمِيدِي إِنْ شِئْتَ لِي أَلْفَ كَافُو رِي ، وَلِي مِنْ نَدَاكَ رِيفٌ وَنَيْلُ
 هَذِهِ صُورَةٌ مِنْ أَكَاذِيبِ الْمُتَنَبِّئِ ، وَتَقْلِبُهُ . وَلَا يَنْفَعُ فِي الْإِعْتِذَارِ عَنْهُ أَنْ نُرَدِّدَ
 قَوْلَ الْقَدَامِيِّ : (خَيْرُ الشَّعْرِ أَكْذَبُهُ) « وَالشَّعْرُ يَكْفِي عَنْ صِدْقِهِ كَذِبُهُ » .

(١) سادة عظماء .

(٢) امتلأت بطونهم .

(٣) يقصد ابن خنزابه وزير كافور . (٤) يريد : إن قصدت بلادا غير بلادك .

فلم يريدوا بهذا ما وقع فيه المتنبي ، وإنما أرادوا — كما أشرنا من قبل^(١) — :
(أن مقاييس الشعر لا تجري على حدود المنطق ، والقول المحقق الذي يقوم عليه
من العقل برهان يقطع به ، ويلجئ إلى موجهه ؛ إذ الشعر يكفى فيه التخمين ،
والذهاب بالنفس إلى ما تراتح إليه من التمليل . وبعيد أن يراد بالكذب
إعطاء الممدوح حظا من الفضل والسؤدد ليس له ، ويبلغه بالصفة حظا من
التعظيم يجاوز به من الإكثار محله^(٢) ...)

(٢) ومن عيوبه أنه نخور بل مغرور ، مُفَرِّط الزهو والادعاء ؛ فلا تكاد
تجد له قصيدة لا يثنى فيها على نفسه ، حتى حجب غروره وادعاؤه عن عيونه
عيوبه الكثيرة ، ومساويه الجملة :

استمع إليه يقول :

أىَّ محل أرتقى أى عظيم أتقى
وكل ما قد خلق الله وما لم يخلق
محتقر في همى كشعة في مفرق

ويقول :

إن أكن معجباً فعجب عجب لم يجد فوق نفسه من مزيد
أنا ترّب الندى ، وربّ القوافي وسمام العدا ، وغيط الحسود
أنا في أمّة تداركها الله غريب ؛ كصالح في ثمود

ويقول :

وما الدهر إلا من رواة قصائدى إذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا

(١) ص ٢٢٨ . (٢) أسرار البلاغة ص ٢٣٥ باختصار .

ويقول :

أُمِطْ عَنْكَ تشبيهي بما ، وكأنَّه فما أحدُ فوقِ ، ولا أحدٌ مثلي

ويقول أمام سيف الدولة :

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمنتُ كلماتي من به صممُ
أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جرَّاهها، ويختصمُ
وجاهل غرَّه في جهله ضحكي حتى أنته يذ فراسةً ، وفمُ
إذا نظرت نيوب الليث بارزةً فلا تظننَّ أن الليث ... مبتسم
فالخيل، والليل، والبيداء - تعرفني والضرب والطعن والقرطاس والقلم
كم تطلبون لنا عيباً فيمجزمكم ويكره الله ماتاتون ، والسكرم
ما أبعد العيب والنقصان من شرفي أنا الثريا ، وذان الشيب والهرمُ

وهل أدل على كذبه وغروره معاً من أن يخرج من مصر هارباً ،
خائفاً ، غاضباً من كافور ، فلا يزول عنه الذعر والفرع إلا بوصوله
للعراق ؛ فيقول :

فلما أنحنَّا رَكَزنا الرِّما حَ فوق مكارِ منا ، والعللا
وَبَدَّنا ؛ نُقْبِلُ أسِيا فَنَّا ونمسحُها من دماء العدا
لتعلم مصرُ ، ومن بالعراقِ ومن بالعواصم - أئى الفتى
وأنى وفيتُ ، وأنى أبيتُ وأنى عتوتُ على من عتا

فأين المكارم والعللا ممن يطوف بالممالك والأقطار وراء المنح والاستجداء ؟
وأين العدا ودماؤهم التي سالت على السيوف وقد خرج بليل هائماً خائفاً

يترقب ؟ وأين الوفاء والإباء من رجل قُلِّبَ ؛ يسقط كما يسقط الطير حيث يلتقط الحب ، لا يبالي بنزاهة الطَّعْمَةِ ، ولا شرف المورد ، ولا حلّ المتاع ؟ (ب) وهذا المدعى المغرور هو المستجدي الصَّفيق الذي يستعطف الملوك والأمراء لينجوه ولاية أوضيعة ، بل هو الذليل المهين الذي ينسى العزة والكرامة في أيسر صورها ؛ ليقف سائلا ، مادّا يده إليهم كي يمنحوه بعض المال ، بل مادّا يده إلى سيف الدولة الذي ضربه بالدواة في وجهه حين كان ينشد قصيدته التي مطلعها :

وَاحَرَ قَلْبَاهُ مِمَّنْ قَلْبُهُ شَبِيهُ . . .

فلم يغضب للضربة ، ولم يثر للكرامة والعزة ؛ بل قال :
إن كان سرکم ما قال حاسدنا فما لجرح - إذا أرضا کم - ألم
فرضى عنه سيف الدولة ، وأرضاه بألف دينار ، ثم ألف . فأنسته
الدنانير كل شيء وقال للأمير :

جاءت دنانيرك مختومة عاجلةً ألفاً على ألف
أشبهها فَعَلَّكَ في فيلَقٍ قَلْبَتُهُ صَفًّا عَلَى صَفٍّ

ويقول في بدر بن عمار مستجديا :

طلبنا رضاهُ بترك الذي رضىنا له ؛ فتركنا السجودا .

(٤) ثم هو رجل حقود ، ملاً الحقد نفسه ؛ فأفسد عليه حياته . فلا تراه إلا ساخطا على الدنيا ، برِّمًا بالناس ، ناقما على أهل النعمة والجاه ، داعيًّا إلى شفاء الأحقاد بدواء عجيب ؛ هو : حدُّ الظبابة ، ورموس
الرماح ؛ تسمعه يقول :

رمانى الدهر بالأرزاء ؛ حتى فؤادى فى غشاء من نبال
فصيرت إذا أصابتنى سهام تكسرت النصال على النصال

ثم يقول :

فروع الرماح أذهب للغيظ ، وأشفى لغل صدر الحقد

ويقول :

أذم إلى هذا الزمان أهيلهم فاعلمهم فدم ، وأحزنهم وغد
وأكرمهم كلب ، وأبصرهم عم وأسهدهم^(١) فهذ ، وأشجعهم قرد
ولقد بلغ به الحقد القتال حد الشامة بعدو له مات (هو : إسحاق
ابن كيفلغ) فقال يهجوّه حين سمع نعيه : ناسياً أن الموت يذهب بالأحقاد
أو يخفيها إلى حين :

قالوا لنا : مات إسحاق . فقلت لهم : هذا الدواء الذى يشفى من الحُمق
إن مات مات بلا فقد ولا أسف أو عاش عاش بلا خلق ولا خلق
ووقف يرثى « فاتكا » عدو « كافور » ؛ فتعرض فى الرثاء لدم « كافور »
أشنع تعرض ، حيث يقول :

قبحاً لوجهك يا زمان ؛ فإنه وجه له من كل لؤم برقع
أيموت مثل أبى شجاع فاتك ويعيش حاسده الخصى الأوكع
أيد مقطعة حوالى رأسه وقفأ يصيح بها : ألا من يصنع ؟
أبقيت أ كذب كاذب أ بقيته وأخذت أ صدق من يقول ويسمع
وتركت أنتن ريحة مذمومة وسلمت أ طيب ريحة تتضوع

(١) أ كثرهم سهادا . والفهد مشهور بكثرة النوم .

(٥) وهو بخيل غاية البخل ، حريص على المال أشد الحرص ؛ يجود بحميائه وإيائهم في سبيل الوصول للدرهم ، ثم يُحرِّم على نفسه إنفاقه ، وقد يرتكب أكبر الجرائم في سبيل الاحتفاظ به . وهل أدل على ذلك من أن يقتل غلامه لأنه سرق بعض ماله ، ومن القصة الآتية التي رواها بعض الأدباء^(١) قال :

« أذكر ليلة وقد استدعى سيف الدولة بَدْرَةَ ؛ فشتمها بسكين ، فد ابن خالويه طيأسانه فحشا فيه سيف الدولة بعضاً ، ومددت ذيل ذراعى فحشا لي بعضاً . والمتنبى حاضر ، وسيف الدولة ينتظر منه مثل ما فعلنا ، فما فعل . فغاضه ذلك ، فنثرها كلها على الغلمان . فلما رأى المتنبى أنها قد فاتته زاحم الغلمان يلتقط معهم ؛ فغمزهم عليه سيف الدولة فداسوه ، وركبوه ، وصارت عمامته في رقبتهم . فاستحى ، ومضت به ليلة عظيمة وانصرف . فخطب ابنُ خالويه سيف الدولة في ذلك . فقال : أيتعاضم تلك العظمة ، وينزل تلك المنزلة لولا حماقته ؟

وقال الخوارزمي^(٢) : كنت عند المتنبى وقد أحضر مالا بين يديه من صلات سيف الدولة ، على حصير قد فرشهُ ؛ فوزنه ، وأعيد إلى الكيس ، وتخللت قطعة كأصغر ما يكون بين خلال الحصير ؛ فأكب عليها بمجامعهم ليستخلصها منه ، واشتغل عن جلسائه حتى توصل إلى إظهارها ، وأنشد قول قيس بن الخطيم :

تَبَدَّتْ لَنَا كَالشَّمْسِ تَحْتَ غَمَامَةٍ بَدَا حَاجِبٌ مِنْهَا ، وَضَنَّتْ بِحَاجِبِ

(١) أبو الفرج البغاء . والقصة في ص ١٠٥ من كتاب أبو الطيب المتنبى لكمال حامي بك .
(٢) في الكتاب السابق والصفحة .

ثم استخرجها . فقال له بعض جلسائه : أما يكفيك ما في هذه الأكياس حتى أدميت إصبعك في هذه القطعة ؟ فقال إنها تحضر المائدة !!

(٦) وهو بذىء القول ، سليط اللسان ، يهوى في شتائمه إلى درك ليس وراءه قحّة ، ولا فحش ، ولا تبذل . وقد نشرنا بعض سبابه في ضبّة^(١) وغيره ممن أسخطوه ؛ فقال فيهم مالا يقوله سوقى أصيل .

(٧) ومع أن القارىء لا يقع في ديوانه على ما يدل على قوة الإيمان ، وصدق اليقين ، فإنه قد يرى فيه ما يدل على الاستهتار ، ويحمل على الاتهام وخدش العقيدة ؛ إذ يبالغ في مدح بعض الناس ، فيفضلهم على الخلق كافة ، حتى الأنبياء ، كقوله في سيف الدولة :

إن كان مثلك كان ، أو هو كائن فبرئت حينئذ من الإسلام .
وقوله في محمد الأوسى :

لم يخلق الرحمن مثل محمد
أحدًا ، وظنى أنه لا يخلق
ويقول في بدر بن عمار :

لو كان علمك بالإله مقسمًا في الناس ما بعث الإله رسولاً
أو كان لفظك فيهم ما أنزل القرآن ، والتوراة والإنجيل

تلك بعض أبياته التي تدل على جرأته واستهتاره . أما سواها — مما أخذه عليه الناقدون — فليس صريحاً في اتهامه وتجريح عقيدته . وله فيه منادح لإزالة الشبهة عنه ، وتبرئته مما اتهم به . على أن ادعاء النبوة كافٍ وحده في الحكم عليه بسوء العقيدة ، وفساد اليقين . وقد سئل عن هذا الادعاء ؟ فقال : كان في عهد الحداثة . ولكن هذا قد يزيل عنه التهمة الكبرى

« تهمة النبوة » ويترك بعض آثارها لاحقا به ، ولا سيما إذا جاء شعره خاليا من الدعوة للدين ، والحض على احترامه ، والإشادة بالأنبياء والأئمة ، وما يتصل بهذه النواحي الكريمة .

وإني أميل إلى القول بأن المتنبي ليس ملحدا ولا زنديقا ، وذلك لأن شعره خال مما يصلح دليلا قاطعا أو شبه قاطع على هذا الاتهام القاسى . أما الأبيات السالفة وأشباهها من المبالغات ، وادعاؤه النبوة التي رجع عنها — فنوع من الجرأة والاستهانة التي عرف بها المتنبي للوصول إلى غاياته ؛ لا يبالى في ذلك بما ينفرد به لسانه . وهذا عيب لا مرية فيه . ولكن فرّق بين الزندقة والعيب وإن كان شديدا ؛ فالعيب نقص أو خطأ وقع فيه صاحبه من غير أن يعتمد به الخروج على الدين ، أو تغيير أصوله وقواعده العامة . وليست كذلك الزندقة والإلحاد . فمن الإنصاف القول بأن شعره — وإن خلا مما يدل على قوة إيمانه ، ورسوخ عقيدته — قد خلا مما يدل على الغضب من الدين ، أو تحقيره ، أو إظهار الكراهة له . بل خلا من كل ما يحض على الرذيلة ، ويدعو إلى الخلاعة والجون . فقد كانت حياة المتنبي حياة جد ، وصرامة ، وطموح ؛ فجاء شعره صورة منها ، ومصدقا لها ؛ فلست تقع فيه على لهوٍ أو لعبٍ أو صغار^(١) .

(٨) وقد بقي من أخلاقه السيئة أنواع أخرى ؛ كالجبين ، وعدم العناية بنفسه ، ومظهره . ولا سيما نظافة ثيابه ؛ وتلك عيوب تمالأت عليها الروايات والأخبار ؛ كما حملت إلينا أنه كان لا يصوم ، ولا يصلى ،

(١) بالرغم من أن أفعاله تخالف هذا .

ولا يقرأ القرآن^(١) . ويدل شعره على أنه كان يحترق الخمر أحياناً ، فقد شربها في مجلس محمد بن طافع ، وهم بالهوض حين ضاقت نفسه ، وثقل رأسه ، قائلاً :

يا من رأيت الحليم وغداً وحُرَّ الملوك عبداً
مالاً على الشراب جدّاً وأنت بالملكومات أهدي
فإن تفضلت بانصرافي عدته من لدنك رفاً

وكذلك في مجلس بدر بن عمار فأراد الانصراف قائلاً :

نال الذي نلتُ منه مني لله ما تصنع الخمر
وذا انصرافي إلى محلي أأذنُ أيها الأمير

وفي شعره ما يوحي بأنه كان يشرب الخمر مكرهاً ، لا استجابةً لنفسه ؛ وإنما إرضاءً للأمير ، أو كبير ، فقد سمعناه يقول حين عرض عليه بدرُّ الصعبة والشرب في غد :

وجدت المدامة غلابةً تهيج للقلب أشواقه
تسيء من المرء تأديبه ولكن تحسن أخلاقه
وأنفس ما للفتى لبُّه وذو اللب يكره إنفاقه
وقد ميتٌ أمس بها موةً ولا يشتهي الموت من ذاقه

إلى هنا عرف المتنبي في أخلاقه السيئة التي نتم عليها شعره . أما المتنبي في صفاته الحميدة التي ينم عليها شعره أيضاً (دون فعله) فهو الشاعر الحكيم ، الهاتف

بالهزّة ، والأنفة ، الداعى إلى القوة ، والإباء ، وطرح الاستجداء ، المنادى بمقاومة الظلم ، ومحاربة الاستعباد ، القائل (وإن لم يفعل) :

- (١) عِشْ عَزِيزًا ، أُوْمِتْ وَأَنْتَ كَرِيمٌ بين طعن القنا ، وخفق البنودِ
(٢) ذَلَّ مَنْ يَغْبِطُ الذَّلِيلَ بَعِيشَ رب عيشٍ أهونُ منه الحمامُ
(٣) وَشَرَّ الْجَمَامِينَ ^(١) الزَّوَامِينَ ^(٢) عَيْشَةُ يَذِلُّ الذِّى يَخْتَارُهَا وَيُضَامُ
(٤) وَلَا تَحْسَبَنَّ الْجَدَّ زَقًّا ، وَقِيَمَةٌ ؛ فالجُدُّ إِلَّا السِّيفُ وَالْفَتَكَةُ الْبِكْرُ
وَتَرَكْتَ فِي الدُّنْيَا دَوِيًّا ؛ كَأَنَّمَا تداولُ سَمْعِ الْمَرْءِ أَمَلُهُ الْعَشْرُ
(٥) وَمَا الْخُوفُ إِلَّا مَا تَخَوَّفَهُ الْفَتَى وَلَا الْأَمْنُ إِلَّا مَا رَأَاهُ الْفَتَى أَمْنًا
(٦) لَوْلَا الْمَشَقَّةُ سَادَ النَّاسُ كُلُّهُمْ الجودُ يَفْقَرُ ، وَالْإِقْدَامُ قِتَالُ
(٧) ذِكْرُ الْفَتَى عَمْرُهُ الثَّانِي ، وَحَاجَتُهُ مَا فَاتَهُ ، وَفُضُولُ الْعَيْشِ أَشْغَالُ
(٨) وَلَا تَشَاكَّ إِلَى خَلْقٍ ؛ فَتَشْمِتُهُ شكوى الجريحِ إِلَى الْغُرْبَانِ وَالرَّخَمِ
(٩) وَإِلْتَمَتْ تَحْتَ السِّیُوفِ مَكْرَمًا تمت ، وَتَقَاسَى الذِّلَّ غَيْرَ مَكْرَمِ
(١٠) فَثِيبٌ وَاثِقًا بِاللَّهِ وَثْبَةً مَا جَدِ يرى الموتُ فِي الْهَيْجَا جَنَى الْفَحْلِ فِي الْفَهْمِ
(١١) لَيْسَ التَّعَلُّلُ بِالْأَمَالِ مِنْ أَرَبِي وَلَا الْقِنَاعَةُ بِالْإِقْلَالِ مِنْ شِمْي
(١٢) ذَرِينِي أَنْزِلْ مَا لَا يُنَالُ مِنَ الْعَمَلِ

- فصعبُ العَلَا فِي الصَّعْبِ ، وَالسَّهْلُ فِي السَّهْلِ
(١٣) تُرِيدِينَ لِقِيَانِ الْمَعَالَى رَخِيصَةً وَلَا بَدَّ دُونَ الشَّهْدِ مِنْ إِبْرِ الْفَحْلِ
(١٤) وَمَنْ طَلَبَ الْفَتْحَ الْجَلِيلَ فَإِنَّمَا مفاتيحه الْبَيْضُ الْخُفَافُ الصَّوَارِمِ

(١) الموت الحقيقى ، وموت الذل والمهانة . (٢) العاجلين المبكرين .

وما أكثر هذا وأشباهه في ديوانه !! وما أكثر أن ترى فيه الدعوة إلى العنف ، واستخدام القوة في نيل المطالب !! على حين ينادى شوقى بغير هذا ويردد — حتى عيب عليه التردد — قوله :

لا تطلبوا حقكم بغيا ولا صلفاً ما أبعد الحق عن باغ ومختال !!

(ب) شوقى :

لا نرى في ديوان شوقى — على طوله ، وكثرة قصائده ، وتنوع موضوعاته — ما يחדش الفضيلة ، أو يسىء إلى الخلق الكريم . وليس هذا بالوصف الدقيق . إنما الوصف الدقيق أن نقول إن شوقى لم يدع فضيلة إلا دعا إليها ، ولا خلقا كريما إلا حضَّ عليه ؛ فلم يقنع بالرضا القلبي ، أو الصمت السلبي ؛ بل قرن ذلك بالقول المردد ، والدعوة القوية الصريحة . نعم إنى لا أعلم نصيبه من العمل بما يقوله ، وبما يدعو إليه . ولكنى أعلم أن شعره قد امتدح أمهات الفضائل ، وقبح مساوئها ؛ فنادى بطاعة الله ، واحترام الدين ، وحب الوالدين ، والوطن ، واتحاد أبنائه ، واحترام العلماء ، وإكبار السلف ، والمطف على الفقراء ، ومساعدة المحتاجين ، وتأييد الحق ، ونصر أهله ، واجتناب الأذى باليد واللسان وسائر الأعضاء ، ومدح الأخيار الأبرار ، وترك الخنى ، وقول الزور ، وأنواع الإساءة والأذى ... فوق ما نادى به من طلب العلوم قديمها وحديثها ، والفنون والآداب شريقها وغربها ، والتسلح للحياة بسلاح العصر الحديث ، والعناية بالمسادة والروح معا ، واقتباس ما يلائمنا من الحضارات المختلفة . مع اعتزازه بدينه ، ومصريته ، وعروبته ، وشرقيته . وغير هذا مما يدل أقطع الدلالة على أنه قام بمهمة الشاعر على وجه لا يدانيه المتنبى ، وأنه أدى رسالته الأدبية (الخاصة والعامة بوصفه شاعرا إنسانيا وشاعرا مصريا عربيا) على خير نهج . لم يسبقه إليه شاعر عربى .

وهل نحن في حاجة إلى ما يؤيد هذه الدعوى بعد تلك الشواهد والأمثلة التي عرضت في مناسبات كثيرة سابقة ؟

على أنا نسوق أمثلة أخرى ، منها قصيدته التي أهداها إلى الأمير الناشئ (إذ ذاك) « محمد عبد المنعم » وعنوانها « رسالة الناشئة » . إنها خير دستور للتربية ، وأعلى إرشاد يحرص على اتباعه من يطلب الدين والدنيا معا . وفيها يقول له ناصحا ؛ في خفة لفظ ، ووضوح معنى ، وعبارة تناسب الناشئين :

اعبد الله بعقلٍ يا بني وبقلبٍ من رجاء الله حي
ارجهُ تعطّ مقاليد الفلك واخشه خشية من فيه هلك
ومنها :

(١) آمناً بالله إيمان العجوز	إن غير الله عقلاً لا يجوز
(٢) كن إلى الموت على حب الوطن	من يخن أوطانه يوما يخن
وطن المرء حياه المقتدى	يذكر المنّة منه ، واليـدا
قد عرفت الدار والأهل به	كل حب شعبة من حُبّه
هو محبوبك بادٍ محتجب	يعرف الشوق له من يغترّب
لك منه في الصبا مهدٌ رحيم	فإذا ووريت فالقبر الكريم
كم عزيزٍ عندك استودعته	وعهود بعدك استرعيته
ودفين لك فيـه كرمًا	تذرف الدمع لذكره دما
(٣) إن للإقدام ناساً كالأسد	فقتبته ؛ إن من يقدم يسد
(٤) قل إذا خاطبت غير المسلمين :	لكو دينٌ رضيتم ، ولّى دين
خلّ للديان فيهم شأنه	إنه أولى بهم ؛ سبحانه

- (٥) واعمل الخير ؛ فإن عشت اتي
من يمت عن منة عند يقيم
- (٦) جامل الناس تحزُّ رق الجميع
عامل الكل بإحسان تحبُّ
وتجنب كل خلق لم يرقُّ
(٧) يامدِّم الصوم في الشهر الكريم
وإذا صليت خف من تعبد
واجعل الحج إلى أم القرى
(٨) وتسمَّح وتوسَّع في الزكاة
فرض البر بها فرض حكيم
(٩) ويقول في قصيدة معالي العباد :
وصن لغة يحق لها الصَّيان
وكان الشعب ليس له لسان
(١٠) وخذ لغة المعاصِر ؛ فهي دُنْيَا
كما نقل الغراب ؛ فضل مشيّا
ويقول في الوطن أيضا :
- (١) وطني لو شغلت بالخلد عنه
(ب) ولالأوطان في دم كل حرّ
(هـ) وجانب من الثرى يدعى الوطن
نازعني إليه في انخلد نفسي
يد سلفت ، ودين مستحق
ملء العيون ، والقلوب ، والفطن
... الخ القصيدة التي موضوعها : الوطن .
- طيب الحمد ، وإن مت بقي
فرحيم سوف يُجزَى من رحيم
رب قدير من جميل وصنيع
لقديما جَل المرء الأدب
إن ضيق الرزق من ضيق الخلق
صم عن الغيبة يوما والنميم
كم مصلّ ضج منه المسحّد
غيب حج اميتوت الفقرا
إنها محبوبة عند الإله
فإذا ما زدت فالله الكريم
خير مظاهر الأمم البيان
غريبا في مواطنه ، مضيا
ولا تجعل لسان الأصل نسيا
وما بلغ الجديد ، ولا القديم

(١١) الدين لله ؛ من شاء الإله هَدَى
ما كان مختلفُ الأديان داعيةً
الكتبُ والرسلُ والأديانُ قاطبةً
(١٢) ويخاطب الترك فيقول :

تَحْلِكُمُ مصرُ منها في ضمايرها
فمنحن إن بعدت دارُ وإن قرُبَتْ
ناهيك بالسبب الشرقي من نسبٍ
(١٣) ويقول في جيراننا الشرقيين :

رب جارٍ تَلَفَّتْ مصرُ تَوَلَّى سؤَالَ الكَرِيمِ عن جيرانه
بِعَثْتِي مَعْرِيًا بِمَا قَى
وطني ؛ أو مهنتنا بلسانه
كان شمري الغناء في فرح الشر
ق ، وكان المزاء في أحزانه
قد قضى الله أن يُوَلِّفَنَا الجُر
ح ، وأن نلتقي على أشجانه
كَلِمَا أن بالمرَاقِ جَرِيح
لَمَسَ الشرقُ جنبه في عُمانه
(١٤) ويقول :

ونحن في الشرقِ والفصحى بنورِ رحمٍ
وكنُ الممالكِ ، صدرُ الدولةِ الحالى
أبى لها الله أن تمشى بأغلالٍ
ما تَقْدِرُ النفسُ من حُبٍّ ، وإجلالٍ
وأن يبين على الأعمالِ إتقانُ
لطلب فيه إصلاحٌ ، وعمرانُ
(١٥) العلم في فضله ، أو في مفاخره
إذا مشت أمةٌ في العالمين به
يقلُّ للعلم عند العارفين به
(١٦) المَلَأَتْ أن تعملوا ما استطعتمو عملاً
المَلَأَتْ أن تخرج الأموالَ ناشطةً

الملك تحت لسان حوله أدبٌ وتحت عقل على جنبه عرفانٌ
الملك أن تتلاقوا في هوى وطن تفرقت فيه أجناسٌ ، وأديانٌ
(١٧) ويقول في العرب :

الله — جل ثناؤه — بلسانهم خلق البيان ، وعلم الأمثالا
وتخير الأخلاق أحسنها لهم ومكارم الأخلاق منه تعالى
(١٨) ويقول في الفن :

الفن ربحانُ الملوك ، وربما خلدوا على جنباته أسماء
لولا أياديه على أبنائها — لم نلف أجد أمة أبناء
جرّد من الفن الحياة وما حوت تجد الحياة من الجمال خلا
نمض الحضارة في الممالك كلها تجري السلامة ، أو يدقّ الداء
إن صَحَّ فهي على الزمان صحيحةٌ أوزاف كانت ظاهراً وطلاء
إلى غير ذلك مما قاله في شؤون الدين والدنيا معاً ؛ فمن الصلاة ، والزكاة
والحج ، ومدح الرسول^(١) — إلى موضوعات اقتصادية ، وسياسية ، وعمرانية
مختلفة ... وكان في هذا كله نزيها ، نقيا ، بعيدا عن الملق ، والكذب ،
والتقلب ، واهتبال الفرص للمغنم الخاص ، والاستفادة الشخصية يشترها
بالحياء ، وبالكرامة ، وإهدار الحقوق العامة ، ومنافع الوطن .

* * *

على أن المتتبع لديوانه يلاحظ فيه أموراً ثلاثة قد تجرح الخلق الكريم ،
وتخدش الفضيلة هوناً ما ؛ هي : الزهو ، والتحلل أو التسامح في بعض القيم

(١) وله في مدحه قصيدتان شهيرتان ؛ هما : نهج البردة ، والهمزية ؛ وقد بلغنا من الجودة
الأدبية والإتقان الفني ما لم تبلغه مدحة أخرى . فوق ما اشتملنا عليه من سيرة
الرسول ، وتحليل شريعته ، والكشف عن محاسنها وأسرارها العجيبة .

الخلقية . والمواربة أو المداجاة في شئون الحكم والسياسة ونحوها مما يمس
الولاية ، والزعماء ، وأصحاب السطوة والنفوذ .

فأما الزهو فلم يبلغ فيه مبلغ المتنبي ، ولا قريباً منه . وكل نصيبه أن يجعل
نفسه شاعر مصر ، أو شاعر الأمير ، وأنه كجريد ، أو المتنبي ، أو البحتري ؛
أو حسان ، أو غيرهم . فكبار الشعراء غاية . وقد يصرح بأنه يفوق بعضهم ،
يقول في قصيدة المرقص وقد تحدث عنه غانية :

تسأل أترابها مُؤمَّنةً بالقنم
أى فتى ذلكن^١ العربى العلم
يشربها ساهراً ليلته لم ينم
قلن تجاهلته ذلك رب القلم
شاعر مصر الذى لو خفى النجم لم ...

ويقول فى وصف ليلة راقصة أخرى بعابدين :

خفَّ كأسها الحبيبُ فهى فضة ذهبُ
يا نديمُ خفَّ بها لأكبا بك الطربُ
لا تقل عواقبها فالعواقبُ الأدبُ
تنجلى لى خلقُ ينجلي وينسكبُ
يرقب الرفاقُ له كلما سرى شربوا
شاعرُ العزيز وما بالقليل ذا اللقبُ
يا عزيزُ دام لنا روض عرك الأشبُ
هذى عروسُ نهى فى القبول ترثب^(١)

زفها لكم وجيلاً شاعر الحمى الأرب

احتفى الحضور بها واكتفى بها الغيب^(١)

أنتم الظلال لنا والمنازل الخصب

لو مدحتكم زمني لم أقم بما يجب

وقوله يصف عجزه عن وصف حال السلطان عبد الحميد بعد سقوطه عن

عرش الخلافة : —

أنا إن عجزت فإن في بردي أشعر من جرير

خطب الإمام على النظميم يعز شرجا والنشير

ويقول في استقبال أم الحسين (والدة الخديوي عباس) بعد غيبة طويلة

في تركيا :

لا تروى غير شعري موكباً إن شعري درجات الخالدين

كل حمد لم أصفه زائل خالد الحمد بما صنعت رهين

ويكلم عن الخديوي إسماعيل فيقول :

قد خط شعري على الشورى له جدثاً وخاط من لآلئ الشمس أكنانا

ولومشت بي الليالي تحت موكبه غادرت أحمد^(٢) نسيّاً وابن حمدانا^(٣)

... ..

وعلى الرغم من هذا وأشباهه مما يقع فيه جمهرة الشعراء ، نرى التفاتاً بعيداً

بين المتنبي وشوقي في هذه الناحية ؛ فإن شوقي لم يبلغ فيها معشار ما بلغه صاحبه

الذي أوغل حتى بز فيها كل شاعر آخر .

* * *

وأما التحلل والتسامح في بعض القيم والقيود الخلقية فظهره عند المتورعين الصراحة الجريئة في بعض غزله وخبرياته ، ووصف مبادله التي قد تُغرى بمحاكاته ، وتدفع الغرّ ، ومن لا تجربة له إلى مجاراته . على أن تلك الصراحة قد تكون معبرة عن الواقع ، وقد تكون وليدة الفن الشعري ، وصنيفة الخيال ، ولا تمت إلى الواقع والصدق بصلة ، ولا تعدّو أن تكون كلام شاعر يصف ما لم يقع ، ويقول ما لم يفعل ، ولا يحلوا الشعر بغيرها ، وإن كان أكثر شعر المتنبي قد عرّا منها .

(١) من ذلك قوله متغزلاً (وفي البيت الأخير ما يخفف الملامة) :

لى حبيبٌ كلما قيل له	صدّق القول ، وزكى الريبا
كذب العذالُ فيما زعموا	أملّى في فاتني ما كذبا
لو رأونا والهوى ثالثنا ! !	والدجى يُرخى علينا الحجبنا
في جوار الليل في ذمّته	نذكر الصبح بالألّا يقرّبا
ملء بردينّا عفافٌ وهوى	حفظ الحسن وصنّت الأدبا

وقوله يصف ليلة لاقى فيها حبيبته عند إحدى السواقى :

في ليلةٍ من ليالى الدهر طيبة	نحا بها كل ذنبٍ غيرٍ مفتقر
لا أكذب الله ؛ كان النجم رابعنا	لو يذكرُ النجمُ بعد البدر في خبر
وأنصفتنا ؛ فظلم أن نجازيها	شكوى من الطول ، أو شكوى من القصر
دع بعد ريقه من تهوى ومنطقه	ما قيل في الكأس أو ما قيل في الوتر

وأوضح من هذا قوله في الغزل أيضاً :

لم أدّر ما طيبُ العناقِ على الهوى	حتى ترقى ساعدى فطواك
وتأردت أعطافُ بانك في يدي	واحرّ من خفريهما خدّاك

ودخلت في ليلين : فرعك والدجى
ولثمت كالصبح المنور فاك
وقوله في الخمر :

إذا ما الكأس لم تذهب هموى
فقد تبت يد الساقى ؛ وتباً
على أنى أعف من احتساها
وأكرم من عذارى الدير شرها
ولى نفس أرويتها ، فتركو
كزهو الورد ؛ ندوة فهبا
ويقول في قصيدته التى يصف بها المرقص الذى أقيم بقصر مولاه الخديوى
عباس بهابدين :

ساقى الطالا شرها وجب
هاتها مشت فوقها الحقب
با بليقة تنفث الحبيب
إن كرمها آدم العنب
هذبت فى دنها الأدب
اسقها فتى خير من شرب

ولهذا أشباه فى قصائد أخرى .

(٣) ويقول فى قصيدة باريس :

يا غاب بولون ولى ذمم عليك ، ولى عهد
زمن تقضى للهوى ولنا بظلك هل يعود ؟
هلا ذكرت زمان كئنا والزمان كما نريد
نطوى إليك دجى اليا لى ، والدجى عنا يذود
فنقول عندك ما نقو لى ، وليس غيرك من يعيد

نُطْفِي هَوَى ، وَصَبَابَةً وَحَدِيثَهَا وَتَرَةً ، وَعُودُ
نَسْرِي ، وَنَسْرَحُ... فِي فُضَا نَكِ ، وَالرَّيَاحُ بِهِ هُجُودُ
وَالطَّيْرُ أَقْعَدَهَا الْكَرَى وَالنَّاسُ نَامَتْ ، وَالْوُجُودُ
فَنَبِيتُ فِي الْإِيْنَسِ يَنْبُطُنَا بِهِ النُّجُومُ الْوَحِيدُ
فِي كُلِّ رَكْنٍ وَقْفَةً وَبِكُلِّ زَاوِيَةٍ قَعُودُ
نَسْتَقِي وَنُسْتَقِي ، وَالْهَوَى مَا يَبِينُ أَعْيُنُنَا وَلَيْدُ
..... الخ

وأما مواربته ومداجاته — وقد يبلغان حد الجبن أحيانا — فمظهرهما أن تقع الأحداث السياسية الخطيرة في البلاد ، فينتقل الملك من فرع علوى (نشأ وترعرع في ظله شوقى) إلى فرع آخر ، وتضطرع الأحزاب السياسية في مصر ، وتشتد الجفوة بينها ؛ فتتقسم البلاد لأجلها ، وتقع المذابح ، والمهالك بسبب ذلك — فلا تسمع من شوقى إلا كلاما غامضا ، أو نصيحا عاما ؛ لا يتجه فيه إلى رأى صريح ، ولا مذهب واضح . وليس من الحق أن يقال إنه كان يتجنب تأريث النيران المشتعلة ، وإمدادها بوقود يزيد لها لهبا وإحراقا ؛ فما الشراء ، والعلماء ، وأشباههم — إلا منائر للإرشاد السافر ، ومعالم للهداية الوضأة . فإذا تخلّوا عن مهمتهم — ولا سيما ساعة الشدة ، وحين البأس — فقد أساءوا ، وقصّروا ، بل أجزموا .

لقد خلع الإنجليز الخديو عباس في بدء الحرب العالمية الأولى ، وحرّموا عليه دخول بلاده ، وولّوا مكانه السلطان حسين كامل ، وأعلنوا الحماية على مصر وحكموها بالأحكام العرفية ، وأطلقوا يدهم في أموال الدولة ، ورجلها ،

وسائر مراقفها — كما سبق — فماذا قال أمير الشعراء في هذه المصائب ؟ لقد استقبلها بقصيدته التي نفي بعدها ، والتي عنوانها : السلطان حسين ، ومطلعها :

الملك فيكم آل إسماعيل لا زال بيتكم يُظِلُّ النيل

والتي يقول فيها :

سبحان من لا عزَّ إلا عزُّه يبقى ، ولم يك ملكه ايزولا .

لا تستطيع النفس في ملكوته إلا رضا بقضائه ، وقبولا

الخير فيما اختاره لعباده لا يظلم الله العباد فتيلا

ويقول :

يا أهل مصر ، كلوا الأمور لربكم فالله خير موئلا ووكيلا

جرت الأمور مع القضاء لغاية وأقرها من يملك التجويلا

ومضى في كلام مبهم كهذا ؛ لا يعرض فيه لولى نعمته الخديوى السابق ،

ولا يذكر ما أصابه وأصاب البلاد كلها من طغيان الإنجليز وعدوانهم على

هذى البلاد المسالمة الوداعة ، بل ربما امتدحهم في بعض أبياتها كما أشرنا

من قبل .

وكان قصارى جهده في خلاف الزعماء ، واصطراع الأحزاب ، وفيتك

بعضها ببعض — أن قال أبياتا متفرقات أو مجتمعات ؛ يتلمس لها مناسبات

مختلفة ، فينفث النفثة يروِّح بها عن نفسه ، ويختبئ وراء الكلام المرسل ،

والنصح المبهم ، كقصيدته التي قالها في ذكرى مصطفى كامل ، ونشرنا

بعضها فيما سبق ، وأولها :

إلام الخلف بينكمو ؟ إلاما ؟ وهذى الضجة الكبرى علما

وفيم يكيد بمضكمو لبعض وتبدون العداوة والخصاما ؟
وأين الفوز ؟ لا مصر استقلت على حال ، ولا السودان داما ؟
تراميتهم ؛ فقال الناس : قوم إلى الخذلان أمرهم ترامى .
وكانت مصر أول من أصبتهم فلم تحصى الجراح ولا السكلاما .

.....

وكذلك الشأن في الأحداث الجسام الأخرى التي حلت بالبلاد عقب
تلك الحرب ، وبعد أن عاد شوقي من منفاه ؛ وما أجّلها حوادث وأقساها !!
وما كان أحقها برأى صريح من شوقي ، وتسجيل فيه عبرة ، وموعظة ،
وذكرى !! لكنه — والأسفاه — لم يفعل .

الحكم الأخير

بسطنا القول في هذين الشاعرين العظيمين ، ودعمناه بما يؤيده من أمثلة مختلفة ؛ تزيل عنه سحب الشك والريب ، وتدفع به إلى اليقين أو ما يشبهه قوة ، وصحة ، وإقناعا . وآخر ما نختم به الرأي ، ونتوج به أدلة الحكم كلمتان قيلت إحداهما في المتنبي ، وقيلت الأخرى في شوقي ، وما أصدقهما !!
(١) فأما الأولى^(١) (وهي لأحد الأدباء القدامى) فقد تضمنت وصفا دقيقا ، صحيحا المتنبي وشعره ؛ حيث جاء فيها :

(إنه يجمع بين البديع النادر ، والضعيف الساقط ؛ فبينما هو يصوغ أوفر حلى ، وينظم أحسن عقد ، وينسج أنفاس وشئ ، ويختال في حديقة ورد — إذا به قد رمى بالبيت والبيتين في أبعاد الاستعارة ، وتفويض^(٢) اللفظ ، وتعقيد المعنى . إلى المبالغة في التكلف ، والزيادة في التعمق ، والخروج إلى الإفراط والإحالة ، والسفسفة ، والركاكة ، أو التبرد والتوحش ؛ باستعمال الكلمات الشاذة . فمحا تلك الحاسن ، وكدر صفاءها ، وأعقب حلاوتها مرارة لا مَساغ لها ، واستهدف لسهام العائبين ، وتحكك بأسنة الطاعنين . فمن متمثل بقول القائل :

أنت العروسُ لها جمالٌ رائعٌ لكنها في كل يوم تُضَرَعُ
ومن مشبه إياه بمن يُقدِّمُ مائدةً تشتمل على غرائب المأكولات ،

(١) وردت في الجزء الثاني من الصبح ص ٤١ على هامش العكبري .

(٢) قد يكون المراد : اختلاط صفات اللفظ واضطرابها ؛ فلم يظهر لبعض الألفاظ ماله من خصائص وتحديد ومميزات .

وبدائع الطيبات ، ثم يتبعها بطعام وَضِرٍ ، وشرابٍ عَكِرٍ . ومن يتبخَّرَ
بالنَّدِّ المعشِبِ ، المثلث^(١) المركب من العود الهندى ، والمسك الأصهب ،
والعنبر الأشهب . ثم يزهقه^(٢) بإرسال الريح الخبيثة ، ويفسده بالرائحة
الكرهية ...) .

بل إنه ليحكم على نفسه بنفسه ؛ فقد روى الثعالبي أنه عوتب آخر أيامه على
تراجع شعره فقال : « تَجَوَّزْتُ فى قولى ، وأعفيت طبعى ، واغتيمت الراحة
منذ فارقت آل حمدان ... »

ونحن نعلم أنه قضى مع آل حمدان قرابة تسع سنوات قال فيها نحو ثلث
شعره ؛ فالثلثان — إذا — مصنوعان ، معيبان ؛ كما يفهم من كلمته .
ومن كان هذا شأنه فليس بأسبق الشعراء إلى زعامتهم ، ولا أحقهم
بالإمارة عليهم .

(ب) وأما الأخرى : فهي من وصف الدعاة الذين نادوا بتكريم شوقى ،
ومبايعته بالزعامة الأدبية ، فاستجابت الأمم العربية لدعوتهم
وفيها يقولون^(٣) ...

« لَقَدْ جَاءَ شَوْقِي ، وَالْعَرَبِيَّةُ تُمَعِّنُ فى إِدْبَارِهَا ؛ حَتَّى أُوفِتَ عَلَى
« الزَّوَالِ ؛ بِمَا تَشَايَعَ عَلَيْهَا وَعَلَى بِلَادِهَا مِنْ أَحْدَاثِ جِسَامٍ ؛ فَتَقَلَّصَتْ
« الْمَعَانِي ، وَأَسَفَ الْكَلَامُ ، وَضَاقَ مَأْثُورُ الْبَيَانِ بِمَطَالِبِ الْعَصْرِ ، »

(١) أى : الذى يكون تركيبه من ثلاثة أشياء . وقد ذكرها بمد .
(٢) فى الأصل : يريقه : وهى مقبولة : وقد يكون الأنسب : يزهقه .
(٣) باختصار .

« وَضَاقَتْ مَطَالِبُ الْعَصْرِ بِمَا ثَوَّرَ ذَاكَ الْبَيَانَ . وَكَذَلِكَ فَرَّقَ الدَّهْرُ »
 « بَيْنَ الْعَرَبِ ، وَلُغَتِهِمْ ، وَأَصْبَحُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا أَحَدَ رَجُلَيْنِ ؛ »
 « رَجُلٌ يَغْدُو إِلَى جَلِي حَاجَاتِهِ فِي غَيْرِ لُغَتِهِ ، وَآخَرُ يَخْوضُ لُغَتَهُ »
 « فِي غَيْرِ حَاجَاتِهِ . وَهَلْ كَانَ أَذَلَّ لِأَعْنَاقِ الْأُمَمِ ، وَأَضْيَعَ لِمَعَارِفِ »
 « حَيَاتِهَا — مِنْ أَنْ تَسْعَى بِغَيْرِ لُغَةٍ ؟ وَأَنْ تَقْنَعَ مِنْ لُغَتِهَا بِمَا »
 « لَا يُؤَانِي حَاجَاتِ عَصْرِهَا مِنْ فَنُونِ الْبَيَانِ ؟ »

« نَعَمْ . لَقَدْ تَوَاضَعَتْ هَذِهِ اللُّغَةُ ، وَانْقَبَضَتْ عَنْ تَنَاوُلِ كَثِيرٍ »
 « مِنْ أَغْرَاضِ الْعَصْرِ ؛ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ فِي دِيَارِ الْعَرَبِيَّةِ رَجُلًا تَشْرُوا »
 « عَلَى حُكْمِ دَهْرِهِمْ ؛ بِمَا زَوَّدَهُمْ مِنْ عِبْتَرِيَّةٍ ، وَجَلِيلِ مَوْهَبَةٍ ؛ فَمَا »
 « ضَعُفُوا لِهَذِهِ الْعِلَّةِ ، وَلَا اسْتَسْكَانُوا لِتِلْكَ الدَّلَّةِ ؛ بَلْ مَضَوْا فِي الْعَزْمِ »
 « الْجَبَّارِ ؛ يَبْعَثُونَ لُغَتَهُمْ بَعَثًا يَجْمَعُ بَيْنَ جَدِيدِ الْمَعَانِي فِي قَدِيمِ »
 « الْبَيَانِ ، وَأَوَّلِيكَ الَّذِينَ لَمْ يَهَيِّئْهُمْ عَصْرُهُمْ لِمَا أُدْرِكُوا مِنْ عَظَمَةِ »
 « وَمَجْدٍ ؛ بَلْ هُمُ الَّذِينَ هَيَّئُوا عَصْرَهُمْ لِمَا أُدْرِكُ مِنْ مَجْدٍ »
 « وَسُلْطَانٍ . وَفِي طَلِيعَةِ هَؤُلَاءِ الْفَاتِحِينَ : أَمِيرُ الشُّعَرَاءِ »
 « أَحْمَدُ شَوْقِي بَك »

« شَوْقِي » ، وَمَنْ أَوْلَى بِقَدْرِ « شَوْقِي » مِنْ بَيَانِهِ ؟ وَمَنْ أَقْدَرُ »
 « عَلَى بَيَانِ شَوْقِي مِنْ بَيَانِهِ ؟ « شَوْقِي » يَصْدَحُ مِنْ ثَلَاثِينَ سَنَةً »
 « فَمَا بَقِيَتْ عَلَى فَنٍّ فِي كُلِّ بِلَادِ الْعَرَبِيَّةِ وَرَقَاهُ لَمْ تَهْتِفْ عَلَى »

« أَنْفَامِهِ ، وَلَمْ تَسْجَعْ عَلَى شِعْرِهِ وَنِظَامِهِ . فَإِذَا أَطْرَبَ بِالْقَوْلِ هَزَارُ »
« وَصَدَحَ بِلَبْلُ بِبَدِيعِ الْأَشْعَارِ — فَشَوْقِي : « هُوَ الطَّائِرُ الْمَحْكِيُّ »
« وَالْآخِرُ الصَّدَى » .

« وَبَعْدُ : فَإِذَا كَانَتْ الْأُمَمُ مَدِينَةً لِعُظَمَائِهَا بِمَا يَنْفَسَحُونَ لَهَا »
« فِي نَوَاحِي الْعُظْمَةِ وَالتَّمَكُّينِ فِي الْأَرْضِ — فَمَا أُحَرَى الْعَالَمَ »
« الْعَرَبِيَّ أَنْ يَذْكَرَ هَذِهِ الْيَدَ لِأَمِيرِ الشُّعْرِ !! وَإِذَا جَرَتْ الْأُمَمُ »
« عَلَى تَخْلِيدِ أَبْطَالِهَا فَمَا أُخْلِقَ شَوْقِي بِهَذَا الْخُلُودِ !! »

« يَا بَنِي الْعَرَبِ . مَا كَانَ فَضْلُ شَوْقِي مَقْصُورًا عَلَى مِصْرٍ وَحْدَهَا »
« فَإِنَّهُ شَاعِرُ الْعَرَبِيَّةِ جَمْعَاءَ . وَإِذَا كَانَتْ عُبْقَرِيَّتُهُ حَقًّا لِلْجَمِيعِ فَقَدْ »
« وَجَبَ أَنْ يَكُونَ تَكْرِيمُهُ حَقًّا عَلَى الْجَمِيعِ » .

« يَا بَنِي الْعَرَبِ . هَذَا « شَوْقِي » الَّذِي ظَلَّ يَجْلُو عَلَى الْبَيَانِ »
« لُغَتَكُمْ خَمْسًا وَثَلَاثِينَ سَنَةً ؛ فَأَعْلَى مَنَارَهَا ، وَأَعْلَى آثَارَهَا ، وَأَعَزُّ »
« أَهْلُهَا ، وَأَنْصَارَهَا » .

« هَذَا « شَوْقِي » الَّذِي جَادَ بِهِ الزَّمَانُ عَلَى هَذَا الْعَصْرِ ؛ »
« وَإِنَّ الزَّمَانَ بِمِثْلِهِ لَبَخِيلٌ » . فَجَدَّدَ لِلْعَرَبِيَّةِ كَرِيمَ إِهَابِهَا ، »
« وَنَشَرَ مَطْوِيَّ آدَابِهَا ، وَفَسَحَ لَهَا بَيْنَ الْأَعْيَانِ مَكَانًا عَلِيًّا » .

« وَإِنَّ لِهَؤُلَاءِ الْعُبْقَرِيِّينَ — بِمَا قَدَّمُوا لِقَوْمِهِمْ — لَدَيْنَا يَلْحَقُ »
« كُلُّ فَرْدٍ ، وَيَشْغَلُ كُلُّ ذِمَّةٍ . وَمَنْ أَوْلَى مِنْكُمْ يَا بَنِي الْعَرَبِ »
« بِالْوَفَاءِ ؟ »

« وَإِنَّ اللَّيْجَنَةَ لَتَرْفَعُ هَذِهِ الدَّعْوَةَ إِلَيْكُمْ ؛ طَامِعَةً أَنْ تَكُونِ »
« حَنَلَةٌ تَكْرِيمِ شَوْقِي مُؤْتَمَرًا تَتَجَلَّى فِيهِ عَظَمَةُ الْأَدَبِ ، كُفُّوا أَيْدِي »
« شَوْقِي ، وَجَدِيرًا بِقَدْرِ الْعَرَبِ . . . » وقد استجابت لها بلاد العروبة جميعاً .

* * *

وأختم البحث بما بداؤه به ؛ إذ قلت ^(١) : لو أن سائلاً طلب إلى أن أرشده
إلى شاعر عربي يستغنى به عن غيره ويكتفى بشعره عن كل شعر — ما ترددت
أن أرشده إلى « شوقي » . ولو جاز لبعض المثقفين والطلاب — ممن
ضاق وقتهم وعجزت وسائلهم — أن يقتصروا على شاعر عربي واحد ما كان
غير شوقي .

الفهرس

الموضوع	رقم الصفحة
بيان : (يشمل الفرض من تأليف الكتاب ، إماره شوقى على شعراء عصره ، معنى إمارته الأدبية ، عمومها على شعراء عصره ومن سبقوهم ، الموازنة بينه وبين المتنبي ، سببها ، وأقوم الطرق لها . وقوع الموازنة بين معاصرين أو مختلفي العصر . الدراسة الفردية والجمعية . مقاييسها . . .) وسائل الرأى عند القدماء ، آراؤهم فى المتنبي . كيف تكون الموازنة ؟	١ ٨ ١٦
(١) الشاعر ، رسالته ، نصيب المتنبي وشوقى منها :	١٨
(١) ترجمة المتنبي بإيجاز .	٢٣
ما يستخلص منها ، نواحي التقصير وعدم التقصير فى رسالته الأدبية . ما نريده منه ومن الشعراء . أمثلة من شعره .	٢٥
(ب) ترجمة شوقى بإيجاز . ما يستخلص منها . نصيبه فى أداء الرسالة الأدبية . أمثلة من شعره .	٤٠
* * *	
(٢) الألفاظ وما يتصل بها ؟ حظ الشعارين منها :	٥٥
أفضلية اللفظ على المعنى ، أو العكس . أدلة كل رأى . رأى . رأى الجرجاني ومناقشته .	٦١
السبب فى جحود فضل الألفاظ .	٦٥

الموضوع	رقم الصفحة
الرأى فى المعنى الشريف والخسيس .	٦٧
عودة إلى الألفاظ وأوصافها . أمثلة مختلفة .	٦٨
ما وسائل الحكم عليها ؟ فضل القدماء .	٧١
علوم البلاغة العربية وأهميتها ، سبب التنكر لها . واجبنا .	٧٢
الأوصاف الحميدة للكلمة والكلام .	٧٨
قلة توفيق المتنبي فى ألفاظه ، أمثلة .	٨١
العجب من ذلك . وكلام العلماء والأدباء فيه ، وأمثلتهم .	٩٥
طبيعة المتنبي ، وأثرها فى ذلك .	١٠١
نماذج طيبة من ألفاظ المتنبي .	١٠٢
ألفاظ شوقى ومحاسنها .	١٠٤
نماذج متعددة منها .	١٠٥
هفواته اللفظية ، وأمثلة منها .	١١٠
هفوات لفظية أخرى (استخدام القديم ... تغليب الرقة ... طول بعض الكلمات ... قلق بعض الكلمات والقوافى ...) أمثلة .	١١٦
طرافة الألفاظ وخصوصيتها ، أخطاء الشاعر وضروراته ، ومبلغ قدرته على استخدام الأصول اللغوية والمحسنات البلاغية فى حدودها . . .	١٢٢
(١) تفصيل الكلام على الطرافة والخصوصية .	١٢٣
نصيب المتنبي من الطرافة والخصوصية . أمثلة كثيرة .	١٢٥
نصيب شوقى منهما . أمثلة كثيرة .	١٣٠

الموضوع	رقم الصفحة
(ب) تفصيل الكلام على الأخطاء والضرورات والأصول اللغوية والمحسنات البلاغية .	١٣٥
أخطاء المتنبي . مناقشتها . أمثلة .	١٣٧
الرأى فى أخطاء شوقى وضروراته . أمثلة .	١٤١
الكلام فى المحسنات البلاغية .	١٤٨
نصيب المتنبي منها .	١٤٩
من أكبر عثراته : خشونة اللفظ ، وجمود الطريقة . معناها ، أمثلة .	١٥٣
أنواع أخرى من عثراته .	١٥٧
الكلام على سرقاته . أمثلة .	١٦٢
المطالع والاستهلال ، قيمتهما .	١٦٨
حظ المتنبي منها .	١٧٠
حظ شوقى منها .	١٧١
أمثلة من مطالع المتنبي الجميلة .	١٧٢
» » » » الرديئة .	١٧٣
نصيب شوقى من إرضاء البلاغة والبلاغيين . أمثلة .	١٧٧
كلمة عن التشبيه فى شعر شوقى . أمثلة .	١٧٨
براعته فى الجمع بين الوصف والمزايا .	١٨١
قد يُعذر المتنبي ولا يُعذر شوقى	١٨٣

الموضوع	رقم الصفحة
مآخذ بلاغية وقع فيها شوق . أمثلة .	١٨٤
سرقاته . أمثلة .	١٨٦
مطالعه الجيدة . . .	١٨٨
وقفة عند مطلعين قيل إنهما معيبان . والرأى فيهما .	١٩٠
مطالعه الواهية . أمثلة .	٢٠١
* * *	
(٣) المعانى وما يتصل بها . أوصاف المعانى الجيدة :	٢٠٦
حظ المتنبي من المعانى الجيدة . آراء بعض الأدباء والناقدین فى معانيه	٢٠٩
أمثلة من معانيه المعيبة .	٢١١
فتور العاطفة فى شعره .	٢٢٢
بعض آخر من عيوبه المعنوية . ومنها المبالغة . . .	٢٢٧
ضآلة بعض معانيه ، وتفاهتها .	٢٣٧
إلحاحه على بعض المعانى الشائعة . نصيبه من توفية المعانى ومن	٢٤٠
الفلسفة والمنطق .	
صور من معانيه الناضرة .	٢٤٦
معانى شوقى وما يتصل بها ، وضوحها ، أسباب غموضها أحيانا	٢٥١
أمثلة .	
خيال شوقى فى قصائده .	٢٦٣
طرافة معانيه ، واستقامتها ، ومناسبتها .	٢٦٦

الموضوع	رقم الصفحة
بعض مآخذ .	٢٦٧
حظ شوقى من توفية المعانى ، والمنطق ، والفلسفة .	٢٦٩
التماس المعاذير للشعراء فى إهمال التوفية ونواحى المنطق والفلسفة .	٢٧٢
العاطفة فى شعر شوقى . أمثلة .	٢٧٤
شعره الخالى من العاطفة ، الأسباب والأمثلة .	٢٧٨
عيبان آخران : (المبالغة ، والتفاهة) .	٢٧٩
* * *	
(٤) الموضوعات والأغراض التى عالجها الشاعران ، طريقتيهما فى ذلك :	٢٨٣
(١) كيف عالج المتنبي الموضوعات من حيث الشكل .	
(ب) » » » الشعر من حيث الموضوع . وتفصيل ذلك .	
الظواهر التى تبدو فى الغرض الأصيل .	٢٨٨
(١) المديح ، وبعض عيوب المتنبي فيه . أمثلة .	٢٨٩
شعر المديح ، وهل أساء للأدب العربى ؟	
بعض طرائقه فى المدح .	٢٩٦
(ب) الهجاء :	٢٩٧
عيوب المتنبي فيه .	٢٩٨
ذاتية الهجاء العربى .	٣٠٢
(ح) الرثاء :	٣٠٣
عيوب المتنبي فيه . أمثلة .	٣٠٣

الموضوع	رقم الصفحة
(د) الغزل :	٣٠٦
تقصير المتنبي والشعراء فيه .	٣٠٦
عيوب الغزل في شعر المتنبي .	٣٠٧
محاسن » » » »	٣٠٩
باقى الأغراض الشعرية عند المتنبي والرأى فيها بإيجاز .	٣١٠
صور من شعره الجميل فى وصف الحرب وغيرها .	٣١١
» » » المتهافت .	٣١٣
كلمة عن فخره . وأمثلة .	٣١٥
شوقى فى موضوعاته . محافظته على الشكل والموضوع .	٣١٧
(ا) تفصيل الكلام على الشكل . أمثلة	
مشهد موجز من رواية كليوباترة .	٣٢١
(ب) تفصيل الكلام على الموضوع . أمثلة .	٣٢٢
ملاحظات عامة على الغرض الأساسى :	٣٢٦
(ا) المديح فى شعر شوقى . . . عيوبه ومحاسنه . أمثلة .	٣٢٦
(ب) الهجاء فى شعر شوقى ، وأنواعه ، وعيوبه ومحاسنه . أمثلة	
الرأى فى هجاء شوقى .	٣٢٩
(ح) الرثاء فى الشوقيات ، الرأى فيه . أمثلة .	٣٤١
موازنة قصيدة بين مرثية المتنبي وأخرى لشوقى .	٣٤٦

الموضوع	رقم الصفحة
(د) الغزل . نوعاه . الحكم عليهما . أمثلة .	٣٥٠
(هـ) الوصف .	٣٦١
مكانة شوقي فيه . ملاحظات على شعره الوصفى ، والحكم عليه . أمثلة متعددة .	
كلمة عن موضوعاته الأخرى (غير السبعة الماثورة) .	٣٧٣
أغانيه . قيمتها وأهميتها . أمثلة .	٣٧٤
أناشيده ، منزلتها .	٣٧٦
قصص الأطفال وحكاياتهم . أهميتها ، وأمثلة لها .	٣٧٧
قصصه المسرحية . فضلها وآثارها .	٣٨٠
المزاح والخصوصيات .	٣٨١
نثر شوقي . قيمته . نماذج منه .	٣٨٢
نثر المتنبي والرأى فيه .	٣٨٥
* * *	
(هـ) الحكمة التي اشتهر بها الشاعران :	٣٨٦
أثرها في شعرهما . أسبقية المتنبي فيها .	
الفرق بين الشاعرين فيها ، وكيف كانت سبب شهرة المتنبي .	٣٨٧
أمثلة من حكم المتنبي .	٣٩١
أمثلة من حكم شوقي .	٣٩٤
* * *	
أخلاق الشاعرين من شعرهما .	٣٩٦
أهمية الأخلاق في الحكم على الشاعر .	

الموضوع	رقم الصفحة
(١) أخلاق المتنبي مستمدة من شعره . نفاقه ، كذبه ، غروره ، استجدائوه ، حقدده ، بخله (وأثره في إهائته والغضب من قدره) . سفاهته . ضعف إيمانه ، الرأى فى زندقته . نقائص خلقية أخرى ، كالجن ، وإهمال المظهر . . . بعض أبياته الخلقية القوية .	٣٩٨
(ب) شوقى . فضائله مستمدة من شعره . بعض عيوبه . (الزهو ، التحلل من بعض القيم الخلقية ، المداجاة) . كلمة عن كل . أمثلة	٤١٠
* * * الحكم الأخير على الشاعرين .	٤٢٢